أمثال ونماذج بشرية من القرآن العظيم

تأليف

أحمد بن محمّد طاحون

الكتاب الرابع

مكتبة التراث الإسلامي
شارع الجمهورية - عابدين ت : ٣٩١١٣٩٢

« حقوق الطبع محفوظة للمؤلف »

الطبعة الأولى
١٤١٤ من الهجرة
١٩٩٤ من الميلاد

مكتبة التراث الإسلامي

٨ شارع الجمهورية عابدين القاهرة ت : ٣٩١١٣٩٧ فاكس : ٣٩١٣٤٠٦

بسم الله الرحمن الرحيم

„ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ
وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ „

العنكبوت : ٤٣

* * *

„ ولقد ضربنا للنَّاسِ في هذا القُرْآنِ
مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لعلَّهم يَتَذَكَّرُون „

الزمر : ٢٧

للمؤلف

* مرشد الدعاة إلى الله (دراسة وتطبيق).
* رياض الفالحين ومنار السالكين.
* أمثال ونماذج بشرية من القرآن العظيم.
«الكتاب الأول، والثانى، والثالث، والرابع والخامس»
* أخرج كتاب الشكر للإمام ابن أبى الدنيا من علماء القرن الثالث من الهجرة مع زيادات وتعليقات وتعريف بالمؤلف وعصره.
* الكوكب المنير فى أدب النفس وتهذيب الضمير.
* هداية المريد لتحصيل معانى كتاب: «تجريد التوحيد المفيد» للإمام المقريزى (طبعة منقحة ومزيدة).
* الفائق فى الأخلاق والتربية [تنقيح وتلخيص كتاب فضل الله الصمد شرح «الأدب المفرد» للإمام البخارى].
* أذكار ودعوات مباركات.
* إلى البرهان يا أولى الألباب.
* مع القرآن الكريم.
* سليمان الحكيم وبلقيس ملكة سبأ ودروس وعبر من النملة والهدهد.
* يوم الفرقان.
* فى فجر الإسلام «عرض قصصى».
* زاد الأتقياء من وصايا الأنبياء.

رسائل

* كيف نربى ناشئتنا؟
* طوبَىٰ للغرباء.
* المخدرات شرٌّ مستطير.
* من حِكَم التحريم بالرضاع وأحكامه.
* الرجل والمرأة «الحقوق والواجبات».
* أم القرآن «من أحكامها وبركاتها».

تحت الطبع

* الزهور النديّة فى «خصائص وأخلاق خير البرية»: .«تلخيص وتهذيب المقصد الثالث من كتاب المواهب اللَّدنـيَّة بالمنح المحمدية» للإمام القسطلانى.
* فى أنوار سورة الفرقان.

بسم الله الرحمن الرحيم

«الكتابُ مُفيدُ عِلْمِ مَنْ سَبَق باقٍ لِمَن خلَفَ».
«عِلْمُ الرجُلِ ابنهُ الباقى بعده».
«روضةُ العِلْمِ أَزْيَنُ مِن روضةِ الرَّياحين».
«حِكَم مأثورة».

تمهيد

اللهمَّ لكِ الحمدُ كلُّه، ولك الملكُ كلُّه ، وبيدك الخيرُ كلُّه ، وإليك يرجعُ الأمر كلُّه علانيتُه وسرُّه.

أهلُ الحمدِ أَنت لا إلهَ إلاّ أنت ، أسألك يا إلهى التوفيق والسداد ، وأن تغفر لى ذنوبى ، وتستر عيوبى ، وأن تعصمنى فيما بقى من عمرى وأن تعيننى بفضلك على عمل تَرضىٰ به عَنّى ، يا رحمٰن يا رحيم.

أمّا بعد:

فإنه بحمد الله وتوفيقه قد تم إصدار ثلاثة الكتب الأولى «فى مجلدين» من هذا الكتاب «**أمثال ونماذج بشرية من القرآن العظيم**» وقد بدأ تأليف الكتاب الرابع فى جمادى الآخرة من عام ١٤١١ من الهجرة (نوفمبر من عام ١٩٩٠ من الميلاد) وتواصل العمل بفضل الله وإحسانه إلى أن تم الفراغ من الكتاب الخامس أيضا فى شهر شعبان من عام ١٤١٣ من الهجرة (يناير من عام ١٩٩٣).

إن الأمثال فى القرآن الكريم ـ كما جاء فى مقدمة الكتاب الأول ـ لون من ألوان الهداية الإلهية ، تحضُّ النفوس علىٰ البر ، وتغريها بالهدىٰ والخير ، أو تردعُها عن الإثم والسوء ، أو تدفعها إلى فضيلة ، أو تدفع عنها شائنة ، أو تمنعُ

نقيصة ، وقد تضمنت من الحكم والأحكام وأنواع الهداية ما لابدَّ منه لبناءِ النفس الإنسانيةِ بناءً سليمًا ، ودفعِها فى مدارج الكمالِ الإنسانىِّ بجانبيه الروحى والجسدى.

لذا فإن الأمثال من أفضل السبل للتربية ، وتقويم المسالك ، وإصلاح النفوسِ، وَصقْلِ الضمائِر ، وتهذيبِ الأخلاقِ ، وتنميةِ الفضائل السامية.

وإن المعلمَ والمربِّىَ والمحدِّث والواعظ والناصحَ والخطيبَ: لا غنى لأحد منهم عن الأمثال ، فهى وسيلةُ ترغيبٍ وترهيب ، وتوضيحٍ وإفهامٍ ، وفيها إقناعٌ وإمتاعٌ وفيها الحكمُ الغاليةُ ، والأحكامُ النافعةُ ، والتصويرُ البديعُ الذى يُثير الشوق ويجذب القارئَ والسامعَ ، وتجعلُ المعانى أكثرَ وضوحًا ، والتأثير بها أقوى فى النفس ، وأثبتَ فى القلب.

وقد كان النبىُّ ﷺ وهو قدوةُ المربِّين يضربُ الأمثالَ لزيادة البيان ، ولتنبيه العقْلِ ، وإثارة الشوق ، وتقريب البعيد ، ولقياسِ الغائبِ بالحاضر ، ولِجعْلِ المدرَكِ بالعقل مألوفٌ ومعلومٌ بالطبع ، وما زالت الأمثالُ القرآنية ، والأمثالُ النبوية نورًا يهدى ، وضياءً يُرشد ، ونبعًا فياضًا بالحكمة والهداية والتبصيرِ والتنويرِ.

وقد تضمنت الكتبُ الخمسة ـ والحمد لله ـ بعضَ الأمثال النبوية فهو ﷺ لا ينطقُ عن الهوى إن هو إلا وحْىٌ يُوحَى : ﴿وَمَآ ءَاتَٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾(١) . وسنتهُ ﷺ هى المصدرُ الثانى للتشريع ، ومنزلةُ الحديثِ النبوىِّ تَلى منزلةَ القرآنِ الكريم ، فهو يبين ما وَرَد فى القرآن مُجملاً ، وجاء الحديثُ فى الأغراض التى جاء من أجلها القرآن متممًا له ، شارحًا لما أُجْمِلَ منه مُفصِّلاً لما ورد فيه ، وهو فى منزلةٍ عاليةٍ من البلاغة ، وذخيرةٌ علميةٌ وأدبيةٌ وتربويَّةٌ قيمةٌ ، وقد كان للنبىِّ ﷺ تعبيراتٌ فنيةٌ جديدةٌ ، فيها إيجازٌ وقوةُ إيحاءٍ وثراءٌ فى المعانى ، وهى حكمٌ نفيسة ، وصارت أمثالاً سائرةً تَهدى وترشدُ منها:

---

(١) الحشر:٧

«مِن حُسْن إسلامِ المرءِ تَرْكُه مَا لا يَعْنيه».

ومثل: «الآن حَمِىَ الوَطِيسُ. وهُدْنةٌ عَلى دَخَن. وهذا يومٌ له ما بَعْده. وإنَّ من البيان لَسِحْرًا» وكثير من أمثال ذلك ، فقد أُوتىﷺ جوامع الكلم.

أرجو ـ الأخ القارئ ـ أن يعود إلى مقدمات الكتب الثلاثة الأولى ،وسيجد فى مقدمة الكتاب الثانى والثالث توضيحًا لمنهج الكتاب فى التقسيم ، وطريقة البحث، ولقد اشترك الكتابان الرابع والخامس مع إخوتهما فى وضوح المنهج ، وتوخِّى السهولة ، وطريقة التقسيم من حيث: الإشارةُ إلى اسم السورة عند تناول المثلِ أو القصةِ أوالشخصية ، وتسلسلُ الأرقام ، وطريقتُهما ، فالأرقامُ الحسابيةُ بجوار العناوين تُرشِدُ إلى عددِها فى الكتب الخمسةَ أى من : (١ : ٢٦١) وقد رُقمت صفحات كل كتاب على حِدَة ، وزيد فى الكتب من الثانى إلى الخامس رقم آخر يربطها بالكتاب الأول أى من (١ : ١٧٤٧)

أرجو أن تجد فى هذا الكتاب: علمًا نافعًا ، وحكمةً هاديةً ، وحجاجًا عقليا يقنع ، وتصويرًا بديعًا يُمتع ، ونورًا يرشد بفضل الله وإحسانه وأسأل لأخيك حُسْنَ الخاتمة ، والرحمةَ ، والمغفرة.

أما الترقيم الأبجدى مثل (أ، ب، ج، د، هـ) فهو خاصٌّ بالبحث الذى يدور حول قطب واحد فى ضوء مثل أو قصة أو تحليل نفسية ، مع إلقاء ضوء على بعض ما اشتملت عليه السورة الكريمةُ أحيانًا سعيًا نحو الغاية المنشودة ، وهى استخلاص العبر والعظات أو الحكَم أو الأحكام ، والمعانى التى ترغِّبنا فى خير يُجتنَى ، وتنفرنا من شرٍّ لنبعتد عنه.

اللهم اغفر لى وارحمنى ، واغفر لوالدىّ وارحمهما كما ربيانى صغيرًا.

أحمد بن محمد طاحون

جدة فى عام ١٤١٣ من الهجرة
١٩٩٣ من الميلاد

١٦٧ - يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا

سورةُ الزلزلةِ مدنيةٌ ، وآياتُها ثمانٍ ، تضمَّنت الترهيبَ والترغيبَ ، قيل إنها نزلتْ لإزالة ما وقَع فى بعض النفوسِ من أن الخيرَ القليلَ لا ينظرُ اللهُ إليه ، ولا يُجازِى عليه ، وكذلك الصغائرُ من الذنوبِ ليست بشىءٍ يُلام عليه: كالكذْبة والنَّظْرةِ ونحوِ ذلك ، فأزالتْ السورةُ شُبهتَهم وكشفتْ عنهم وَهْمَهم ، وعرَّفتهم أن لا شىءَ من عملِ الإنسانِ يفوتُه: فالخيرُ يجازَى بالخير مهما صغُر ، والشرُّ يَلْقى جزاءَه من الشرِّ مهما نَزَر.

وهذه السورةُ الكريمةُ تنبِّه العبادَ ، وتوقظُ من الغفلة والرقاد وفضلُها كثير ، وتحتوى على أمر عظيم ، وقد جاء من حديثٍ غريب عند الترمذى عن أنس: أن رسول الله ﷺ قال: «مَن قرأ ﴿إِذَا زُلْزِلَتْ﴾ عَدَلَتْ له بِنصْف القرآن». وفى الباب عن ابن عباسٍ مثلُه ، وفى الحديث الذى رواه علىُّ بنُ أبى طالب: «من قرأ ﴿إِذَا زُلْزِلَتْ﴾ أربعَ مراتٍ كان كمَن قرأ القرآنَ كلَّه» ووجْهُ كونِها تَعْدلُ نصفَ القرآن: أنَّ أَحكامَ القرآنِ تنقسمُ إلى أحكام الدنيا وأحكامِ الآخرة ، وهذه السورةُ تشتملُ على أحكام الآخرةِ إجمالا ، وزادت على القارعة بإخراج الأثقالِ ، وبحديثِ الأخبار ، أمَّا وجْهُ كونها رُبعَه ، فيرجعُ إلى أن الإيمان بالبعْث الذى قرنْته هذه السورةُ ربعُ الإيمان فى الحديث الذى رواه الترمذى: «لايؤمنُ عبدٌ حتى يؤمنَ بأربع: يشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وأنِّى رسولُ اللهِ بعثنى بالحقِّ ، ويؤمنُ بالموت ، ويؤمنُ بالبعث بعد الموت ، ويؤمنُ بالقدَر».

﴿إِذَا زُلْزِلَتْ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ أى: حُرِّكَتْ حَركَتَها الهائلةَ التى لاغاية

وراءها ، أو حركتَها العجيبةَ التى لا يُقادَرُ قَدْرُها ، وذلك عند نفْخة البعثِ لقوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ أى: لفظَت بسبب الزلزالِ ما فى بطنها من الموتى أحياءً للحساب والجزاء ، جمْعُ ثِقْل - بكسر فسكون - وهو الحِمْلُ الثقيل ، أو لفظتْ كنوزَها جَمْع ثَقَل - بفتح أوله وثانيه - وهو كل نفيسٍ مصون ، أى: إنها - لشدة الزلزالِ والاضطرابِ - تشقَّقت وثار باطنُها ، فقذفت بما فى جوفِها من الأثقال: من كنوز ودفائنَ وأمواتٍ وغيرِ ذلك مِمَّا يكون فى باطنِ الأرض.

ومثالُ ذلك ما يراه الناسُ فى الأراضى التى تثورُ فيها البراكينُ وتقعُ الزلازلُ حيث تَنْشقُّ الأرضُ أو الجبال ، وتَقذِفُ بما فيها من نيرانٍ ومعادنَ ومياهٍ ، ونحوِ ذلك ، وتلك آياتٌ باهراتٌ على قدرة خالقِ الأرضِ والسموات ، تدعو إلى التأمل ، والتدبُّر ، والتفكُّرِ فى أن الموتَ ليس هو نهايةَ حياةِ الإنسانِ ، ولكنه بدايةٌ لحياة أُخرى يُجازَى فيها المحسنُ بإحسانه، والمسىءُ بإساءته.

إن ما يقعُ فى الدنيا من البراكينِ والزلازلِ مع ما يصحَبُها من انهيارٍ فى الأرض ، وتشقُّقٍ فى الجبال ، ومن خسْفٍ يجعلُ ما على ظهر الأرضِ فى باطنها - كما حدث لمدينة أرميرو بكولومبيا منذ بضْعِ سنوات[1] -.

إن هذا كلَّه وغيرَه من الشدائد والكوارث لا يُعَدُّ شيئًا مذكورًا إذا قِيس بالزلزلة التى هى الزلزلةُ ، يوم تُبدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرض ، والتى تُنذِرُنا بها سورةُ الزلزلةِ حتى نُفيقَ من الغفلة ، ونتخذَ مما نشاهدُه ونعرفُه عبرةً

---

(١) وقد جاء وصف هذا الحادث والعبرة فيه من صفحة ١١٥ فى كتاب «إلى البُرهان ياأولى الألباب» للمؤلف وكتابة المقال السابق كان فى جمادى الأولى عام ١٤١١هـ «نوفمبر عام ١٩٩٠م» وحادث «أرميرو» كان فى عام ١٤٠٦هـ (١٩٨٥م)
وصدر كتاب «الى البرهان يا أولى الألباب» عام ١٤٠٧هـ (١٩٨٦م) فى طبعته الأولى.

لِما جاء به الخبرُ ، ونزل به الوحْىُ ، وحتى نُعِدَّ أنفسَنا لهذا اليومِ العظيم الهولِ بالإيمان الصحيح ، والعملِ الصالح.

إنَّ مَن يكونُ من الإنسان شاهدًا لهذا الزلزالِ العظيم عندما يأذنُ اللهُ بخراب هذا العالمِ وبقيامِ الساعةِ يَجدُه مخالفًا فى الشدة لجميعِ ما سبقَه من أمثاله ، ولا يجدُ الإنسانُ ـ عندئذ ـ من عقْله ما يَهديه إلى معرفة أسبابِه ، ويُصيبه الرعبُ والدهَشُ ، فيقول: ما لهذه الأرض؟ وما الذى وقَع لها فوق ما جرَتْ به العادةُ؟ وذلك عند النفْخة الأولى ، أمَّا إذا كان الأمرُ عند النفخةِ الثانيةِ فيقول: ما لهذه الأرض ، ما لها زُلزِلت هذه الزلزلةَ الشديدة ، ولَفَظت ما فى بطنها؟ وذلك لما يَبْهَرُهم من الأمر الفظيع ، وإن المؤمنَ يقولُ ذلك على سبيل الاستعظامِ ، أمَّا الكافرُ فبطريق التعجُّب.

كما يقولون: ﴿مَن بَعَثَنَا من مَّرْقَدِنَا﴾ [يس: ٥٢]

بخلاف المؤمنِ الذى امتلأَ قلبُه باليقين والاعتراف بالبعث. فإن أهلَ الإيمان يقولون: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ ، ولنتدبر: ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَانُ مَا لَهَا﴾ ، ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ أى: فى هذا اليومِ الشديدِ الهولِ تُخبِرُ الأرضُ بما عُمِل عليها من خيرٍ أو شرٍّ ، وقيل: تحديثُ الأرضِ تمثيلٌ ، أى: إن حالَ الأرضِ وما يقعُ فيها من التغيُّر الفظيع ، وما لم يُعْهَدْ من الخراب: إن هذا كلَّه يُعلِمُ السائلَ ويُفْهِمُه الخبرَ ، ويُعْلمُه أنَّ ما يراه لم يكن لسببٍ من الأسباب التى وضعتْها السنَّةُ الإلهيةُ حالَ استقرارِ نظامِ الكونِ، بل ذلك حدَث (بــ) سبب ﴿أَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ يقال: أَوْحى له وإليه، ووَحَى له وإليه ، والمعنى واحد ، أى: ما يكون من الأرض يومئذٍ إنما هو بأمرٍ إلهىٍّ خاصٍّ

قال لها: كُونى خرابًا ، كما قال لها عند إيجادها: كونى أرضًا ، فهذا أمرٌ من الأوامر التكوينيةِ التى هى كُن فيكونُ ما صدَر به أمرُ كُن ، أى يتحققُ ويقعُ لا محالة.

قال الزمخشرىُّ: ما معنى تحديثِ الأرضِ والإيحاءِ لها؟ قلتُ: هو مَجَازٌ عن إحداثِ الله تعالى فيها من الأحوال ما يقومُ مقامَ التحديث باللسان ، حتى ينظُرَ مَن يقول: ما لها؟ إلى تلك الأحوالِ فَيَعْلَمَ: لِمَ زُلزلت ، ولِمَ لفظتْ الأمواتَ ، وأنَّ هذا ما كانت الأنبياءُ يُنذِرُونه ويُحَذِّرون منه.

قال الطبرىُّ: تُبَيِّن أخبارَها بالرجَّةِ والزلزلةِ وإخراجِ الموتى ، أى: بدلالةِ الحالِ على سبيل المجازِ والتمثيلِ ، فكأنها تحدَّثَت وقالتْ لقوة الدلالة ، ووضوحِ المقصود.

وقيل: إن نُطْقَ الأرضِ على الحقيقة ، وإن الله يُنطِقُها وتُخبِر بما عُمِل عليها من خيرٍ وشرٍّ ، وفى حديثٍ حسَنٍ صحيح عند الترمذى عن أبى هريرة ، أن رسولَ اللهِ ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ ثم قال: أتدرون ما أخبارُها؟ قالوا: اللهُ ورسولُه أعلم ، قال: فإن أخبارَها أن تشهدَ على كلِّ عبدٍ أو أَمَةٍ بما عُمِل على ظهْرها ، تقول: عَمِل يومَ كذا كذا وكذا ، قال: فهذه أخبارُها».

وجاء عن ابن مسعود: أنها تُحدِّث بقيام الساعةِ إذا قال الإنسان: مالها؟ فَتُخبِرُ أن أمرَ الدنيا قد انقضى ، وأَمْرَ الآخرةِ قد أَتى ، فيكونُ ذلك منها جوابًا لهم عند سؤالهِم ، ووعيدًا للكافر ، وإنذارًا للمؤمن.

وعن نُطق الأرضِ على الحقيقة قيل: إن اللهَ تعالى يَقلِبُها حيوانًا ناطقًا فتتكلمُ بذلك ، وقيل: إن اللهَ يُحْدِثُ فيها الكلام.

وعلى القول بأنه يكونُ منها بيانٌ يقومُ مقامَ الكلامِ جماعةٌ من المفسِّرين منهم الطبرى ، فالتحديثُ يكون مَجازًا.

ثم بَيَّن السياقُ بعد وقوعِ الزلزلةِ المفُزعةِ وتحديثِ الأرضِ بأخبارها، بيَّن مشهَد الناسِ وقد تَشعَّبت بهم الطرقُ ، واختلفت السماتُ والملامح حسبما كان من القلْب والعملِ فى الدنيا: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ أى: فِرقًا وجماعاتٍ ، جَمْعُ شَتٍّ ، أى: يخرجون من القبور إلى موقف الحساب متفرِّقين بحسبِ أعمالِهم آمنين وفزعين ، سعداءَ وأشقياءَ، ليُبصِروا جزاءَ أعمالهم.

وقيل: ينصرفُون من موقف الحساب متفرِّقين فآخذٌ جهةَ اليمين إلى الجنة ، وآخذٌ جهةَ الشمالِ إلى النار؛ ليُبصِروا جزاءَ أعمالهم.

والصدورُ ضِدّ الوُرود ، يقال: صدَر الناسُ عن الماء أى انصرفوا عنه، ووردُوا إليه: أى جاءوا ، فالصادرُ: المنصرفُ ، والواردُ: الجائى.

وكان ابن عباس يقول: «**أَشْتَاتًا**» متفرِّقين على قدْر أعمالهم ، أهلُ الإيمانِ على حِدَة ، وأهلُ كلِّ دينٍ على حِدة ، ويومئذ تَبيضُّ وجوه ، وتَسودُّ وجوهٌ ، فأمَّا الذين ابيضَّت وجوهُهم فيسعدون برؤية جزاءِ صبْرِهم على طاعةِ الله ، وصبرهم عن معاصيه ، وهم يومئذٍ فى رحمة الله وجنته خالدون ، وأمّا فريقُ الأشقياء ففى نكَد وحسرةٍ وندامةٍ وفزَع ، وتعلُو الكآبةُ وآثارُ الكرْب وجوهَهم ، وقد رأَوا جزاءَ ما قدَّمت أيديهم.

وسيجدُ كلُّ إنسانٍ هناك جميعَ ما عَمِله من صغير وكبير ، من حقير وعظيم لا يغيبُ شىء ، ولا يضيعُ شىء: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ وهذا مثلٌ ضَرَبَه اللهُ تعالى أنه لا

يُغْفَل من عَمَلِ ابنِ آدمَ صغيرةً ولا كبيرة ، وهو مِثْلُ قولِه تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠]

والذرةُ: النملةُ الصغيرة ، وهى مثَلٌ فى الصِّغَر ، وقيل: الذرُّ هو الهَبَاءُ الذى يُرى فى ضوء الشمسِ إذا دخلت من نافذة ، ومثقالُ الذرةِ وزنُها ، وفى بعض الآثار: «إنَّ الذرةَ لا وزْنَ لها» وهذا تمثيلٌ لأدنى شىء.

جاء عن مقاتل وسعيد بن جبير: نزلت فى رجلين ، وذلك أنه لما نزل: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨]

كان أحدُهم يأتيه السائلُ فيستقلُّ أن يُعطِيَه التمرةَ والكِسْرةَ والجَوْزَةَ ـ ونحوَها مما هو قليل كحبة العنبِ مثلا ـ وكان الآخَرُ يتهاونُ بالذنب اليسيرِ كالكذبةِ والغِيبة والنظرةِ ، ويقول: إنما أوعد اللهُ على الكبائر ، فنزلت ترغِّبُهم فى القليل من الخير أن يُعطوه ، فإنه يوشِكُ أن يكثُرَ ، وتحذِّرُهم اليسير من الذنب فإنه يوشكُ أن يكثُرَ ، وإن الإثمَ الصغيرَ فى عَيْنِ صاحبِه يومَ القيامة أعظمُ من الجبال ، وإن جميعَ محاسنِه تكونُ فى عينه أقلَّ من كلِّ شىء ، واللهُ عز وجل يقول من سورة آل عمران:

﴿قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۞ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُ وَٱللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [٢٩ ، ٣٠]

فالشرُّ مهما كان صغيرًا سيكون يوم القيامة مؤلـمًا لصاحبه بغيضًا إلى نفسه ، وما قدمَّه المرءُ من الخير من قليلٍ أو كثير ، يضاعَفُ له ، وتُسَرُّ به نفسُه ، ويجدُه فى صحيفة أعماله لم يُبْخَس منه شىءٌ ، وكما قال تعالى

من سورة الكهف: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [٤٩]

وإن أقبحَ الذنوب الكفرُ والشركُ ومآلَ أصْحابه إلى النار لا ينفعهم شىءٌ مما قدَّموه من الأعمال الصالحةِ فى الدنيا ، وقد يَجِدُ الكافرُ جزاءَ صالحاته فى الدنيا ، ويخرجُ من الدنيا ولا حسنةَ له.

ولقد حذَّرنا اللهُ انتقامَه وغضبَه لنُقبلَ على ما يُرضيه من الأعمال الصالحة والعقائدِ الصحيحة ، وننبذَ الشرَّ والسوءَ قبل فوات الأوان وقبل أن نرى جزاء أعمالِنا فى يوم الحساب ، وفى الحكمة قالوا:

إن مَن يَعتَدى ويكْسب إثمًا ... وزنَ مثقالِ ذَرَّةٍ سيراه
ويُجَازَى بفعْله الشرَّ شرًّا ... وبفعْلِ الجميلِ أيضًا جَزاه
هكذا قولُه تبارك ربِّى ... فى إذا زُلزِلت وجلَّ ثناه

قال ابن مسعود: هذه أحكمُ آيةٍ فى القرآن ، وصدَق ، وجاء عن كعب الأحبار قوله: لقد أنزل اللهُ على محمد آيتين أحصتَا ما فى التوراة والإنجيل والزبور والصحف: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه﴾

وكان رسولُ اللهِ ﷺ يُسمِّى هذه الآيةَ: الآيةَ الجامعةَ الفاذَّةَ كما فى الصحيح.

إنَّ فى حبة العنب مثاقيلَ ذَرٍّ ، وكم فى التمرة وكِسرةِ العيشِ من مثاقيلِ الذرِّ ، وكم فى الآثامِ مهما حَقُرت من الذلةِ والصغار. فطوبى لمن وعظتْه الآياتُ ، ونبَّهَتْه العبرُ والأمثالُ.

❊ ❊ ❊

من سورة الأحزاب :

١٦٨ - مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ

إنك إذا سَمِعتَ إنسانًا يقول: إن قلبَه يُحدِّثه ويدعوه إلى الإيمان ، وإن قلبَه - أيضًا - يُحدِّثه ويدعوه إلى الكفر والإلحاد ، فقلتَ له: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِ﴾ فقد أَجبْتَ بما يَحْسِم الأمر ، ويُجلِي الحقيقة ، ويبيِّنها بما لا يدَعُ مجالا للشكِّ أو الجدَل ، إذ إنك بهذا الجوابِ قلتَ له: إنه لا يجتمعُ الكفرُ والإيمانُ فى قلبٍ واحد ، كما لا يجتمعُ قلبان فى جوْفٍ واحد ، وهذا يؤكدُ فى النفس أنه لا يجتمعُ اعتقادان متغايران فى قلْبٍ ، فإنه إمَّا الإيمانُ الخالصُ ، أو الكُفر.

وإذا سألَك إنسانٌ عن شىء ، وأَجبْتَ بما يُخالف الواقعَ عن نسيان أو وَهْم ، ثم تداركتَ الأمرَ ، فإنك تقول على جهةِ الاعتذار: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِ﴾

وإذا طُلب إليك القيامُ بأكثرَ من عملٍ فى وقت واحد ، مما يشتِّتُ الفكرَ ويوزِّع القلب ، فإنكَ تقول: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِ﴾ لتأكيد أنَّ الإنسانَ محدودُ الطاقةِ ، وأنه إذا أُرِيدَ له إجادةُ العملِ ، فَلْيوجِّهْ الهَمَّ والجُهدَ إلى الأمر الواحدِ فى المدة الملائمةِ والوقتِ المناسب.

لقد كثُر التمثيلُ بهذه العبارةِ القرآنيةِ الموجَزةِ الـمُحكمةِ البليغةِ القويّةِ بألْفاظها ، الغنيةِ بمعانيها ودِلالاتِهَا ، مع ما فيها من إقناعٍ للعقل وإمتاعٍ للنفس ، وقد اكتسبَتْ الـمَثَلِيَّةَ بعد نُزولها وشُيوعها فى المسلمين ، فصارت كأنها مثَلٌ مُرْسَلٌ يُضْرَبُ فى المواقف المناسبةِ فتأْتى كالدليل القاطع ، والبرهانِ الساطع ، وتقطعُ على المترددِ تردُّدَه فى أمْرَيْنِ ، أو

ادعاءَه الجمْعَ بينَ المتناقضِين فى وقتٍ واحْد ، ونحوَ ذلك.

يقول القرطبىُّ: والمعنى فى الآية: أنه لا يجتمعُ فى القلْب الكفرُ والإيمانُ ، والهُدى والضلال ، والإنابةُ والإصرار ، وهذا نفْىٌ لكلٍّ ما تَوهَّمه أحدٌ فى ذلك من حقيقةٍ أو مَجاز.

لقد أعلم اللهُ عزَّ وجل فى هذه الآيةِ أنه لا أحدَ بقلبين ، ويكون فى هذا طعنٌ على المنافقين الذين نزلتَ فى شأنهم سورةُ الأحزاب ، أى: إنما هو قلبٌ واحد ، فإمَّا فيه إيمانٌ ، وإمَّا فيه كفْر ، لأن درجةَ النفاقِ كأنَّها متوسِّطةٌ - أى بين الكُفرِ والإيمانِ - فنفاها اللهُ تعالى ، وبيَّن أنه قلبٌ واحد ، فكما لا يجتمعُ قلبان فى جوْف ، فكذلك لا يجتمعُ فيه إيمانٌ وإلحاد.

إن هذا المثلَ القرآنىَّ من سورة الأحزابِ بمثابة النورِ الذى يقشَع الظلام ، ويهدى إلى الحق الذى سِيق من أجل بيانِه ، وإزالةِ كلٍّ شُبهة من حوله:

* لقد ادّعى جميلُ بنُ مَعْمَر الفهرىُّ الشاعرُ المخضْرَمُ ، وقد وهبه اللهُ قدرةً على حِفظ ما يسمعُ فينطبعُ فى ذاكرته ، ادَّعى: أن له قلبين وكان يقول: لى قلبان أعقِلُ بهما أفضَلُ من عقْل مُحمَّد ، وكانت قريش تقول: ما يحفظ هذه الأشياءَ إلا وله قلبان ، فأبطَل اللهُ دعواهم ، وبيَّن سبحانه أن حكمتَه اقتضتْ أن يَجْعلَ للإنسان قلبًا واحدًا فى جوفه ، وأن كلَّ دعوى يدَّعيها أحدٌ من الخلْق غيرَ ذلك فهى باطلةٌ لا أساسَ لها.

وإن أَمْرَ جميلِ بنِ معمر مِمَّا قِيل فى أسباب نزولِ الآية الكريمةِ مع حوادثَ أُخرى مشابهةٍ لذلك.

* وإن الظِّهار كان يَشِيعُ على ألسنة كثيرٍ من الناس ، إذ يجعلُ

الرجلُ زوجتَه عليه كأُمِّه عن طريق التشبيه ، فيقول لها: إنها عليه كظهْرِ أُمِّه ، أو نحوِ ذلك ، وقد حرَّم الإسلامُ الظِّهارَ ، وبيَّن ما يترتَّب عليه من الأحكام ، وجاء تفصيلُ ذلك فى سورة المجادلَة.

* وقد كانوا فى الجاهلية يُبيحون التَّبنِّىَ ، فيُنْسَبُ المرءُ إلى غير أبيه ويصيرُ له حقوقُ الابنِ من الميراث وغيرِه ، وأبْطَل الإسلامُ هذا التبنِّىَ وحَرَّمه ، وأَمَر بإلحاق الولدِ إلى أبيه من النَّسب.

وقد ضرب اللهُ عزَّ وجل هذا المثَلَ فى الآية من سورة الأحزابِ ونفَى اجتماعَ قلبين فى جوف لتمهيدِ أصلٍ يُقاسُ عليه ، ويُحمَلُ عليه نفْىُ الظِّهار والتبنِّى:

﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ ٱللَّائِى تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ذَالِكُم قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ [الآية: ٤]

وفى تعليق صاحبِ الكشاف يقول: ما جمَع اللهُ قلْبَين فى جوفٍ ولا زوجيَّةً وأمومةً فى امرأة ، ولا بُنوَّةً ولا دعوةً فى رَجُل ، والمعنى: أن اللهَ سبحانه كما لم يَرَ فى حكمته أن يجعلَ للإنسان قلْبين ، لأنه لا يخلُو إمَّا أن يَفْعَلَ بأحدهما مثْلَ ما يَفْعَلُ بالآخَر من أفْعالِ القلوب ، فأحدُهما فَضْلَةٌ غيرُ مُحتاجٍ إليها ، وإمَّا أن يفعلَ بهذا غيرَ ما يفعلُ بذاك ، فذلك يُؤدِّى إلى اتصافِ الجُملةِ بكونه مُريدًا كارهًا ، عالـمًا ظانًّا ، موقنًا شاكًّا فى حالةٍ واحدة - أى يجمعُ بين النقيضَيْن فى آنٍ واحدٍ وهذا غيرُ مُمكن - كما لم يرَ اللهُ ذلك ، كذلك لم يرَ أن تكونَ المرأةُ الواحدةُ أُمًّا لرجلٍ زوجًا له ، لأنَّ الأُمَّ مخدومةٌ مخفوضٌ لها جَنَاحُ الذُّلِّ من الرحمة ، والزوجةَ مُستخدَمَةٌ ولها حالاتٌ خاصَّةٌ مع الرجُل كأنها مملوكةٌ ، وهما

حالتان متنافيتان ، وبالمِثْل فإن الرجلَ الواحدَ لا يكون دَعِياً لرجلٍ منسوبًا إليه بالاسم وابنًا له ، لأن البُنُوَّةَ أصالةٌ فى النَّسب وعراقةٌ فيه والدعوةَ إلصاق عارضٌ بالتَّسمية لا غير ، ولا يجتمعُ فى الشىء الواحدِ أن يكون أصيلاً غيرَ أصيل.

وهذا المَثَلُ جاء فى مَطْلعِ سورة الأحزابِ حيث رفَع اللهُ حُكْمَ التبنِّى ومنَع من إطلاق لفْظه ، وأرشَد إلى أن الأَولى والأَعدلَ أن يُنسَبَ المرءُ إلى أبيه نسبًا ، وقد أكَّد السياقُ نَفْىَ بُنوَّةِ زيدِ بنِ حارثةَ لمحمد بنِ عبدِالله ﷺ ، وقد أجمع أهلُ التفسير على أن قولَه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ نزَل فى زَيْد ، وكان ابنُ عمرَ يقول: ما كنَّا ندعو زيدَ بنَ حارثَةَ إلا زيدَ بنَ محمد حتى نزلت: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ وكان زيدٌ مَسْبِيًّا من الشام ، سَبَتْه خيلٌ من تِهامَةَ ، فابتاعَه حكيمُ بنُ حِزام بنِ خُوَيْلد ، فوهَبَه لعمته خديجةَ ، فوهبتْه خديجةُ للنبىِّ ﷺ ، وذلك قبل البعثة ، فأَعتقَه وتبنَّاه ، ولـمَّا علِم أبوه بمكانه جاء إلى مكةَ يرغبُ فى فِدائه ، فقال النبىُّ لأبيه وعمِّه: «خيِّراه فإن اختاركما فهو لكما دون فِداء» فاختار زيدٌ الرِّقَّ والبقاءَ مع رسولِ الله ﷺ على حُرِّيتِه وقومِه ، فقال محمدٌ رسولُ الله ﷺ عند ذلك: «يا معشرَ قريش اشهَدُوا أنه ابنى يَرِثُنى وأرِثُه». وكان ذلك مما يَعْملُ به الناسُ فى الجاهلية فلمَّا نزل قولُه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ وقوله: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾ [٥]

حُرِّمَ التبنِّى ، وبطَل العملُ به ، قال النحاس: هذه الآيةُ ناسخةٌ لِمَا كانوا عليه من التبنِّى - وهو من نَسْخِ السنَّة بالقرآن - فأُمِرَ أن يُدعى

شخصُ إلى أبيه المعروفِ الذى هو من صُلبه ، فإن لم يكن له أبٌ معروفٌ نَسبوه إلى وَلائه ، فإن لم يكُن له ولاءٌ معروف ، قال له: يا أخِى ، يعنى فى الدِّين ، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[الحجرات: ١٠]

أى: ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا﴾ لهم آباءً تَنْسُبونهم إليهم (فـ) هم «**إخوانكم فى الدين**» وأولياؤُكم فى الدين ، فقولوا: هذا أخى ، وهذا مولاى ، ويا أخى ، ويا مولاى ، يريد الأُخوَّةَ فى الدين ، والوَلايةَ فيه.

والأَدعِياءُ: جَمْعُ الدعىِّ ، وهو الذى يُدعى ابنًا لغيرأبيه ، أو يَدَّعِى غيرَ أبيه ، وقد جاء فى الصحيح عن سعدِ بنِ أبى وقاص وأبى بكرة كلاهما قال: سَمِعتْه أُذناى ووعاه قلْبى محمدًا[(١)] ﷺ يقول: «مَن ادَّعى إلى غيرِ أبيه وهو يعلمُ أنه غيرُ أبيه فالجنةُ عليه حَرام».

ألا ترى أن المَثَل الذى ضربَه اللهُ فى الظِّهار والتبنِّى قد زاد هذه المسألةَ وضوحًا وبيانًا: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِ﴾ وإن التنكيرَ فى رجُل ، وإدخالَ مِنْ الاستغراقيةِ على قلبين تأكيدان لِمَا قُصد من المعنى ، كأنه قيل: ما جعل اللهُ لأُمَّة الرجالِ ولا لواحدٍ منهم قلبين ألبتةَ فى جوْفه ، وقد جاء ذكْرُ الجوفِ وهو الحيِّزُ المكانىُّ: ﴿مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِ﴾ لتكتملَ الصورةُ ، وتكونَ أدعَى للسامع للمبادرة إلى إنكار أن يكونَ للرجل قلبان ، وكما لا يكونُ للرجل قلبان ، فإنه لا يمكن أن يُجْمَعَ فى القلب بين الإيمان والكفر؛ وبذلك يتأكدُ أيضًا بُطلانُ أن تكونَ الزوجةُ أمًّا ، ويُتَبَيَّنُ قُبْحُ قولِ الرجلِ لامرأته: أنتِ علىَّ كظهْر أُمِّى ، كما تتضحُ قضيةُ إبطالِ التبنِّى بشكلٍ قاطعٍ لا يقبلُ التأويلَ ولا التردُّد.

ثم أكَّدت الآيةُ الكريمةُ ذلك بقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ قَوْلُكُم

(١) قوله «محمدا» بالنصب على البدل من الضمير المنصوب فى«سمعتْه أذناى»

﴿بِأَفْوَاهِكُم﴾ «ذَلِكُم»: إشارةٌ إلى الأمرين أو إلى مسألة التبنِّى ، وقولُه: «بِأَفواهِكُم» فيه تأكيدٌ لبطلان القول ، أى: إنه قولٌ لا حقيقةَ له فى الوجود ، إنما هو قولٌ لِسانىٌّ فقط ، فليست الزوجةُ أُمًّا فى الحقيقة وليس الدَّعىُّ ابنا فى الحقيقة ، بل لا يمكنُ لقائِلِ ذلك أن يَعتقِدَ صحتَه لأنه أمرٌ ظاهرُ الفسادِ والبطلان.

وإن الله عزَّ وجل لا يقول إلا ما هو حقٌّ ظاهرُه وباطنُه ، ولا يَهدى إلا سبيلَ الحق: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى السَّبِيلَ﴾

إن الأمثالَ فى القرآن الكريم لونٌ من ألوان الهدايةِ الإلهية ، تُغْرى النفوسَ بالخير ، وتمنعُها عن السوء والشرِّ ، وتدفعُها إلى الفضيلة ، وتدفعُ عنها النقيصةَ والشائنةَ ، وترشدُ إلى ما لا بُدَّ منه لبناء النفسِ الإنسانية بناءً سليمًا ، ليحققَ الإنسانُ كمالَه الروحىَّ والجسدىَّ على أهدى سبيل ، وأقومِ طريق.

فلله الحمدُ على فضله ، وله الشكرُ على نعمائه ، ، ،

❋ ❋ ❋

١٦٩ - الخالق العظيم :
يقسم بالبلد الأمين الآمن لتأكيد حرمته وأمنه في نفوسنا

شرفُ أمّ القرىٰ وفضلُها:

مكةُ كرَّمها اللهُ عزَّ وجل ، وهى البلدُ الأمين ، وأُمُّ القُرى ، وأَعزُّ البلاد ، وأطهرُ البِقاع ، أقْسم المولى عزَّ وجل بها فى كتابه تنبيهًا إلى شرَفها ، وتأكيدًا لفَضْلها ، وليلْفتَ العبادَ إلى قَدْرها ومكانتها ، فقال سبحانه وتعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ۝ وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ﴾ [البلد: ١، ٢]

إنها خيرُ البِقاع ، وقد اشتملت على خيرِ العِبَاد ، فهى بلدُ خاتَمِ رُسلِه ، ومَسْقَطُ رأسِ صَفْوةِ خَلْقه ﷺ ، وحَرَمُ أبيه إبراهيمَ ، ومَنْشأُ أبيه إسماعيلَ ، وفيها بيتُه ، البيتُ المبارَكُ الذى جعلَه هُدًى للناس ، كما جعل نبيَّه محمدًا ﷺ إمامًا وهاديًا لهم ، وذلك من أعظم نِعَمِه وإحسانِه إلى خلْقه.

إن هذا القَسَم متضمنٌ لتعظيم بيتِ الله ، وتعظيمِ رسولِه وخاتَمِ أنبيائِه ﷺ.

لقد جعل الله عزَّ وجل مكةَ المكرمةَ حرمًا آمنًا ، وجعل البيتَ قِبلةً لأهل الشرقِ والغرب ، وجعل حجَّ البيتِ من أعظم القُربات وكفارةً للذنوب ، وفى مكةَ كان مولدُ النبى ﷺ ومَبْعثُه ، فهى مَهبطُ وحْيه وفيها نزَل جبريلُ الأمينُ عليه السلام بأعزِّ كلام ، على قلب أعزِّ نبىٍّ فى أعزِّ البِقاع ، وقد قَيَّد اللهُ عزَّ وجلَّ إقسامَه بمكةَ بحلولِه عليه السلامُ فيها إظهارًا لمزيدِ فَضْلها ، فإنها بعد أن كانت شريفةً بنفسها زاد شرفُها بحلُول النبىِّ العظيمِ الشريفِ فيها.

وقد جاءت موصوفةً بالأمين فى القَسَم بها فى سورة التين ، تأكيدًا لأمْنها ، وتنبيهًا لرعاية حُرمتها ، قال سبحانه: ﴿والتِّينِ والزَّيْتُونِ۞وطُورِ سِينِينَ۞وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ﴾

أَقسم سبحانه بالبلد الأمين ، وهو مكةُ المكرمةُ شرَّفها الله تعالى وَأمانتُها أنها تحفظُ مَن دخلَها ، كما يحفظُ الأمينُ ما يُؤْتَمَنُ عليه ويجوزُ أن يكونَ الأمينُ فى الآية بمعنى المأمون فيه ، كما وُصِفَ بالأمْن فى قوله تعالى من سورة القَصص ﴿حَرَمًا آمنًا﴾ [الآية: ٥٧]

بمعنى ذى أَمنٍ ، وقد جاء القَسم فى هذه الآياتِ مترقِّيًا من الفاضل إلى الأفضلِ ، فبدأ بإيلياءَ «بيتِ المقدس» فَمَنْبتُ التينِ والزيتونِ مُهَاجَرُ إبراهيمَ الخليلِ ومَوْلدُ عيسى ومَنشؤُه ، والطورُ هو المكانُ الذى نُودى منه موسى ، ومكةُ البلدُ الآمنُ مَولِدُ خاتَم رُسلِه ، وفيها بدأ نزولُ أعظم كُتبه على أكرم خَلْقه عليه ، ونظيرُ هذا الترتيبِ فى التوراة التى أنزلها اللهُ على كليمه موسى - عليهم جميعًا أفضلُ الصلاة وأتمُّ التسليم - قولُه «جاء اللهُ من طُور سَيناءَ ، وأَشْرَقَ من سَاعِير ، واستعلَن من فَارَان» فمجيئُه من طور سَيناء بِعثتُه لموسى بن عمرانَ ، وبدأ به على حُكْم الترتيبِ الواقعِ ، ثم ثَنَّى بِنبوَّة المسيحِ ، ثم خَتَمَه بنبوَّةِ محمدٍ عليهم أفضلُ الصلاةِ والسلام ، وجعل نبوةَ موسى بمنزلة مجىءِ الصُّبح ، ونبوةَ المسيح بعده بمنزلةِ طلُوعِ الشمس وإِشراقِها ، ونبوةَ محمدﷺ بعدها بمنزلةِ استعلائها وظهورِها للعالَم.

ومعنى القَسَم بهذه البقاعِ الإبانةُ عن شرَفها وما ظهَر فيها من الخيْر والبركَةِ بِسُكْنى الأنبياءِ والصَّالحين ، وقد ازدانت مكةُ بالشرَّفَين: بوجودِ أولِ بيتٍ وُضِع لعبادة الله فى الأرض ثم بَمولْدِ وَمبْعثِ خاتَمِ الأنبياءِ

والمرسَلين ﷺ ، فبدأت بأشرفِ البيوتِ وأكرمِها وأطهرِها ثم ازدهَتْ بأشَرفِ وُلْدِ آدمَ وأكرمهِم على الله وبأنها موطنُ خاتمَةِ الرسالات السماوية ، وهى الرسالةُ العامَّةُ الخالدُة حتى يَرِثَ اللهُ الأرضَ ومَن عليها.

ولقد عَبَّر رسولُ اللهِ ﷺ عن عُمق حُبِّه للبلد الأمينِ فقال لها فيما رواه ابنُ عباس وأخرجه الترمذىُّ: «ما أَطْيَبَكِ من بلَدٍ وأَحَبَّكِ إلىَّ ، ولولا أنَّ قومَك أَخرجُونى منك ما سكنتُ غيرَك».

ويبين ﷺ فضْلَ الصلاةِ والعبادةِ فى المسجد الحرام فيقول: «صلاةٌ فى مسجدِى هذا خيرٌ من أَلْف صلاةٍ فيما سِواه من المساجدِ إلا المسجدَ الحرام». [أخرجه الستةُ إلا أبا داود ورواه أبو هريرة]

وَيقْصدُ مكةَ أهلُ الإيمانِ طاعةً لله عز وجل ، وتقربًا إليه بحجٍّ أو عُمرةٍ وزيارةِ بيتِه المعظَّم ، ورَغْبةً فيما أَعدَّ اللهُ عزَّ وجل لعباده من الثواب الجزيل ، والأجرِ العظيم على الطاعات والقُرباتِ ، يَقصدونها لقضاء أيامِهم فى الذِّكْر والشُّكر والصلاةِ والدعاءِ والاستغاثةِ والابتهالَ إلى الله عز وجلَّ ، مُكثرين من الاستغفار راجين غسْلَ الذنوب ومَحْوَ السيئاتِ ، وستْرَ العُيوب ، مؤمِّلين فى قَبول التَّوب ، والعودةِ بالأجْر والثواب.

الأمنُ والسكينة:

يَعيش المؤمنون فى مكةَ من مُقيم وزائرٍ فى أمْن وأمان ، وسكينة وخُشوع ، لأنهم عرفُوا قدْرَ البيتِ الذى شَرَّفه الله ، ويرعَوْن حُرْمَةَ الأماكنِ المقدَّسة التى حرَّمها الله ، كما أخبر اللهُ نبيَّهﷺ وأمَره بقوله: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِه الْبَلْدَةِ الَّذِى حَرَّمَهَا﴾ [النمل: ٩١]

وإنَّ إضافةَ الربوبيةِ إلى البلدةِ فى الآية الكريمة إنما كانت على سبيلِ

التشريف لمكةَ والاعتناء بها ، كما قال تعالى من سورة قريش: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [الآية: ٣ ، ٤]

وفى الآية ما يدلُّ على أنه سبحانه عظَّمَ حُرْمَةَ مكةَ المكرمةِ ، أى: جعلَها حرمًا آمنًا ، لا يُظْلَمُ فيها أحدٌ ، ولا يُسْفَكُ فيها دَمُ أحدٍ ، ولا تُثار فيها خصوماتٌ ، ولا تَنْبَعِثُ هناك أحقادٌ ، بل ولا يُصاد فيها صيدٌ ولا يُقْطَعُ شَجر.

إن هذا البلدَ حرَّمه اللهُ يوم خلَق السموات والأرضَ ، فهو حرامٌ بحُرمةِ اللهِ إلى يومِ القيامة ، كان أهلُه فى أَمْن وأمان أيامَ جاهليتهم بفضْل حُرمة المكان ، وما أَلْقَى الله فى قُلوب العَربِ من غيرِ أهلِ الحَرَم من الهَيْبَةِ لهم ، والتقديرِ لمكانتهم لأنهم خُدَّامُ بيتِ اللهِ وسُكَّانُ حَرَمه.

لقد كان العرب فى الجاهلية وهم أهلُ شركٍ وأوثانٍ يُغير بعضُهم على بَعض ، ويقتلُ بعضُهم بعضًا ، وتشتدُّ بينهم الخصوماتُ ، أمَّا أهلُ مكةَ فكانوا آمنين حيث كانوا بحُرمة الحرم ، وقد أَلْقَى اللهُ فى قلوب الجميعِ تعظيمَ البيت ، ورعايةَ شأنه ، ولقد امتَنَّ اللهُ بهذه النعمةِ على أهل مكةَ الذين عانَدوا الرسولَ ﷺ وتَعنَّتوا معه فقال من سورة القَصَص: ﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا﴾

[الآية: ٥٧]

أخبر سبحانه أنه آمنَهم بِحُرمة البيتِ ومنَع عنهم عدوَّهم ، ووضَع الوقارَ والهيبةَ لهم فى قلوب سائرِ العرب.. فإذا حدَث هذا وهم أهلُ شركٍ وعِصيان ، فكيف يكون الحالُ إذا هم دخلُوا فى دين اللهِ ، واتَّبعوا نبيَّه وحبيبَه ﷺ ، فما اعتذر به عتاةُ المشركين من الخوف من إغارة العربِ

عليهم إذا هم دخلُوا فى الإسلام واتَّبعوا نبيَّه ، وصاروا بذلك قلَّةً هو اعتذارٌ غيرُ صحيح ، لأن الله جعلَهم فى بلد آمِنٍ ، وحَرَمٍ مُعظَّم آمِنٍ منذ وُضِعَ ، فكيف يكون هذا الحرمُ آمنًا حالَ كُفرِهمْ وشِرْكِهم ولا يكونُ آمِنًا وقد أسلموا ، وتابعُوا الحقَّ؟.

قال يَحيى بن سلَّام فى معنى الآية: يقول سبحانه: كنتم آمنين فى حَرَمِى ، تأكلون رِزقى ، وتعبدون غَيرى ، أفتخافون إذا عَبدْتُمونى وآمنتُم بى؟.

وفى سورة العنكبوت يُذكِّر اللهُ القُرشيين بنعمة الأمنِ والأمانِ فى الحرم الآمن ، وقد أحلَّهم فى حَرَمِه الذى جعلَه للناس سواءً العاكفُ فيه والبادِى ، ومَن دخله كان آمنا ، فهو فى أمنٍ عظيم ، والأَعْرابُ حولَهم فى غير الحَرَمِ يَنهبُ بعضُهم بعضًا ، ويَسفكُ بعضُهم دماءَ بعض ، وفى التذكير بهذه النعمةِ ما يُلينُ القلوبَ ، ويَدْفَعُ أهلَ العقلِ والحكمةِ إلى الدخول فى دينِ الله ، والمحافظة على نعْمَةِ الأمنِ والاستقرارِ والطمأنينة يقول سبحانه: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِم﴾ [الآية: ٦٧]

كما قال من سورة قريش: ﴿لإِيلافِ قُرَيْشٍ۝إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ۝فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ۝الَّذِى أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾

وواجبنا:

إن واجبَنا نحن المسلمين من الـمُقيمين فى الحرَم والزائرين ، من أهلِ الحرَم وحجاجِ بيتِ الله وعُمَّارِه أن نَرْعَى حرمةَ الحرَم ، وأن نراقبَ اللهَ فى تعظيمه ، وأن نَحذَرَ الإلحادَ فيه ، ومن الإلحادِ فى الحرم: السبابُ

والفسوقُ ، والعِصيانُ ، وإِهانةُ المسلم ، وإِثارةُ الخُصوماتِ ، والشحناءِ والبغضاءِ ، واحتكارُ الطعام ، والإساءةُ إلى المسلم بأيٍّ وجْه.

إن واجب حُجّاج بيتِ الله وزُوّارِه أن يصرِفُوا الهِمَمَ إلى عبادةِ الله وطاعتِه فى هذه الأماكنِ المقدَّسَة والأيامِ المباركاتِ ، وأن تلهجَ ألسنتُهم دومًا بتسبيح اللهِ وتحميدِه وتهليلِه وتكبيرِه ، وبالصلاة على النبىﷺ والدعاءِ للنفس وللأهلِ وللمالِ وللوالدين وللمسلمين.

إن المسلمَ يَنبغى أن يكونَ عطوفًا رحيمًا يُحب لإخوانه المسلمين ما يُحبُّ لنفسه ويكرهُ لهم ما يكرهُه لها ، وأكملُ المسلمين إيمانًا أحسنُهم خُلقًا حتى يكونَ الحجُّ مبرورًا ، وليعودَ المسلمُ من حجَّته كيومَ ولدتْه أمُّه طاهرًا نقيًّا والرسولُﷺ يقول: «مَن حَجَّ فلَم يَرفُثْ ولم يَفْسُقْ رجَع من ذنوبِه كيومَ ولدتْه أُمُّه».

إن المحبةَ والوقارَ وتبادلَ الاحترامِ والسكينةَ ومقابلةَ الإساءةِ بالحسنة والرغبةَ فى إيصال الخيرِ لكلِّ الناسِ ، هذه القِيَمُ النبيلةُ هى من صميم أخلاقِ المسلِم فى معاملاته لإخوانه المسلمين ، وحتى يعودَ الجميعُ من هذه الرحلةِ المباركة ، وهم أكثرُ تعاطفًا وتعاونًا ومحبةً ورغبةً فى توثيق عُرى المحبةِ والأخوة والصلة ووحدةِ الصف.

ومن نَوى الخيرَ أعانه اللهُ عليه.

❊ ❊ ❊

سورة الفيل:

١٧٠ وصارتْ قِصَّتُهم مَثَلا وحَفِظَ اللهُ بيتَه وصارت لنا عِبْرة

إنَّ قصةَ أصحابِ الفيلِ وقعتْ فى مكةَ المكرمة على كيفيةٍ هائلةٍ دالَّة على عِظَمِ قُدرةِ اللهِ تعالى وعِزَّته وانتقامه من الجبَّارين ، وقد أكَّدت فى النفوس شرَفَ بيتِ اللهِ المُعظَّمِ وحُرمتَه ، وكان فيها آيةٌ لمشركى مكةَ وغيرِهم على وحدانية اللهِ عز وجل ، فكان حقيقًا بهم أن يَنْبذُوا الأصنامَ والأنداد ، وأن يعبدوه وحده لا يُشركوا به شيئًا.

وصارت قصةُ أصحابِ الفيلِ نَموذجًا ومثلًا يُنبِّه المكذِّبين والجبَّارين إلى شدةِ أخْذِه تعالى للباغين ، وأنه تعالى قادرٌ على أن يُعذِّبَ كلَّ عاتٍ متكبرٍ بما شاء من أنواع العذابِ ، كما عَذَّب الجبابرةَ من القرون الأولى تارةً بالخسف ، والغرقِ ، والطاعونِ ، والزلزال ، والصواعقِ، والأمطار وتارةً بالحجارةِ تَنزِل من السماء.

وهذا رؤبةُ بنُ العجَّاج[(١)] يتمثَّلُ بما جرى لأصحاب الفيلِ مصوِّرًا ما نَزل بقومٍ من النَّكال والهزيمة فيقول:

ومَسَّهم ما مسَّ أصحابَ الفيلِ ... تَرميهِم حجَارةٌ مّن سِجِّيل
ولَعِبتْ طيرٌ بهم أَبابِيل ... فصُيِّروا مِثْلَ كعصْفٍ مأكُول

(١) رؤبة بن العجاج: تميمىٌّ، راجزٌ، من أعراب البصرة، كان رأسًا فى اللغة والأدب ، وقد سُمِّى باسم جده، ولد عام ٦٥ وتوفى عام ١٤٥ من الهجرة، كان يمدح ولاة العراق ويشيد بانتصاراتهم، وهو صاحب الأراجيز ذات الألفاظ الفحلة واللغة المتعمقة فى الإغراب.

وفى طوايا قصةِ أصحابِ الفيلِ صارت قصةُأبى رُغالٍ نُموذجًا للخيانة وامتهانِ الخونة ، فقد خرج أبو رغال مع أبرهةَ الأشرمِ من الطائف ليدلَّه على البيت الحرام بمكةَ المكرمةِ بعد اتفاقٍ مع مسعودِ بنِ مُعتِّب الثَّقفى على أن تُقدَّم له هذه الخدمةُ فى مقابل التجاوزِ عنهم وعدمِ محاربةِ أهلِ الطائف ، وخرج أبو رغال مع جيشِ أبرهة حتى أنزله فى موضعٍ قَريبٍ من مكةَ فى طريق الطائفِ اسمهُ «الـمُغَمِّس» وهناك مات أبو رغال فرجَمت قبرَه العربُ ، وبهذا الرجمِ تمثَّل الشاعر هاجيًا فقال:

وأرجمُ قبرَه فى كلِّ عامٍ كرجْم الناسِ قبرَ أبى رُغال

إن قصة أبرهةَ هى قصةُ أصحابِ السطوة والنفوذِ حين تخدعُهم القوةُ وتُغريهم البسطةُ فى السلطان ، والوفرةُ فى الأعوان ، فيسعَوْن إلى المزيد من بسْط النفوذِ والتجبُّر على خلْقِ الله ، وزعزعةِ أمْنِ الناسِ.

كان أبرهةُ عاملَ النجاشىِّ ملكِ الحبشةِ على اليمن ، فبَنَى كنيسةً كبيرةً فى صنعاءَ ، وكتب للنجاشى يقول: «إنى قد ابتنيتُ لك أيها الملكُ كنيسةً لم يُبْنَ مِثلُها لملِكٍ كان قبلك ، ولستُ بمُنْتَهٍ حتى أصرفَ إليها حجَّ العرب».

وواضحٌ أن مِن أغراضه بسطَ نفوذِ مُعْتَقَدِه فى جزيرة العرب ، وتوسيعَ نطاقِ التبعيةِ للنجاشىِّ ، وإيجادَ موسمٍ سنوىٍّ عظيمٍ تتدفَّقُ فيه الأموالُ عن طريق الحجيج إلى صنعاءَ الخاضعةِ حينذاك لهيمنة الحبشةِ.

آيةٌ عظيمة:

أقام أبرهةُ وجيشُه فى الـمُغمِّس أيامًا ثم تَهيَّأَ لدخول مكةَ ، وهيَّأَ فِيلَه وعبَّأَ جيشَه ، وأبرهةُ مُجْمِعٌ لهدْم البيتِ ثم الانصرافِ إلى اليمن ، فلمَّا وجَّهوا الفيلَ إلى مكةَ بَرَكَ ، وضربُوه ليقومَ فأَبى ، فوجَّهوه راجعًا إلى اليمن فقام يُهرْوِل ، ووجَّهوه إلى الشام ففعل مثلَ ذلك ، ووجَّهوه إلى

المَشرِق ففعل مثلَ ذلك ، ووجَّهوه إلى مكةَ فبَرك ، ومع توكيد عزمِهم على دخول مكةَ المكرمةِ وهدْمِهم البيتَ المعظَّمَ عَدْوًا وبغيًا أرسل اللهُ عليهم طيْرًا من البحر مع كلِّ طائرٍ منها ثلاثةُ أحجار: حجرٌ فى منقاره وحجران فى رِجلَيْه أمثالُ الحِمَّصِ والعَدَس لا تُصِيبُ منهم أحدًا إلا هلَك وليس كلَّهم أصابتْ ، وخرجوا هاربين يَبتدرون الطريقَ التى جاءوا منها وقد أنزل اللهُ بهم من نِقمته ما شاء لخُبث طواياهم ، فخرجوا يتساقطُون بكل طريق ، ويَهلِكُون بكلِّ مَهْلِكٍ(١) على كل سهْل ، وأُصيب أبرهةُ فى جسده ، وخرجوا به معهم يسقط أُنْملةً أُنـمُلةً ، وينتثرُ جسمُه قطعةً قطعةً حتى قَدِمُوا به صنعاءَ ، وهناك أَخبَرُوا بما رأَوْا ، وهَلَكُوا(*) ، وصارت قصتُهم مثلًا ، وأَمْرُهم عِبرةً وآيةً ودلالةً عظيمةً على كمال قدرةِ اللهِ عزَّوجلَّ وعلى عِلْمه وحكمتِه وكمالِ تدبيرِه إذْ يَستحيل فى العقل أنَّ طيرًا تأتِى من قِبَل البحرِ تحملُ حجارةً تَرمى بها ناسًا مخصوصين ، وقد وقع لهم ذلك وقريبٌ منهم فى الشِّعاب وعلى قِمَمِ الجبالِ أهلُ مكَةَ يَنتظرون ما أبرهةُ فاعلٌ بمكةَ إذا دخلَها ، ولم يُصَبْ أحدٌ من هؤلاء من هذه الطيرِ بشىءٍ ، فَسُبحان مالك الـمُلك ومدبِّر الأمر.

ومِمّا يدعو إلى العِبرة والتَأمُّل أنْ يُؤْخَذَ الذين استعزُّوا بالفِيل ، وهو أضخمُ حيوان من ذوات الأربعِ جسمًا ، ويَهلِكُوا بحيوانٍ صغيرٍ يَحمِلُ أحجارًا دقيقةً ، حيث ساق القَدَرُ هذا الطيرَ لجيشٍ ضخمِ العَدَدِ كثيرِ

(١) مَهْلك: بفتح أوله وسكون ثانيه وكسر ثالثه اسمُ مكان من هلَك الثلاثى مفتوح الوسط فى الماضى مكسوره فى المضارع (هلَك يهلِك) واسمُ الزمان مثله كقوله تعالى ﴿وَجعلنا لِمَهْلِكهم مَوعِدًا﴾ ومَهْلَك: بفتح وسطه مصدر ميمىٌّ منه.

(*) أى: أخبر الذين وصلوا صنعاء الناسَ بما وقَع لهم وماتُوا بعد الإخبار ـ للعظة والاعتبار.

العتادِ ، ويَهْلِكُ الفيلُ وأصحابُه وهم فى عُنفوان الغُرور والتمكُّن من القُدرةَ الماديَّةِ ، فتأمَّل ، وقُل: ما أعجبَ هذا وأَبْهَرَه!.

الإرهاص بقرب ظهور خاتم الأنبياء:

وقد وُلد النبىُّ محمدٌ ﷺ عامَ الفيل على الراجح من الأقوال ، وقد وردت بذلك الآثارُ ، قال العلماء: كانت قصةُ الفيل فيما بعدُ من مُعجزات النبىِّ محمدٍ ﷺ ، وإن كانت قَبْلَه وقَبْل التحدِّى(١) لأنها كانت توكيدًا لأمره ، وتمهيدًا لشأنه.

قال الخازن: «وفى قصة أصحابِ الفيلِ دلالةٌ عظيمةٌ على شرف النبىِّ محمدٍ ﷺ ومعجزةٌ ظاهرةٌ له ، وذلك أن الله تعالى إنما فعَل ذلك لنصْرِ مَنِ ارتضاه وهو محمدٌ ﷺ الداعى إلى توحيده ، وإهلاكِ مَن سَخط عليه ، وليس ذلك لِنُصْرَةِ قريشٍ فإنهم كانوا كفارًا لا كِتَابَ لهم والحبشةُ لهم كتابٌ ، فلا يَخْفَى على عاقلٍ أنَّ المرادَ بذلك نصرُ محمدٍ ﷺ، فكأنه تعالى قال: أنا الذى فعلتُ ما فعلتُ بأصحاب الفيلِ تعظيمًا لك وتشريفًا لقدومك ، وإذ قد نصرتُك قبل قدومِك ، فكيف أتركُك قبلَ ظهورِك ـ أى قبل نَصْرِه وإعلاءِ دينه ـ»

إن هذا النصرَ كان نعمةً من الله غَمَر بها أهلَ حرَمه ـ على وثنيَّتهم ـ حِفْظًا لبيته ، وإرهاصًا(٢) لظهور خاتَمِ رسله ، وإيذانًا بأنه ناصرُه بفضله كما كان هذا الحادثُ نقمةً من الله حلَّت بأعدائه أصحابِ الفيلِ الذين

---

(١) أى: التحدِّى بالمعجزات التى أيد الله بها نبيَّه ﷺ وأعظمُها وأبقاها إلى آخر الزمان القرآنُ الكريم.

(٢) الإرهاص: معناه فى الشرع: الأمرُ الخارقُ للعادة ـ المعجزة ـ يظهر للنبىّ قبل ظهوره كالنقمة التى حلت بأصحاب الفيلِ قبل مبعث النبى محمدٍ ﷺ

أرادوا الاعتداءَ على البيت العظيم دون جُرْمٍ اجْتَرَمهُ ، ولا ذنبٍ اقترفه.

نزول سورة الفيل:

وقد أنزل اللهُ عزَّ وجل على نبيِّه سورةَ الفيل وآياتُها خمسٌ للتنبيه إلى هذه النعمة ، والتذكيرِ بهذه المنَّة ، حتى يزدادَ إيمانُ أهلِ التوحيد بأن اللهَ ناصرٌ دينَه ، ومعزٌّ نبيَّهُ ، ومُذلٌّ أعداءَه ، وحتى يثوبَ ذو العقلِ إلى الحق ويُقِرَّ لله بالوحدانية ، ولنبيِّه بالرسالة . وقد كان من أهل مكةَ والعربِ من عاصَرَ ما وقع لأصحاب الفيل ، ورأى المعجزةَ وآثارَها الباهرةَ فلمَّا ظهر الداعى إلى الله ﷺ كان ذلك أدْعَى إلى المبادرة إلى الإيمان به ونصْرِه ، وقد قال عتّابُ بنُ أسيد: وُلِدَ النبىُّ ﷺ عامَ الفيل ، وأنا أدركتُ سائسَه وقائدَه أعميين مُقعدَين يَستطعمان الناس.

والهمزةُ فى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ للنفى و «لم» نافية ، ونَفْىُ النَّفْىِ إثباتٌ فيئُول معنى الاستفهام إلى التَّقرير والخِطابُ للنبى ﷺ ولكنّه عامٌّ ، أى: ألم تَرَوا ما فعلتُ بأصحاب الفيل؟ أى: قد رأيتُم ذلك ، وعرفتُم موضعَ منَّتى عليكم ، فما لكم لا تُؤمنون ، والهمزةُ فى ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ للتقرير - أيضًا - والكيْدُ: هو تدبيرُ السوء ، والتضليل: التضييعُ ، أى: إنك ترى ما كان عليه فِعْلُ الله بأُولئك القوم ، وذلك أنه ضَيَّع تدبيرَهم ، وخيَّب سعْيَهم لأنهم أرادوا أن يكيدوا قريشًا بالقتل والسبْى ، والبيتَ بالتخريب والهدْمِ فكانت عاقبةُ أمرِهم خُسرًا ، وما نجا واحدٌ منهم من عقوبة الله ، إمَّا بالهلاك أو بالمرض ، وصارت أموالُهم غنيمةً لقريش ، فقد أرسل اللهُ عليهم فِرقًا وجماعات من الطير تحملُ حجارةً من طينٍ مُتحجِّرٍ له خاصيَّةُ الإهلاكِ: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ أى مُجتمعةً ، أو متتابعةً

بعضُها فى إثْر بعض ، أو مختلفةً متفرقةً تَجِىءُ من كل ناحيةٍ من هاهنا وهَاهُنا كالهجوم المباغِت من كلِّ ناحية ، و «أَبَابِيل» جَمْعٌ ولَا واحدَ له يُعطى معنى الكثْرة والعظَم ، أى: هى جماعاتٌ عظامٌ ، وقيل له واحدٌ من لفْظه هو: إِبِّيل أو إِبَّال أوْ إِبَّوْل أو إِبَّالة ، وقال الفرَّاء: لا واحدَ له من لفْظه، وكانت هذه الطيرُ ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ وكان الحجرُ مُسوَّمًا أى مكتوبًا عليه اسمُ صاحبه كالحجارةِ التى نَزلتْ على قوم لوط كما جاء فى سورة الذاريات: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُم أَيُّها الـمُرْسَلُون۝قَالُوٓا إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَى قَوم مُّجْرِمِين۝لِنُرْسِلَ عليهم حِجَارَةً مِّن طِين۝مُسَوَّمَةً عِندَ ربِّكَ لِلْمُسْرفين﴾ [٣١ـ٣٤]

والمسوَّمَة: الـمُعلَّمة قد أُعِدَّت لرجْم من قضى اللهُ برجْمه من الـمُسرِفين فى العصيان ـ فسبحان من له كمال القدرة والتدبير ـ.

علينا أن نتفكَّر ونتَّعظَ:

فتأمَّلْ طيْرًا صغيرًا يُهاجِمُ جيشًا ضخمًا مغرورةً قيادتُه بالقوة والمنَعة يَقذِفُهم بحجارة دقيقة أودَع اللهُ فيها خاصيَّةَ الإِهلاك يسقطُ الواحدُ منها على هدَفه لا يُخطئُه قبل أن يعرفَ الناسُ استخدامَ اللَّيْزر فى تحقيق الهدَف المنشود وتَحَرِّيه ، وتدبَّر الصورةَ العامَّةَ لأرض المعركةِ ، وقد فقد الإِنسانُ كلَّ حِيلةٍ وحَوْل أمامَ وَحِيالَ هذه الغارةِ المباغتة ، وصار لا طاقةَ له بدفْعها عن نفسه ، فلماذا الغرورُ أيها الناسُ؟ ولماذا التمادى فى الباطل والزُّور؟ لم لا نعودُ إلى خالقِنا وبارئِنا نُخلِصُ العبادةَ والطاعةَ له ونُحْسِنُ التوكُّلَ عليه؟ .

ثم تأمَّل الصورةَ العامَّة لهذه الأجساد الفارعة الضخمة ، وقد صارت بَعد سقُوط الذَّراتِ على أَدمِغَتها فخَرجتْ من أَدْبارِها كرَوْثِ البهائِم التى

تأكلُ التِّبْنَ أو كورَقِ الزرْعِ الذى أكلتْ الدوابُّ بعضَه ، وتناثَر من بينِ أسنانها بَعْضُه ، كقِشْرِ البُرِّ يَعنى كالغلافَ الذى تكونُ فيه حبَّةُ القمْح وكلُّها تُنبِئُ عن غاية الضعفِ والامتهانِ ، وتَرَى هذه الصورةَ فى المَثَل الذى ضَرَبَه اللهُ عزَّ وجل لمشْهَد أصحاب الفيلِ بعد هَلاكهم بصورةِ العصْف المأكُول: ﴿فَجَعَلَهُم كَعَصْفٍ مَّأْكُول﴾ أى: الْتَفِتُوا واتَّعِظُوا واعتَبِروا.

إن هؤلاء الذين أهلكهم اللهُ بهذا النوعِ من الإهلاك قد ترامتْ جثثُهم فى الرمال والوِديان ، فكانت صورةُ كلِّ جُثَّة منها فى هُمودها وذُبولِها وفقدان ماءِ الحياة منها كورقِ الزرعِ الذى خلَّفته الدوابُّ من أكْلها على نحوِ علْمُه عند الله ، فتأمَّل دِقَّةَ التصوير وروعتَه ، وكيف نَقَلَنا إلى ساحة المُغَمَّسِ بالقُرب من مكةَ فى العامِ الذى وُلِدَ فيه الحبيبُ المصطفىﷺ وكأنَّنا نَرَى المعركَة ونُشَاهِدُ خاتِمتَها: النِّعْمَةَ فى جانبٍ والنِّقْمةَ من الجبَّارين والمغْرورين فى جانبٍ آخرَ ، لِنَحْمدَ اللهَ على النعمة ، ونَنْأى بأنفُسنا عن الأسبابِ المؤدِّية إلى مصيرِ الهالكين ، وحَفظ الله بيتَه ، وآمَنَ أهلَه من كيْد عدوٍّ مُتجبِّر ، وصارتْ القصةُ لنا آيةً ، ومعجزةً باهرةً وبرهانًا ساطعًا.

فطوبَى لمن يتدبَّر ، ويتَّعظ ، ويوحِّد ربَّه ، ويُعَظِّم حَرَمَه.

❊ ❊ ❊

من سورة الأحزاب:

١٧١ - أ - قلوبٌ واثقةٌ مطمئنّة ونماذجُ لنفوسٍ شريفة

اللهُ عزَّ وجل وَلِيُّ المؤمنين ، وناصرُ الموحدين ، وَمِن فضْلِه على حزبِه المخلصين أنه يردُّ عنهم بَأْسَ عدوِّهم ، وبرحمته يَصرِف عنهم البلاءَ ويتفضلُ عليهم بالربْط على قلوبهم ، وتثبيتِ أقدامِهم ، ويُمِدُّهم بجنْدٍ من عنده.

وإن العبدَ المؤمنَ يذكرُ ربَّه ولا ينساه ، ويشكرُ مولاه فى حالَىْ مَنْع الشر ، ومنح الخير.

وفى غزوة الأحزابِ سنةَ خمسٍ أو أربعٍ من الهجرة كان فضلُ اللهِ على المؤمنين عظيمًا ، وكان إحسانُه إليهم جزيلاً ، وكانت نعَمُه على نبيِّه ﷺ والمؤمنين سابغاتٍ ، وفى ذلك آياتٌ بيناتٌ ، وعِبَر وعظات.

وللتذكير بهذه النعمةِ الجليلةِ جاء فى سورة الأحزاب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا۝ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا﴾ [٩، ١٠]

لقد تألَّب أهلُ الباطلِ على المؤمنين من كلِّ جانب ، واجتمعت طوائفُ المشركين على حرب المسلمين ، وتألَّفت هذه الأحزابُ من: قريشٍ وغطفانَ واليهودِ ومَن تَبِعهم ، وكانوا زُهَاءَ اثنى عشرَ ألفًا ، وكان المسلمون نحو ثلاثةِ آلافٍ ، وقد حفروا الخندقَ حول المدينةِ المنورةِ لمنع

كفارِ قريش ومَن شايَعهم مِن الهجوم على المدينة ، ولهذا تُسمَّى غزوةَ الخندقِ أيضًا ، وقد كان سلمانُ الفارسىُّ رضِى اللهُ عنه أشار على النبىِّ ﷺ بحفْره ، وقال: إنَّا كنَّا بفارسَ إذا حُوصرنا خنْدقنا علينا وعَمِل النبىُّ ﷺ فى حفْره بنفسه ترغيبًا للمسلمين ، فسارعوا إلى العمل راضيةً نفوسُهم ، وجاء فى صحيح البخارى عن البراء بنِ عازب رضى الله عنه قال: رأيتُ النبىَّ ﷺ يوم الأحزاب ينقل التراب ، وقد وَارى الترابُ بياضَ بطنه ، وهو يقول:

اللهُمَّ لولا أنت ما اهتدَيْنا ... ولا تصدَّقْنا ولا صَلَّيْنا

فأنْـزِلَن سَـكِينةً علينْـا ... وثَبِّت الأقدامَ إنْ لاقَيْنا

إن الأُلى قَـد بغَوْا علينْـا ... إذَا أرادُوا فِتْنةً أَبَيْنَـا

وعلينا أن نتأملَ عظمةَ الرسولِ ، فى: رِفْقه بأصحابه ، وفى عمله فى حفْر الخندق ونَقْلِه الترابَ بنفسه ، وما يدلُّ عليه من اهتمامه بوسائلِ الدفاع ، والذودِ عن الجماعةِ ، وانظُر هذه المشاركةَ فى الأعمال الشاقة وما فيها من التواضعِ والإرشادِ إلى عدم الاستنكافِ من أىِّ عمَل مهما كان متى دعتْ إليه ضرورةُ الجهادِ فى سبيل اللهِ ، إنهﷺ القدوةُ الطيبةُ لأهل الإيمان ، وفى الاقتداءِ به النجاحُ والنصرُ والفلاحُ.

ومن صُور الرفقِ والمشاركةِ الكريمة ما رواه البخارىُّ عن أنَسٍ رضى الله عنه قال: «خرج رسولُ اللهِﷺ إلى الخندق فإذا المهاجرون والأنصارُ يحفرُون فى غَداة باردة ، فلم يكن لهم عبيدٌ يعملون ذلك لهم ، فلمَّا رأى ما بهم من النَّصَب والجوع قال:

اللهُمَّ إنَّ العيشَ عَيْشُ الآخِرَة ... فَاغْفِر اللهُمَّ للأَنصارِ والمُهاجِرة

فقالوا مُجيبين:

نحن الذين بايَعُوا محمدًا   على الجهادِ ما بَقِينا أبدًا

وعلينا أن نتأملَ هذه الصورةَ الحيَّةَ الناطقةَ التى رواها لنا أنسٌ ونقلَها إلينا كما كانت ، وكأننا نعيشُ أجواءَها العَطِرةَ ، مع القوم الذين بايعوا نبيَّهم الكريمَ ﷺ على الجهاد ، وأوفَوْا بما عاهدوا اللهَ عليه ، وواجهُوا بشجاعةٍ وصبرٍ وجلَدٍ قسوةَ البردِ ومرارةَ الجوعِ ، وشدةَ العمل ، مع تزاحُم الأعداءِ من فوقهم ومن أسفلَ منهم ، حيث كان كفارُ العربِ فى مُواجهةِ الخندق ، واليهودُ الذين نقضُوا العهودَ وراءَهم فى المدينة.

ولنسمع أنسًا رضى الله عنه وهو يقول فى تتمة الوصف السابق: «وكانوا يُؤْتَوْنَ بِملْءِ كفٍّ من الشعير ، فَيُصْنَعُ لهم بإهالةٍ سَنِخَةٍ تُوضَع بين يدَىْ القوم ، والقومُ جِياعٌ ، وهى بَشِعةٌ فى الحَلْقِ ، ولَها ريحٌ مُنتِنٌ».

أما الإهالةُ: فهى الدُّهنُ الذى يُؤتدَمُ به ، سواءٌ كان زيتًا أم سمْنًا أم شَحمًا ، والسَّنِخَةَ: أى المتغيرةُ الريح ، ويقال لها: زَنِخَة - أيضًا - فتأمل: ملءَ كفٍّ من الشعير المعجونِ بسمنٍ أو زيتٍ قد تغَيَّر رِيحُه لطول وقْت - مثلًا - وتغيَّرَ لونُه وطعمُه تبعًا لذلك ، يقتاتُ به مجاهدون كرامٌ هم أعظمُ الناسِ قَدْرًا بعد الأنبياء غيرِ المرسلين.

وأعلى من ذلك كلِّه فى سُلَّمِ العظمةِ أن يكون أشرفُ الخلْق وإمامُ الأنبياء والمرسلين فى هذا اليوم على ما وصفه به جابرٌ رضى الله عنه فى الحديث الذى أخرجه البخاریُّ قال: «إنَّا يومَ الخندقِ نَحْفرُ ؛ فعرضَتْ كُدْيةٌ شديدة ، فجاءوا النبیَّ ﷺ ، فقالوا: هذه كَديةٌ عَرضتْ فى الخندق؛ فقال: أَنا نازلٌ ؛ ثم قام وبطنُه معصوبٌ بحجَر ، ولبِثْنا ثلاثةَ أيامٍ لا نذوقُ ذواقًا ، فأخذ النبیُّ ﷺ المِعْولَ ، فضرَب فى الكُدية؛ فعاد

كَثِيبًا أَهْيَلَ».

هيًّا... نتأملْ القائدَ الحكيمَ ، الذى اصطفاه ربُّه وأكرمَه ، وشرح صدرَه ، ورفَع ذِكْرَه.. نتأملْه مَرْجِعًا لجُنده يعرِضون عليه ما يَجِدُّ من الأمور ، ويطلبون توجيهَه ونُصحَه ، ونتأملْه وهو أكرمُ الخلْق معصوبًا بطنُه بحجَر ، أتدرون.. لماذا؟ جاء فى روايةٍ أخرى ما يفسِّر ذلك: «وبطنُه معصوبٌ بحجَرٍ من الجُوع» وفى روايةِ أحمد: «أصابهم جَهْدٌ شديدٌ حتى ربَط النبىُّ ﷺ على بطنه حَجرًا من الجوع».

هذا نبيُّنا فى تواضُعه ، فى شجاعته ، فى صبرِه ، فى علوِّ هِمَّته فى مُروءته ، فى حُسن قيادته ، فى مساواته نفسَه بإخوانه ، وفى قوة خُلقه ثم انظُر قولَ جابر: «ولبِثْنا ثلاثةَ أيامٍ لا نذوقُ ذواقًا» إنه وصفٌ يُرادُ منه تقديمُ المثَلِ من حياة هؤلاءِ العظماءِ حقًّا للتعليم ولتربية سائرِ المؤمنين فقد مكَثُوا من أيام الخندق ثلاثةَ أيام لا يذوقون شيئًا مما يُطْعَمُ أو يُشْرَب وفى هذه الجملةِ بيانٌ - أيضًا - للسبب الذى من أجله ربط النبىُّ ﷺ الحجَر على بطنه.

أمَّا الكُدْيةُ وهى: القطعةُ الحجريةُ الصُّلْبةُ من الأرض لا يَعْمَل فيها الْمِعوَلُ ، فإنها لـمَّا عَرَضَتْ لهم عند حفْر الخندق ، وعَلِم النبىُّ بموقعِها أخَذَ المسْحاةَ أوالمجْرفَةَ من الحديد فضَرَب فى هذه الكُديةِ حتى صارت رملاً أَهْيَلَ أى مُفتَّتًا سائلاً مَهِيلاً ، لقد كانت قوَّتُه ﷺ بركةً ونعمةً على الناس جميعًا ، وهذا فتًى من أهل الكوفةِ كما جاء عند ابنِ إسحاقَ يسألُ حذيفةَ بنَ اليمانِ عن أحوالهم مع النبىِّ ﷺ ، ثم يقول لحذيفةَ فى شوْق غامرٍ: «والله ، لو أدركناه - ﷺ - ما تركناه يمشى على الأرض ولحملْناه على أعناقنا» ثم وَصف له حذيفةُ بعضَ ما كان يومَ الأحزاب

وما كان فيه: «من شدةِ الخوف ، وشدةِ الجوعِ ، وشدةِ البرد».

وفى رواية مسلم: «لقد رأيتُنا مع رسول الله - ﷺ - ليلةَ الأحزابِ فى ليلةٍ ذاتِ ريحٍ شديدٍ وقرٍّ» وفى رواية الحاكم عن زيد بن أسلم: «فى ليلةٍ باردةٍ مَطيرة».

فانظر إلى جند الله وقد امتُحنوا بالبرد القاسى ، والريحِ الشديدة والمطرِ ، وقلةِ الزاد ، وهم نحو ثلاثة آلاف ، وأمامَهم ومِن خلفهم عدوٌّ كثيرُ العَدد ، شديدُ المكْر ، معه كلُّ المقوِّماتِ الماديةِ من العُدَّةِ والعتادِ والطعامِ والدواب ، وقد أخذ المسلمون بالأسباب الصحيحةِ ما استطاعوا وفوَّضوا الأمرَ إلى الله وحده ، فأتاهم النصرُ من حيث لم يحتسبوا ولله الأمرُ مِن قبلُ ومن بعد ، ووقاهم اللهُ سيئاتِ ما مكر أعداؤُهم ، وحاق بأحزاب المشركين أسبابُ الهلاك من كلِّ مكان ، وكانت عاقبتُهم خُسرًا.

وفى التنبيه إلى هذه النعمةِ والتذكيرِ بفضله وإحسانه إلى عباده المؤمنين فى صرْفهِ أعداءَهم ، وهزْمِه إياهم ، وهم على هذا النحو من القوة والكثرةِ يقول الله عز وجل: ﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا....﴾

لقد أرسل اللهُ عزَّ وجل على الأحزاب ريحًا شديدةَ الهبوبِ قوية حتى لم تُبْقِ لهم خيمة ، ولا شيءَ ، ولا تُوقد لهم نار ، ولم يَقَرَّ لهم قرارٌ ، فارتحلوا خائبين خاسرين ، وأرسل اللهُ عليهم الملائكة ، فزلزلتهم وألقت الرعبَ والخوفَ فى قلوبهم ، فكان كلُّ رئيسِ قبيلة ينادى بأعلى صوته: يا بنى فلان ، إلىَّ ، فَيَسْعَوْنَ إليه ، فيقول: النَّجاءَ النَّجاءَ ؛ لِمَا أَلْقَى اللهُ تعالى فى قلوبهم من الرعب.

وقد حكى حذيفةُ بنُ اليمان عجائبَ ما رأى ، وقدعاش بين المشركين

ليلةً يرى ما يصنعون كما أمره رسولُ الله ﷺ ، ومِمَّا قاله حذيفةُ: فذهبتُ فدخلتُ فى القوم ، والريحُ وجنودُ الله عزَّ وجل تفعل بهم ما تفعل ، لا تُقِرُّ لهم قِدرًا ، ولا نارًا ، ولا بناءً ، فقال أبو سفيان ـ وكان قائدَ المشركين ـ: يا معشرَ قريش ، إنكم ـ والله ـ ما أصبحتم بدار مُقام لقد هلك الكُراع ـ أى الخيل ـ والخُفُّ ـ أى الإبل ـ وَأخْلَفَتْنا بنو قريظةَ وبَلغَنا عنهم الذى نكرهُ ، ولقينا من هذه الريحِ الذى تَرَوْن ، والله ما تطمئنُّ لنا قِدْر ، ولا تقومُ لنا نار ، ولا يَستمسك لنا بناء ، فارتحِلُوا فإنى مرتَحِل ، ثم قام إلى جمَله ، وهو معقُول ، فجلس عليه ، ثم ضربَه ، فوثب به على ثلاث ، فما أطلق عِقاله إلا هو قائم.

وكان أبو سفيان ينادِى بأعلى صوته: الرحيلَ الرحيلَ . وكفَى اللهُ المؤمنين القتال ، وكان اللهُ قويًّا عزيزًا ، وسعدَتْ نفوسُ المؤمنين بنصر الله ، وأخزى اللهُ المشركين والمنافقين الذين تكالبوا: ﴿إِذْ جَاءوكُم مِّن فَوْقكم﴾ ، أى أحزابُ العرب ﴿ومن أَسْفَلَ منكُم﴾ أى يهودُ بنى قريظة ، ﴿وإِذْ زَاغَتِ الأبصَارُ وبلغَتِ الْقُلوبُ الْحنَاجِرَ وتَظنُّون بِاللهِ الظُّنُونا﴾.

لقد اختُبر المؤمنون اختبارًا شديدًا ، وظهَر النفاقُ جليًّا فى هذه الغزوة وتحدَّث الذين فى قلوبهم مرَض ، وقدَّمت لنا سورةُ الأحزابِ هذه النفوسَ المريضةَ ، وكشفَت عن سرائرها ، للعبرة والعظة.

والكلام متصل.

❊ ❊ ❊

١٧٢- ب- قلوبُ مـريضـة

إِنَّ الناسَ منهم المؤمنُ ، ومنهم الكافرُ ، ومنهم المنافقُ الذى يتستر وراء الإيمان ، وتنتابُه الشكوكُ ، ولا يستقرُّ قلبُه على التوحيد ، لذا كان المنافقون فى الدرْك الأسفلِ من النار ، إِلا مَن تاب ، وأصلَح واعتصم بالله ، وأخلص دينَه لله ، وبرِئَ من كل دينٍ يُخالف دينَ الإسلام.

وفى غزوة الأحزابِ كانت هناك حشودُ الكفارِ من المشركين ، ومن أهل الكتاب الذين كفروا بالنبى الأمىِّ الذى يَجِدونَهُ مكتوبًا عندهم فى التوراة والإنجيلِ ، وقالوا عزيرٌ ابنُ الله ، وألَّبُوا المشركين على المسلمين وآزروهم.

وفى هذه الغزوة نَجَم النفاقُ ، وانكشفت خبيئةُ نفوسِ المنافقين وظهرت نواياهم الخبيثةُ ، وفضَح الوحْىُ ما انطوت عليه قلوبُهم المريضةُ من خُبْثٍ وحقْدٍ وضغينة.

وثبت مع الرسول ﷺ المؤمنون الذين أخلصوا دينَهم لله ، وتأدَّبوا بأدب القرآن ، وتربَّوْا بأمثاله ، وحِكَمِه ، وقَصَصِه ، وأحكامِه ، فكانوا معادِنَ نفيسةً نقيَّةً يَزِيدُها الاختبارُ بالمحن والشدائدِ صفاءً ونقاء ، ويجعلُها الابتلاءُ أقوى يقينًا ، وأشدَّ تمسُّكًا بالحق وجهادًا فى سبيله ، وأصبر حين البأْس.

وفى هذه الغزوةِ اشتدَّ الأمرُ على المسلمين ، ولـمَّا رأوا ما عليه عدوُّهم من كثْرةٍ فى العدد ، وتفوُّقٍ فى العتَاد والعُدَدِ زادهم ذلك إيمانًا بالرب ، وتسليمًا لقضائه ، وتصديقًا بوعده ، وكانوا يقولون: هذا ماوعدنا اللهُ من الابتلاء والامتحانِ الذى يَعقُبه النصرُ القريبُ بإذن الله

وكيف لا؟ وقد تربَّوا بمثْلِ قوله تعالى من سورة البقرة: ﴿أَمْ حَسِبْتُم أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ، أَلَآ إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [الآية: ٢١٤]

وبفضْلِ هذه التربيةِ العاليةِ، ولاقتدائهم بالحبيب المصطفىﷺ ما زادهم النظَرُ يومَ الخندق إلى حشودِ الأحزاب، مع شِدَّةِ الموقفِ ﴿إِلا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢]

حقًّا.. لقد صاروا بأدَبِ القرآنِ وتوجيهِهِ مُثُلًا عُليا فى صِدْق اليقين وسلامةِ الدين، والانقيادِ لأمرِ الله، وطاعةِ رسولهﷺ، ولقد حَمَلوا الأمانةَ، وأَوفَوْا بما عاهدوا اللهَ عليه، فكانوا نِعْمَ النماذجُ الصالحةُ للإنسانية الفاضلة.

وفى سياق التذكيرِ بنعمةِ النصْر، وكشْفِ الغُمَّةِ تُقَدِّمُ لنا الآياتُ صوراً متتابعةً تُبيِّن لنا فى خطوطٍ واضحةٍ ما أحاط بالمسلمين من أسباب المخاوفِ، وتُبرزُ خفيَّاتِ النفوس، وتكشِفُ عمَّا دار فى القلوب فى بيانٍ موجَزٍ ومُعجِز، ولنتدبر: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ إِنَّها صورةٌ حيَّةٌ ذاتُ أبْعادٍ مكانيةٍ فسيحةٍ، وفيها حركةٌ وتدلُّ على كثرة الحشود، وسوءِ النوايا، فَمن فوقهم من قِبَل المشرقِ: قبائلُ العَربِ الذين تحزَّبوا وتعاضَدُوا، ومن أسفلَ منهم مِن جهةِ المغربِ يهودُ بنى قُريظة، وقد خانوا عهدَهم، وتحالفُوا مع المشركين، وإلى جانب مكْرِ العدوِّ كان متمكنًا من التفوُّق المادىِّ فى العَددِ والسلاح.

وفى بيان ما أصاب النفوسَ من الدهشة، والحيرةِ، والاضطرابِ

تَتَابَعُ الصورُ فى الآية الكريمةِ لتقدمَ لنا الأمورَ المعنويةَ ، والحالات النفسيةَ عن طريق شواهدِها الماديةِ ، ولنتدبر: ﴿وإذْ زاغَت الأبْصَارُ﴾ أى: مالت عن سَنَنِها ومُستوى نظرِها حَيرةً ودهشةً ، شاخصةً لا تلتفتُ إلى شىء إلاّ إلى عدوِّها ، يُقال: زاغ يَزيغُ زيغًا وزيَغَانًا: مال ، وزاغ البصرُ: كَلَّ ، وكلالُهُ من استدامةِ شُخوصه من شدةِ الهول ، فتأمَّل هذه الأبصارَ وقد عدلَتْ عن كل شىءٍ فلم تلتفت إلا إلى العدو ، وتدبَّر دلالةَ ذلك على ما ملأ القلوبَ من الرَّوع والدهشة.

ثم زاد السياقُ هذا المعنى وضوحًا وتأكيدًا بقوله سبحانه: ﴿وَبَلَغَت الْقُلُوبُ الْحَنَاجِر﴾ والحَنَاجِرُ: جمعُ حَنْجرة وحُنْجُور: أى حرفُ الحلْق وهو مَثَلٌ فى اضطراب القلوب ووجِيبِها وخفقَانِها ، وإن لم تبلُغْ القلوبُ الحناجرَ حقيقةً ، وقد جاء فى القرطبى: والأظهرُ أنه أراد اضطرابَ القلبِ وضرباتِه ، أى: كأنه لشدة اضطرابِه بلَغَ الحنجرة.

ومع أسبابِ المخاوفِ التى أحاطتْ بالنبىﷺ ومَنْ كانوا حولَه انكشف ما فى النفوس من قوةٍ أو ضعف ، إذْ ثبتَ المؤمنون ، وتخاذلَ المنافقون ونلمحُ ذلك من قوله تعالى: ﴿وتظنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا﴾ وهو خطابٌ لهم جميعًا ، ومنهم الثُّبَّتُ القلوبِ والأقدامِ ، ومنهم الضعافُ القلوبِ الذين هم على حرْف ، والمنافقون الذين لم يذوقُوا طعْمَ الإيمان وحلاوتَه.

أمَّا الفريقُ الأول: فقد ظنُّوا بالله أنه يَبتليهم ويَمتحِنُهم ويَفتِنُهم بهذه المحنة ، فخافوا الزللَ عند الشدَّة ، وخَشوا من أنفسهم ضعْفَ الاحتمال وسألوا ربَّهم العافيةَ من ذلك مع اليقين التامِّ بأنَّ ما وعَد اللهُ ورسولُه حقٌّ ، وأنه سيُظهر دينَه على الدين كلِّه ، ولو كرِه المشركون.

أمَّا فريقُ المنافقين فظنوا أن محمدًا وأصحابَه سيُهزمون وأن الدائرةَ على

المؤمنين.

قال الحسن: ظنَّ المنافقون أن المؤمنين يُستأصَلون ، وظنَّ المؤمنون أنهم يُنصرون ، وقيل: هو خطابٌ للمنافقين ، أى قلتُم هلَك محمدٌ وأصحابُه.

لقد كان المسلمون حين نزلت الأحزابُ حوْل المدينة فى غاية الجَهْد والضِّيق ، وابتلُوا بالخوف والجوعِ والحصْر والنزالِ: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِىَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أى: عند ذلك اختُبر المؤمنون لِيُتبيَّنَ المخلصُ من المنافق

﴿وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١١]

أى: حُرِّكُوا بالخوف تحريكًا شديدًا ، وقيل: هو مَثَلٌ فى الاضطراب، أى: فمنهم من اضطَرب فى نفسه ، ومنهم من اضطرَب فى دينه ، فظهَر النفاقُ ، وتكلَّم الذين فى قلوبهم مرضٌ بما فى نفوسهم من الشك والارتيابِ ، وألوانِ الضعفِ النفسىِّ ، ولنتدبر: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢]

والمرضُ هنا: هو الشكُّ والنفاقُ وما كان فى النفوس من الحِقْد والعداوة للمسلمين ، فهؤلاء لفسادِ بواطنِهم ظنُّوا أنَّ وعْدَ اللهِ عبادَه الصالحين بالنصر والتأييدِ والتمكينِ والظهورِ باطلٌ من القول ، وكان بعضُهم يقول: كان محمدٌ يَعدُنا أن نأكلَ كنوزَ كِسْرى وقيصرَ ، وأحدُنا لا يقدِرُ على أن يذهبَ الغائط.

وفى هذا الموقفِ العصيبِ والمسلمون فى رباطهم والعدوُّ مِن فوقهم ومِن أسفلَ منهم برزت جماعةٌ تسعى فى التخذيل وتثبيطِ الهممِ وخلخلةِ الصفِّ وتدعو إلى ترْك المواقع ، وهؤلاء هم شرُّ ما تُبتلى به أمة:

﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُم فَارْجِعُواْ﴾ أى:

لاإقامةَ لكم هاهنا فى موضع المرابطةِ مع النبىﷺ و«مُقَام» مصدرٌ ميمىٌّ من الرباعى أقام بمعنى إِقامة أى: لا إِقامةَ لكم ، أو اسمُ مكانٍ منه بمعنى: لا مكان ولا موضِعَ إقامةٍ لكم هاهنا ، و «لا» نافيةٌ للجنس تعملُ عملَ إِن الناسخة ، و«مُقَام» اسمُ لا مبنىٌّ على الفتح فى محلِّ نَصْبٍ و «لكم» جارٌّ ومجرور متعلقٌ بمحذوف خبر لا مرفوع.

وهم بذلك يحاولون إِثارةَ المخاوفِ فى النفوس من الإِقامة فى مواطنِ الرباط ، ثم أكَّدوا ذلك بالدعوة إلى الهرب من الميدان بقولهم «فَارْجِعُوا» أى إلى بيوتكم ومنازِلكم ، أمروهم بالهروب عن عسكر النبىِّﷺ ، وهى دعوةٌ إلى التمرُّد وعدمِ الانقياد والطاعةِ ، وإيجادِ منافذَ للعدو فى الصفوف ، ومن صورِ هذه المساعى الشريرةِ ما جاءعن ابن عباس قال: قالت اليهودُ لعبد الله بنِ أبىٍّ بن سلول وأصحابِه من المنافقين: ما الذى يَحمِلُكم على قتْل أنفسِكم بيد أبى سفيان وأصحابِه ، فارجعوا إلى المدينة ، فإِنا مع القوم ، فأنتم آمنون.

ثم تُقَدِّم لنا الآيةُ الكريمةُ فريقًا من هؤلاء الـمُخذِّلين المخذولين يَختلِقُون المعاذيرَ ويطلبون الإِذنَ من رسول اللهِﷺ فى الرجوع إلى منازلهم بالمدينة قائلين: إِن بيوتَنا خاليةٌ ضائعةٌ ليست بحصينة ، وهى مِمَّا يَلِى العدو ، أو هى ممكنةٌ للسُرَّاق لخلوِّها من الرجال ، وهم كاذبون وما دعاهم إلى ذلك إلا الرغبةُ فى الهرب: ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُم النَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ [الأحزاب: ١٣]

أى: يسهل دخولُها ، وكلُّ مكانٍ ليس بممنوع ولا مستورٍ فهو عَورةٌ وقد كذَّبهم عالمُ السرِّ والنجوى: ﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ﴾ ردًّا عليهم فيما ذكَروه من العِلَّة ، ثم بيَّنت الآيةُ السببَ الخفىَّ: ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا

فِرَارًا﴾[1] أى: ما يريدون إلَّا الهربَ من القتالِ مع المؤمنين.

وهؤلاء أسرعُ الناسِ إلى الانغماس فى الفتنة، إذا دُعوا إلى الشرِّ هُرِعوا إليه، لا يتأخَّرون إلا بالقدْر الذى يُعدُّون فيه أنفسَهم للانخراط فى صفوف أعداءِ الحق، وقد أخبر سياقُ السورةِ الكريمةِ عن هذا النموذجِ السيئ من البشر أنهم لا يحافظون على الإيمان، ولا يستمسكون به مع أدنى خوفٍ أو فزَع، وأنهم لو دَخَل عليهم الأعداءُ من كل جانبٍ من جوانبِ المدينة، وناحيةٍ من نواحيها، ثم طُلِبَ منهم مقاتلةُ المسلمين، والدخولُ فى زمرة الكافرين لبادرُوا، ولنتدبر هذه الصورةَ الحيَّةَ المتحركةَ الناطقةَ ذاتَ الأبعادِ المكانيةِ التى ترسمُها لنا الآيةُ الكريمةُ فى ألفاظٍ قليلةٍ وعبارةٍ متلاحمةٍ مؤثِّرة: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٤]

وهو تمثيلٌ لإسراعهم إلى القتال ومعاونةِ الأعداءِ إذا ما دُعوا إلى محاربةِ المسلمين، ويكونون حينئذ فى أشدِّ حال، وما ذاك إلَّا لمقْتهم الإسلامَ وشدة بُغضِهم لأهله وحبِّهم الكفرَ، وتهالُكِهم على حِزْبه فهؤلاء مرضَى القلوب، وضعافُ النفوس، يُؤثِرون العاجلةَ على الآجلة، وينقضُون العهود، ويَنسَوْن الميثاق، ولقد كانوا عاهدوا اللهَ من قبلِ غزوةِ الأحزابِ أنهم لا يَفرُّون، ولا ينهزِمون بل يَثبُتون ويصبرون فزادهم السياقُ ذمًّا وتوبيخًا: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ

---

(١) ﴿إن يريدون إلا فرارا﴾: إن نافية بمعنى ما، وفى الجملةَ قصر (بالنفى وإلا) يؤكد المعنى المراد، أى قصر إرادتهم على الهرب من القتال، دون ما ادّعوه من أسبابٍ من قولهم: إن بيوتهم عورة وفى حاجة إلى حمايتهم لها من السُّرَّاق ونحو ذلك

﴿الأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللهِ مَسْئُولًا﴾[1] [الأحزاب: ١٥]

وقد جاءت الكنايةُ عن الهزيمة والفرارِ بتولِّى الأدبار ، لأن الفارَّ المنهزمَ يولِّى ويُعطى ظهرَه للذى فَرَّ منه ، وإن الله سيسألُهم عن ذلك العهد ، ويُجازيهم على نقضه.

ثم أخبر سبحانه أن الفرارَ من الجهاد لا يؤخِّرُ الآجالَ ولا يُطيلُ الأعمار ، وأنه لا شىءَ يمنعُ من قدَرِ الله تعالى وقضائه ، لتكونَ لنا فى ذلك عبرةٌ ، ونَثْبُتَ مع الحق أينما كان ، ولنتدبر: ﴿قُل لَّن ينفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾﴿قُلْ مَن ذَا الَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ اللهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٦، ١٧]

❊ ❊ ❊

(١) وقبلُ: ظرف مبنى على الضم فى محل جرٍّ بمن؛ لأن المضاف إليه محذوف ونُوى معناه، أى قد كانوا عاهدوا الله من قبل ذلك، أو من قبل غزوة الأحزاب ونحوه، كقوله تعالى من سورة الروم: ﴿لله الأمر من قبلُ ومن بعدُ﴾ أى من قبل هذه الغلبة ومن بعدها، أو من قبل كل شئ ومن بعد كل شئ فهما ظرفان مبنيان على الضم لأنهما تعرَّفا بحذف ما أضيف إليهما وقد نوى معنى المضاف إليه، قال صاحب الصحاح: فمتى حذفتَ المضاف إليه لعلْم المخاطَب بَنَيْتَهما على الضمِّ لِيُعلم أنه مبنىٌّ، إذ كان الضمُّ لا يدخلهما إعرابًا، لأنهما لا يصلح وقوعهما موقعَ الفاعل ولا موقع المبتدأ ولا الخبر.

١٧٣ - ج - المعوِّقون

وفى شأن المنافقين ومسالكهم فى غزوة الأحزابِ يقولُ الله تعالى:

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الآية:١٨]

فهذا نموذجٌ سَعَى إلى تَوهين العزائم ، وتثبيطِ الهمَمِ بُغْيَةَ إضْعافِ موقفِ المسلمين يومَ الخندقِ ، وكان أملُهم أن تكونَ الغلَبَةُ لجموع المشركين.

وفى معرِض التذكيرِ بنعمة اللهِ على عبده ورسولِه وأصحابِه يوم الأحزاب ، إذ نصرهم اللهُ نصرًا مؤزَّرًا ، وهَزَم الأحزاب ، وخاب الساعون بالفتنة والفساد ، فى هذا السياقِ يبيِّنُ اللهُ عزَّ وجل ما كان عليه هذا الفريقُ من الخُبْث وسوءِ النوايا ، وما كانوا يُضمِرُونه من الشرِّ للمسلمين ، وما سعَوا إِلى الوصول إِليه من زعزعة صفوفِ الموحِّدين وخدمةِ المشركين المتألبين ، فى حين أنهم كانوا يُظهِرون الإخلاص ويُعطون من طرف اللسانِ حلاوةً ، وقلوبُهم تَتَّقِدُ بالشر والحقد.

لقد استخدموا الحِيَلَ لتثبيط المسلمين عن القتال ، وصرفِ المؤمنين عن نصرة رسولِ اللهِ ﷺ ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾.

تقول: عاقنى عن كذا صرَفنى عنه ، ومنعنى عن الوجْه الذى أُريده وعَوَّق بتضعيف وسَطه يدلُّ على التكثير ، والمعوِّقُ اسمُ الفاعل منه والعَوْقُ والتعويقُ والاعتياقُ معناه: المنْع والصرفُ والتثبيط ، ويقال: عاقه يَعوقُه ، وعَوَّقه واعتاقَه بمعنى واحد.

وهؤلاء إِن خفِى أمرُهم على العباد فإنه لا يخفى على ربِّ العباد المطَّلعِ على النوايا وما تُكِنُّه الصدور ، وفى وسَط المخاوفِ التى أَحدقت

بالمسلمين كانوا يقولون لهم: تعالَوا إلى ما نحن فيه من الإقامة والأمنِ والراحة ، ولا تشهدوا مع محمدٍ القتالَ ، كانوا يُرسِلُون إلى المسلمين بهذا بعد أن تركُوا مواقعَهم ورجعُوا إلى بيوتهم بحجةِ أنها عورةٌ ، وأنها فى حاجةٍ إلى حمايتِهم وهم كاذبون فيما ادَّعَوه ، فَسَعَوْا إلى إظهار المودَّة للناس وإظهارِ الخوفِ عليهم من إطباق المشركين لقلةِ عددِهم بالقياس إلى كثرة عدوِّهم ، ومـمَّا قالوه للمسلمين: ما محمدٌ وأصحابُه إلاَّ أَكَلَةُ رأس ، وهو هالكٌ ومَن معه ، فهلُمَّ إلينا بعيدًا عن ساحة المواجهة.

والتعبير بـ «أكَلَة رأس» كنايةٌ عن العدَد القليل[1] ، أى: هم قليلٌ يُشبِعُهم جملٌ واحدٌ ونحوُه ، وأكَلَة: جَمْع آكِل.

كما أرسل اليهودُ إلى مَن عرفوهم مِن ضعاف الإيمان يقولون: هلُمَّ إلينا ، أى تعالَوا ، وفارِقُوا محمدًا ، فإنه هالكٌ ، وإن أبا سفيانَ إن ظفِر لم يُبْقِ منكم أحدًا.

ومنهم مَن كان يقول: لقد أُحيط بمحمد وأصحابه ، رغبةً فى زعزعة النفوسِ ، ولنتدبر: ﴿وَالْقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِم هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾

هلمَّ: اسمُ فِعْلِ أمر ، والمعنى: تعالَوا إلى ما نحن فيه من الإقامة والأمْن والدَّعَة ، ولا تشهَدُوا مع محمدٍ قتالاً فإنا نخاف عليكم ويَستوى فى «هَلُمَّ» الواحدُ والمثنَّى والجمعُ ، والمذَكَّرُ والمؤنثُ فى لغة الحجازيِّين: تقول: هَلُمَّ يا إبراهيمُ ، ويا إخوانى هلُمَّ إلىَّ ، ويا أَخَوَىَّ هَلُمَّ ، ويا فاطمةُ هَلُمَّ ، وغيرُ الحجازيِّين يقول: هلمُّوا للجماعة ، وهلُمِّى للواحدة ونحو ذلك «والقَائِلين» هم المثبِّطون والمعوِّقون من المنافقين واليهود.

---

(١) أكلة رأس: كناية عن صفة وهى «قلة العدد»

الصورة النفسية للمثبِّطين:

وقد رَسَمت الآياتُ لهؤلاء المثبِّطين المعوِّقين صورةً نفسيةً أبرزتْ ما انطوت عليه قلوبُهم من ضعفٍ ولؤْم وفسادِ طَبْع ، وحدَّدت سماتِهم وبيَّنت خصالَهم وأخلاقَهم ، وقد جاءت هذه اللوحةُ البديعةُ فى إِيجازٍ وإعجازٍ ودقةٍ وروعة ، فهم يعيشون مع المسلمين بصورهم وأشكالِهم ومعسولِ كلامِهم ، ويُظهرون المودةَ والنُّصرةَ وهم فى حقيقتهم:

أشحَّاءُ بالخير ، بخلاءُ على إخوانهم المؤمنين بالجَهْد وبالمال ، وبكل ما فيه منفعةٌ معنويةٌ أو مادية ، وهذا الجانبُ من الصورة النفسيةِ فى قوله تعالى: ﴿أَشِحَّةً عليْكم﴾ وهو جمْعُ شحيح ، من الشُّح ، وهو البُخل مع الحرص ، وقد ظَهر ذلك من إِحجامهم عن المشاركة فى حفْر الخندق وضنِّهم بالمال يُنفقونه فى سبيل الله ، وفى مواساة فقراءِ المسلمين.

وهم مع الشُّحِّ؛ جبناءُ ، تَضطربُ نفوسُهم عند المخاوف ، وتكاد عندها تنخلعُ قلوبُهم ، وقد جاء وصْفُ هذه الحالةِ النفسيةِ للمنافقين عند الخوفِ الذى قد تبدو أسبابُه للمسلمين ، وتظهرُ بوادرُه ، بقوله سبحانه: ﴿فَإِذَا جَآءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ [الأحزاب: ١٩]

وتأمَّلْ خطوطَ الصورةِ البديعةِ الرائعة: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ إنها تُوحى بالتوجُّس والخوفِ من أن يكونَ الرسولُ ﷺ قد كشَفَ أمرَهم ، وعرَف حقيقةَ ما فى نفوسهم ، فهم فى خوفٍ من قتال العدوِّ إِذا أقْبل ، وفى خوفٍ من عاقبة أمرِهم مع النبىِّ ﷺ إذا غلَب وظَفر ، إنهم لذلك فى غايةِ القلقِ وذَهابِ العقولِ، لأجل ذلك: ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُم﴾ وهكذا سبيلُ الجبانِ ينظرُ يمينًا وشمالاً محدِّدًا بصرَه ، وربما غُشِى عليه ، ثم ضَرَب اللهُ

مثلا لحالتهم هذه بحالة الذى يُغْشَى عليه من الموت ، فالجبانُ فى حالة المخاوف تدورُ عيناه ، من أثر اضطرابِ نفسه من شدة الذُّعر: ﴿كالَّذى يُغْشَى عَلَيْه من الْمَوت﴾ أى: إن الذعرَ يكادُ يوصلُهم إلى حالةٍ تُشبه حالةَ من أخَذَ الموتُ يَغْشاه ، وهكذا خوفُ هؤلاء الجبناءِ من القتال وعند ظهورِ أسبابه وبوادره.

أما فى حالة الأمنِ فإنهم يُبْدون الشجاعةَ والنجدةَ ، ويَبْسطون ألسنَتَهم فى المؤمنين بما لا يليقُ: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْر﴾ [الأحزاب: ١٩]

أى: فإذا ذهب الخوفُ ، وحيزَت الغنائمُ ، ووقَعت القسمةُ نَقلوا ذلك الشحَّ ، وتلك الضِّنَّةَ إلى الخير الذى هو المالُ والغنيمَةُ ، ونَسُوا تلك الحالَ الأولى ، واجترءُوا عليكم ، وضربُوكم بألسنتهم ، وقالوا: أَعطونا من الغنيمةِ ، وفِّرُوا لنا قسمتَنا فإنَّا قد شهدناكم ، وقاتلْنا معكم وبمكاننا غلبتُم عدوَّكم ، وبنا نُصِرتم عليه ، كما قال تعالى من سورة النساء فى بيان حالِ هؤلاء المنافقين: ﴿الَّذينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُم فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللهِ قَالُوا أَلَمْ نكُن مَّعَكُم وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمنين﴾ [الآية: ١٤١]

أى: يتربصون وينتظرون ما يحدُث للمسلمين من خير أو شرٍّ أو من نصْر وهزيمة ، فإن نَصرَهم اللهُ بسطُوا ألسنَتهم وقالوا: ألم نكن معكم فى الجهاد ، فأَعطونا نصيبَنا من الغنائم ، وإن كان للعدوِّ نصيبٌ من النصر أَظهروا الميلَ نحوه ، وقالوا لهم: لقد كان فى إِمكاننا قتْلُكم وأسرُكُم ولكنَّا أَبْقَينا عليكم ، ودفعْنا عنكم المؤمنين بتخذيلهم ، وبمراسلتنا

إياكم بأسرارهم ، ثم يطلبون نصيبَهم مِمَّا أصابوه من الأموال.

إنهم يعيشون بوجهين: ولا خيرَ يُرجَى منهم للمؤمنين ، وهم أكثرُ الناسِ حرصًا على المنافعِ الماديةِ ﴿أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾ لقد جمعوا بين الجبنِ والكذبِ وقلةِ الخير.

قال قتادة: أَمَّا عند الغنيمةِ فأشَحُّ قومٍ ، وأسوأُه مقاسمةً: أَعطُونا أعطونا ، قد شهدنا معكم ، وأمَّا عند البأس فأجبنُ قوم وأَخْذلُه للحق.

﴿أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا﴾

[الأحزاب: ١٩]

ويَطرح صاحبُ الكشاف سؤالًا فيقول: فإن قلتَ: هل يَثبتُ للمنافق عملٌ حتى يَرِدَ عليه الإحباطُ؟ ثم يُجيبُ عنه: قلتُ: لا ، ولكنَّه تعليمٌ لـمَن عسى يظنُّ أن الإيمانَ باللسان إيمانٌ وإن لم يُواطئه القلب ، وأنَّ ما ما يعملُ المنافقُ من الأعمال يُجدِى عليه ، فبيَّنت الآيةُ: أن إيمانَه ليس بإيمان ، وأنَّ كلَّ عملٍ ـ من الصالحات ـ يُوجَدُ منه باطلٌ ، وفيه بعثٌ على إتقانِ المكلَّفِ أساسَ أمرِه وهو الإيمانُ الصحيح ، وتنبيهٌ على أن الأعمالَ الكثيرةَ من غيرِ تصحيح المعرفةِ كالبناء على غير أساسٍ ، وأنها مِمَّا يَذْهبُ عند الله هباءً منثورًا.

وهؤلاء المنافقون لفَرْط جُبنهم وضعفِ نفوسِهم ﴿يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾ أى: بل يتوهمون أنهم قريبٌ منهم ، وأنَّ لَهُم عودةً إليهم ﴿وَإِن يَأْتِ الأَحْزَابُ﴾ أى: كرةً ثانية: ﴿يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى الأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُم﴾ [الأحزاب: ٢٠]

أى: يتمنَّى المنافقون إذا فُرِض رجوعُ الأحزابِ للقتال مرةً أخرى أن يكونوا غُيَّبًا عنكم فى البادية مع الأعرابِ بعيدين عن مسرح القتال حذرًا

من القتْل لشدةِ ذُعرِهم وجُبنِهم ، وهناك يسألون عن أخباركم أيُّها المؤمنون ، وما كان من أمركم مع عدوِّكم: ﴿وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٠]

أى: ولو كانوا بين أظهرِكم ساعةَ القتالِ ما قاتلوا معكم إلا تظاهُرًا ورياءً وسمعةً ومُداراةً ، لأن دوافعَ الجهادِ لديهم ليست قائمةً ولا ثابتةً فى نفوسهم.

نموذج ونموذج:

وبعد أن كشفَ سياقُ الآياتِ من سورة الأحزاب عن مساوئِ هذا النموذجِ من البشر ، دَلَّ الناسَ على النموذج الكاملِ الذى اجتمعت له كلُّ سماتِ الكمالِ البشرى ، ودعاهم إلى الاقتداء به إذا أرادوا الترقِّىَ فى معارجِ هذا الكمالِ بجانبيه الروحِى والمادى ، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]

أى: اقتدُوا به فى أقواله وأفعالِه وأحوالِه ، واتَّخِذُوه أسوةً لكم فى الصبر والمصابرةِ والمرابطةِ والمجاهدة ، وانتظارِه الفرَجَ من ربِّه على النحو الذى ظهر لكم فى غزوة الأحزابِ ، ففى الاقتداءِ به ﷺ الفلاحُ والفوزُ والنجاةُ والحياةُ الطيبة.

وفى مقابل موقف المنافقين بيَّن السياقُ ما كان من أهل اليقينِ الصادقِ من صبْرٍ وثباتٍ وحُسْنِ توكُّلٍ على الله ووفاءٍ بالعهد ، وما أعدَّه اللهُ لهم من حُسْنِ العاقبةِ لتتضحَ بالمقابلة مزايا كلِّ فريقٍ وليختارَ ذوو العقولِ الراجحةِ طريقَ أهلِ الإيمان والتُّقى والإخلاصِ ، ولنتدبر: ﴿وَلَمَّا رَأَى

الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُه وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُه وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا۞مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْه فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ۞لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا۞ [الأحزاب: ٢٢ـ٢٤]

❊ ❊ ❊

من دعاء الرسول ﷺ يوم الأحزاب:

دعا رسول الله ﷺ يوم الأحزاب على المشركين فقال:

«اللَّهُمَّ مُنَزِّلَ الكتابِ، سريعَ الحسابِ، اللَّهُمَّ اهْزِمِ الأحزابَ، اللهُمَّ اهْزِمْهُم وَزَلْزِلهمْ»

[أخرجه البخارى ومسلم وبعض أصحاب السنن ورواه عبد الله ابن أبى أوفى]

وإنما خصَّ الدعاء عليهم بالهزيمة والزلزلة دون أن يدعو عليهم بالهلاك، لأن الهزيمة فيها سلامةُ نفوسهم، وقد يكون ذلك، رَجاءَ أن يتوبوا من الشرك والكفر ويدخلوا فى الإسلام.. وهذا من رحمته وحلمه ﷺ

في ظلال سورة البروج:

١٧٤- أ - سورةُ البُروجِ تدْعونا إلى التَّفكُّر

سورةُ البروجِ مكيَّةٌ ، وآياتُها ثنتان وعشرون ، نزلت بعد سورةِ الشمس ، وترتيبُها فى المصحَف بعد سورةِ الانشقاق.

وفى سورة الانشقاقِ جاء التوبيخُ والتهديدُ لكفَّار قريشٍ الذين جَحَدوا قُدْرةَ الله ، وأنكرُوا البعثَ للحسابِ والجزاءِ ، وأمامَهم فى الكون آياتٌ بيِّناتٌ شاهداتٌ بكمال قدرته سبحانه ، وإذا قُرِئَ عليهم القرآنُ لايخضعُون لبراهينه ، ولا يُقِرُّون بإعجازه ، ولا ينقادُون للدلائل الـمُوجِبَةِ للإيمان مع وضوحِها وقُوَّتِها ، وذلك لعنادهم وتَعنُّتِهم وحَسدِهم الرسولَ محمداًﷺ على نعمة النبوة ، ولجمُودهم على ما وَرِثوه من عقائدَ سخيفة ، ولنتدبَّر: ﴿فَمَا لَهُم لاَ يُؤْمِنُون۞وإذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لاَيَسْجُدُون۞بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُون﴾ [الانشقاق: ٢٠-٢٢]

إنهم يُكذِّبون لمجرَّد الصدِّ ، ولغلَبَةِ الهوى على العقلِ ، ويُعرِضُون عن التدُّبر الصحيحِ فى آى القرآن وآياتِ الكون ، بل ويُوجِّهون قُواهم إلى إيذاء النبىِّﷺ وأصحابِه ، ويَطْوُون صُدورَهم على الـمكْر بهم وخداعِهم ، وعلى العناد والاستمرارِ عليه ، وقد أنذَرهم السياقُ من سورة الانشقاقِ بأن اللهَ أعلمُ بما يُخفونه فى نُفوسهم ، وبما يُجْمِعُون عليه فى قلوبهم من تأكيد العزمِ على إيذاءِ المسلمين بأنواع الأذى والرغبةِ فى الكيْد لهم ، كما أنذرتهم السورةُ بأنهم لن يُفلتوا من العقوبة إن هم أصرُّوا وماتُوا على جحودهم وتعنُّتهم: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُون۞فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيم﴾ [الانشقاق: ٢٣، ٢٤]

وفى سورة البروجِ جاءت التسليةُ للنبىﷺ ولأصحابه ببيان أن هذه شِنْشِنَةُ[1] مَن تقدَّمهم من الأمم المتكبِّرةِ ، وأن تلك هى العادةُ الغالبةُ على نفوس المعاندين ، فهم يمكرون بالمؤمنين ، ويعملون على فتنتهم بأنواع الأذى والشرِّ ، وقَدّمت سورةُ البروج نَموذجًا ومَثَلاً لقوم جَبَّارين غلاظِ الأكبادِ ، حفروا الأخدودَ وأضرمُوا النيرانَ محاولين فتنةَ قومٍ من المؤمنين الصالحين عن دينهم وإلَّاعذَّبوهم بالإلقاء فى النار . .

وفى هذا تثبيتٌ لأفئدة المؤمنين ، وتصبيرٌ لهم على ما يَلْقَوْنَه من الأذى فى سبيل الله ، كما أنَّ فيه وعيدًا وموعظةً لقريش وزجْرًا عن التعنُّت والتجبُّر .

وقد بدأت السورةُ الكريمةُ بالقسم: ﴿والسَّمآءِ ذَاتِ الْبُروجِ۝والْيَومِ الْمَوْعُودِ۝وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ [البروج: ١-٣]

وفى القَسَم بالسماء ذاتِ البروجِ تنبيهٌ للعباد لإجالة الفكْرِ فى هذا الخَلْقِ العظيم ، وما فيه من الغرائب والعجائبِ الدالةِ على كمال قدرة الخالق ، وكمالِ حكمته وتدبيره وعلْمه ، إذ فى نظَر العقلِ السليمِ يَستحيلُ أن يُوجدَ هذا العالَمُ العجيبُ المتَّسقُ نَفْسَه ، أو أَن يُوجَدَ بِدُون مُوجِدٍ وإنَّ ما فى السماء والكواكبِ والنجومِ من جمالٍ وروعةٍ واتِّساقٍ ما يَدعو العقلَ المتدبرَ إلى الإقرار بأن الصانعَ لابدَّ أن يكونَ: قادرًا ، عالـمًا مُريدًا حيًّا ، حكيمًا ، مُبَاينًا للمصنُوع ، ولا بدَّ أن يكون واحـدًا لاثانىَ له فى الوجود ، وبأنه سبحانه المنفَردُ ذاتًا وصفاتٍ وأفعالاً بالأُلوهية والرُّبوبية والأزليَّة والأبَديَّةِ ، والمنفرِدُ بالخلْق والتدبير لا مشاركَ له فى شىء من ذلك: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُم لَوَاحِدٌ۝رَبُّ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ [الصافات: ٤، ٥]

---

(١) الشِنْشِنة: بكسر أوله وثالثه: العادةُ الغالبةُ، وفى المَثَل: «شِنْشِنَة أعرفها من أخزَم» يُضرب فى قرب الشبه فى الخلق . والجمع: شناشن.

وإنَّ البروجَ بعضُ ما فى السماء من عجائبِ الخلْق ، وغرائبِ الصَّنعة، وآياتِ القُدرة الكاملة وهى: النجومُ أو أنواعٌ منها أو المنازلُ الاثنا عشرَ التى تسيرُ فيها الشمسُ والقمرُ على نحوٍ مخصوصٍ مُقدَّر: ستةٌ منها فى شْمال خَطِّ الاستواءِ وستةٌ أخرى فى جَنوبه ، والبروجُ فى اللغة تُطلَقُ على الحُصون الضخمةِ والقصورِ العالية ، وتُطلَق على هذه المنازل وعلى النجومِ على سبيل الاستعارةِ ، وفَسَّرها بعضُهم: بالحَرَس ، وبالخَلْق الحَسَن ، أى والسماءِ ذاتِ المنازلِ ، أو ذاتِ النجوم ، أو ذاتِ الخلْق الحَسَن ، أو ذاتِ الحَرَس.

وبعد القَسم بما نُشاهِدُ بعضَه ونلمسُ آثارَه من الضوءِ والدفْء والبركاتِ الكثيرةِ الناجمةِ عن التناسُق بين هذه الأجرامِ السماوية ، ممَّا يترتَّبُ عليه اختلافُ الفصول فى العام ، والتقلُّبُ بين الحرارةِ والبرودة وتعاقُبُ الليلِ والنهارِ وغيرُ ذلك ، بعد هذا القَسم أقسم سبحانه باليوم الذى وَعَد العبادَ أن يَجتَمعوا فيه ولم يَرَوْه بعْدُ ، وهو يومُ القيامة ﴿وَالْيومِ الْمَوْعُود﴾ وفى القَسَم بيوم الفْصلِ والجزاءِ تعظيمٌ لشأنه ، وتنبيهٌ للعباد ليُعِدُّوا أنفسَهم لهذا اليومِ العظيمِ بالإيمان الصحيحِ والعملِ الصالح.

ثم أقسم اللهُ عزَّ وجل بجميع ما خلَق فى هذا العالم ، فقال: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُود﴾ إذ إن كلَّ ما خلَقَه شاهدٌ على جليلِ قُدرته وعظيمِ حِكْمَته سبحانه:

وفى كلِّ شىءٍ له آيةٌ تدلُّ على أنه واحدُ

وإنَّ كلَّ ذى عينين يرى ما هو مشهودٌ من بدائع الصَّنعة فى هذا الكون العظيم ، ويَشهدُ فيما يقعُ عليه الحِسُّ منها آياتِ القُدْرة ، وبراهينَ الحكمةِ ، فالشاهدُ هو: الـمُدْرِكُ ـ بكسر الراء ـ والمشهودُ هو المُدْرَكُ ـ بفتْحها ـ أو الرائى والمَرئىِّ ، وما جاء فى أقوال العلماء فى تفسيرهما إنما

هو من قَبيل التمثيلِ كقولهم: فى يوم الجمعةِ إنه الشاهدُ ؛ لأنه يشهدُ على كل عاملٍ بما عمِل فيه ، وإنه ـ أيضًا ـ المشهودُ لأن الملائكةَ تَشْهَدُه.

وما جاء عن يوم الجمعة من أنه: شاهدٌ ومشهودٌ جاء أيضًا عن يوم عرفةَ ، وعن يوم النحرِ ، وإِنَّ الأيامَ والليالىَ تشهدُ يومَ القيامةِ بما صنع الـمُكَلَّفُ فيها.

وجاء عن ابن عباس: المشهودُ يومُ القيامة ، لقوله تعالى: ﴿ذَلكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلكَ يَوْمٌ مَّشْهُود﴾ [هود: ١٠٣]

وعنه أن الشاهدَ هو اللهُ تعالى لقوله تعالى: ﴿وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩]

وقيل: الشاهدُ هو محمدٌ ﷺ لقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]

وفى سورة الأحزاب: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا ومُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الآية: ٤٥]

وقيل: الشاهدُ الحَفَظَةُ ، والمشهودُ: بنو آدمَ ، ثم إن المالَ سيشهدُ على صاحبه ، والأرضَ ستشهدُ بما عُمِل عليها ، وقد ناسَب هذا القَسَمُ ذكْرَ أصحابِ الأُخدودِ الذين عَذَّبوا أولياءَ الله ، وهم شهودٌ على ما يَفْعلُون بهم ، والملائكةُ شهودٌ عليهم بذلك ، وجوارحُهم تشهدُ به عليهم ، والمشهودُ هم المؤمنون الذين عُذِّبوا بالنار.

يقول ابنُ القيِّم: «فالمشهودُ من أعظمِ آياته وكذلك الشاهدُ ، فكلُّ ما وَقع عليه اسمُ شاهدٍ ومشهودٍ فهو داخلٌ فى هذا القسَمِ ، فلا وجْهَ لتخصيصه ببعضِ الأنواعِ أو الأعيانِ إلا على سبيلِ التَّمثيل».

والواوُ: فى المقْسَم به ﴿والسماء ذات البُروج﴾ . . الآيات ، حرفُ قَسَم وجَرٍّ ، والسماءِ: مقسَمٌ به مَجرورٌ وعلامةُ جَرِّه الكسرةُ الظاهرةُ

والجارُّ والمجرورُ متعلِّقٌ بفعل قسَمٍ محذوف[1].

أما الـمُقْسَمُ عليه وهو جوابُ القسم: فقد قال بعضُهم هو: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُود﴾ على حذف اللامِ وقَدْ ، والتقديرُ: لقد قُتِل ، على أن الجملةَ خبرٌ لا دُعَاء بمعنى لقد قُتل أى هَلك بغَضَب الله ولَعْنَته ، وقال بعضُ المحققين: الأظهرُ أنها دُعائيَّةٌ دالَّةٌ على الجواب ، أى: أنها خبريةٌ فى اللفْظ ودعائيةٌ فى المعنى ، والقتْلُ كنايةٌ عنَ اللعْن من حيثُ إن القتلَ أغلظُ العقوباتِ لا يقع إلا عن سُخطٍ عظيمٍ يُوجب الإبعادَ عن الخير والرحمةِ الذى هو معنى اللَّعن.

فكانَ القتلُ من لوازم اللَّعْن ، كأنه قيل: أُقسِم بهذه الأشياءِ أن كفارَ قُريش لملعونون أَحِقَّاءُ بأن يُقال فيهم: قُتِلُوا ، كما هو شأنُ أصحابِ الأخدودِ ، وذلك مبنىٌّ على أساسِ أن السورةَ ورَدت لتثبيتِ المؤمنين على ما هم عليه من الإيمان ، وتصبيرِهم على أذيَّة الكفَرة ، وتذكيرِهم بما جرى مِمَّن تقدَّمهم من التعذيب لأهل الإيمان ، وصبرِهم على ذلك حتى يأنسَ المؤمنون فى مكَّةَ بمَن سبقوهم ، ويصبروا على ما كانوا يَلْقَون من قومهم ، ويعلَموا أنهم مثلُ أولئك عند الله عزَّ وجل فى كونهم ملعونين مطرودين من رحمته.

وقال بعضهم: الأظهرُ أن يُقَدَّر الجوابُ: إن كفار قريشٍ لمقتولون كما قُتِل أصحابُ الأخدود ، فيكون وعدًا لهﷺ بقتْل الكفَرة المتمرِّدين لإعلاء دينه ، ويكونُ معجزةً بقتْل رُؤوسهم فى غزوة بدْر. وظاهرُ هذا الرأى إبقاءُ القتْل على حقيقته ، واعتبارُ الجُملةِ خبريةً لا دعائية إنشائية.

---

(١) الواو تكون حرفَ جرٍّ فى القسَم، وتجرُّ الاسمَ الظاهرَ مثْل ما جاء فى الآيات وكقولك: واللهِ لأجتهدنَّ. والتاء تكون حرف جرٍّ فى القسم ـ أيضا ـ وتجرُّ لفظين بعينهما وهما لفظَ الجلالة وربّ مضافًا للكعبة أو إلى الياء مثل: ﴿تاللهِ لأكيدنَّ أصنامكم﴾ وقول العرب: تَرَبِّ الكعبةِ وتَربِّى لأفعلنّ.

واختار ابنُ الأنباريّ أن يكونَ الجوابُ المحذوف هو «لَتُبْعَثُنَّ» أى: أُقسِم بهذه الأشياء لَتُبعثُنَّ ، وفيه تهديدٌ ووعيدٌ للمعاندين بأن الجزاء آتٍ لا ريبَ فيه.

وقال ابن القيم فى كتابه التِّبيان فى أقسام القرآن(١): والأحسنُ أن يكونَ هذا القسَمُ مستغنيًا عن الجواب ، لأن القصدَ التنبيهُ على المقسَم به ، وأنه من آيات الربِّ العظيمة ، ويبعُد أن يكونَ الجوابُ ﴿قُتِلَ أَصْحابُ الأُخْدودِ﴾ الذين فَتنوا أولياءَه وعذَّبوهم بالنار ذاتِ الوقود.

ثم وَصفت السورةُ الكريمةُ حال هؤلاء ، وما جرى لأولياء الله على أيديهم ، وما كان منهم من احتسابٍ وَرِضًى وصفًا بديعًا ، ورَسَمت للمَشَاهِد صُورًا حيَّةً فى خُطوط أوضحت الأبعادَ المكانيةَ والأشخاصَ الشاهدَ منهم والمشهودَ ، والنارُ تتلَّهب ، وإشراقاتُ الإيمان على وجوه الموحِّدين الصابرين ، وابتسامةُ الرِّضى تزيدُهم بهاءً ، وهم يَستقبلون الحياةَ الأُخرى ، وقد رَضِى اللهُ عنهم ورضُوا عنه ، وقد جاء ذلك بألفاظٍ قويةِ الدلالة والإيحاء ممَّا يجعلُ السامعَ أو القارئَ كالـمُشاهد يرى وينفعلُ ويسمعُ ، ويُشارِكُ أحبابَ اللهِ فى فرحتهم بلقاء الله ويشارِكُ الملائكةَ فى صَبِّ السُّخط والغَضب واللَّعن على المتعنِّتين القُساةِ المتجبِّرين ويشعرُ باستقبال ملائكةِ الرحمن لأوليائِه وأحبائِه وأصفيائِه رضى الله عنهم ، وجعلَنا منهم بفضله وإحسانِه.

❋ ❋ ❋

---

(١) هذا الكتاب جَمُّ الفائدة، عالى القيمة، دقيقُ الفِكْر، عميقُ النظرة، واضح الأسلوب، مشرق، عظيم النفع لطلاب العلم والراغبين فى رِياضه اليانعة، والوقوف على دقائق من الإعجاز والدلائل والبراهين، والهدف أن تهتف القلوب، بإخلاص التوحيد، والإقرار لله عز وجل بالوحدانية وكمال الحكمة وكمال التدبير، وكمال العظمة (أرجو أن يلتفت لهذا الكتاب القادرون والناشرون والمقررون للمناهج فى الجامعات والمعاهد الإسلامية)

١٧٥ - ب - "وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ"

وقَعت قصةُ أصحابِ الأُخدودِ فى زمنِ الفَتْرةِ بين نبىِّ اللهِ عيسى عليه السلام وخاتَمِ النبيِّين ﷺ ، والأُخدودُ والخَدُّ: الشَّقُّ العظيمُ المُستطيلُ فى الأرض كالخَندق والنهرِ عميقِ القَرار ، وجمعُه أخاديدُ ، وأصحابُ الأخدودِ فى سورة البُروج قومٌ غِلاظُ الأكباد ، قُسَاةُ القلوبِ ، جاءت تفاصيلُ قِصَّتِهم مع أهل الإيمانِ والصِّدْقِ فى صحيح مسلمٍ وغيرِه مع اختلافِ الأخبارِ فى موطِنِ وقوعِها ، وفى بعض أحداثِها ، وفى الأسماء المُصاحبةِ لها ، وإن كان الجوهرُ واحدًا ، وهو الذى عُنى به القرآنُ الكريم للعِظة والاعتبارِ ، ولتسليةِ أهل الإيمانِ واليقينِ فى عصرِ النبىِّ محمد ﷺ وغيرِه إلى أن تقومَ الساعةُ.

والعجيبُ أن هؤلاء الجبابرةَ نَقَمُوا وعابُوا على أولياء اللهِ الصالحين إيمانَهم بالله العزيزِ الحميدِ ، وسكونَ نفوسِهِم ، وطمأنينةَ قلوبِهم ، وإنَّ هذا الوصفَ كان يَقتضى إكرامَهم ، ومحبَّتَهم ، وتوقيرَهم ، بل وبذْلَ كُلِّ جُهْدٍ لرعايتهم والعنايةِ بأمرهم ، ولكنَّهم عاملُوهم بِضدِّ ما يَقتضى أن يُعَامَلُوا به ، وهذا شأنُ أعداءِ اللهِ دائمًا يَنْقِمُون على أوليائه وأحبَّائه ما يَنبغى أن يُحبُّوا ويُكْرَمُوا لأجله ، كما جاء فى سورة المائدة: **﴿قُلْ يَآ أَهْلَ الْكتَابِ هَلْ تَنقمُونَ منَّا إِلَّآ أَنْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزلَ من قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُم فَاسقُونَ﴾** [الآية: ٥٩]

وإنَّ قومَ لوطٍ عليه السلامُ عابُوا على أهل الإيمانِ طهارتَهم وخوفَهم من الله ، وسعَوْا إلى إخراجهم من قريتِهم ، فقالوا: **﴿أَخْرِجُوهم مِّن قَرْيَتِكُم إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾** [الأعراف: ٨٢]

إنها المقاييسُ غيرُ المستقيمةِ فى تقدير الأمورِ ، ولو تدبَّروا تدبُّرًا صحيحًا لرأَوْا أن أهلَ الصلاحِ والتقوى والاستقامةِ أولى بالإكرام والإعزازِ ، بل ويَنبغى اتباعُ ما هم عليه من الخير.

وكم فى الحياة من نماذجَ لشطَطِ أهلِ الباطلِ وبغْيِهم وسُخريتِهم من أهل الحق ، وعلى سبيل المثالِ نرى:

أنَّ أهلَ الإشراك يَنقِمون من الموحِّدين تجريدَهم التوحيدَ وإخلاصَ الدعاءِ والعبوديةِ لله وحده ، وأن أربابَ البِدَع يَنقِمون من أهل السُّنَّةِ تجريدَ مُتابَعَتِها ، وتَرْكَ ما خالفَها ، والسعْىَ لإحيائها والعملَ على الاقتداء والاتِّباع ، ونرى أيضا أَنَّ أصحابَ الشبُهاتِ والشهواتِ يَسخرون من أهل الاستقامةِ الذين غَضُّوا أبصارَهم ، وكفُّوا جوارِحَهم عن معاصى الله ، وأَحلُّوا الحلالَ ، وحرَّموا الحرامَ على أنفسهم ، إن هؤلاء وأمثالَهم من العصاة والمتمردين فيهم شَبَهٌ من أصحاب الأُخدود الذين عذبوا المؤمنين ، وبينهم وبين أولئك نسبٌ قريبٌ أو بعيدٌ ، وفى أصحاب الأخدودِ يقول المولى عزَّ وجل: ﴿**قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ۝ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ۝إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ۝ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ۝وَمَا نَقَمُوا مِنْهُم إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ**﴾ [البروج: ٤ـ٨]

وفى قوله سبحانه ﴿**قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ**﴾ ما يدلُّ على الإخبار بمصير المؤمنين الصالحين على أيدى عُتاة المجرمين الذين أَضرمُوا النارَ فى الأُخدود وأَلْقَوْا فيه الموحِّدين ، فاستقبلُوا الموتَ بصبْرٍ وثباتٍ راغبين فى منازلِ الشهداء الأبرارِ الأطهار.

كما يَحْتملُ الإخبارَ عن مُوقِدى النار ، إذْ رُوِىَ أن اللهَ قَبَضَ أرواحَ المؤمنين الذين أُلْقُوا فى الأُخدود قبل أن يَصِلُوا إلى النار ، وخرجت نارٌ

من الأُخدود فأحرقت الَّذين هم عليها قُعودٌ ، وعلى هذا فالجملةُ خبريَّةٌ على الحقيقة ، ويُحتَمَلُ أن تكونَ الجملةُ خبريَّةً فى اللفْظ إنشائيةً فى المعنى إذا كان المقصودُ الدعاءَ على هؤلاء الكفارِ بالطَّردِ والإبعادِ من رحمة اللهِ عزَّ وجل إذْ لفظُ القَتل يُستَخْدَمُ فى معنى اللَّعْنِ والطَّرْد.

والنار: بدلُ اشتمال من الأُخدود مجرورٌ ، والوقود: الحطَبُ و﴿ذَاتِ الْوَقُود﴾ وصفٌ لها بغايةِ العِظَم وارتفاعِ اللَّهَبِ وكثْرةِ ما يُوجِبُه من الحطَب[1] ، ولقد كانت ذَاتَ الوَقودِ بأبدان الناسِ.

﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُود﴾ و: إذ ظرْفٌ لِقُتِل ، أى: لُعِن هؤلاء حين أَحرَقُوا بالنار أهلَ الإيمانِ وهم قاعدون حولَها فى مكانٍ مُشرِفٍ عليهم ويَعْرِضُون المؤمنين على النار ، ويَدْعُونهم إلى الكُفر ، فمن يَتْرُكُ دينَه تركوه ، ومن كان يثبتُ على دينه ويصبرُ عليه أَلْقَوْه فى النار وأحرقُوه ﴿وَهُم عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُود﴾ وفى هذا دلالةٌ على قسوتهم وجِدِّهم فى تعذيبهم المؤمنين ، فهم يَحضُرون هذا المشهدَ القاسيَ وكأنهم فى يومِ عيد ، كما أن بعضَهم يشهدُ لبعضٍ بأنَّ أحدًا لم يُقَصِّر فيما أُمِر به من التعذيب بالإحراقِ من غير ترحُّمٍ ولا إشفاقٍ ، وفى يوم القيامة تَشهدُ عليهم ألسنتُهم وأيديهم وأرجلُهم بما كانوا يعملون.

تأمَّل هذا المشهدَ الذى رسمتْه الآياتُ بألفاظٍ قليلة ولكنه يُعطى أبعادًا فسيحة وحركةً واضطرابًا ، ويُوحى بما وقَر فى قلوب المُلْحدين من الحِقْد والقسوة ، وبما كان عليه أهلُ الإيمانِ من الطمأنينة والسكينةِ والوفاء.

---

(١) ووجهُ إفادته ذلك أنه لم يقل: مُوقَدة، بل جُعلت ذاتَ وَقُود أى: مالكتُه، وهو كناية عن زيادته زيادة مُفرطة لكثرة ما يَرتفع به لهبُها، وهو الحطبُ الموقَدُ به، ذلك أن تعريف «الوقود» استغراقىّ والنارُ إذا مَلَكت كلَّ موقَد به عَظُمَ حريقُها ولهبُها، والغرضُ المبالغةُ فى تصوير بشاعةِ الجريمةِ والنوايا الخبيثةِ وراءها.

ولقد كشَفَ السياقُ عمَّا تُكنُّه هذه الصدورُ المريضةُ من كراهيةٍ للحق ومُعاداةِ أهله ، وأنه لا دافعَ لهم إلى ارتكاب هذه الجريمة البشعة إلا صحةُ إيمانِ الموحِّدين ، وسلامةُ عقيدتِهم ، ولنتدبر: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُم إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ أى: وما أنكر الكفارُ من المؤمنين وما عابوا عليهم سِوى إيمانِهم وصلاحِهم ، وقد جاء السببُ بلفْظ المضارع ﴿إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا﴾ مع أن الإيمانَ وُجِد منهم فى الماضى لإرادةِ الاستمرارِ والدوامِ عليه ، فإنهم ما عَذَّبوهم لإيمانهم فى الماضى ، بل لدوامهم على الإيمان ، والاستثناءُ مُفَرَّغٌ[1] مُفصحٌ عن براءتهم مِمَّا يُعاب ويُنكَرُ بالكُلِّية على منهاج قول الشاعر

ولا عيبَ فيهم غيرَ أنَّ سيوفَهم ... بهِنَّ فُلولٌ مِن قِراعِ الكَتائب

وهو ما يسمِّيه أصحابُ البديعِ تأكيدَ المدْحِ بما يُشْبِهُ الذَّمَّ ، فما أنكروه ليس مُنكَرًا فى الواقع ، وهو غيرُ حقيقٍ بالإنكار ، كما أنَّ ما جعله الشاعرُ عيبًا ليس عيبًا ولا ينبغى أن يُعَدَّ عيبًا ، بل هو فى المدْح ويُوحى بأنهم بلَغُوا فى الشجاعة مبلغًا عظيمًا وشأْوًا بعيدًا ، وذلك كمدْح الفتى بغاية الجودِ ومُنتهاه فى قول الجَعدىّ:

فتًى كَمُلَت أخلاقُه غيرَ أنَّه ... جوادٌ فما يُبْقِى من المالِ باقيًا

لقد آمنوا بالله العزيزِ الغالبِ المنيعِ الذى يُخشَى عقابُه ، الحميدِ المُنعِمِ الرزاقِ الوهَّابِ الذى يُرجَى ثوابُه ، ويُقْصَدُ بابُه ، وتُطْلَب منه وحده الحاجاتُ ، لأنه مالكُ السمواتِ والأرضِ وما فيهما ومَن فيهما لا شريكَ

(١) الاستثناء المفرَّغ: هو ما كان غير موجب أى اشتمل على نفى أو نهى أو استفهام، وكان ناقصا (غير تام) أى حذف منه المستثنى منه، مثل ما قابلت إلا زيدًا، فزيدًا مفعول به، وسمى مفرغا لأن ما قبل إلا تفرَّغ للعمل فيما بعدها ولم يشغله عنه شىء مثل: ما جاء إلا زيدٌ فَتَرْفَعُ زيدا على الفاعلية وهكذا.

له فيهما ولا نديد: ﴿الَّذى لَهُ مُلْكُ السَّمٰوات والأَرْضِ﴾ [البروج:٩]

له كمالُ القُدرة وكمالُ العِلْم ، قال بعضُ المفسِّرين(١) ، وإنما وصَفَ ذاتَه بهذه الصفاتِ (العزيزِ ـ الحميدِ ـ مالك الـمُلك) ليُعْلَمَ أنه لم يمهلْ الكفارَ لأَجْل أنه غَيرُ قادرِ ، لكنه أَراد أن يَبْلُغَ بهؤلاء الكافرين عقابًا لم يكونوا يستوجِبُونه إلَّا بمثل ذلك الفعل ، وفيه تشنيعٌ على الكفار بغاية جهْلِهم ، حيث عَدُّوا ما هو سببُ المدحِ مَنقصَةً هى سببُ الذمِّ والقدْح

﴿وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَىء شَهيد﴾ [البروج:٩]

أى: إنه سبحانه عليمٌ بكلِّ ما يكونُ من خلْقه ، فلا تخفَى عليه خافيةٌ من أفعالهم ، وهو مجازيهم عليها ، وهو وَعْدٌ للمؤمنين ، ووعيدٌ شديدٌ لمعذِّبيهم ، وإذا عَلِمَ العبدُ أن الله تعالى شهيدٌ يَعلَمُ أفعالَه ، ويرى أحوالَه سَهُل عليه ما يُقاسيه لأجْله وابتغاء مرضاته سبحانه.

ثم أَخبر سبحانه أنه أعدَّ لمن فَتَنُوا المؤمنين عذابَ جهنَّمَ وعذابَ الـحَريقِ حيث لم يتُوبوا ، وأنهم لو تابُوا بعد أن فَتَنُوا أولياءَه وعذَّبوهم بالنار لرَحِمَهم ربُّهم بلُطفه وإحسانه ، وهذا غايةُ الكرَمِ والجودِ فقال عزوجل: ﴿إنَّ الَّذينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيق﴾ [البروج: ١٠]

قال الحسنُ: «انظُروا إلى هذا الكرم والجودِ ، يقتلون أولياءَه ويَفتِنُونهم وهو يدعُوهم إلى التوبة ، وقد فَتَنُوا أولياءَه فحَرَقُوهم بالنار ، فلا ييأس العبدُ من مغفرته وعفوِه ، فلا عداوةَ أعظمُ من هذه العداوة التى بدَت فى فتنة المؤمنين لصَرْفهم عن دينهم بالإحراق بالنار ، وليس هناك أحد أبشعُ مِمَّن حرَق بالنار مَن آمنَ بالله وحده ، وعبده وحده ، ومع هذا فلو تابوا لم يُعذِّبهم ، وألحقَهم ـ بفضله ـ بأوليائه.

---

(١) كشف الأسرار، والنقل عن تنوير الأذهان، من تفسير روح البيان لإسماعيل حقِّى.

ولنتدبَّر ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ أى بعد ما فعلُوا ما فعلُوا من الفتنة ، لم يَرجعوا عن كُفرهم ، ولم يكفُّوا عن فتنتهم وضلالِهم ، وفى إيراد «ثُمَّ» إشعارٌ بكمال حِلْمِه وكرَمِه ، حيث لا يُعجِّلُ فى القهْر ، ويَقبلُ التوبةَ وإن طالت المدةُ.

وبعد بيان جزاء أعدائه الذى هو من جِنْس عملِهم ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠]

ذكَر سبحانه ثوابَ أوليائه المؤمنين ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ [البروج: ١١]

أى أظفَرَهم اللهُ بالخير ، وأسكَنَهم جنَّتَه ، وهذا هو الفوزُ العظيمُ الذى لا يُشبِهُه فوز.

ثم نبَّه العبادَ إلى شِدة بطْشِه ، وأنه لا يُعجِزُه شىء ، فإنه هو المبدئُ المعيدُ ، ومَن كان كذلك فلا أشدَّ من بطْشه ، وهو مع ذلك الغفورُ الودودُ ، فهو سبحانه الموصوفُ بشدةِ البطْشِ ، ومع ذلك هو الغفورُ الودودُ ، يسترُ الذنبَ ، ويتودَّدُ إلى العباد بنعمه ، ويَقْبلُ مَن تاب ورجَع إليه ويُحبُّه ، فإنه سبحانه يحبُّ التوَّابين ويُحبُّ المتطهِّرين ، وإنَّ قلوبَ أوليائه تُحبُّه وتتعلقُ به ، وتُشْغَلُ بِذكْره عمَّن سِواه ، فهو سبحانه الحبيبُ المحبُّ لأوليائه يحبُّهم ويحبُّونه: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ۝إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ۝وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ۝ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ۝فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٢-١٦]

وفى إضافة العرشِ إلى نفسه ما يدلُّ على عَظَمَة العرْشِ.

ثم وصَفَ نفسَه بالـمَجيد ، وهو المتضمِّنُ لكثرة صِفات كَمَاله وسَعَتِها وعدمِ إحصاءِ الخَلْقِ لها ، وسَعَةِ أفعاله وكثْرةِ خَيْرِه ودوامِه ، والمجْدُ فى اللغة: كثرةُ أوصافِ الكمالِ ، وكثرةُ أفعالِ الخير ، كما يُطلَق على

الشرف الواسعِ ، وهو سبحانه لا يَمتنعُ عليه شيء يُريده ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ فهو إذا أراد إهلاكَ المتعنِّتين الجاحدين ونصْرَ أهلِ الحقِّ الموحِّدين لم يُعْجِزْه ذلك ، وأين هؤلاء مِمَّن سَبَقهم مِمَّن كانوا أضلَّ منهم ، وأشدَّ قوة.

ثم خُتِمت السورةُ بِذِكْر فِعْله سبحانه وعقوبتِه بمَن أشرك وعانَد الرسلَ تسليةً للنبى محمدﷺ ، وتحذيرًا لعباده من سلوك سبيلهم: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ۝فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ۝بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى تَكْذِيبٍ۝وَاللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌ﴾ [البروج: ١٧ـ٢٠]

والاستفهامُ يفيد التقرير ، أى قد عرَفْتَ تكذيبَ تلك الجنودِ للرسل وما نَزل بهم من العقوبة لتكذيبهم ، وإن الكافرَ مِن قومك ـ يا محمدُ ـ فى تكذيبٍ للحق واستيجابٍ للعذاب ، واللهُ عالمٌ بأحوالهم ، وقادرٌ عليهم ، وهم لا يُعجِزُونه ، وهو من ورائهم محيط ، والإحاطةُ بهم من ورائهم مَثَلٌ لكونهم لا يَفُوتونه كما لا يفوتُ فائتٌ الشىءَ المحيطَ به، وفيه تمثيلٌ لعدَم نجاتهم من بَأْس الله ، كما إذا أَحاط شخصٌ بِعَدُوِّه فَسَدَّ عليه مَسْلكَه بحيث لا يَجِد مهربًا.

كيف يُكذِّبون بتوحيد اللهِ ورسالاته مع كونهم فى قَبْضته ، وهو محيطٌ بهم ، ولا أسوأَ حالًا ممّن عادَى مَن هو فى قَبْضته ، ومَن هو قادرٌ عليه من كلِّ وجْه ، وبكلِّ اعتبار. ثم وصَف كلامَه بأنَّه مَجيدٌ شَريفٌ عالى الطبقةِ ، وهو أحَقُّ بالمجد من كلِّ كلامٍ ، وقدْ حَفظهُ اللهُ من الزيادة والنقصانِ والتبديل ، وحَفَظ معانيَهُ من التحريف وحَفظَ ألفاظَه من التبديل ﴿بَلْ هُوَ قُرْءانٌ مَّجِيدٌ۝فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١ ، ٢٢]

فمن آمن به وصدَّق المُبَلِّغَ عن ربِّه ، واقتدى به ، واتَّبع ما فيه كان من السعداء فى الدارين.

من سورة الأنعام:

١٧٦- أ- آدابٌ وتحذيرات

القرآنُ الكريمُ كلامُ ربِّ العالمين، نَزل به الروحُ الأمينُ على قلْب خاتَمِ النبيين بلسانٍ عربيٍّ مبين، وقد جعله اللهُ عزَّ وجل مِفتاحًا للمنافع الدينية والدنيوية، ومِصْداقًا لما بيْن يديه من الكتب السماوية، مُعجِزًا باقيًا دون كلِّ مُعجِزٍ على وجْه كلِّ زمان، طُولب بمعارضته فصحاءُ العرب فأفحمهم فلم يَتعرَّض للإتيان بما يساوى القرآنَ أو يُقارِبُه واحدٌ منهم وتُحُدِّيَ به بلغاؤُهم فأبكَمهم به، فلم ينهض لمقدار أقصر سورةٍ منه ناهضٌ من بلغائهم، وهو كتابٌ ساطعٌ تبيانُه، قاطعٌ برهانُه، ناطقٌ بالحجج، يدعو إلى التفكر والتدبُّر، يخاطِبُ القلبَ والعقل، ويرفعُ بالدلائل أستارَ الباطل، ويقشعُ بالأمثال ظلامَ الجهل، ويُزيل بالحجة حجُبَ الشكوكِ والرِّيَب.

يقول إسماعيلُ صبرى:

جاءكم بالهُدى كتابٌ كريمٌ — عربيُّ البيانِ فيــــه الدواءُ
إنه من لدُن حكيمٍ عليــــمٍ — مُحكَمَاتٌ آياتُه عصمـــاءُ
عاطرُ الذِّكرِ للقلوب شفـاءٌ — أعْجَزَ الخلقَ لفظُه الوضَّاءُ
إن هذا القرآنَ يكفيه فخـرًا — أنه رحمةٌ قضتْها الســماءُ

تَدبَّرَه ذوو البصائر، فقالوا: سمعنا وأطعنا، واستمع إليه عقلاءُ الجِنِّ فقالوا: «إِنَّا سَمِعنا قرآنًا عجبًا يَهدى إلى الرُّشدِ فآمنَّا به ولن نشركَ بربنا أحدًا».

وكذَّب به المعاندون، وأعْرض عنه المكابرون، وكفَر به من حسدوا النبيَّ محمدًا ﷺ على نعمة النبوةِ وقالوا حسدًا وكِبرًا: ﴿**لَوْلا نُزِّلَ هَذا**

﴿الْقُرْآنُ عَلَى رجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]

وكان الرسولﷺ يسعى جهْدَه لدعوة قومه إلى الإسلام، وكان يُحزِنُه الذين يُسارعون فى الكفر، ويَجمُدون على ما وَرِثوه من عقائد الجاهليين وأوهامِهم، ونزل الوحىُ على رسولِ اللهﷺ يُسلِّيه، ويخفِّفُ عنه ما يَجِدُ من الألم فى نفسه لتعنُّتِ المكابرين من قريش.

وذلك فى مثل قولِه تعالى من سورة الرعد: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾ [الآية: ٧]

وقولِه من سورة الكهف: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِم إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الآية: ٦]

وقولِه تعالى من سورة القصص: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [الآية: ٥٦]

وفى سورة الأنعام يقول اللهُ لنبيِّه الكريم: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ [الآية: ٦٦]

أى: كذَّب قومُك يا محمدُ بالقرآن الذى جِئتَهم به، وأعرضوا عمَّا فيه من الهُدى والبيان، وهو القَصصُ الحقُّ الذى ليس وراءه حقٌّ، وقيل الضمير فى: «وَكَذَّبَ بِهِ» راجعٌ إلى العذاب، وفى هذا كله تسليةٌ للنبىﷺ وتوبيخٌ للمعاندين، ولذا أمره ربُّه أن يقولَ لهم: لستُ بموكَّلٍ بكُم أمنعكُم من التكذيب إجبارًا أو أقسِركُم على الإيمان قسْرًا، فليس من شأنى أن أحملكم حَمْلًا على قبول الحق، إنما أنا منذرٌ وعلىَّ البلاغُ وعليكم السمعُ والطاعة، فمن اتَّبعنى واختار طريقى كان من السُّعداء فى الدارين، ومَنْ خالفنى فقد شَقِى فى دنياه وآخرتِه.

لذا قال سبحانه: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ [الأنعام: ٦٧]

أى: لكل نبأ حقيقةٌ، ولكل شيءٍ وقت يقَع فيه من غير تقدُّمٍ وتأخُّر وهو خبرٌ يَحمِلُ معنى التهديد والوعيدِ، ولهذا قال بعده ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ لتأكيد معنى التهديد. قال الحسن: وهذا وعيدٌ من الله تعالى للكفار، لأنهم كانوا لا يُقِرُّون بالبعث، وقال الزجاجُ: ويجوز أن يكونَ وعيدًا بما ينزلُ بهم من العقوبات فى الدنيا و«مُسْتَقَرٌّ» اسمُ زمانٍ مِن الفعل: استقرَّ[1]، أى لكل خبرٍ وقتُ استقرارٍ وحصولٍ لابدَّ منه.

وكان من دأب رؤوسِ الفتنةِ والشرك أن يتحدَّثوا عن القرآن العظيم بالاستهزاء والتكذيبِ والردِّ، ومن ذلك قولُهم عنه إنه ﴿أَسَاطِيرُ الأولين﴾ وإن الـمَجَالس التى تضمُّ الطاعنين فى القرآن، أو الساعين للتحريف لآياته ووضعِها فى غير مواضعها، أو العاملين على إظهار الاستخفافِ بالحق، والسخريةِ من دين الله ، ينبغى للمؤمن أن ينكرَها بقلبه أشدَّ الإنكار، وألا يجالسَ أهلَها، وأن ينأى بنفسه عن أدنى مشاركة لأهل الباطل، وأن يُظهرَ عدمَ الرضا عمَّا يصنعون، وإلى هذا يوجِّهُ السياقُ من سورة الأنعام النبىَّ ﷺ والمؤمنين، يقول سبحانه: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِى آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُم حَتَّى يَخُوضُوا فِى حَدِيثٍ غَيرِه﴾ [الأنعام: ٦٨]

ولقد كانت قريشُ فى أنديتها تستهزئُ بآيات الله، وتطعنُ فيها، فنُهى النبىُّ ﷺ والمؤمنون عن مجالستهم والحالُ هذه، وأن يقومَ عن هذه

---

(١) اسم الزمان (أو المكان) اسم مشتق يدل على زمان وقوع الفعل أو مكانه، ويصاغ من الفعل الزائد على ثلاثة حروف على وزن مضارعه مع زيادة ميم مضمومة فى أوله وفتح ما قبل آخره، مثل: أكرم، ابتدأ، استنفر نقول منها: مُكرَم، مُبتدأ، مُستنفَر، وهذه الصيغ مشتركة مع المصدر الميمى واسم المفعول من الزائد على ثلاثة: والفرق بينها بالقرائن فى الكلام.

المجالسِ إذا خاضوا فى دين اللهِ وآياتِه بالسخرية والتكذيبِ ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أى فلا تجالسْهم وقُم عنهم ﴿حَتَّى يَخُوضُوا فِى حَدِيثٍ غَيرِهِ﴾ أى: إذا تكلَّموا فى أمر مباحٍ فيه منفعةٌ وأخذوا فى كلامٍ آخرَ غيرِ ما كانوا فيه من التكذيب، فلا بأسَ أن تجالسَهم حينئذ.

وفى هذا تأديبٌ كريمٌ لأهل الإيمانِ ليُنزِّهوا أنفسَهم عن مخالطة أهلِ السوء، أربابِ الشرِّ والفساد، وأن يقوموا عن المجالس التى تُنْتهكُ فيها الحرماتُ، وتُسْتحَلُّ فيها البدعُ، وتُفعَلُ المنكراتُ، ومن أدب المسلم ألَّا يُصوِّب رأيًا يخالفُ الكتابَ والسنَّة، وأن يُظهِرَ البُغضَ لأرباب الهوى وألاَّ يُجالِسَ أهلَ الكبائر.

والخوضُ فى الماء حقيقةٌ ، تقول: خضتُ النهرَ أخوضُه خوضًا وخياضًا أى: عَبرتُه، ثم استُعير الخوضُ للأحاديثِ والآياتِ، إذ الخوضُ أصلُه العبورُ فى الماء، ثم نُقل إلى الاستعمال فى غَمَرات الأشياء التى هى مجاهل، تشبيهًا بغمَرات الماء، فاستُعيرَ من المحسوس للمعقول وللمعقول المقترِنِ بمظاهرَ حسيةٍ، وقد شُبِّه التحدُّثُ فى الآيات بما لا يليقُ بالخوض فى غمرات الماء ومجاهله، ثم استُعير الخوضُ للآيات وللأحاديث وللطعنِ فى الأعراض، ممَّا يؤكِّد المعنى ويبرزُه فى صورة مجسَّمة فيها حركة تجعلُه أكثرَ وضوحًا وتأثيرًا، ومن ذلك: هو يخوضُ مع الخائضين، وتخاوضوا فى الحديث، و ﴿الَّذِين هُم فِى خَوْضٍ يَلْعَبُون﴾ [الطور: ١٢]

أى فى اندفاع فى الباطل يلهُون لا يذكُرون حسابًا، ولا يخشَوْن عقابًا، ومن ذلك قولُه تعالى: ﴿يَخُوضونَ فِى آياتِنَا﴾ وجاء فى سورة

النساء: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُم فِى الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُم إِذًا مِّثْلُهم﴾ [١٤٠]

أى إذا جلستُم معهم وأقررتموهم على ذلك فقد ساويتُموهم فى الذى هُم فيه.

قال القرطبىُّ: «أدَّب اللهُ نبيَّه بهذه الآية، كان يقعد إلى قوم من المشركين يَعِظُهم ويدعوهم فيستهزِئُون بالقرآن، فأمره اللهُ أن يُعرِضَ عنهم إعراضَ مُنكِر، ودلَّ بهذا على أن الرجلَ إذا عَلِم من الآخر مُنكَرًا، وعلى أنه لا يَقْبَلُ منه ـ نُصْحَه ـ فعليه أن يُعرِضَ عنه إعراضَ مُنكر، ولا يُقْبِلَ عليه»

وجاء عن مجاهد فى قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِى آيَاتِنَا فَأَعرِضْ عَنْهم﴾ قال: هم المستهزئون بكتاب الله، نهاه عن أن يَجلسَ معهم، إلَّا أن ينسى فإذا ذكَر قام. أى لقوله تعالى فى الآية: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِين﴾ [الأنعام:٦٨]

قال ابنُ كثير: «والمراد بهذا كلُّ فردٍ من آحاد الأمةِ أن لا يجلسوا مع المكذبين الذين يُحَرِّفون آياتِ الله ويضعُونها على غير مواضعها، فإن جلَس أحدٌ منهم ناسيًا قام بعد التذكُّر، ولهذا ورد فى الحديث «رُفِع عن أُمَّتى الخطأُ والنسيانُ وما استُكرهوا عليه».

رواه ابنُ ماجةَ عن أبى ذرٍّ، وفى لفظ «إِن اللهَ تجاوز عن أمتى. . .» الحديث

قال ابن العربى: وهذا دليل علىٰ أن مجالسةَ أهلِ الكبائر لا تَحِلُّ، وقال ابن خويز منداد: من خاض فى آيات اللهِ تُركت مجالستُه وهُجر

مؤمنًا كان أو كافرًا.

وقد جاء فى الأثر وجاء مرفوعا عند أبى عبد الله الحاكم عن عائشة: «من وَقَّر صاحبَ بدعةٍ فقد أعان على هدْمِ الإسلامِ». [القرطبى]

وقال الفضيل بن عياض: «من أَحبَّ صاحبَ بدعةٍ أحبط اللهُ عملَه وأخرج نورَ الإسلامِ من قلبه».

ثم نبَّه اللهُ عبادَه المؤمنين إلى أنه لا شىءَ يلزمُهم من آثام المستهزئين بدين اللهِ وكتابِه إذا تجنَّبوهم حالَ خوضهم فى آيات الله، وسُخريتِهم من الدين الحقِّ، ولم يَجلسوا معهم فى هذه الحال فقال: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَكِن ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٦٩]

أى: إذا ابتعدوا عنهم وتركوا مجالستَهم حالَ خوضِهم فى الآيات فقد بَرِئوا من عُهدتهم، وتخلَّصوا من إثمهم.

وقال سعيد بنُ جبير: ما عليك ـ يا محمدُ ـ أن يخوضوا فى آيات اللهِ إذا فعلتَ ذلك، أى إذا تجنَّبتَهُم، وأعرضتَ عنهم.

وقال القرطبى: والمعنى: ما عليكم شىءٌ من حساب المشركين فعليكم بتذكيرهم وزجْرِهم فإن أبَوا فحسابُهم على الله، و«**ذِكْرَى**» فى موضع نصب على تقدير: ولكن يُذكِّرونهم ذكرى على أنه مفعولٌ مُطلَقٌ من غير لفظِ الفعلِ أى تذكيرًا، ويجوزُ رفعُه على أساس تقديرِ خبرٍ مُقدَّم أى ولكن عليهم ذِكرى أو تقديرِ مبتدإٍ، قال الكسائى: المعنى: ولكن هذه ذِكرى، ولكن مخففة من الثقيلة يبطل عملها ويبقى معناها للاستدراك.

وفى الكشاف: «**ولكن**» عليهم أن يذكِّروهم «**ذِكْرَى**» إذا سمعوهم يخوضون أى بالقيام وإظهارِ الكراهةِ لهم وموعظتِهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ لعلهم يجتنبون الخوضَ حياءً أو كراهةً لَمساءةِ المؤمنين.

ثم أمر اللهُ نبيَّهﷺ بالإعراض عن المصرِّين المتعنِّتين المستهزئين وعدمِ تعلُّقِ قلبِه بهم، وإن كان مأمورًا بوعظهم وبحثِّهم على الإيمان، فهو عليه البلاغُ وعلى اللهِ الحسابُ، ولنتدبر: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُم لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُم الْحَيَاةُ الدُّنْيَا، وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الأنعام: ٧٠]

عليك أن تُذكِّرَ الناسَ بالقرآن، وتحذِّرَهم نقمةَ اللهِ وعذابَه الأليمَ يومَ القيامة، وهناك تُبْسَلُ كلُّ نفسٍ بما جنَت يداها، أى تُحبسُ وتُرهَنُ وتؤاخَذُ وتجازَى وتُسْلَمُ للهلكة كما قال تعالى من سورة المدثر: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [الآية: ٣٨]

وإذا مات الإنسانُ على الكُفر والشركِ لا ينفعُه صاحبٌ ولا قريبٌ ولاأحدَ يشفعُ له، ولا يُقْبَلُ منه فديةٌ ومصيرُه إلى الخلود فى الجحيم: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللهِ وَلِىٌّ وَلا شَفِيعٌ وإن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَٰئكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَاب مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام: ٧٠]

ثم ضَرَب السياقُ مثَلًا لمن يدعو غيرَ اللهِ بِمَن دعاه الشيطانُ فَيَتَّبعُه ولا يستمعُ لنُصح ناصح، ولا يستجيبُ لوعْظ واعظٍ حتى يُلقِيَه الشيطانُ فى المهالك، ويَجرَّه إلى الحيرة والتخبُّط.

والكلام متصل . . .

❊ ❊ ❊

١٧٧- ب - قوتان تتنازعان الإنسان وطوبى لمن عصمه ربُّه

إنّ الإنسانَ تتنازعُه دومًا قوتان، إحداهما تدعوه إلى الخير، وتحثُّه عليه، وتبعثُه على التفكُّر فيه، والأخرى تجرُّه إلى الشرِّ، وتحضُّه على الانغماس فى أوحاله، وتُزيِّنُه له.

وقوتا التجاذبِ موجودتان فى داخل الإِنسانِ لحكْمةٍ عالية، فمن ارتفع فوق نَزواتِه، وتسامى على الشهوات الـمُسِفَّة، والقبائحِ الـمُهلكة وعَرف الحقَّ واتَّبعه كان على هداية ورشادٍ، ونفع رُوحَه، وأنقذ نفسَه.

ومَن غلبتْه أهواؤُه، وتدنَّى إلى حضيض الشرور، وفتنته شهواتُه وقهرتْه نفسُه الأمارةُ بالسُّوء، وتابَع شيطانَه، وشايع الدعاةَ على أبواب جهنَّمَ ضيَّع نفسَه، وظلَم رُوحَه، وكان على عِوَج.

والحقُّ تبارك وتعالى يقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا۝وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاها﴾ [الشمس: ٩، ١٠]

فأهلُ الفوزِ والنجاةِ من المهالك هم من أَنْمَوْا نفوسَهم، وأعلَوْها بتطهيرها من الكُفر والشركِ والمعاصى ، وأصلحُوها بالصالحات من الأعمال، واختيارِ الخيرِ والهُدى.

وفى المقابِل خَسِر مَن نَقَص نفسَه، وبخَسَها حقَّها، وأخفى الفطرةَ النقيَّةَ الصالحةَ بالفجور، واختيارِ الضلالة، والميلِ إلى الفسوق والآثام.

وفى سورة يوسفَ يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِى إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّى﴾ [الآية: ٥٣]

أى: إِن النفسَ مائلةٌ إلى الشهوات بالطبع، فَتَهُمُّ بها، وتستعملُ

القُوى والجوارحَ فى أثرها والحصول على ما تشتهيه منها إلا ما رَحِمه اللهُ من النفوس فَعَصَمَه من مزالق الهوى وأسباب المهالك.

وقوتان من خارجه:

وكما تتنازعُ الإِنسانَ قوتان من داخله، فكذلك الحالُ هناك قوتان تتنازعانه من خارجه، إحداهما تدعو إلى الخير وتحبِّبُ فيه، وتحضُّ على اتباع الحقِّ ولزومه، وتلك هى القوةُ التى تَلْزَمُ الصراطَ المستقيم، وتَثبُتُ على طريق الأنبياء، وتَتَّبِعُ ما جاء به الوحْىُ، أمَّا الأخرى فتتمثَّلُ فى شياطين الإنسِ والجنِّ، وقد حثنا اللهُ على الاستعاذة من شرور هذه القوةِ، وعلى طلَبِ الوقايةِ من استهوائها والحمايةِ من تزيينها الباطلَ والفسادَ، كما جاء فى سورة الناس: **بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**: **﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ❁ مَلِكِ النَّاسِ ❁ إِلَهِ النَّاسِ ❁ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ❁ الَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ النَّاسِ ❁ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾** وفى ختام هذه السورةِ الكريمةِ بيانٌ للشيطان الذى يُوَسوِسُ فىَ صدور الناسِ، ويعملُ على إِضلالهم عن سبيل الحقِّ؛ ليشقَوْا دنيا وآخرة ويُحسِّنُ للإنسان الشرَّ والفساد، وأن هذا الشيطانَ كما يكون من الجِنِّ فإنه يكون من الإنس، وعلى هذا فإنَّ كُلَّ من يُزَيِّنُ للناس الباطلَ والمعاصِىَ منهما يقال له: شيطانٌ، إذْ هو لغةً كلُّ عاتٍ متمرِّدٍ من الجِنِ والإنسِ والدوَابِّ، فنعوذ باللهِ من شياطين الإنس والجِن.

ومن عَمَلِ الشياطينِ استهواءُ الإنسان، واستغواؤُه، ودعوتُه إلى اتِّباع هواه، وإلى الإعراضِ عن الداعى إلى الخير، وعن الناصحِ الأمين الذى يُحبِّبُ فى طريق السلامةِ والنجاة، وقد جاء تصويرُ هذا التجاذبِ أبدعَ تصويرٍ وأدقَّه وأجملَه فى قوله تعالى من سورة الأنعام **﴿قُلْ أَنَدْعُو مِن**

دُونِ اللهِ مَا لا يَنفَعُنَا وَلا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾
[الآية: ٧١]

نَقَل عليُّ بنُ أبى طلحةَ عن ابن عباسٍ فى هذه الآيةِ الكريمة: هذا مثلٌ ضَرَبَه اللهُ للآلهة ومَن يدعو إليها، وللدعاة الذين يدعون إلى الله عزوجل كمثَلِ رجلٍ ضَلَّ عن الطريق تائهًا ضالًّا إذْ ناداه منادٍ: يا فلانُ ابنَ فلان، هلُمَّ إلى الطريق، وله أصحابٌ - أى صالحون - يدعونه: يا فلانُ، هلُمَّ إلى الطريق، فإنِ اتَّبع الداعِيَ الأولَ انطلق به حتى يُلْقِيَه إلى الهلكة، وإن أجاب مَن يدعوه إلى الهدى اهتدى إلى الطريق.

ويوضِّح ابنُ جرير كما نقَل عنه ابنُ كثير: أَنَّ التمثيلَ قائمٌ على ما كانت تعتقدُه العربُ من أن الغِيلانَ تدعو الماشِيَ فى طريقٍ منقطعٍ، فإن هو أطاعها وأقبل عليها أهلكتْه، ويبيِّن ذلك فيقول: «وهذه الداعيةُ التى تدعو فى البَرِّيَّة من الغِيلان - وفى توضيح المثل - يقول: مَثَلُ مَن يعبدُ هذه الآلهةَ مِن دون الله، فإنه يَرى أنه فى شىء حتَّى يأتيَه الموتُ فيستقبلَ الهلكةَ والندامةَ، وقوله: ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ﴾ هم الغِيلانُ يدعونه باسمه واسمِ أبيه وجَده فَيَتْبَعُها، وهو يرى أنه فى شئ فيصبح وقد ألقته فى هلكة، وربما أكلته أو تُلقيه فى مَضلَّة(١) من الأرض يَهْلِكُ فيها عطشانَ، فهذا مثلُ مَن أجاب الآلهةَ التى تُعْبَدُ مِن دونِ الله».

---

(١) مَضلة: بفتح أوله وكسر الضاد واللام مشددة وقد لحقت به التاء اسم مكان من ضلّ الثلاثىّ المكسور العين فى المضارع «يَضِل» وقياسُه فى اسمى المكان والزمان مَفْعِل - بكسر العين - وفى المصدر الميمى «مَفعَل» بفتحها مثل مَفِرّ ومفَرّ بكسر الفاء اسم مكان أو زمان وبفتحها مصدر ميمى من فرّ.

مع أنَّ له رفقةً صالحةً ﴿يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى﴾ أى إلى أن يَهْدُوه - ويرشدوه - إلى الطريق المستوى، أو سُمِّىَ الطريقُ المستقيمُ بالهدى يقولون له «ائْتِنَا» وقد سَلك المَهْلِكَة، واعتسف المَهْمَه[1] تابعًا للجنِّ لا يُجيبهم، ولا يأتيهم، ثم يقول ابن جرير: وهذا مبنىٌّ على ما تزعمُه العربُ وتعتقدُه أن الجنَّ تَسْتهوى الإنسانَ، والغيلانَ تَستولى عليه.

إنها صورةٌ تمثيليةٌ منتزعة من الواقع ومن الخيال، وممَّا يَعتقده المخاطَبون ويتصوَّرونه، ليكونَ ذلك أبلغَ فى بيان المقصودِ من أقربِ طريقٍ وبأوْجَزِ عبارة، وهذه الصورةُ توضِّحُ بِصِدْق تامٍّ حَالَ مَن تتجاذبُه القوتان قوةُ الخيرِ وقوةُ الشرِّ، ولكنه يرتدُّ عن صراط الإيمانِ واليقينِ بالله واليومِ الآخِرِ إلى هاويةِ الكفرِ بالله أو الشركِ به، ويصيرُ إلى حالة القلقِ والحَيرةِ والضلال، وشياطينُ الشرِّ والفسادِ يُزيِّنون له الباطل، ويُحَسِّنون له السوءَ والفساد.

وقد ألقى السدىُّ أضواءً ساطعةً على مضمون هذا المثَل، وبصَّر بواقعيته، لِيُعينَنا على فهْم المرادِ فقال: قال المشركون للمؤمنين: اتَّبعوا سبيلَنا، واتركُوا دينَ محمدٍ فأنزل اللهُ عز وجل: **﴿قُلْ أَنَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُنَا وَلا يَضُرُّنَا﴾ أى ما لا ينفعُنا إن دعوناه وعبدناه، ولا يضرُّنا إن تركناه، يُريد الأصنامَ وما يُعْبَدُ من دون الله ﴿وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا﴾** أى: فى الكُفر، ونرجعُ إلى الضلالة بعد الهُدى، **﴿بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ﴾** فيكونُ مثَلُنا مثَلَ الذى استهوتْه الشياطينُ فى الأرض يقول: مثَلُكم إن كفرتُم بعد الإيمان كمثَل رجلٍ كان مع قومٍ على الطريق، فضلَّ الطريق فحيَّرته الشياطينُ، واستهوتْه فى الأرض، وأصحابُه على الطريق فجعلوا يدعُونه

---

(١) اعتسف المهمه: تكلَّف السير فى الصحراء المهلكة.

إليهم لخوفهم عليه، وحِرصِهِم على سلامته يقولون: ائْتِنا ائتنا فإنا على الطريق، فأبى أن يأتيَهم.

فذلك مثَلُ مَن يَتَّبِع الشياطينَ بعد المعرفةِ بمحمدٍ ﷺ، وإن محمدا هو الذى يدعو إلى الطريق، والطريقُ هو الإسلام. «انتهى كلامه».

إنه مثَلٌ قائمٌ متجدِّدٌ، وصورةٌ حيةٌ ماثلةٌ فى كلِّ زمان، فكم من متمكِّنٍ من الإسلام والصلاحِ جذبتْه قُوى الشرِّ والفسادِ والبِدَعِ والضلال، وهناك مَن يدعوه إلى الخير والثباتِ على الحق والاتباعِ ولزومِ الصراطِ الذى لايَضِلُّ سالكُه، ولا يَهتدى تاركُه، وهو دينُ محمد وتعاليمُه.

والاستفهام فى الآية للإنكار واستفظاع الأمرِ واستغرابِه «قُلْ: أَندعو مِن دُون الله مَا لا يَنفَعُنَا وَلا يَضُرُّنا» كما أنه يبعث على التفكر، وينبه العقل إلى قضية ينبغى لذوى الألباب توجيه عنايتهم لها. لأن الشىء إذا كان لا منفعةَ فى الحرص عليه، ولا مضرةَ من تَرْكه، إذْ هو لا يقدِرُ على هذا ولا ذاك فكأنه لا شىءَ ، فكيف تتعلقُ به الآمال أو تخضع له النفوس؟ كيف تعنو الجباه لما لا ينفع ولا يضر فَتُقَدَّمَ له القرابينُ والدعوات؟.

وفى قوله ﴿ونُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنا﴾ تمثيلٌ وتصوير للأمر المعنوىِّ، وهو الرجوعُ إلى الشرك بعد الإيمانِ أو بعد التمكُّنِ منه بمَن يُدْبِرُ على عَقِبَيه ويعودُ إلى الوراء، وواحدُ الأعقابِ عَقِبٌ وهى مؤنَّثةٌ، ويقال رجَع على عَقِبيه إذا أدبَرَ، وفى هذا التصويرِ حركةٌ وقوةٌ، وهو جزءٌ من الصورة العامةِ المتكاملةِ التى تُبرزُها اللوحةُ التمثيليةُ فى هذا المثَل: صورةُ إنسانٍ يَهوى إلى هاويةٍ سحيقةٍ مُهلِكة، أو يَشرُدُ فى صحراءَ مُضِلَّة[1]، فهو

(١) مُضِلَّة: بضم الميم وكسر الضاد واللام مشددة اسم فاعل من «أضلّ يُضل»

يخطو إلى هلاكه، ثم تَبْرُزُ أشباحُ شياطينَ يَظهرون له، يستهوونه ويستدرجونه، ويجذبونه إلى هاويةِ الضياعِ مساندين داعِيَ النفسِ الأمارةِ بالسوءِ فى داخله ، فالتقى عليه عدوَّان، أحدُهما فى داخله، والآخرُ من خارجه، لأنه ضعيفُ النفسِ فاقدُ الإرادةِ والبصيرةِ، فهو متحيرٌ متخبِّطٌ لسوء اختيارِه، وفسادِ مَيْلِه، وطغيانِ شهواتِ نفسه.

وفى أعلى الصورةِ وعلى الصراط السوىِّ نورٌ وهدايةٌ ودعاةٌ إلى الخير ناصحون مخلصون يُنادُونَ أخاهم بالكَلمة الطيِّبة، والحجةِ الساطعة وبالحكمة والموعظة: هلُمَّ يا فلانُ، إلينا إلينا، على الجادَّة استقمنا حذارِ أن تَضِلَّ فتضيعَ، إيَّاك وشياطينَ الإنسِ والجِن. . هلمَّ، ائتنا، تعالَ إلينا.

ويعظمُ الصراعُ فى النفس فمن غلبتْه شِقوتُه ضاع ومَن أراد اللهُ به خيرًا نجا من عدوَّيه: نفسِه الأمارةِ بالسوء والدعاةِ إلى الباطل والفساد وقد بيَّن الله عز وجل هذه الحقيقةَ لتسلية الدعاة إلى الحق، وتثبيتِهم: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى﴾ أى: ولو شاء اللهُ لهداه، ولردَّ به إلى الطريق السوىِّ، وإن هُدى الله هو الإسلامُ، وهو الهُدى وحده، وما وراءه ضلالٌ وغىٌّ ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]

فماذا بعد الحقِّ إلا الضلال؟.

ومن فضْلِ الله على العباد أن بيَّن لهم الخيرَ والشر، وأنزل الكتبَ وأرسل الرسلَ، وأمرهم بإخلاص العبادة له وحده لا شريكَ له وبطاعته واتباع نبيِّه ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٧١، ٧٢]

١٧٨ - اتقاءُ الفتنة والبدع

اتقاءُ الفتنةِ معناه الحذرُ من الانغماس فى الأسباب المؤديةِ إلى الشر والفساد، وإلى انتشار الأمر، وظهورِ البدع، وفشوِّ المنكرَات، وتَحاشِى القربِ من هذه الأسباب، مع التنزُّهِ عن معاضدة الباطلِ، ومساندةِ أربابِ الأهواء، ومن اتقائها العملُ على إنكار المنكَر، والقيامُ بواجب الأمرِ بالمعروف، وكفُّ الأذى، والثباتُ على الملة الحنيفية، ولزومُ طاعة الربِّ واجتنابُ معاصيه، والبعدُ عن الدعاة على أبواب جهنمَ الذين يَجترئون على الحرام، ويُثبِّطون عن أداء الفرائضِ والواجباتِ، وعن اتّباع الكتابِ والسنة.

والفِتَن منها خاصٌّ ومنها عام، ومن الخاص ما يتصلُ بالمرء فى خاصة نفسه، والمرادُ أن كلًّا منَّا مبتلًى ومختبَرٌ بالشهوات، وبحب الأولاد والمالِ وبعلاقاته بالجيران، وبمسؤولياته، وبمعاملاته مع الآخرين وغير ذلك فمن سَلِم له دينُه وسَلِمَت له نفسُه من الإفراط والتفريط، واستقام على منهج الإسلام كان على خير عظيم، والحق تبارك وتعالى يقول: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَآءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: ١٤]

أمَّا الفتَنُ العامَّة فقد نبَّه الإسلام إليها، وحَذَّر منها، فقد تَركَنا رسولُ الله ﷺ على طريق واضح، والحلالُ بيِّن، والحرامُ بَيِّن، وإن العاقلَ من لَزِم الحقَّ، ولم تخدعْه أباطيلُ المُبطلين، ولم تَفتِنه الشبهاتُ، ولم يَجُرَّه إلى المهالك أهلُ البدع والأغراضِ الخاصة، وكان لإخوانه محبًّا

ولصالح الجماعةِ ساعيًا مُجدًّا، ولدينه مخلصًا، وللجماعة ناصحًا ومساندًا، وعن كل دعوةٍ إلى تمزيق الصفِّ، وهدمِ البناء مُعْرِضًا، ومنكِرًا والحقُّ تبارك وتعالى يقول: ﴿والْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١]

وإذا تعاطى الناسُ أسبابَ الفتن والبدع، وفشتْ فيهم المعاصى، وأقرُّوا المنكَر، وجهَروا بالقبيح من القول والفعل، أذاقهم اللهُ من عذابه، وسلَّط عليهم ما شاء من الأوجاع، والقحْط، والزلازلِ، والفيضانِ، والحروب وغيرِها للتنبيه والتذكيرِ والتمحيص، ويُصاب من جرَّاء ذلك وغيرِه الصالحُ والطالحُ، والمؤمنُ والكافرُ، والفاجرُ والمطيعُ، والمخلصُ والمنافقُ، ويكونُ أهلُ الإخلاصِ والمحبَّةِ والطاعةِ فى رحمة اللهِ، ويُنقَلُون من دار المكابَدةِ إلى دار النعيم، وفى سورة الأنفالِ يَلفت ربُّ العزَّةِ والجلالِ العبادَ إلى ذلك فيقول: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الآية: ٢٥]

قال ابن عباس: أَمَرَ اللهُ المؤمنين ألَّا يُقِرُّوا المنكرَ بين ظَهرانيهم، فَيَعُمَّهُم اللهُ بالعَذاب. [نقله ابن كثير عن الطبرى]

وقال ابنُ مسعود: «ما منكم من أحد إلا وهو مشتَمِلٌ على فتنة، إنَّ الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا أَمْوالُكُم وأولادُكُم فِتْنَة﴾ [التغابن: ١٥]

فأيُّكم استعاذ، فليستعذْ بالله من مُضلاَّت الفتن». [رواه ابن جرير]

لقد حذَّر اللهُ عبادَه المؤمنين «فِتْنَةً» أى: اختبارًا ومحنة، يعمُّ بها المسيءَ وغيرَه، لا يخصُّ بها أهلَ المعاصى، ولا مَن باشَر الذنب، بل يعمُّهما، حيث لم تُدْفَع، ولم تُطْفَأْ نارُها.

وروى الإمامُ أحمدُ عن أُمِّ سلمةَ زوجِ النبىِّ ﷺ قالت: سَمِعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «إِذا ظَهَرت المعاصِى فى أُمَّتى عَمَّهم اللهُ بعذابٍ مِن عنده

فقلتُ: يا رسولَ الله، أمَا فيهم أناسٌ صالحُون؟ قال: بلى: قالت: فكيف يَصْنعُ أولئك؟ قال: يُصيبهم ما أصاب الناسَ، ثم يَصيرون إِلى مغفرةٍ مِن الله ورِضوان».

وفى معنى الفتنةِ فى هذه الآيةِ الكريمةِ، يقول الشيخُ مخلوف[1] فى صفوة البيان: «واتقوا فِتْنة» احذروا ابتلاء من الله تعالى ومحنةً تنزلُ بكم تعمُّ المسىءَ وغيرَه، كَالقحْط والغلاءِ وتسلُّط أهل القسوةِ وغيرِ ذلك والمرادُ التحذيرُ من الذنوب التى هى أَسبابُ الابتلاءِ، كإِقرار الـمُنْكَراتِ والبِدَعِ والرِّضا بها، والمداهنةِ فى الأمرِ بالمعروف، وافتراقِ الكلمةِ فى الحقِّ، وتعطيلِ الحدود، وفُشُوِّ المعاصِى ونحوِ ذلك.

وقد فُسِّرتْ الفتنةُ التى تُصيب المحسنَ والمسىءَ: بالذنب وهو إِقرارُ الـمُنْكَرِ، وبالعذابِ الذى يعمُّ فى الدنيا ثم يُبْعَثُ كلُّ إِنسانٍ على ما كان عليه من النية.

من الأمثال النبوية:

وقد رَوى النعمانُ بنُ بشير أن النبىَّ ﷺ قال: «مَثَلُ القائمِ على حدودِ اللهِ والواقعِ فيها كمثَلِ قومٍ استَهموا على سفينة فأصاب بعضُهم أَعلاها وبعضُهم أسفلَها، فكان الذين فى أسفلها إذا استَسقَوْا من الماء مَرُّوا على مَن فوقهم، فقالوا: لو أَنَّا خَرقْنا مِنْ نصيبنا خَرْقًا ولم نُؤْذِ مَن فوقَنا، فإِن تركوهم وما أَرادوا هلكُوا جميعًا، وإِن أخذوا على أَيْديهم نَجَوْا ونَجَوْا جميعًا». [أخرجه البخارى]

---

(١) الشيخ حسنين محمد مخلوف تولى الإفتاء فى الديار المصرية، وترك ثروة علمية نافعة منها «شرح أسماء الله الحسنى» و «صفوة البيان لمعانى القرآن» وهو تفسير قيم جمع زبدةٍ عدد من أمهات كتب التفسير فى توضيح معانى الألفاظ والعبارات بدقة ووضوح وتوجهِ العالم الفاضل المدقق الذى أراد التيسير على طالبى العلم والراغبين فى الفهم وتدبر المعانى بأوجز عبارة وأقرب طريق، وهو فى مجلّد واحد ونفعه عظيم، رحم الله الشيخ الجليل الذى توفى عام ١٤١٠ من الهجرة ١٩٩٠ من الميلاد بالقاهرة عن نحو مائة عام.

وقد جاء عنده - أيضًا - بلفظ: «مَثَلُ الـمُدَّهِنِ فى حدود اللهِ، والواقعِ فيها مَثَلُ قَومٍ استهمُوا سفينةً فصار بعضُهم فى أسفلها وبعضُهم فى أعلاها»

وفى أخرى: «مثَلُ الواقعِ فى حدود اللهِ والناهِى عنها. . . .».

ورواه أحمدُ فى مُسْنَده عن عامرٍ بلفظٍ فيه زيادةٌ قال: «سمعتُ النعمانَ ابنَ بشير رضى اللهُ عنه يخطبُ يقولُ: - وأَومأَ بأُصبُعيْه إلى أُذنيْه - يقول: «مثَلُ القائمِ على حدود اللهِ والواقعِ فيها - أو الـمُدَّهِنِ فيها - كمثَلِ قومْ رَكِبوا سفينةً، فأصاب بعضُهم أسفلَها وأوعرَها وشرَّها، وأصاب بعضُهم أعلاها، فكان الذين فى أسفلها إذا استَقَوْا الماءَ مَرُّوا على مَن فوقهم فآذَوْهُم، فقالوا: «لو خرَقْنا فى نصيبنا خرْقًا، فاستَقَيْنا منه، ولم نُؤْذِ مَن فوقنا، فإن تركوهُم وأمرَهم هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نَجَوا جميعًا».

اللغة:

حدودُ اللهِ: الحدودُ جمْع حدٍّ، وهو فى اللغة الحاجزُ بين الشيئين ومقطعُ الشىء ومُنتهاه، وحدُّ الدار ما يمنعُ من دخولها، وحدُّ الكلام: الجامعُ المانعُ، ويُطلَقُ الحدُّ على المنْع، ومنه سُمِّى الحديدُ حديدًا لأنه يمنعُ السلاحَ من الوصول إلى البدن.

وقد سُمِّيت الحدودُ المقدَّرَةُ فى الشرع حدودًا على سبيل المجَاز لأنها تمنعُ من الإِقدام، والمرادُ بحدود اللهِ فى الحديث أَحكامُ الشريعةِ الغرَّاءِ لأن الله منَع من مُخالفتها بعد أن قَدَّرها بمقاديرَ مخصوصة وصفات مضبوطة.

واستَهَمُوا: أى اقْتَرعوا، وأَخَذَ كلٌّ واحدٍ سهمًا بالقُرعة، والسهمُ يطلقُ على النصيب، وتساهموا: تَقَارعوا.

مُدَّهِن: اسمُ فاعلٍ من ادَّهن، والادِّهانُ والـمُدَاهَنَةُ إظهارُ خِلاف ما يُضْمِر، والمرادُ مَن يرائى، ويُضيِّعُ الحقوق، ولا يُغَيِّر المنكر.

الصور:

فى هذا الحديثِ الشريفِ ثلاثُ صورٍ بديعة مبنيةٍ على التشبيه وكلٌّ تشبيهٍ منها يمثِّلُ جزءًا من الصورة العامَّة المتكاملةِ التى تُقدِّم لنا مثلًا رائعًا يوضِّحُ المقصودَ من أقرب طريق، وبأيسرِ بيانٍ وأروعِه:

❄ تشبيهُ القائمين على حدودِ الله تعالى الذين يُحِلُّون الحلالَ ويُحرِّمون الحرامَ، ويأمرون بالمعروف وينْهَون عن الـمُنكر بمَن يركبون أعلى السفينةِ إذا منَعوا الذين فى أسفلها من إحداث ضررٍ فيها.

❄ ثم تشبيهُ الواقعين فى الحدود التاركين للأمر بالمعروف وفعْلِه الفاعلين للمنكَر والـمُداهنين الـمُرائين وهم الذين يَسكتُون عند رؤيةِ المنْكَرِ بمَن هم فى أسفلِ السفينةِ إذا هَمُّوا بخرْقها.

❄ تشبيهٌ ضِمنىٌّ وهو تشبيهُ أَحكامِ الشريعةِ بالسفينة، فكما أن السفينةَ مَن ركبها وسَدَّد قيادتَها، وأَحْسَنَ تصريفَها وصل بَرَّ السلامةِ ونال ما يتمنَّى، كذلك الشريعةُ السمحةُ مَن تَمَسَّك بها وأحلَّ حلالهَا وحَرَّم حرامَها نجا فى دُنياه وآخرتِه.

وليس المقصودُ النظرَ إلى كلِّ تشبيهٍ على حِدَة، وإنما هى صورٌ تتكاملُ وتتلاحمُ وتتمازجُ وتتفاعلُ لِتُبيِّنَ أن المسلمين ينبغى لهم أن يكونوا كالبُنْيان الواحدِ يشدُّ بعضُه بعضًا، وأن يقوموا بواجبهم على النحوِ الشرعىِّ بتوجيه العصاةِ والمنحرفين بالحكمةِ والموعظةِ الحسَنةِ لتأكيدِ سلامةِ الأمةِ من المفاسد والفِتَن.

فالتشبيهُ فى الحديث من قِبَلِ التشبيهِ الـمُركَّبِ، ومفهومُه: تشبيهُ حالِ

المسلمين القائمِ منهم على الحدود والواقع فيها والساكتِ عن الأمر بالمعروف والنهْى عن المنكَر بحالِ قومٍ شركاءَ فى سفينةٍ تنازعُوها فاستَهمُوا على قِسْمتها فسكَن بعضُهم أعلاها وبعضُهم أسفَلها إلى آخرِ ما جاء توضيحُه فى الحديث(١).

والجامعُ هو: الهيئةُ الـمَنْتَزَعَةُ من اجتماعِ نافعٍ وضارٍّ فى محلٍّ واحدٍ.

والمتأملُ فى هذا المَثَلِ النبوىِّ يجدُ فيه حركةً وحياةً نابضةً وروعةً ودقةً وقوةَ إيحاءٍ بالمقصود، مع تصويرِ ما يدورُ فى النفس فى خطوطٍ مُجَسَّمة إلى جانبِ الـمُقابلة والتضادِّ بين الفريقين نَفْسًا وتوجُّهًا ومنزلةً حقيقيةً ومعنويةً «فأصاب بعضُهم أعلاها وبعضُهم أسفلَها» والمقابلةُ أو الطباقُ يَزِيد المعنى وضوحًا وجلاءً ويُؤكده فى النفس.

وفى الحديث ما يُرشد المسلمين إلى التعاون على دَرْءِ المفاسد، وكبْتِ الفِتَن، والقضاءِ على الشرور قبل استفحالها وتفاقُمِها، وعلى ضرورةِ تقديمِ النصيحةِ والعنايةِ بالتوجيه فى مجال العقيدةِ، والأخلاق، والدعوةِ الى الاستقامة على طريق الإسلامِ مع الاسترشادِ دومًا بسنَّة نبيِّناﷺ وفى نور ما جاء به الوحْى، وإن الأمةَ التى تُفَرِّطُ فى أمرِ التواصِى بالحق والتواصى بالصبر، والإرشادِ إلى الخير، والحثِّ على الكَفِّ عن الفساد والشرِّ تكونُ مُسْتَحِقَّةً للعقوبة، وتُبْتلَى بالفتن، وتُصابُ بأمراضٍ تحيِّرها وتنغِّصُ عليها، وتَعدمُ المعنى الحقيقىَّ للأمن والاستقرارِ والكفاية، والأمثلةُ على ذلك كثيرةٌ من واقع حياة المسلمين.

---

(١) الشيخ محمد داود بيهى ـ شرح المختار من هدى الرسولﷺ ـ مذكرة لطلاب الصف الثانى ـ كلية اللغة العربية/ الأزهر ـ عام ١٣٧٢هـ/ ١٩٥٣م وكان المؤلف فى هذه السنة فى الصف الثانى والشيخ الجليل واحد من شيوخه الأجلاء رحمهم الله وغفر لهم، وجزاهم عنا خير الجزاء.

وفى الحديث ما يُرشد العلماءَ الحكماءَ والمربِّين الألباءَ إلى نهْجٍ تربوىٍّ وتعليمىٍّ عظيمِ الفائدة، عالِى القيمة، وهو ضربُ المثَل لتقريب المعانِى إلى الأفهام، والتأثيرِ بها فى الوِجدان، مع التشويق والإيجاز.

وتأَّمل كراهةَ الإسلام للضرر والفساد، وحرصَه على سلامة الأمةِ من الخلَل والاضطراب، وعلى عدمِ السماحِ للعابثين بترويج بِدَعِهم وضلالاتِهم وما تُمليه أهواؤُهم المريضة، وشهواتُهم السقيمة، وشكوكُهم وأوهامُهم.

قال العلماء: فالفتنةُ إذا عَمَّت هلَك الكُلُّ، وذلك عند ظهورِ المعاصِى، وانتشارِ المنْكَر، وعدمِ التغيير، وإِن المؤمن فى وسط ذلك يُنكر بقلْبه، ويفرُّ من الفِتَن فِرارَه من النار.

وجاء عند البخارى عن ابن عمرَ أن رسولَ اللهِ ﷺ قال: «إذا أَنزل اللهُ بقوم عذابًا أصاب العَذابُ مَن كان فيهم ثُمّ بُعِثوا على أعمالهم».

فهذا يدلُّ على أن الهلاك العامَّ منه ما يكون طُهْرة للمؤمنين، ومنه ما يكون نِقمة للعُصاة والمارقين.

وقانا اللهُ شرَّ الفِتَن ما ظهر منها وما بطَن، وثبَّتنا على صراطه المستقيم، وحَفِظنا من شياطين الإنس والجِنِّ بفضله وإحسانه.

❊ ❊ ❊

من سورة التوبة:

١٧٩- الجودُ بالنفس أقصى غاية الجود

قال الحسنُ: مرَّ أعرابيٌّ على النبيِّ ﷺ، وهو يقرأ قولَه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١]

فقال الأعرابيُّ: كلامُ مَن هذا؟ قال: «كلامُ الله» قال: بَيْعٌ والله مُربِحٌ، لا نُقيلُه ولا نَستَقيلُه، فخرج إلى الغزْو، واستُشهد. [القرطبى]

ونَقل ابنُ كثير عن الطبرى أن محمدَ بنَ كعب القُرظى وغيرَه قالوا: إن عبدَالله بنَ رواحةَ قال لرسول الله ﷺ ليلةَ العقبة: اشترِط لنفسك ولربِّك ما شِئْتَ! فقال «أَشترِطُ لربى أَنِ اعبدُوه ولا تُشرِكوا به شيئًا، وأَشترِطُ لنفسى أن تَمنعونى مِمَّا تمنعون منه أنفسكم وأموالَكم» قالوا: فما لنا إذا فعلْنا ذلك؟ قال: الجنةُ، قالوا: رَبِح البيعُ، لا نُقيل ولا نَستقيل، فنزلت: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ الآية

ومعنى: لا نُقيل أى لا نَنقُضُ عهدَنا وبَيْعتَنا على الجهاد والطاعة ولا نَستقيله: أى: ولا نَطلب ذلك، والإقالةُ فى الأصل: فَسْخُ البيعِ، يقال: تقايل البيِّعان: إذا فسَخا البيع، وعاد المَبيعُ إلى مالكه، والثمنُ إلى المشترى، وتكون فى البيع والعهد، واستقَالَهُ: أى طلبَ إليه أن يُقيله.

وفى الآية: تمثيلٌ، والغرضُ منه ترغيبُ المؤمنين فى الجهاد ببيان حالِ

المتخلِّفين عنه، ولا نرى كما قال بعضُ العلماء[1] ترغيبًا فى الجهاد أحسنَ ولا أَبلغ مما فى هذه الآية، لأنه أُبْرِزَ فى صورةِ عَقْدٍ عاقَدُه ربُّ العِزَّة جلَّ جلالُه، وثَمَنه ما لا عينٌ رأتْ ولا أُذنٌ سَمِعت، ولا خطَر على قلْب بشَر، ولم يُجْعَل المعقودُ عليه كونَهم مقتولين فقط، بل كونَهم قاتلين أيضًا ﴿يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ أى: لإعلاء كلمةِ الله تعالى، ونُصرةِ دينهِ سبحانه، وجَعَلَه مسجَّلاً فى الكتب السماوية، وما أعظَمه من صَكٍّ، وجعل وعدَه حقًّا، ولا أحدَ أَوْفَى مِنْ وَاعِدِه سُبحانه فَنسيئتُه أَقوى من نَقْد غيرِه، وأشار إلى ما فيه من الرِّبح والفوزِ العظيم وهو استعارةٌ تمثيليةٌ: فقد صوَّرَ جهادَ المؤمنين وبَذْلَ أموالِهم وأنفسِهم فيه وإثابةَ الله تعالى لهم على ذلك الجنةَ بالبيع والشراء، وأتى بقوله سبحانه ﴿يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ بيانًا لمكان التسليمِ وهو المعركةُ، وإلى هذا المكانِ جاءت الإشارةُ بقوله ﷺ: «الجنةُ تحتَ ظلال السيوف» ثم أمضى اللهُ عز وجل هذا العَقد بقوله ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

ولقد أَعْظَمَ أصحابُ رسولِ الله ﷺ أَمْرَ هذه الآية، وأَكَّدوا عَزْمَهم على الوفاء بهذا البيعِ الـمُربحِ، ولسانُ حالِهم جميعًا يقول كما قال بعضُهم: لا نُقيله ولا نَستقيلُه، لا نَفسَخُ هذا البيعَ، ولا نَنقُضُ هذا العهدَ، ولا نطلب نقضَه.

إِن فى الآية الكريمة ثمنًا ومُثَمَّنًا، أَمَّا الثمنُ فهو جنةُ الخلد حيث النعيمُ المقيمُ والرَّوْحُ والرَّيحانُ ومرضاةُ الربِّ، وأمَّا الـمُثَمَّنُ فهو الرُّوحُ

---

(١) جاء فى الشهاب ونقله صاحب روح المعانى.

والمالُ، والـمُشترِى هو ربُّ العزةِ والجلال ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ﴾ أى: لا أحدَ أَوْفى بعهده من الله، وهو سبحانه مالكُ العِوَضِ والـمُعَوَّض، هو مالكُ جناتِ النعيمِ ومالكُ النفوسِ والأموال، والعِوَضُ هنا عظيمٌ لا يُقارِبُه الـمُعَوَّضُ ولا يُدَانِيه، ولا يُقَاسُ به، إننا مِلْكُه وعبيدُه، وتحت قهرِه وسلطانِه، وقد اشترى سبحانه منا إتلافَ أنفسنا وأموالِنا فى طاعته، وإهلاكَها فى مَرضاته، وأعطانا سبحانه الجنةَ عوضًا عنها إذا فعلْنا ذلك، وأخلصْنا الطاعةَ والجهادَ له سبحانه.

وإن القرآنَ العظيمَ يُخاطبنا بما تُطيقه عقولُنا، وتتصورُه مداركُنا ونفوسُنا، ويُقرِّب إلينا المعانىَ اللطيفةَ، ويُرغِّبنا فى الخير، ويُنفِّرُنا من الشرِّ بالتمثيل والتصويرِ بما هو واقعٌ فى حياتنا، فأَصلُ الشراءِ بين الخَلْقِ أن يُعَوِّضُوا عَمَّا خَرَج من أيديهم ما كان أَنْفَع لهم، أو مِثْلَ ما خَرَج عنهم فى النفْع، فأَجرى ذلك فى الوعد بنعيم الجنة على الجهاد على مجازِ ما يتعارفُه الناسُ فى البيع والشراء، فَمِن العبد تسليمُ النفسِ والمالِ، ومن الله الثوابُ والنوالُ، فَسُمِّىَ هذا فى الآية شراءً على سبيل الاستعارة.

قال ابنُ كثير فى بيان هذا التصوير: يُخبِرُ اللهُ تعالى أنه عاوَضَ عبادَه المؤمنين عن أنفسهم وأموالِهم إذْ بَذَلُوها فى سبيله بالجنة، وهذا من فضله وكرَمه: فإنه قَبِلَ العِوَضَ عَمَّا يَمْلِكُه، بما تفضَّل به على عباده الـمُطيعين له.

قال الحسنُ البصرىُّ وقتادةُ: بايعَهم والله فأَغلى ثمنَهم.

وقد جاء فى الأثر: «إنَّ فوقَ كلِّ برٍّ برٌّ، حتى يَبذُلَ العبدُ دمَه فإذا فعل ذلك فلا بِرَّ فوقَ ذلك» [رواه الحسن ورفعه/ القرطبى]

وفى هذا المعنى جاء المثلُ الحكيم:

الجودُ بالمالِ جودٌ فيه مكْرُمةٌ ... والجودُ بالنفس أَقصى غايةِ الجُود

وأنشد الأصمعى لجعفر الصادق :ـ

أُثامنُ نفسى النفيسةَ ربَّها ... وليس لها فى الخلْق كلِّهم ثَمَن
بها تُشْتَرَى الجناتُ إن أنا بِعْتُها ... بشىءٍ سِواها إنَّ ذلكم غَبْن
لَئن ذَهَبَتْ نفسِى بدُنيا أصبتُها ... لقد ذهبتْ نفسى وقد ذَهَب الثَّمن

فهو يَبيع نفسه لربه سبحانه وتعالى ليشترىَ الجناتِ، ولأن النفس أنفسُ ما يَملكُ الإنسانُ فإن هى بِيعتْ بعرض الدنيا كانت الخَسارةُ فادحةً، إذ ضَيَّع نفسَه، وضَيَّع ما أصاب من الدنيا.

إن الوعدَ بالجزاء الحَسنِ على الجهاد فى سبيل الله جاء تصويرُه بالبيع والشراءِ لتقريب المعنى إلى الأفهام، فالـمَبيعُ فى هذا العقدِ هو أَنفُسُ المؤمنين وأموالُهم، والثمنُ الذى هو الوسيلةُ فى الصفقة هو الجنةُ، وقد جاء ذلك فى الآية الكريمة بعبارةٍ قويةٍ جزلةٍ مُؤكَّدةٍ تَنوَّعَ فيها الكلامُ بين الخبرِ والإنشاءِ تَبْعَثُ على الرغبة فى الجهاد، وتُشَوِّقُ النفوسَ المطمئنةَ إلى البذْل فى سبيل الله.

ومن الإنشاء الاستفهامُ الذى يُراد به النفْى والتقرير: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ﴾؟ لتقرير أنه ليس أحدٌ أوفى بالعهد منه سبحانه، والأمرُ فى ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُم﴾ فيه الحثُّ على إظهار الفرحِ بهذه الصفقةِ المربحة حقًّا.

وقد جاء الكلامُ مؤكَّدًا بإنَّ الناسخةِ، وبتكررُ إسنادِ الفعل اشتَرى إلى لفظ الجلالةِ باعتباره المسندَ إليه «المبتدأ» الواقع اسم إنَّ ، والمسندَ إليه ـ أيضًا ـ (فاعل) اشترى: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُم الْجَنَّةَ﴾ فالفعل اشترى فاعلُه ضميرٌ مستترٌ فيه تقديرُه: هو يعودُ

على لفظ الجلالة الذى هو اسمُ إن، وفى هذا تقويةٌ للمعنى[1] وفى قوله سبحانه: ﴿بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ مبالغةٌ فى تقرير وصولِ الثمنِ إليهم واختصاصِه بهم، كأنه قيل: بالجنة الثابتةِ لهم، المختصةِ بهم، وتقويةُ المعنى جاءت عن طريق تقديم الخبر «**لهم**» وبأن الناسخة المؤكِّدة.

وقوله سبحانه: ﴿يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بيانٌ لمكان التسليمِ فأَرْضُ المعركة هى مكانُ تسليم المبيعِ (السلعة)، وإن وعدَ اللهِ بالجنة للمجاهدين لا يَتخلَّفُ فكأن الثمنَ عاجلٌ والـمُثَمَّنَ آجلٌ، فهو من بَيْع السَّلَم، وما أَرْبَحَه من بَيْع! وما أعظمها من صفة!.

﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ أى: سواءٌ قَتَلُوا أو استُشهِدوا، أو اجتمع لهم هذا وهذا فقد وجَبَتْ لهم الجنةُ، كما جاء فى الصحيحين: «وتكفَّل اللهُ لِمَن خرَج فى سبيله، لا يُخرجه إلا جهادٌ فى سبيلى، وتصديقٌ بِرُسلى بأن تَوفَّاه أن يُدْخِلَه الجنةَ، أو يُرْجِعَه إلى مَسْكَنِه الذى خَرَج منه، نائلًا ما نالَ من أجْرٍ أو غنيمة».

وقوله سبحانه: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ تأكيدٌ لهذه البُشرى وذاك الوعدِ، وإخبارٌ بأنه كتَبه على نفسه الكريمة، وأنزله على رسله فى كُتُبه الكبار، وهى التوراةُ المنزَّلةُ على موسى، والإنجيلُ المنزَّلُ على عيسى، والقرآنُ المنزَّلُ على محمد صلواتُ اللهِ وسلامُه عليهم أجمعين.

وفى هذا ما يدلُّ على أن الجهادَ أصلُه من عهد موسى عليه السلام

---

(١) فالفعلُ مُسنَد والمبتدأ اسم إن مسنَدٌ إليه وكذلك الفاعل «مُسنَد إليه أيضا» وهما واحد فكأنه قيل: قد اشترى الله قد اشترى الله من المؤمنين. . . . إلى آخر الكلام مع ما يُفيده التقديمُ من تخصيص المؤخَّر بالمقدَّم، أى: إن هذا الاشتراء فى هذه الصفقة خاص به سبحانه، فهو وحده مالك الثمن والـمُثمَّن فيها وهو المتفضل على عباده المخلصين بالنوال والثواب، فهو بيع مربح ونعم البيع.

و«وَعْدًا» مصدرٌ مُؤكِّدٌ لمضمون الجملةِ لأن معنى الشراءِ بأن لهم الجنةَ وعدٌ لهم بها على الجهاد فى سبيله و «حَقًّا» نعتٌ له، وشِبْهُ الجملةِ «عَلَيه» فى موضع الحالِ من «حَقًّا» لتقدُّمه عليه(١).

وقوله سبحانه: ﴿فِى التَّوراَة والإِنجيلِ والْقُرآنِ﴾ متعلقٌ بمحذوف وقَع نعتًا لوعدًا أيضًا أى: وعدًا مُثبتًا فى التوراة والإنجيلِ كما هو مُثبَتٌ فى القرآن.

ثم زادت الآيةُ تأكيدَ البشرى للمجاهدين بقوله سبحانه: ﴿وَمَن أَوْفَى بعَهْده منَ اللهِ﴾ أى: لا أَحَدَ أوفى بعهده من الله، وهى جملةٌ مُعترِضَةٌ مُقَرِّرَةٌ لمضمونَ ما قبلها من حَقِّيةِ الوعْد، والمقصودُ من مثل هذا التركيبِ عُرفًا: نَفْىُ المساواة: أى لا أحدَ مثلُه سبحانه فى الوفاء بعهده.

ثم دعا اللهُ عبادَه إلى إظهار السرورِ بهذه الصفقة الرابحة وبهذا الوعدِ المتضمنِ أعظمَ البشرى: ﴿فَاستَبْشروُا بِبَيْعكُم الَّذى بَايَعتُم به﴾ أى: فإذا كان كذلك فأظهروا السرورَ بما فُزتم به من الجنة ﴿وذَلكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظيم﴾ أى الظَّفَر بالجنة والخلودِ فيها، وهذه الجملةُ تذييلٌ مُقَرِّر لمَا جاء فى الآية الكريمة، والإشارةُ للجنَّة التى جُعلت ثمنًا بمقابلة ما بَذلُوا من المال والأنفس، وفى ذلك إعظامٌ للثمن ومنه يُعْلَمُ حالُ المثمَّن.

ثم بيَّن اللهُ صفاتِ المؤمنين الذين اشترى اللهُ منهم أنفسَهم وأموالَهم بصفاتٍ جميلة وخِلالٍ جليلةٍ فقال: ﴿التَّآئبُون الْعَابدُونَ الْحَامدُون السَّائحُون الرَّاكعُون السَّاجدُون الآمرُون بِالْمَعْرُوف والنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافظُونَ لِحُدُودِ الله وبَشِّرِ الْمُؤْمِنين﴾. [الآية: ١١٢]

---

(١) لأنَّ الحالَ يأتى من النكرة إذا تقدَّمت على صاحبِها مثل: لِمَيَةَ مُوحِشًا طَلَلٌ، موحشًا حالٌ من طلل لتقدّمه على صاحبِه.

من سورة الأنعام:

١٨٠ - أ - الأَحياءُ والأَموات

قال اللهُ تعالى من سورة الأنعام: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الآية: ١٢٢]

فى هذه الآيةِ الكريمةِ ضَرَبَ اللهُ عزَّ وجل مثلاً لحال المؤمنِ فى الدنيا ومثلًا لحال الكافرِ فيها، يتبيَّنُ منهما البونُ الشاسعُ بين الفريقين والتباينُ التامُّ بين حاليهما ومصيرِ كلٍّ فريقٍ منهما، جاء هذا المَثَلُ بألفاظٍ واضحةِ الدلالة، عظيمةِ الإيحاء، وبعبارةٍ فيها إيجازٌ وإعجاز، وبأسلوب إنشائيٍّ للاستفهام الإنكاريِّ يُنبِّهُ المشاعرَ، ويُوقظُ الوجدان، ويدعو إلى التدبُّر والتأمُّل، مع ما اشتملت عليه الآيةُ من الطباق والجمعِ بين المعانى المتضادَّةِ ممَّا زاد الإيضاحَ وقَوَّى التأثير.

وقد قدَّم المَثَلُ الأمورَ المعنويةَ التى تُدرَكُ بالعقل فى صورٍ محسوسةٍ تُجسِّمُ المعنى، وتقرِّبُه، وتؤكِّدُه، وتؤثِّرُ به عن طريق التمثيلِ المركَّبِ من وجوهٍ منتزَعةٍ من هيئات متعدِّدة، فلفظُ «**مَيْتًا**» استُعير للكافر والإحياءُ استُعير للإيمان «**فَأَحْيَيْنَاه**» أى: وفَّقناه للإيمان الصحيح و«**نُورًا**» استُعير للقرآن والإسلامِ أو للعملِ والهدى، ولفظُ «**الظُّلُمات**» للجهالاتِ والأهواءِ والضلالاتِ المتفرِّقة، وهذه الاستعاراتُ خطوطٌ فى صورة متكاملةٍ ومتداخِلةٍ تُبرِزُ لنا حالَ كلٍّ من المؤمن، والكافرِ فالأولُ يمشى على هداية ورشادٍ، ونورُ إيمانه يُلازمه، فهو على استقامةٍ وتوفيقٍ فى تفكيره وأمورِه، والآخرُ ينعكسُ ظلامُ قلبِه على معتقداته

ومسالكه ، فهو كمن يُحيط به ظلامٌ دامسٌ يتخبَّطُ فيه حائرًا ، والغرضُ منْعُ التسويةِ بينهما ، وعقْدُ مقابلَةٍ تتضحُ منها مزايا الإيمانِ الصحيحِ فى استقامة الفكرِ والاتجاه ، وفى تصحيح المسالكِ وهدايةِ المؤمنِ وتَجنيبِه أسبابَ المهالك ، فَبِضدِّها تتميزُ الأشياءُ ، ومن ثنايا المقابلةِ بين المثَلين يجدُ العقلُ نفسَه أمام مسؤوليتِه إذْ يتمكَّنُ من الوصول بتأمُّله وتدبُّرِه إلى الحقيقة التى يجبُ الوصولُ إليها: والحقُّ أحقُّ أن يُتَّبَع.

والهمزةُ فى ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا...﴾ الآية ، للإنكار الذى يفيدُ النفى أى: ليس مَن كان كالميِّت بسبب الكفر ، فأحيا اللهُ قلبَه بالإيمان وصار يَهتدِى فى مسالكه وتصرُّفِه بنور الوحْى ليس مَن هذا شأنُه كهذا الذى يعيش فى ضلالات الكفرِ والحَيرةِ يتخبطُ فى أهوائه وشبهاتِه وشكوكه.

وفى التعليق على الآية الكريمة قال صاحب الكشاف: «مَثَّلَ الذى هداه اللهُ بعد الضلالةِ ، ومنَحه التوفيقَ لليقين الذى يُميِّزُ به بين الـمُحِقِّ والـمُبطل ، والمهتدى والضالِّ بِمَن كان ميتًا فأحياه الله ، وجعل له نورًا يمشى به فى الناس مستضيئًا به فيميِّزُ بعضَهم من بعض ، وَيفْصِلُ بين حِلاهُم[1] ، و ـ مَثَّلَ ـ مَن بَقِى على الضلالة بالخابطِ فى الظلمات ، لا ينفكُّ منها ، ولا يتخلَّص».

ومعنى قولِه: ﴿كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ أى: كمن صفتُه هذه ، وهى قوله: ﴿فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ بمعنى هو فى الظلماتِ ليس بخارجٍ منها[2].

---

(١) حلاهُم بكسر أوله جمعُ حلية بكسر أولِه، والمرادُ الصفةُ والخِلْقَةُ والصورة، وتقول فصَلَ بينَ الأمرين أى فرّق بينهما.

(٢) وعلى هذا تكون مثل زائدة كما تقول: أنا أكرمُ من مثلك أى أكرمِ منك، وقيل: ليست مثل زائدة والمعنى: كمن مَثَله مَثَلُ من هو فى الظلمات أى كمَن صفتُه وحالُه كصفةِ وحالِ.

وفى تفسير هذا المثلِ قال الخازنُ صاحبُ لُبابِ التأويل فى معانى التنزيل: «وهذا مثَلٌ ضربَه اللهُ تعالى لحال المؤمنِ والكافرِ فبيَّن أن المؤمنَ المهتدِىَ بمنزلة مَن كان ميتًا فأحياه، وأعطاه نورًا يَهتدى به فى مصالحه وأن الكافر بمنزلةِ مَن هو فى ظلماتٍ منغمسٌ فيها، ليس بخارج منها فيكون مُتحيِّرًا على الدوام».

السبب خاصٌ أم عامٌ؟:

وهل المَثَلان مخصوصان بإنسانين معيَّنين أو هما عامَّان فى كل مؤمنٍ وكافرٍ؟ والصحيحُ الثانى وأنهما عامَّان فى كل مؤمنٍ وكافر، ويندرجُ تحت هذا مَن هَداه اللهُ للإسلام، وشرَح صدرَه لدينه مِثْلُ: حمزةَ وعمرَ وعمارٍ وغيرِهم من أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ وسائرِ أهلِ اليقين والتوحيدِ كما يندرجُ تحت أهلِ الضلال: أبو جهلٍ وأمثالُه ممن كانوا حربًا على الإسلام وأهله حتى تقومَ الساعة.

وإن الموتَ فى قوله: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا﴾ يكون بالكفر والشركِ والجهلِ وعمَى البصيرة، وضدُّه الحياةُ المعنويةُ التى تكون بالإيمان وبالقرآن والإسلامِ والعلمِ والهدى والحكمة، وهذا هو المعبَّرُ عنه بالنور الذى يَهْدى صاحبَه ويُرشِّدُ خطواتِه، ويسدِّده على طريق الاستقامة فى عقيدته وعبادته ومعاملاته وأخلاقه.

وفى المَثَل الحكيم قالوا:

وفى الجهْل قبْل الموت موتٌ لأهْله ... فأجسادُهم دونَ القبورِ قبورُ
وإنَّ امْرأً لَمْ يَحْىَ بِالعِلْم صَدْرُه(١) ... فليس له حتَّى النشورِ نُشورُ(١)

وفى بيان الغرض من التمثيل فى الآية الكريمةِ يقولُ أبو السعود فى

(١) وفى لفظ آخر: وإنَّ امرأً لم يَحْىَ بالعلم ميّتٌ.

تفسيره[١]: «إنه تمثيلٌ مسوقٌ لتنفير المسلمين عن طاعة المشركين إثرَ تحذيرِهم عنها ، بالإشارة إلى أنهم مستضيئون بأنوار الوحْى الإلهى والمشركون خابطون فى ظلمات الكفرِ والطغيانِ ، فكيف يُعْقَلُ إطاعتُهم لهم؟». (انتهى كلامه)

وأبو السعود بهذا يربطُ بين مضمونِ المثَلِ فى الآية الكريمةِ ومضمونِ الآيةِ السابقةِ عليها فى قوله تعالى محذرًا عبادَه المؤمنين من إطاعة شياطينِ الإنس والجن: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١]

وقد تضمَّنَت الآيةُ النَّهْىَ عن أكلِ الميْتات بأنواعها ، وما أُهلَّ به لغير اللهِ من ذبائحِ المشركين ، وما ذُبح على النُّصب ونحوِه ، وما ذُكر عليه اسمٌ مع اسمهِ تعالى[٢] ، وكان شياطينُ الإنس يُجادلون المسلمين فى ذلك يُغْرُوْنَهم بأكْل لحمِ الميتة ، وقد حرَّمه اللهُ عزَّ وجل ، ولو أطاعوهم فى تحليل ما حرَّم اللهُ لأشركوا ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ أى فى تحليل الميْتةِ وأكْلها ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾.

فدلَّت الآيةُ على أن مَن استحلَّ شيئًا مِمَّا حرَّم اللهُ تعالى صار مشركًا وقد حرَّمَ اللهُ الميتةَ نصًّا ، فإذا قَبِل تحليلَها مِنْ غيرِه فقد أشرك ، قال ابن كثير: «وإن أطعتُموهم إنَّكم لـمُشرِكون» أى: حيث عدَلْتُم عن أمر اللهِ

(١) النقل عن الأمثال القرآنيةِ دراسة تحليلية للدكتور محمد بكر إسماعيل (الطبعة الأولى).

(٢) للعلماء تفصيل فى ذبيحةِ المسلم إذا لم يُذكر اسمُ الله عليها عند الذبح عمْدًا أو سهوا مع سلامة الاعتقاد والانقياد، فمنهم من أحلَّ الأكل لأن القلبَ عامرٌ بِذكر الله، ومنهم من تمسَّك بظاهر الآيةِ وحرَّمها «والكلام فى ذلك مبسوط فى كتب الفقه».

لكم وشرْعِه إلى قولِ غيرِه ، فقدَّمتُم عليه غيرَه ، فهذا هو الشركُ[1].

ونَقَل الخازنُ عن الزجاج قولَه: «فيه دليلٌ على أنَّ كلَّ مَن أحلَّ شيئًا ممَّا حَرَّم اللهُ أو حرَّم شيئًا مِمَّا أَحلَّ فهو مشركٌ ، إنَّما سُمِّى مشركًا لأنه أَثْبَتَ حاكمًا غيرَ اللهِ عزَّ وجل ، ومَن كان كذلك فهو مشركٌ».

نعود بعد هذا إلى كلامِ أبى السعود فى الربْط بين المثلِ وبين النهْى عن إطاعة المشركين ، ففى المثَلِ تنفيرٌ للمسلم عن طاعة المشركِ، وتعليلُ ذلك فى المثَل أنَّ المسلمَ مستضىءٌ بنور الوحْى الإلهى ، يَهتدى به فى مصالحه ويَهتدى به إلى طُرقِه فهو على رشادٍ وبصيرة ومعرفة بالحلال والحرامِ أمَّا المشركُ فمتخبِّطٌ فى ظلام كُفره ، فهو على الدوام متحيِّرٌ لايَهْتَدِى فكيف يُتابِعُ المتبصِّرُ المهتدِى مَن هو ضالٌّ تُسيِّرُه أهواؤُه وشكوكُه؟.

فتأمَّل المثَلَ وما فيه من إيجازٍ وإعجاز ، وكيف نَقَل إلينا الأمورَ التى تُدرَكُ بالعقل فى صورة مجسَّمةٍ محسوسةٍ تجعلُنا أكثرَ فهمًا للمقصود وأقوى شعورًا به ، وشتان بين: ما هو ميِّت وما هو حىٌّ ، وبين مَن يمشى وسراجُه فى قلبه ، وبين متخبِّطٍ فى ظلامٍ دامسٍ لا يَدرى أين يتَّجهُ ، ولا أين يذهب ، فهو حائرٌ هالكٌ لا يَهتدى إلى منفذ ، ولا مَخْلَصٍ مِمَّا هو فيه كما قال تعالى من سورة البقرة: ﴿اللهُ وَلِىُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُم فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الآية:٢٥٧] ﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ ما كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وهذا التزيينُ والتحسينُ

---

(١) وابنُ العربى يقول: إنما يكون المؤمنُ بطاعة المشرك مشركًا إذا أطاعَهُ فى الاعتقاد، فإن أطاعه فى الفعلِ وعقدُه سليمٌ مستمرٌّ على التوحيد والتصديقِ فهو عاصٍ. «القرطبى/ الأنعام»

وبالٌ عليهم ، فهم يخوضون فى الباطل والزورِ ، ويسعَوْنَ فى الأرض بالفساد ، وهم يَحسبون أنهم يُحسنون صُنعًا ، وقد اختاروا ما فيه هلاكُهم ، قال أهلُ السنَّة: المزيِّنُ هو اللهُ تعالى ، ويدلُّ عليه قوله:

﴿زَيَّـنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ [النمل: ٤]

قال ابنُ كثير: أى: حَسَّنَّا لهم ما هم فيه من الجهالة والضلالةِ قَدَرًا من اللهِ وحِكْمةً بالغة ، لا إِله إِلَّا هو.

ومن جُملة هؤلاء المتخبِّطين فى ظلام الكفرِ زعماءُ الضلالِ فى مكةَ المكرمةِ الذين تعنَّتُوا مع رسولِ اللهِ ﷺ ، وصدُّوا عن سبيل الله ، ودعَوا إلى مخالفته ﷺ وعداوته ، لذا قال اللهُ تعالى لنبيِّه لتسليته: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٣]

وفى هذا تسليةٌ له ﷺ ، والمرادُ بالمكْر فى الآية دعاؤُهم إلى الضلال بزخرف من المقال والفِعَالِ أى: وكما جعلنا يا محمدُ فى قريتك مكةَ المكرمةِ دعاةً إلى الكفر ، وإلى عداوتك جعلْنا فى كل قريةٍ من قرى المرسَلين من قبلك زعماءَ الشرك والضلالِ مِثْلَهم ليمكُروا فيها، ليميزَ اللهُ الخبيثَ من الطيب، وما يعودُ وبالُ مكرِهم ذلك وإضلالِهم مَن أضلُّوه عن الحق إلاَّ على أنفسهم لترويجهم الباطلَ بين الناس، وهم لفَرْط جهْلِهم لا يدرون أنَّ وبالَ مكْرِهم عائدٌ إليهم بالعذاب الأليم.

وما أكثرَ الدعاةَ على أبوابِ جهنمَ فى كل عصر، وفى عصرنا الحاضرِ منهم كثيرٌ، وقد ترقَّت وسائلُ الاتصال بالصوت والصورةِ والألوانِ وغير ذلك، وللإِلحاد دعاةٌ، وللفساد دعاةٌ، وللشرِّ دعاةٌ يُزخرفون ويزيِّنون وطُوبَى لمن تمسَّك بالحق، وأطاع الربَّ، واعتصم بحبل الله، وحفظه اللهُ

من مهاوى الرذيلة، واستعان بالله على طاعته.

ثم قدَّم مساقُ السورة صوراً من تعنُّت هؤلاء المكابرين وجهلِهم وبيَّن مآلَهم ومصيرَهم بسبب إجرامِهم ومكرِهم..

والكلام متصل.

❊ ❊ ❊

حبُّ رسول الله ﷺ:

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسولَ الله ﷺ قال: «والذى نفسى بيده لا يؤمنُ أحدُكم حتى أكونَ أحبَّ إليه من والده وولدِه».

أخرجه البخارى وزاد فى رواية أنس رضى الله عنه «والناسِ أجمعين»

١٨١ - ب - صَدْرُ المؤمنِ وصدْرُ الكافِرِ

حَسد عُتاةُ المشركين الرسولَ محمداً ﷺ على نعمة النبوّة ، وعاندُوا واستكبروا ، وقالوا: لولا نُزِّلَ هذا القرآنُ على رجُل كبيرٍ عظيمٍ من الرؤساء المُبجَّلين فى مكةَ أو الطائفِ ، وأدَّاهم الكبرُ إلى الحِرمان من هذا الخيرِ العميم ، وآذَوْا رسولَ الله ﷺ وأصحابَه ، وسَخِروا منه ومنهم وكان من قادة الضلالِ فى مكةَ رجلٌ غليظُ القلبِ اسمُه الوليدُ بنُ المغيرة. كان يقولُ للنبى ﷺ: لو كانت النبوةُ حقًّا لكنتُ أولى بها منك لأنى أكبرُ منك سنًّا ، وأكثرُ منك مالاً ، وكان أبو جهل يقول: زاحَمْنَا بنى عبدِ مناف فى الشرف ، حتى إذا صرْنا كفَرَسَىْ رِهَان قالوا: منَّا نبىٌّ يُوحَىٰ إليه ، واللهِ لا نَرضى به ، ولا نَتَّبِعُه أبدًا إلا أن يأتِينا وَحْىٌ كما يَأْتيه.

لقد نظر هؤلاء إلى أمرِ النبوةِ كما ينظرون إلى مناصبِ الدنيا ومَراتبِها والتنافسِ فى الحَظْوة بالمنازلِ فيها ، والحصولِ على متاعها ، وما دَرَوْا أن أمرَ النبوةِ أعظمُ وأجلُّ ، وأَنَّ اللهَ يَصطفى لها من خَلْقه من صَفَّى نفوسَهم من الأدران ، وطهَّر قلوبَهم من الحَسد والغدْر ، وجعلهم بعنايته أهلًا لحمْل رسالته ، وتبليغِ دينه ، فهم أهلُ الصدقِ والأمانةِ والوفاء وقد زينَّهم اللهُ بالكمال الخُلُقىِّ والنفسىِّ ، وعصمَهم ، وكان النبىُّ محمدٌ ﷺ خيرَ الناسِ نفسًا ، ومن خير العربِ بيتًا ، وكان خيرُ البيوتِ بيتَه ، وقد جعلَه اللهُ فى خير القبائل ، ولم يكن فى المَشارقِ والمغاربِ رجلٌ أفضلُ من محمدٍ ﷺ ، وكان قلبُه أفضلَ القلوب ، وقد عَرفه معاشروه ومخالِطُوه فى شبابه بالصادق الأمين ، فلمَّا أكرمه اللهُ بالرسالة اتَّهمه

المتعنتون بالسحْر والكهانة واستهزأوا به ، كما أخبر الله عنهم: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِى بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: ٤١]

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]

أى: رئيسٍ من رؤساء مكةَ أو الطائفِ ، لقد قالوا هذا وغيرَه بغيًا وعنادًا ، وهم مُعترفون بفضله وبشرفِه ونَسَبِه وطهارةِ بيتِه وتربيتِه ومَنشئه ﷺ.

وفى الوليد بنِ المغيرة وأبى جهلٍ وأمثالِهما مِمَّن أبَوا الإذعانَ للآيات حسدًا وكبرًا نزَل قولُ الله تعالى من سورة الأنعام: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِىَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الآية: ١٢٤]

أى: إذا جاءتهم آيةٌ وبرهانٌ وحُجَّةٌ قاطعةٌ بصدْق النبىِّ محمدٍ ﷺ قالوا: لن نؤمنَ حتى تأتيَنا الملائكةُ من الله بالرسالة كما تأتى إلى الرسل ، وقد أرادوا بذلك أن تحصُلَ لهم النبوةُ والرسالةُ كما حصَلت للنبى محمدٍ ﷺ ، وأن يكونوا متبوعين لا تابعين ، ويدلُّ على ذلك سياقُ الآيةِ وهو قولُه تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ يعنى أنه سبحانه يعلمُ مَن يستحقُّ الرسالةَ فيشرِّفُه بها ، ويعلمُ مَن لا يستحقُّها ومَن ليس بأهلٍ لها ، وأنتم لستم لها بأهل ، وإن النبوةَ لا تحصلُ لمن يطلبُها خصوصًا لمَن عنده حسدٌ ومكرٌ وغدْرٌ.

ثم جاء الوعيدُ الشديدُ فى الآية الكريمة لمن تكبَّر عن اتِّباع الرسلِ فقال: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ [الآية: ١٢٤]

أى: سيُصيب هؤلاء المتكبرين ذلةٌ وهوانٌ من عند اللهِ بعد كِبْرهم وعظَمتهم ، وعذابٌ شديدٌ بسبب مكْرِهم وحسَدِهم وطَلَبِهم ما لا يستحقُّون.

إِن الإِعراضَ عن الدين الحقِّ أمارةٌ على الشقاوة ، ودليلٌ على التعاسة وبرهانٌ على الطرْد من رحمةِ اللهِ عز وجل ، أمَّا مَن يُرِدِ اللهُ به خيرًا فإنه يُوفِّقه للتوحيد ، ويُعينه على الطاعة والإذعان ، ويملأُ قلبَه بنور اليقين ، قال تعالى من سورة الأنعام: ﴿فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى السَّمَآءِ﴾ [الآية: ١٢٥]

أى: إذا أراد اللهُ بعبد خيرًا ولطَف به ، ولا يُريد سبحانه أن يلطفَ إلا بِمَن له لُطفٌ ، فإنه تعالى يوفِّقُه لقبول الإيمان ، ويُزيِّنُ عنده ثوابَه ويلطُفُ به حتى يَرْغَبَ فى الدين الحق ، وتَسكُنَ إليه نفسُه ، ويُحِبَّ الدخولَ فيه.

وجاء عن ابن عباس: «يُوسِّعُ قلبَه للتوحيد والإيمَانِ به».

قال الخازن: ﴿يشْرَحْ صدْرَه للإسلام﴾ أى الإيمانِ ، يقال: شرَح اللهُ صدْرَه فانشرح ، أى وَسَّعه لقبول الإيمانِ والخيرِ فَتوسَّع ، وذلك أن الإنسانَ إذا اعتقَد فى عمَلٍ من الأعمال أنَّ نفْعَه زائدٌ ، وخيرَه راجحٌ وربْحَه ظاهرٌ مَال بطبْعه إليه ، وقوِيَت رغبتُه فيه ، فَتُسَمَّى هذه الحالةُ سَعَةَ النفسِ وانشراحَ الصدْر.

فشَرْحُ الصدْر: توسعتُه للإسلام والتوفيقُ للدخول فيه. والكلام على سبيل الاستعارة بتصوير الأمر المعنوى وهو التوفيقُ لقبول الإسلام وطمأنينةُ القلبِ بالإيمان واليقينِ الصادق بصورة الأمرِ الحِسىِّ وهو الشرح

والتوسعة.

وقيل: الشرحُ بمعنى الفتْحِ والبيانِ ، يقال: شرَح فلانٌ الأمرَ أى أوضَحه وأظْهَره ، وشرَح المسألةَ: إذا كانت مشكِلةً فأوضحها وبيَّنها وفسَّر الغامضَ منها ، فقد ثبت أن للشرح معنيين: أحدُهما الفتْح ، ومنه

﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [الزمر: ٢٢]

يعنى فَتَحه وَوسَّعَه لقبوله ، والثانى: أن الشرحَ نورٌ يقذِفُه اللهُ فى قلْب العبدِ ، فيعرفُ بذلك النورِ الحقَّ ، فيقبلُه ويَنْشَرِحُ صدرُه له.

ويزيد الخازنُ هذا المعنى بيانًا فيقول: ومعنى الآية: فمَن يُرِدِ اللهُ أن يَهْدِيَه للإيمان بالله وبرسوله ، وبما جاء به من عنده يوفِّقْه له ، ويشرحْ صدرَه لقبوله ، ويهوِّنْهُ عليه ، ويسهِّلْه له بفضله وكرمه ولطفِه به وإحسانه إليه ، فعند ذلك يستنيرُ الإسلامُ فى قلبه فَيُضىءُ به ويتَّسِعُ له صدرُه ولما نزلت هذه الآيةُ سئل النبىُّ ﷺ عن شرْح الصدر فقال: «نورٌ يَقذِفُه اللهُ فى قلْب المؤمنِ فينشرحُ له ، وينفسحُ» قيل: فهل لذلك من أمارة؟ قال: نعم: «الإنابةُ إلى دار الخلود ، والتجافِى عن دار الغُرور ، والاستعدادُ للموت قبل نزولِ الموت»

[حديث مُرْسَل رواه أبو جعفر عبد الله بن المسور وأسنده الطبرى]

وقد جاء هذا الحديث موصولاً عن ابن مسعود قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «إذا دخَل النورُ القلبَ انفسَح وانشرح ، قالوا: فهل لذلك من علامة يُعْرَفُ بها؟ قال: «الإنابةُ إلى دار الخلودِ ، والتنحِّى عن دار الغرورِ ، والاستعدادُ للموت قبل لُقِىِّ الموت»(١) [نقله ابن كثير عن ابن جرير]

---

(١) جاء هذا الحديث بطرق مختلفة مُرسَلة ومتَّصلة يشدُّ بعضُها بعضًا ـ والله أعلم ـ والحديث المرسَل ما سقط منه الصحابى والموصولُ أو المتصل ما اتصل سندُه ولم يسقط منه الصحابىُّ الراوى سواء كان مرفوعًا إليهﷺ أو موقوفًا.

من ضيَّق اللهُ صدره:

وفى مقابل من وسَّع اللهُ صدرَه لقبول الحقِّ وهَدَاهُ لاتِّباعه جاء ذِكْرُ مَن لَّا لُطْفَ له من المخذولين الذين لم تتسعْ صدورُهم لشىء من الهُدى ولا يَخلُص إليها شىءٌ مَّا ينفعُها من الإيمان ، ولا تنفذُ فيها أدلتُه وبراهينُه ، ولنتدبر: ﴿وَمن يُرِدْ أَن يُضلَّه يَجعلْ صدْرَه ضيِّقًا حرَجًا﴾ أى: يخذلُه ويخلِّيه وشأنَه ، ويمنعُه ألطافَه حتى يقسوَ قلبُه ، ويَنْبُوَ عن قبول الحق ، ويَنْسَدَّ فلا يدخلَه الإيمانُ ، ولا يصلَ إليه اليقينُ كالحَرَجَة وهى الشجرةُ تكون بين الأشجارِ الملتفَّة لا تَصلُ إليها دابةٌ راعيةٌ ولا وحشيَّةٌ ولا شىء ، كذلك قلبُ المنافق لا يصلُ إليه شىءٌ من الخير.

قال ابنُ عباس: الحَرَجُ موضعُ الشجر الملْتَفِّ ، فكأنَّ قلبَ الكافرِ لا تصلُ إليه الحكمةُ كما لا تصلُ الراعيةُ إلى الموضعِ الذى التفَّ شَجرُه قال الجوهرىُّ: مكَانٌ حَرِجٌ وحَرَجٌ أى: ضيقٌ كثيرُ الشجر لا تصلُ إليه الراعية.

قال ابنُ المبارك: «ضيِّقًا حرَجًا» أى: بلا إِلهَ إِلَّا اللهُ ، حتى لا تستطيعَ أن تدخلَه ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فى السَّماءِ﴾ من شدة ذلك عليه. وقال عطاءُ الخراسانى: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى السَّماءِ﴾ أى: مَثَلُه مَثَلُ الذى لا يَستطيع أن يَصْعَدَ فى السماء.

فقد شَبَّه اللهُ الكافرَ فى نُفوره من الإيمان وثِقَله عليه بمنزلة مَن تكلَّف مالا يُطيقه ، كما أن صعودَ السماءِ لا يُطاق ، فهذا القلبُ المخذولُ فى صُدوده عن الخير ، وعدمِ قدرته على قبوله كأنما يُزاول أمرًا غيرَ مُمكن لأن صعودَ السماءِ مَثَلٌ فيما يمتنعُ ، ويَبعُدُ من الاستطاعة ، وتَضِيقُ عنه المقْدِرة.

وجاء عن ابن عباس فى تفسير هذا المَثل: «فكما لا يستطيعُ ابنُ آدمَ أن يبلغَ السماء ، فكذلك لا يستطيعُ أن يُدْخِلَ التوحيدَ والإيمانَ قلبَه حتى يُدخِلَه اللهُ قلبَه».

وقال الطبرىُّ: «وهذا مَثلٌ ضربَه اللهُ لقلْب هذا الكافرِ فى شدة تَضييقِه إياه عن وصول الإيمانِ إليه» ثم يشرحُ هذا فيقول: «فمَثلُه فى امتناعه من قبولِ الإيمانِ وَضيقِه عن وصولِه إليه ، مِثْلُ امتناعِه من الصعود إِلى السماء وعجْزِه عنه ، لأنه ليس فى وُسْعه وطاقته».

وقال الخازن: يعنى أن الكافرَ إذا دُعِى إلى الإسلام كأنه قد كُلِّف أن يصعدَ إلى السماء ، ولا يَقدِرُ على ذلك.

وفى هذا كلِّه تفسيرٌ للضّيق المعنوىِّ الذى يجدُه المخذولُ من نفسه حين يُعْرَضُ عليه الحقُّ ببراهينه وأدلَّته ، وقلبُه يُغْلَق ، وصَدْرُه يَصُدُّ ويأبَى النظرَ والتدبرَ ، وقد شبِّه فى عدَم طاقتِه القبولَ بمن لا يُطِيقُ الصعودَ إلى السماء.

وثَمَّةَ رؤيةٌ أخرى لهذا التمثيلِ برزَت بعد أن عرَف الناسُ أن نسبةَ الأُكسجين اللازمةَ للتنفُّس تتناقصُ فى الطبقات العُليا من الجوِّ ، فإذا صعَد الكائنُ الحىُّ إلى هذه الطبقات ضاق صدرُه ، وكاد يختنقُ شيئًا فشيئًا كلَّما ارتفع على قَدْر نقْصِ الأكسجين اللازمِ لتنفُّسه ، فإذا انعدم الأكسجينُ فقَد الحياةَ ، وعلى هذا يمكنُ أن يُقال: فى هذه الآيةِ تمثيلُ ضِيقِ الصدْرِ المعنوىِّ الذى يُصيب المتعنِّتين والمتكبِّرين حين يُدْعَون إلى الإسلام ، ويُحثُّون على أن يَسْمُوا إلى آفاقِ الإيمان ، ويرتفعوا عن الإخلاد إلى الأرض تمثيلُ هذا الضيقِ المعنوىِّ بضيقِ الصدْرِ المادىِّ الذى يحصُل لمن يصعدُ فى السماء ، إذ تتناقصُ نسبةُ الأكسجين اللازمةُ لتنفُّسه

كلَّما صعَد فى الطبقات العليا من الفضاء ، فيضيقُ صدرُه ويشعرُ بالاختناق شيئًا فشيئًا.

حقًّا : إن الإسلامَ فى منزلةِ السموِّ المعنوى ، وإن الإقبالَ عليه صعودٌ وارتقاءٌ فى مدارجِ الكمالِ النفسىِّ والخُلُقى ، وعلوٌّ عن الدنايا والشرور وهذه الصورةُ المعنويةُ تشبهُ الصعودَ المادىَّ ، وإن أصحابَ الفِطَرِ السليمةِ والقلوبِ الطاهرةِ تنشرحُ صدورُهم بتوفيقٍ من الله لقبول الحق ، بخلاف مَن طبَع اللهُ على قلوبهم فعَموا وصمُّوا فإن صدورَهم تَصُدُّ ونفوسَهم تَضيقُ عند سماعِ كلمةِ الحق.

وقد أَبرز لنا التصويرُ الحىُّ المتحركُ فى الآية الكريمةِ بما فيه من مشاهِدَ وأبعادٍ مكانيةٍ ومُقابَلات المشاعرَ النفسيةَ ، وكشَف عن خفيَّات النفوس وجعلَ المعنى كأنه ماثلٌ ملموس ، وإن المعانِىَ تتمكَّنُ فى النفس وتؤثِّرُ فى المشاعر إذا قُرِنت بأضدادها ، وإن النفوسَ الطيبةَ حين تتأملُ هذه الصورةَ بتدبُّر فإنها تختار أن تكونَ مع من أراد اللهُ هدايتَهم وشرَح صدورَهم للإسلام ، ففيه الطمأنينةُ والنجاةُ ، وتنفرُ مِمّن أُريدت لهم الضلالةُ والعَمايةُ وفَقدوا الطمأنينةَ والسكينةَ لضيق صدورِهم عن قبول الحق ، وصدودهِم عنه ، ومعاناتِهم من الشكوك والشبهاتِ كمَن يُعانى من الصعود فى طبقات الهواءِ العليا ، فهو فى شقاءٍ دائمٍ وحيرةٍ ملازمة.

وتأمَّلْ ما قاله أهلُ المعانى فى توضيح هذا المثلِ وما تضمَّنه من المقابلة بين المتضادَّين قالوا : «لـمَّا كان القلبُ مَحلًّا للعلوم والاعتقاداتِ وصَف اللهُ تعالى قلبَ مَن يريدُ هدايَته بالانشراح والانفساح ، ونَوَّرَه فقَبِل ما أودعه من الإيمان بالله ورسوله ، ووصَف قلْبَ مَن يريد ضلالتَه بالضِّيق الذى هو خلافُ الشرْح والانفساح فدلَّ ذلك على أنه تعالى صيَّرَ قلبَ

الكافرِ بحيث لا يَعى علْمًا ولا استدلالًا على توحيد الله تعالى والإيمانِ به ، وقد دلَّت الآيةُ على أن جميعَ الأشياء بمشيئة الله تعالى وإرادته حتى إيمانِ المؤمنِ وكُفرِ الكافر ﴿كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ أى: كما جعل صدورَهم ضيقةً حَرَجةً كذلك يجعلُ الرَجسَ عليهم.

والرجسُ: الشيطانُ واللعنةُ فى الدنيا والعذابُ فى الآخرة ، وهو الخِذلانُ ومنْعُ التوفيق ، وأصلُ الرجس: النتَنُ ويطلَقُ على هذه الأمور ونحوِها مِمَّا لا خيرَ فيه على سبيل الاستعارة.

«والله أعلم»

❊ ❊ ❊

الكرْمُ قلب المؤمن

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول اللهﷺ: «يقولون الكَرْمُ، إنما الكَرْمُ قلبُ المؤمن»[أخرجه البخارى]

الكرْمُ: بسكون الراء يعنى العنب والمعنى: يقولون الكرْمُ اسمٌ للعنب، إنما الكرْمُ قلبُ المؤمن، أى لما فيه من نور الإيمان، فهو مشتق من الكرَم بفتح الراء.

وليس المراد حقيقة النهى عن تسمية العنب كرما وإنما الغرض الثناء على قلب المؤمن.

من سورة الملك:

١٨٢ - نعم.. لا يستويان

ضَرَبَ اللهُ عز وجل فى سورة الـمُلك مثلاً يُبين الفارقَ بين حالَىْ المشركِ والموحِّد ، الكافرِ والمؤمنِ ، وقد أُبرِزَتْ فيه الأمورُ التى تُدْرَكُ بالعقل فى صورةٍ محسوسة تُدْرَكُ بالعين ، وجُعِلَ ما يدور فى القلب من عقائدَ وقيمٍ ماثلاً فى قالَبٍ مُجَسَّمٍ مُتحرِّكٍ ليكونَ ذلك أبينَ للحُجة وأوضحَ لطريق المحجَّة فقال سبحانه: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَم مَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؟. [الآية: ٢٢]

إن الـمُكِبَّ على وجهه مثَلُ الـمُلحد الضالِّ ، والذى يمشى سويًّا معتدلًا على طريق مستقيم مثَلُ المؤمنِ الموحِّد:

ذلك أنَّ الإلحادَ يَطمس فى قلب الملحدِ نورَ الفطرةِ السليمة ، فيضلُّ عن الحق ، ويَخْبِطُ فى عمياء ، ويعيشُ على غير هُدًى ، وتنعكسُ فى نفسه قائمةُ القِيَمِ تَبعًا لمَا يُنْقَشُ فى قلْبه من نُكرانٍ وجحود ، ولذا تختلُّ مقاييسُه للأمور ، وتَفسُدُ نظرتُه إلى الكون والحياةِ والإنسانِ لِعَدم تَبصُّرِه ولِتَخبُّطه فى ضلالاته وشكوكه ، وبُعده عن هدايةِ الدينِ الحقِّ الذى هو مصدرُ القِيَمِ الثابتةِ والفضائلِ الشريفةِ الساميةِ التى يَصلُح بها أمرُ الناس وتستقيمُ شئونهم ، وتعتدلُ نظرتُهم إلى الأمور بلا إفراطٍ ولا تفريطٍ مهتدين بنور الوحْى وإرشاده ، ولذا لا نعجَبُ إذا رأينا الملحدَ جسورًا على الحرام ، جريئًا فى إقدامه على القبائح والآثام ، سريعًا إلى الشرِّ والفساد ، بطيئًا عن الخير والصلاح.

ذلك لأنَّ قائمةَ القِيَم المعكوسةِ فى نفس الضالِّ هى التى تَحْدو

مَسيرتَه ، وتحددُ مسالكَه فى الحياة ، وترسُم له خُطى علاقاتِه بالآخرين وتُزيِّنُ له ما يُبَاحُ وما لا يُبَاح بموازينَ يُمليها الهوى المريضُ ، وشهواتُ النفسِ الأمَّارةِ بالسوء ، لذا فهى موازينُ مُختَلَّة تُريه الحقَّ باطلًا والباطلَ حقًّا ، وتُريه الفسادَ صلاحًا ، والصلاحَ فسادًا : وتجعلُ الغايةَ عنده تبررُ له الوسيلةَ فلا يجدُ حرجًا فى ارتكاب الموبقات ، واقتراف ما لا يَليقُ بذوى العقلِ والحكمة ، وإذا قيل لهؤلاء وأشباهِهم: هذا فسادٌ وشرٌّ قالوا بلا حياء: بل هذا صلاحٌ وخير ، فهم كمن حكَت عنهم سورةُ البقرة:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِى الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۞أَلآ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١١، ١٢]

وإن عدم شعورِهم بما هم عليه من باطلٍ وفساد راجعٌ إلى سوء التربية وفسادِ النظرةِ إلى الأمور ، وإلى ما انطبع فى نفوسهم من قِيَمٍ معكوسة.

والفسادُ: هو خروجُ الشىءِ عن حالة الاعتدالِ والاستقامة ، وضدُّه: الصلاح.

إنَّ العقلَ وحده لا يستطيعُ أن يستقلَّ بوضْع المعاييرِ التى تُحدِّدُ الحلالَ والحرام ، والموازينِ التى يُقَاسُ بها ما هو صالحٌ من القيم والأخلاقِ وما هو فاسدٌ وضارٌّ منها ، ولا بدَّ للناس من الدين الحق ، لا بدَّ لهم من الشريعة المطهَّرةِ التى رَضِيها ربُّ العبادِ للعباد ، وفيها صلاحُهم وخيرُهم وراحةُ نفوسِهم ، وسكينتُهم ، وإنَّ حُكْمَ المؤمنِ الموحِّدِ يأتى فى نُور ضوابطِ الشريعة وأحكامِها سليمًا صحيحًا نافعًا معتدلًا وسطًا لا إفراط فيه ولا تفريط.

والعجيبُ أن المفسدين فى الأرض وهم كثيرون فى كل زمانٍ يَرون أن أعمالهم وتوجُّهاتِهم إنما هى من قَبيل الإصلاح ، وأنها لا حرَجَ فيها ولا بأسَ ما دامت توافقُ شُبهاتِهم وشكوكَهم ، وتُشْبِعُ شهواتِ نفوسِهم العليلة.

وإن المتدبر فى الآية الكريمة من سورة الـمُلك يَجدُ أن المعانِىَ التى تدورُ فى نفوس الضالين والمفسدين ، وتعشّشُ فى قلوبهم ، وتؤثّرُ فى مسالكِهم ونظرتِهم إلى الأمور على هذا النحوِ المعكوسِ الـمُخْتَلِّ قد تمَّ إبرازُها فى هيئة مُجَسَّمة متحركةٍ عجيبةٍ توضحُ المرادَ ، وتزيدُه تأكيدًا وبيانًا ، إذ مَثَّلت الآيةُ صاحبَ هذه المعتقداتِ الباطلة والأخلاقِ الرديئةِ فى صورةِ مَن يمشى منكوسًا ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ﴾ ومن يمشى على الطريق على هذا النحوِ مائلًا غيرَ معتدلٍ ولا ثابتِ القدمين فإنه ولا شكَّ يتعثّر ، ويكثر انحرافُه عن الجادَّة ولا يصلُ إلى غايةٍ محمودة ، وهذا تمثيلٌ لمن انعكست فى نفسه قائمةُ القيم تبعًا لإلحاده وفسادِ فكرِه وبُعدِه عن هداية الدينِ الحق ، فهو يعيش حائرًا ضالًّا وإذا خرَج من الدنيا وهو على كفره وضلاله حُشر إلى جهنمَ منكوسًا على وجْهه ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٤]

قال قتادة: هو الكافر أكبَّ على معاصى اللهِ فى الدنيا ، فحشَره اللهُ يوم القيامةِ على وجهه، لقد أدبر عن طاعةِ الله ، وجعل حياتَه فى خدمة شيطانه وهواه ، فكان أهلًا لأن يُحشرَ على هذا النحوِ المنكوس.

وفى تعليق القرطبىِّ: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ﴾ قال: ضَرَبَ اللهُ مثلًا للمؤمن والكافرِ ، و «مُكِبًّا» أى مُنَكِّسًا رأسَه لا ينظر أمامه ولا يَمينَه ولا شِمالَه ، فهو لا يأمنُ من العثور والانكباب على وجهه.

هذه الصورةُ التى تُوحى بعَدم الاهتداء ، وتدلُّ على قلب الحقائق وتكشفُ عن مساوئِ الانحرافِ عن جادَّة الدين الحقِّ ومساوئِ الابتعادِ عن المَنهج الذى رَضيه اللهُ لعباده رحمةً بهم ، تقابلُها صورةُ الذى يَمشى

سويًّا معتدلًا ناظرًا ما بين يديه ، وعن يمينه وشماله ، فهو فى مأمن من العثار ومن الضلال عن الغاية ، وهذه الصورةُ المحسوسةُ تمثِّلُ لنا الشخصَ السوىَّ المؤمنَ المتمسِّكَ بالحق الذى رَضى بالله ربًّا ، وبالإسلام دينًا ، وبمحمد نبيًّا ومرشدًا ، وبالقرآن إمامًا ودستورًا ، فاعتدلت فى نفسه قائمةُ القيَم والفضائلِ ، إذ نرى فى أعلاها توحيدَ الله ، وإفرادَه بالإلهيةِ ، وتنزيهَهُ عن السُّوء والنقصِ ، ونرى فيها إخلاصَ الطاعة والعبادةِ لله ، وتحليلَ ما أحلَّ الله ، وتحريمَ ما حَرَّم ، واتباعَ النبىِّ محمدٍ ﷺ والتأسِّى به فى أخلاقه العالية ، وآدابِه الساميةِ الشريفة ، وإنَّ المؤمنَ على هذا النحوِ تستقيمُ مسالكُه بين الناس ، وتصحُّ نظرتُه إلى الأمور ، لأن مقياسَه هو ما جاء به الوحْىُ لخير الإنسان فى عاجله وآجله.

وإذا تأمَّلنا الـمَثَلَين ، وقارنَّا بين الصورتين وسُئلنا: أهذا الذى يتخبَّطُ فى مسالكِه ، ويتهاوَى فى مزالقِ الشبهاتِ والشهوات ، أَرشدُ وأَهدى أم هذا الذى يَسعى لمرضاة ربِّه ، ويتدبرُ آياته وبراهينَه فى خَلقه ، ويقفُ عند حدودِ ما أحلَّ وما حرَّم ، عاملًا بما يُرضى الله ، مُجتنبًا مساوئَ الأخلاق جُهْدَه ، فارًّا من الفواحش والقبائح؟ هل يستويان مثلًا؟ إننا حين نتأملُ ذلك نجدُ الجوابَ البدَهِىَّ: أَنَّ مَن يَمشى مستويًا على طريقٍ واضحٍ مُلزمًا نفسَه بطاعة ربِّه هو الأهدى والأرشدُ ، والأصلحُ والأنفعُ فهو مَرضِىُّ السيرةِ فى دنياه ، وهو من المرحومين فى الآخرة بإذن الله.

وقد مَثَّل بعضُ السلفِ أبا جهلٍ وأمثالَه بمن يَمشى مُكبًّا على وجهه وأمَّا الرسولُ ﷺ وأصحابهُ فهم الذين ضُرِب لهم المثَلُ بمن يمشى سويًّا على صراط مستقيم ، وإن كانت الآيةُ عامةً فى كلِّ مؤمنٍ وكافر.

و «مَن» فى ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا﴾ اسمُ موصول مبتدأٌ مبنىٌّ على السكون فى محلِّ رفْع.

و«مُكِبًّا» حالٌ من الفاعل المستتر فى يمشى منصوبٌ بالفتحة الظاهرة وجملةُ يمشى لا محلَّ لها من الأعراب صلةُ مَن ، وهو اسم فاعل من: أَكَبَّ ، تقول: أكبَّ فلان على وجهه بمعنى انقلب[1] ، وأكبَّ للشىء بمعنى انحنى عليه ، وكبَّه على وجهه ، أى: قلَبه وصرَعه.

و «أهدى» اسمُ تفضيلٍ وهو خبرُ مَن الموصولة مرفوعٌ بضمةٍ مقدَّرة على الألف مَنَع من ظهورها التعذُّر ، أى: أيُّهما أشدُّ هدايةً وأقربُ وصولًا إلى الغاية التى يقصدُها ، والسوىُّ: هو الذى يَمشى مُستوِىَ القامةِ ، ثابتَ القدم.

والصراطُ المستقيم: هو الطريقُ السهلُ السوىُّ الذى لا اعوجاجَ فيه ولا انحرافَ ، ويُستعار للإسلام ، فهو دينُ الله عزَّ وجل الذى لاعِوَج له.

وفى تعليق صاحبِ رُوحِ المعانى يقول: والمعنى: أَفَمن يمشى وهو يَعْثُر فى كلِّ ساعة ، ويَخِرُّ على وجْهه فى كلِّ خَطوة لِتوعُّر طريقِه واختلافِ أجزائه بانخفاضِ بعضٍ وارتفاعِ بعضٍ آخرَ أَهْدى وأَرْشَدُ إلى المَقصدَ الذى يَؤمُّه أم مَّن يَمشى قائمًا سالـمًا من الخَبْطِ والعثَار على طريقٍ مُستوى الأجزاءِ لا اعوجاجَ فيه ، ولا انحرافَ.

وفى تعليق الشيخِ عبدِ القادرِ المغربى على الآية يقول: والكلامُ تمثيلٌ

---

(١) أكبَّ: فعل لازم لا يتعدى بالألف، يقال: أكبَّ الرجلُ على وجهه أى سقط وخرَّ فإذا تعدّى قيل: كبّه الله على وجهه، فالمشهور فى: «أكب» أنه لازم وفى الثلاثى أنه متعدّ على خلاف القياس، ومن نظائره مثل: أشنق البعيرُ وشنق الغلامُ البعيرَ بمعنى: رفع رأسَه، وأقشع الغيمُ وقشعت الريحُ الغيمَ أى أزالته، وحكى ابنُ الأعرابى التعدية فى أكبه وكبَّه وهذا لا يخالف القياس.

لحالة أولئك الذين وصفَهم بالعتوِّ والنُّفورِ فى الآية السابقة وهى: ﴿أَمَّنْ هَذا الَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ [الملك: ٢١]

مع مقارنتِهم بالمؤمنين الذين أَذعنوا للحق ، قال عن الأولين: إنهم تَمَادَوْا فى تمرُّدهم ونُفُورهم ، والمتمرِّدُ إذا نَفَخ الشيطانُ فى أنفه ضلَّ وعَمِى عن القصْد واعتسف[١] الطريقَ اعتسافًا ، وهكذا كان شأنُ المشركين ، فهم كالماشى الـمُكِبِّ الذى يقعُ على وجهِه فى كلِّ خطوةٍ يخطوها.

أمَّا المؤمنون فكانوا كالذى يَمشى معتدلَ القامةِ فى طريقٍ لاحِبٍ لا صخورَ فيه ولا عواثيرَ ، فأىُّ القبيلين أشدُّ هدايةً وأقربُ وصولًا إلى الغاية؟[٢].

إذا كان حالُ المشركين على ما وُصِفَ فى الآية الكريمةِ من ركوب التعاسيفِ والضلالِ عن طريق الحقِّ كانوا ملُومين أشدَّ اللوم ، وذلك لأنه تعالى خلَق لهم الحواسَّ والمشاعرَ ، ومتَّعهم بالعقْل والمنطِق ، ويسَّر لهم وسائلَ النجاةِ وأسبابَ الهداية ، فلم ينتفعوا بشىءٍ من ذلك ، ولم يشكروا اللهَ تعالى على هذه الوسائلِ والأسبابِ فيستعملُوها فيما خُلِقت لأجله ، بل ضلُّوا وحادُوا عن طريق الهُدى إلى طريق الردَّى.

لقد اشتمل النصُّ القرآنىُّ على مثلَين لفريقين متقابِلَين كلاهما يَمشى فى الحياة إلا أنهما على وصْفين متضادَّين متباينَين ، أمَّا أحدُهما فيمشى مشيًا سويًّا على هُدًى ، وهو المؤمنُ التقىُّ ، وأمَّا الآخرُ فَيمشى على غير هُدًى مشْيًا غيرَ سَوِىٍّ ، وهو الكافرُ العاصى ، فهو من قَبيل تمثيلِ

---

(١) الاعتساف: تقول: عسف الطريقَ واعتسفه اعتسافًا: سار فيه على غير هُدى، ويقال هو: يركبُ التعاسيفَ: إذا لم يسلك الطريق المستقيم.

(٢) لا حب: اللاحب واللَّحب: الطريقُ الواضح.

أمرٍ معنوىٍّ بأمر يُدرَكُ بالحسِّ الظاهر.

وهذه الصورةُ التمثيليةُ فى المثَلَين منتزَعةٌ من الواقع مع بعض خطوطٍ نراها مُنتزعةً من الخيال ، إذ لا نجدُ أحدًا سائرًا مُكبًّا على وجهه فى العادة ، إذا فسَّرنا الـمُكبَّ على وجهه بالمتنكس الذى يمشى على وجهه فى الدنيا بدلَ أن يمشِيَ على رجليه ، ولكنَّ هذه الصورةَ التى نتخيَّلُها ونُدْرِكُ أبعادَها بالعقل والشعورِ زادت التمثيلَ طرافةً ، ولفتًا للشعور وتنبيهًا إلى التفكُّر فى المعنى المقصود[1].

ويبدو أن الغرضَ من المثَل تقريبُ صورةِ الـمُمَثَّلِ له ـ وهو الكافر ببطلان معتقَدِه وعدمِ صحةِ مقاييسِه وفسادِ توجُّهِه ، والمؤمنُ بصحةِ اعتقادِه وسلامةِ مقصده ـ وتجسيدُها للتنفير من الكُفْر وضلالتِه والترغيبِ فى الإيمان وهدايتِه ، مع الإقناعِ بلفْت النظرِ إلى الحقيقة عن طريق ضرْبِ المثل.

وقد جاءت المفاجَأةُ بالاستفهام فى أول الآيةِ الكريمةِ ، لِتُنبِّهَ الفكْرَ وتوقظَ الشعورَ ، وتَبْعَثَ على التأمُّل فيجدَ المتدبرُ الجواب حاضرًا فى عقله ووِجدانه : ﴿**أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَم مَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ وإن الفكْرَ السليمَ يتجهُ بداهةً إلى القول بأنهما: لا يستويانِ ، فإن من يمشى معتدلًا على طريق واضحٍ جلىٍّ يكون أَبْصَرَ وأَسْلَمَ وأَرْشَدَ مِمَّن يمشى مَشْىَ الـحِمارِ ونحوِه مُنكَّسًا لانعكاس قائمةِ القيم فى نفسِه فهو على غير هدايةٍ فى حياته.

❊ ❊ ❊

---

(١) وإذا أريد بالآية الكريمة بيانُ أن الكافرَ يُحشرُ يوم القيامة إلى جهنمَ على وجهه، وأن المؤمنَ يمشى مستويًا على الصراط كان ذلك من قبيل الحقيقة لا من قبيل التمثيل.

من سورة الأعراف:

١٨٣ - حتى يرجعَ الدَّرُّ فى الضَّرع

هذا مثلٌ يُضْرَبُ فيما لا يكون أبدًا ، فإذا قلتَ لمحدِّثك: لن تصلَ إلى كذا حتى يرجعَ الدَّرُّ فى الضَّرع فقد بيَّنتَ له استحالتَه ، لأنك بنيتَه على ما يَستحيل كونُه ، ومِثْلُه قولُ العرب: «حتى يَرجِعَ السهْمُ على فُوقه»[١] وهذا لا يكون ، لأن السهمَ لا يرجعُ على فُوقه أبدًا إنما يمضى قُدُمًا ، وهذا مثَلٌ يُضرَبُ لِمَا يَستحيلُ وقوعُه أيضًا.

وفى بيانِ مصيرِ المكذِّبين بآيات اللهِ المستكبرين عن طاعته وعن الإذعان لبراهينه وأدلتِه يقول سبحانه وتعالى من سورة الأعراف ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا واسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُم أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلاَيَدْخُلُون الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِى سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذلكَ نَجْزِى الْمُجْرِمِين۞لَهُم مِّن جَهَنَّم مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِم غَوَاشٍ وَكَذلكَ نَجْزِى الظَّالِمِين﴾ [٤٠ ، ٤١]

معانى المفردات:

المرادُ بالآيات هنا: الآياتُ الدالةُ على أصول الدينِ ، وأحكامِ الشرع كالأدلة على وجود اللهِ ووحدانيتِه ووجوبِ طاعتِه وعبادتِه ، وكالبراهين على النبوة وعلى البعث للحساب والجزاءِ يومَ القيامة.

والـجَمَلُ هو البعيرُ إذا استكملَ أربعَ سنواتٍ ، وجمعُه جِمَالٌ وجُمْلٌ وأَجْمَالٌ، وأَجْمُلٌ، وجِمَالَةٌ ، وجمع الجَمْع: جُمالات ، وجمائل.

وَسَمُّ الـخياط: هو ثُقْبُ الإبرةِ وجَمْعُه سُموم ، والـخياطُ: ما يُخاط

(١) والفُوق: بضم أوله موضعُ الوتَر من السهْم: أى حيث يُثبَّت الوترُ منه، وتقول: فَوَّقَ السهمَ، أى: جعل الوتَر فى فُوقِه، ومن أمثالهم: ما ارتدّ على فُوق: يقال لمن مضى ولم يرجِع.

به ، ويقال: خِياطٌ ومِخْيَطٌ مثل: إِزار ومئزر ، وأصلُ الإجرام: قَطْعُ الثمرةِ من الشجرة ، ثم استُعمل فى كل إِفسادٍ كإِفساد الفِطرةِ بالكفر وما يترتبُ على ذلك من الأباطيل والمعاصى.

والـمِهادُ: الفِرَاشُ ، والغَواشى: الأغطيةُ ، جمْعُ غاشيةٍ أى نِيرانٌ تَغشاهم وتُحيطُ بهم كأنها اللِّحافُ ونحوُه.

لا عُذْرَ لكافر:

وهَب اللهُ عزَّ وجلَّ الإنسانَ العقلَ ، ومنَحه القدرةَ على الفهم والتمييز وأرسلَ اللهُ عزَّ وجلَّ الرسلَ مُبشِّرين ومُنذِرين لئلَّا يكونَ للناس على الله حُجةٌ بعد الرسل ، وأوحى سبحانه إلى رُسله بما فيه صلاحُ العبادِ والبلاد وأمرَهم أن يبيِّنوا الأحكامَ والفرائض ، ويُقيموا الحجةَ والبرهانَ لإنقاذ الناسِ من الضلالة ، وقد بَلَّغ الرسلُ ما بُعثوا به ، وقَصُّوا على بنى آدَمَ آياتِ الله ، وبيَّنوا الحلالَ والحرامَ ، وما هو حقٌّ ، وما هو باطلٌ فَمَن اختارَ الهُدى ، ورَضِى بالدين الحق ، ونفعتْه الآياتُ ، وأصلح ما بينْه وبين ربِّه أَمِن عذابَ الله ، وزالت عنه المخاوفُ ، فلا يلحقُهم رُعبٌ يومَ الفزع الأكبر: ﴿فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٣٥]

أَمَّا الذين أَعرضوا عن الآيات ، وكذَّبوا بالأدلة ، ولم يتَّبعوا رسلَ الله ، وتكبَّروا عن التصديق بما جاءوا به ، وأَنفُوا من الطاعة والانقياد لأمر الله ، إِنَّ هؤلاء المكذِّبين المستكبرين: ﴿لاَ تُفَتَّحُ لَهُم أَبوبُ السَّماءِ﴾ وفى هذا تعبيرٌ مجازىٌّ يُبرِزُ المعنى المقصودَ مصحوبًا بالدليل ففيه كنايةٌ عن عدم الرِّضا عنهم ، وعدمِ قبولِ أعمالِهم ، وقد عُبِّر عن هذا المعنى بلازمٍ له يشيرُ إِليه ، ويَدلُّ عليه ، وهو عدمُ فتْحِ أبوابِ

السماءِ لهم ، وإنَّ لفظَ الكنايةِ صالحٌ أيضًا لإرادةِ المعنَيَيْن معًا أى اللازمِ والملزومِ[١] ، إنهم لا تُفتح لأرواحهم إذا خَرَجت من أجسادهم أبوابُ السماء ، ولا يَصْعدُ لهم فى حياتهم قولٌ ، ولا عملٌ لخُبْث بواطِنِهم وسوءِ معتقداتِهم ، وقد جاء من الحديث الذى رواه البراءُ بنُ عازبٍ عن قبض رُوح الكافرِ ، قال ﷺ: «ويَخْرجُ منها رِيحٌ كأَنْتَنِ جيفَةٍ وُجِدَت على وجْه الأرض ، فيَصْعَدون بها ، فلا يَمرُّون على ملأٍ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروحُ الخبيثةُ؟ فيقولون: فلانُ بنُ فلان بأقبحِ أسمائه التى كان يُسمَّى بها فى الدنيا ، حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا فيَسْتَفْتِحون فلا يُفْتَح لهم ، ثم قرأ رسولُ الله ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِى سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِى الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٠]

وهو من حديث طويل رواه بعضُ أصحابِ السنن ، وقد رواه الإمامُ أحمدُ وفيه: «إنَّ العبدَ المؤمنَ إذا كان فى انقطاعٍ من الدنيا وإقبالٍ إلى الآخرةِ نزَل إليه ملائكةٌ من السماء بِيضُ الوجوه ، كأنَّ وجُوهَهم الشمسُ ، معهم كفَنٌ من أكفانِ الجَنَّة ، وحنُوطٌ من حَنوطِ الجنة ، حتى يجلسوا منه مَدَّ البصر ، ثم يَجىء مَلَكُ الموتِ ، حتى يجلسَ عند رأسه، فيقول: أيتها النفسُ الطيبةُ ، اخرُجى[٢] إلى مغفرةٍ من اللهِ

(١) كما تقول: فلان طاهر الثوب ، تكنى به عن نقاء مسلكه وطهارة نفسه ، وقد يكون مع ذلك أيضا طاهر الثوب فيجتمع فى التعبير المجاز والحقيقة.

(٢) اخرجى: أمر الثلاثى: خَرَجَ فهمزته وصل، وكذلك الحال فى أول أمر الخماسى والسداسى ومصدرهما وماضيهما فكلها وصل مثل انقطع واستقطع وانقطاع واستقطاع والأمر: انقَطِعْ واستقْطِعْ بخلاف الهمزة أول الرباعى وأمره ومصدره فكلها قطع تقول: أَخْرَجَ، أَخْرِجْ، إِخْراج. وهمزة الوصل نجدها أيضا فى «ابن، ابنة، امرأة، اسم، امرؤ، واثنان واثنتان، وايم الله، وايمن الله، وهمزتهما وصل عند أكثر النحويين، وال»

ورضوان».

هذه الروحُ الطيبةُ تصعدُ بها ملائكةُ الرحمن: «فلا يمرُّون بها على ملأٍ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروحُ الطيبُ؟ فيقولون: فلانُ بنُ فلان، بأحسنِ أسمائه التى كانوا يُسمُّونه بها فى الدنيا».

وتُفتحُ لهذه الروحِ أبوابُ السماء ويُشيِّعه من كلِّ سماءٍ مُقَرَّبُوها إلى السماء التى تَليها، حتى يُنتهَى بها إلى السماء السابعة، فيقول الله عزَّ وجلَّ: «اكتُبوا كتابَ عبْدى فى عِلِّيِّين، وأَعيدوه إلى الأرض، فإنى منها خَلقتُهم، وفيها أُعِيدهم، ومنها أُخرِجُهم تارةً أخرى».

إِن أهلَ الإِيمانِ كانت تَصْعَدُ لهم فى دنياهم قبلَ موتِهم أقوالٌ طيِّبة وتُرْفَعُ أعمالُهم الصالحةُ، وكانوا يَعيشون فى نورِ إيمانهم، وعلى هدايةٍ من صِدْقِ يَقينهم، فحسُنَت عُقباهم، أَمَّا أهلُ الكِبر والكُفرِ فعاشوا على عمًى، فلم يُرفَع لهم عملٌ صالحٌ ولا دُعاء، لذلك لا يَشُمُّون رائحةَ الجنة، ولا تُفتح لهم أبوابُها، ولا يَجِدون لأنفسهم سبيلًا إليها بأيِّ حال.

وقد أَكَّدت الآيةُ الكريمةُ من سورة الأعرافِ استحالةَ دخولهم الجنةَ وأكَّدت حِرمانَهم من نعيمها فى تصويرٍ بديعٍ رائع: ﴿وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِى سَمِّ الْخِيَاطِ﴾.

فَسَمُّ الخِياطِ، وهو ثُقْبُ الإبرة مَثَلٌ فى ضِيق المَسْلَك، والجَمَلُ مَثَلٌ فى عِظَمِ الجِرْم، وضخامةِ الجُثَّة، وقد ضَرب اللهُ عزَّ وجل دخولَ الجَمَلِ فى سَمِّ الخياطِ مثلًا لعدم إمكانِ دخولِ المُلحدين والكفارِ جناتِ النعيم، أى: كما أن نظامَ الخَلْقِ قائمٌ على عدَمِ إمكانِ دخولِ الجَملِ بجثته الضخمةِ فى ثُقب الإِبرةِ للتفاوت الكبيرِ بين جسمِ

الجملِ وفراغِ هذا الثقبِ مع بقاءِ كلٍّ منهما على مستوى أبعادِه ، كذلك قوانينُ عدْلِ اللهِ وحِكمته تَقضى بألَّا يدخلَ الذين كَذَّبوا بآياتِ الله واستكبروا عن الخَضوع لها جَنَّته التى أعدَّها للذين آمنوا ، ولم يَستكبروا عن طاعة اللهِ والخضوعِ لجلاله ، والإذعان لأمره.

إنك إذا قلتَ لإنسان: لا أُعطيك كذا حتى يشيبَ الغرابُ ، أو حتى يَدخُلَ البعيرُ فى سَمِّ الخياطِ ، فقد قطعتَ أملَه فى الحصول على مُراده لأنك بنيتَ الأمرَ على ما يَستحيل وقوعُه فى العادة ، والمرادُ فى الآية الكريمةِ أن الكافرَ لا يدخلُ الجنةَ أبدًا ، لأن الشىء إذا عُلِّق بما يَستحِيلُ حصولُه دلَّ ذلك على استحالته.

قال صاحبُ الإكليل[1]: فيه جوازُ فَرْضِ الـمُحالِ والتعليقِ عليه كما يَقع كثيرًا من الفقهاء.

وإنّ فى هذا المثَل القرآنىِّ من الجَمال والدقةِ والروعةِ والوضوحِ والإيجازِ ما يشدُّ العاقلَ إلى التدبُّر ، ويَلفتُ ذوى البصائرِ إلى التأملِ للعظة والاعتبارِ بما يَنتَظِرُ المستكبرين من هولٍ عظيمٍ وعذابٍ أليم لا تُطيقُه الجبالُ الرواسى. وإن المتدبرَ فى جمالِ هذا الـمَثلِ وقوتِه التعبيريةِ والمعنويةِ يرى: أَنَّ بيانَ استحالةِ دخولِ الكفارِ الجنةَ جاء بصيغةٍ تُوهمُ فى مُقدِّمتها أَنَّ بالإمكان أن يدخلُوها ، ولنتدبر ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى...﴾ وكأَنَّ الأمرَ سينتهى إلى غايةٍ تُؤذنُ بإمكان دخولهم الجنةَ وإذا بالمسألة تُعلَّق على ما لا يكون: ﴿حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِى سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ وهنا تأتى المفاجأةُ التى تُحيى شعورَ القارئ ، وتقدمُ له المعنى فى أوجز عبارة ، وأبلغِ بيانٍ وأوضحِه ، أى لا يدخلونها حتى يدخلَ ما هو مَثَلٌ

(١) الإكليل فى استنباط التنزيل للإمام جلال الدين السيوطى المتوفى عام ٩١١ من الهجرة

فى عِظَم الجسمِ وضخامةِ الجِرْمِ فيما هو مَثَلٌ فى ضِيق الـمَسْلكِ ، وفى هذا قَطْعٌ لباب الرجاءِ أمام مَن يموتُ على كفره وجحودهِ ونكرانِه وشركه.

كما أن هذا المثلَ جسَّدَ الأمرَ الذى يُدْرَكُ بالعقل فى صورة تُدْرَكُ بالـحِسِّ الظاهرِ مع ما فى الصورة من طَرافة ودقةٍ تجعلُ المعنى أكثرَ وضوحًا وأقوى تأثيرًا إِذ جمَعتْ بين النقيضين ، بين: ما هو مُتناه فى عِظَمِ الجِرْمِ من الدواب ، وما هو متناه فى الصِّغَر فى الـمُتعارَف المألوف كما قالوا فى المَثَل: جِسْمُ الـجِمَالِ وأحلامُ العصافير ، والأحلامُ: العقولُ ، فجِسمُ الجمل: مثَلٌ لِكَبر البَدن ، وأحلامُ العصافير: مثَلٌ لِضعْف الرأى وضيقِ الفكر.

كما نلاحظ فى المَثَل القرآنىِّ صدقَ المماثلة ، فالـمُمَثَّلُ به مَظْهرٌ من مظاهر قوانين اللهِ فى الخلق ، والـمُمَثَّلُ له مظهرٌ من مظاهر قوانين الله فى العدل . .

﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِى الْمُجْرِمِين﴾ أى: وَمِثْلُ ذلك الجزاءِ الفظيعِ نَجزى كلَّ من صار الإِجرامُ وصفًا لهم ، لتمسكهم بالباطل ، ومداومتِهم عليه وعدمِ رجوعِهم بالتوبة النصوح عنه.

وبعد أن أكَّد السياقُ حِرمانَ أهلِ الكفر والشركِ من نعيم الجنةِ بيَّن أن مأواهم إلى نارٍ تُحيط بهم من كلِّ جانبٍ يَشْقَوْنَ بلهيبها ، ولا يَجدون طَعمًا للراحة فيها ، وصَوَّر ذلك تصويرًا واضِحَ الخطوط والمعالم: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ أى: لهم فيها فِراشٌ مِن تحتهم ، وأصلُ الـمهاد: المتمهَّد الذى يُقْعَدُ ويُضطجَعُ عليه كالفراش ولهم من فوقهم أَغطيةٌ ، جَمْعُ غاشيةٍ وهى ما غَشَّاهم فغطَّاهم كاللِّحاف ونحوِه ، ومعنى ذلك أن النار تُحِيطُ بهم من فوقهم ومن

تحتهم لا يَجدون مُتنفَّسًا لبردٍ أو سلام ، ولا سبيلًا لراحة ، وهى صورةٌ تَبْعَثُ على الانزجار والخوف ، إذ إن الإنسانَ يسعى إلى الفِرَاشِ ليَجدَ الراحةَ والسكينةَ ، ويَلتحفُ ليتقىَ البردَ ونحوَه ، أمَّا فى جهنمَ فالمهادُ نارٌ والغطاء نارٌ ، وفى الأجواف نارٌ ، كما جاء تصويرُه فى قوله تعالى من سورة الزمر: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ أى من النار ﴿ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ [الآية:١٦]

وفى سورة العنكبوت يقول سبحانه: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الآية:٥٥]

وهو تصويرٌ لإحاطة العذابِ بهم إحاطةً تامةً يومَ يكونُ من الأهوال ما لا يُحيط به الوصف.

نعم إنها: ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ۞الَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ۞إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ۞فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ [الهمزة:٦-٩]

أى: هى نارٌ شديدةُ اللَّهَبِ لا تُخْمَدُ أبدًا ، تعلو أوساطَ القلوب وتحيطُ بها ، ومغلَقةٌ على أصحابها لا خلاصَ لهم منها أبدًا ، يقال: آصدتُ البابَ ، أى: أغلقتُه ، وقد شُدَّت هذه الأبوابُ بأوتادٍ مطوَّلةٍ من حديد من نارٍ كى يَرجِعَ إليهم حرُّها ، فلا يَنفَتِحَ عليهم باب ، ولا يدخلَ عليهم رَوْحٌ ، أجارنا اللهُ منها.

﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِى الظَّالِمِينَ﴾ أى ومِثْلُ هذا الجزاءِ نَجزى به الظالمين لأنفسهم وللناس ، وفى الآيتين ما يدلُّ على أن المجرمين والظالمين الراسخين فى صفتَى الإجرام والظلم هم الكافرون ، كما قال تعالى من سورة البقرة ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الآية:٢٥٤]

وقانا الله شرَّ جهنمَ ورزقنا بفضله حُسْنَ الختام.

من سورة النحل:

١٨٤ - أ - أجمعُ آيةٍ في القرآن لخيرٍ يُمتثَل وشرٍّ يُجتنَب

قال ابن مسعود رضى الله عنه: أَجْمَعُ آيةٍ فى القرآن لـخَيرٍ يُمْتَثَلُ ولِشَرٍّ يُجْتَنَبُ هى: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَآءِ ذِى الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَآءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْىِ﴾ [النحل: ٩٠]

وَرُوِى أنَّ عُثمانَ بنَ مظعون قال: ما أسلمتُ ابتداءً إلَّا حياءً من رسولِ الله ﷺ حتى نزلت هذه الآيةُ، وأنا عنده، فاستقرَّ الإيمانُ فى قَلبى فقرأتُها على الوليد بنِ المغيرة، فقال: يا ابنَ أخى أعد: فأَعدتُ فقال: واللهِ إنَّ له لحَلاوةً، وإنَّ عليه لَطَلاوةً، وإن أصلَه لَمُورِقٌ، وأعلاه لَمُـثمر، وما هو بقولِ بشرٍ.

ولـمَّا نزلت هذه الآيةُ سعى قومٌ إلى أبى طالب عَمِّ النبيِّ ﷺ وقالوا له: إنَّ ابنَ أَخيك زعَم أن اللهَ أنزل عليه ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ..﴾ الآية، فقال: اتَّبِعُوا ابنَ أخى، فواللهِ إنه لا يأمرُ إلا بمحاسنِ الأخلاق(١).

والعدلُ، كلمةٌ جامعةٌ لمعنى الاستقامة، والمماثلة، والمساواة، والتوسُّطِ، تقول: عدَل فلانٌ فى أمره عدلًا وعدالةً ومَعْدلَة، أى: استقام، وعدَل فى حُكمه: حكَم بالعدْل أى بالإِنصاف وهو إعطاءُ المرءِ

---

(١) هذه الأخبارُ وردت فى الجامع لأحكام القرآن للقرطبى وعند ابن كثير نقلا من مسند الإمام أحمد فى حديث طويل جيد الإسناد متصل، وفيه قال عثمان: «فذلك حين استقرَّ الإيمانُ فى قلبى، وأحببتُ محمدا ﷺ».

ما له وأَخْذُ ما عليه ، وتقول: عدَل الشيءَ عدلًا: أقامه وسَوَّاه ، وعدَل الشيءَ بالشيء أى: سوَّاه به وجعلَه مثلَه قائمًا مقامَه ، وتقول: فَرسٌ معتدلُ الغُرَّة: أى: توسطتْ الجبهةَ ولم تَمِل إلى أحد الشِّقَّين: هذا بعضُ ما جاء فى معنى العدلِ ، وقد أمر اللهُ عبادَه المؤمنين بأن يلزَموا العدلَ والإنصافَ فى كلِّ أمورِهم ، ويُوصَفُ العبدُ بالعدل إذا آثرَ حقَّ اللهِ تعالى على حظٍّ نفسِه ، وقَدَّم رِضاه على هواه ، وامتثل أوامرَه سبحانه واجتنب منهياتِه ، وهذا فى علاقة العبدِ بربه ، وإذا منَع الإنسانُ نفسَه مِمَّا فيه هلاكُها ، وكفَّها عمَّا فيه فسادُها فقد عدَل مع نفسه ، وإنِ العبدَ الذى يُعطى الحقَّ من نفسه ، ويُنصِفُ الخلْقَ منها ، ويبذلُ لهم النصيحة ، ويتركُ الخيانةَ والإساءةَ إليهم ، ويصبرُ على الأذى فإنه يكون منصفًا وعادلًا مع الخلْق ، وهكذا يتحققُ العدلُ بين العبدِ وربِّه ، وبين العبدِ ونفسِه ، وبين العبد والخلق.

ويتحقق العدلُ بالتوسُّط فى كل الأمورِ بين طرفَىْ الإفراطِ، والتفريط من ناحية الاعتقادِ ، والعملِ ، والأخلاقِ ، فأهلُ التوحيدِ النقىِّ الخالصِ هم أهلُ التوسُّط بين التعطيلِ والشركِ ، ففى التعطيلِ إنكارٌ لوجود الصانع ، وفى الشرك تعددُ الآلهةِ ، وكلا الطرفين ذميمٌ ينافى العقلَ ويضادّ النقْل ، وليس لأربابه حجةٌ ولا سلطانٌ ، وإن كلَّ المخلوقات تشهدُ وتنطقُ بلسانٍ بليغٍ فصيح: إن لى صانعًا صنَعنى وخالقًا أوجدنى على مقتضى الحكمة ، وهو إلهٌ واحدٌ لا شريكَ له فى مُلكه ولا يُشْبِهُه أحدٌ من خلْقه ، وليس فى احتياج إلى ولدٍ ولا إلى صاحبة ولا مُشيرَ له ولا وزيرَ ، له كمالُ القُدرةِ وكمالُ السلطان. وإن الموحِّدَ يتعبَّدُ بأداء الواجباتِ والتزامِ الطاعاتِ ، وهذا هو النمطُ الأوسطُ بين البِطَالةِ

والترهُّبِ ، فالبِطالةُ تعنى تركَ العملِ لزعْم بعضِ الملاحدةِ أن الشقىَّ والسعيدَ مُتعيِّنان فى الأزلِ ، فلا فائدةَ فى نظرهم فى العمل ، وهذا اعتقادٌ باطل ، وتوجُّهٌ ينافى الحكمةَ والسداد ، فالعملُ بمقتضى الأوامرِ والنواهى به يتمُّ التفريقُ بين الـمُحِقِّ والـمُبْطل «اعْمَلُوا فكُلٌّ مُيَسَّرٌ لمَا خُلق له» ، يقابلُه الانصراف بالكلية لعمل الآخرةِ وتركِ المباحاتِ تشبُّهًا بالرُّهبان ، وكلا طرفَى قصْدِ الأمور ذميم.

ومن الحِكَم الـخُلُقية: الجودُ: المتوسطُ بين البخلِ والتبذيرِ ، وفضيلةُ الشجاعةِ: المتوسطةُ بين الـجُبْنِ والتهوُّر.

وبالعدلْ الإلهىِّ قامت السمواتُ والأرضُ ، وقد أكرَم اللهُ عزَّ وجلَّ أمةَ الإسلامِ وجعلها الأُمةَ الوسطَ كما قال تعالى من سورة البقرة:
﴿وكَذَلكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [الآية:١٤٣]
أى عُدولًا خيارًا.

إن العدلَ أساسُ الحياةِ المطمئنة ، وأعظمُ دعامةٍ فى بناء الأمةِ المستقرةِ الآمنة ، وكلما بَسَط العدلُ جناحيْه على الناس ولَّت الشرورُ ، وانعدم الباطلُ والزور ، وفى المثَل الشائع «لو انصفَ الناسُ لاستراح القاضى» أى لو أن كلَّ إنسانٍ اعتدل فى أموره ، واستقام فى معاملاته وفى أخلاقه، وأدَّى الحقوقَ ، وكفَّ عن الناس شرَّه ، وراقب ربَّه فى السرِّ والعلانية ، وأدَّى واجبَه مهتديًا بنور الدينِ لعمَّ الأمنُ والرخاء ، وبورك للناس فى معايشهم وأرزاقِهم كما قال تعالى من سورة الجِن: ﴿وَأَلَّوِ اَسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهم مَّاءً غَدَقًا﴾ [الآية:١٦]

أى لو استقام العبادُ على الإسلام لوسَّعنا عليهم الأرزاقَ ، ومتَّعناهم بالعيش الرغيد ، وفى ظلال هذه الحياةِ تكونُ راحةُ القلبِ وسكينةُ

النفسِ وانصرافُ كلٍّ فردٍ للعمل والبناء.

وَتتمُّ نعمةُ الحياة الهادئةِ المطمئنةِ بالعدل إذا اقترن بالإحسان فى الأمور كلِّها ، فقد تَعدلُ مع الضَعيفِ بأن تلطمَه كما لطَمك ، ولكنك إذا أحسنتَ إليه بعد ظهورِ حَقِّك وسامحتَه كان ذلك أَدْعى إلى مزيدٍ من الأُلفة والمحبة ، والإنسانُ بطبعه أسيرُ الإحسان ، وقد قالوا: العدلُ أن يُنصِفَ ويَنتَصِفَ ، والإحسانُ أن يُنصِفَ ولا يَنتصِفَ ، ومن العدل أن تُحسِنَ إلى مَن أحسن إليك وتَرُدَّ له المعروفَ بمثله ، ومن الإحسان أن تُحسِنَ إلى مَن أساء إليك ، والقرآنُ الكريمُ يوجِّهُنا إلى العدل والإحسانِ بمثل قوله تعالى من سورة النحل: ﴿وإنْ عاقَبْتُمْ فعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ولَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِين﴾ [الآية: ١٢٦]

وفى سورة الشورى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عفَا وَأَصْلَحَ فأَجْرُهُ عَلَى اللهِ﴾ [الآية: ٤٠]

ومن سورة المائدة فى آية القصاص: ﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّه﴾ [الآية: ٤٥]

إلى غيرِ ذلك من الآيات الدالَّةِ على هذا ، من شرعية العدلِ والندبِ إلى الفضلِ والإحسان.

والإحسانُ: مصدرُ أَحْسَنَ يُحْسِنُ إحسانًا ، ويُطلَق الإحسانُ على إتقان العملِ وإكمالهِ ، وعلى إيصال النفعِ إلى الخلْق ، وهو بالمعنى الأولِ مُتعدٍّ بنفسه إلى مفعوله تقول: أحسنتُ الأمرَ الفلانىَّ أى: حَسَّنتَه وكمَّلته وبالمعنى الثانى يتعدَّى بواسطة حرف الجرِّ تقول: أحسنتُ إلى جارى أى: أوصلتُ إليه ما يُنتفَع به ، وكلاهما مأمورٌ به شرعًا ، فهو سبحانه يُحبُّ

من عباده أن يُحسِنَ بعضُهم إلى بعض ، وإذا عَمِل أحدُهم عملًا أن يتقنَه ويُحسِّنَه ويُكمِّلَه ، وبهذا المعنى يتحققُ الإحسانُ فى العبادة ، وهو كما جاء فى حديث جبريل: «أن تَعبُدَ اللهَ كأنك تَراه فإن لم تكُن تراه فإنه يَراك» إذ إن هذا راجعٌ إلى إتقان العبادةِ ومراعاتِها بآدابها المصحِّحة والمكمِّلة ، ومراقبةِ الحقِّ فيها ، واستحضارِ عظمتِه وجلالِه حالةَ الشروعِ فى العبادة وحالةَ الاستمرار.

أمر اللهُ عبادَه بالعدل والإحسانِ ، أى بِمَا عَظُم نفعُه ، وشرُف قَدرُه وعَمَّ خيرُه ، وما تضَمَّن كلَّ معالِى الأمورِ ومكارم الأخلاقِ وأفضل المروءاتِ. وقد أخرج ابنُ النجار ـ كما جاء فى رُوح المعانى ـ أنَّ علىَّ ابنَ أبى طالب مَرَّ بقوم يتحدَّثون ، فقال: فِيم أنتم؟ فقالوا: نتذاكرُ المروءة؟ فقال: أَوَ مَا كَفَاكم اللهُ عزَّ وجل ذلك فى كتابه إذ يقول: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ فالعدلُ الإنصاف ، والإحسان التفضلُ فما بَقِىَ بعد هذا؟.

وبعد الأمر بهما قال سبحانه: ﴿وَإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَى﴾ أى: إعطاءِ الأقاربِ حقَّهم مِن الصِّلة والبِرِّ ، وهذا داخلٌ فى العدل أو الإحسانِ وعلى هذا فيكون من ذِكْرِ الخاصِّ بعد العامِّ للعناية بأمرِ هذا الخاصِّ والاهتمامِ بشأنه ، لأن حقوقَ ذوى القُربى أوكدُ ، وصِلتَهم أوجبُ لتأكيد حقِّ الرَّحم التى اشتَقَّ اللهُ اسمَها من اسمه ، وجعل صِلتَها من صلته كما جاء فى الصحيح: «أمَا تَرْضَيْنَ أَن أَصِلَ مَن وَصَلَكِ وأَقْطَعَ مَن قَطَعَكِ» [البخارى ومسلم]

وبعد الأمرِ بأمهات الفضائِل وأسمى المكارمِ فى إيجازٍ وإعجازٍ جاء النهىُ عن رؤوس القبائح ، والتنبيهُ إلى ضرورة تطهيرِ حياةِ الأمةِ مِمَّا

عظُم قبحُه من الآثام ، وَمِمَّا أنكره الشرعُ من الأقوال والأفعال ، سواءٌ عظُم قبحُه ومفسدتُه أم لا ، ومن رذيلة الاستعلاء والتطاول على الناس بالظلم والعدوان ، ولنتدبر: ﴿وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾.

إن الفُحشَ هو كلُّ قبيحٍ من قول أو فعلٍ مِمَّا عَظُمت مفسدتُه ، وكان فيه متابعةٌ للغرائز البهيمية ، وإفراطٌ فى تلبية أهواءِ النفسِ الأمارةِ بالسوء، وتعاطِى المحرَّمات ، وارتكابِ الموبقات ، أما المنكرُ: فهو ما أنكره الشرعُ بالنهى عنه ، وهو يعمُّ جميعَ المعاصى والرذائلِ والدناءاتِ على اختلاف أنواعها ، ولذا قال بعضُهم: إن المنكر أعمُّ من الفحشاء فهو من قَبيل عطفِ العامِّ على الخاص[١] ، كما جاء عطفُ البغْى من قبيل عطْف الخاصِّ على العام ، وقد عُطف على المنكر الذى يشملُه ليتأكدَ فى النفس أن العدوانَ على الناس وظلمَهم وبَخْسَهم حقوقَهم من أفظع المنكراتِ وأشنعِها ، وهو من الضرر المتعدِّى الذى لا يَليقُ بأهل الدينِ والعقلِ أن يتصفوا به.

لقد تضمنت الآيةُ الكريمةُ التحليةَ والتخليةَ ، التحليةَ بالعدل والإحسانِ وإيصالِ الخير لذوى القُربى ، والتخليةَ عن القبائح من الأقوال والأفعالِ ما ظَهر منها وما بطن كما قال تعالى من سورة الأعراف:

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الآية: ٣٣]

ولـمَّا كان فى البغْى تجاوزٌ للحدِّ خُصَّ بالذِّكر اهتمامًا به لشدة ضررِه وقد جاء فى الحديث الذى أخرجه ابنُ ماجةَ وأحمدُ فى مسنده عن أبى بكرة «ما مِن ذنبٍ أجدرَ أن يَعَجِّلَ اللهُ عقوبتَه فى الدنيا مع ما يُدَّخَرُ

(١) فكأن الفحشاء جاء النهى عنها مرتين إحداهما بالنصِّ عليها، تنبيهًا لشدة قبحها والأخرى مُضمَّنة فى النهى عن المنكر وهو العامّ.

لصاحبه فى الآخرةِ من البغْى وقطيعةِ الرحم».

وفى الأثر: «الباغى مصروعٌ» ووعد اللهُ مَن بُغِى عليه بالنصر ولقد نبَّه اللهُ عبادَه بما يأمرُ وينهى أحسنَ تنبيه ، ولفتَهم إلى الخير ، وأمرَهم بالتزامه وإلى الشرِّ ونهاهم عنه ، ليتَّعظوا ، وينتبهوا لمَا فيه صلاحُهم وفوزُهم ﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُم تَذَكَّرُون﴾ ثم أمر اللهُ عبادَه المؤمنين بالوفاء بالعهد ونهاهم عن الغدر ، وضرَب لهم الأمثالَ زيادةً فى التنبيه والتذكير.

﴿وأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدتُّم ولَا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾

فله الحمدُ والشكر. . . والكلام متصل. . .

❊ ❊ ❊

لا شفاعةَ فى الحدود:

عن عائشة رضى الله عنها: أن قريشًا أهَمَّهُمْ شأنُ المرأةِ المخزومية التى سرقت فقالوا: مَن يكلِّم فيها رسولَ اللهﷺ؟ فقالوا: ومَن يجترِئُ عليه إلا أسامةُ بنُ زيد حِبُّ رسول اللهﷺ، فكلمه أسامةُ، فقال رسول اللهﷺ: «أتشفَعُ فى حَدٍّ من حدود الله عزّ وجلّ؟» أى: منكرًا ذلك منه ثم قام فاختطبَ، ثم قال: إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيفُ أقاموا عليه الحدَّ، وايّم الله لو أن فاطمة بنتَ محمدٍ سرقتْ لقطعتُ يدَها» [أخرجه البخارى]

١٨٥-ب- الوفاءُ والبِرُّ من خِصال أهل الإيمان

ضَرَبَ اللهُ عزَّ وجلَّ فى سورة النحلِ مَثلًا تشبيهيًّا لِنَاقضى عُهودهِم فجَعل مَثَلَهُم كمثَلِ المرأة الحمقاء التى نَقَضَتْ غزْلَها من بعْد قوة أنكاثًا قال سبحانه: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدتُّم وَلَا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ* وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّة....﴾ [النحل: ٩١، ٩٢]

إن المؤمنَ الصادقَ الإيمانِ يكون وفيًّا إذا عاهد، وصادقًا إذا تحدَّث أمينًا على أموال الناسِ وأسرارِهم، بارًّا إذا وَعَد، وقد حثَّ الإسلامُ على التحلِّى بهذه الخصال، وبالتخلِّى عن أضدادها، إذْ لا يليقُ بالمسلم أن تكونَ فيه خصالُ المنافقين وأسوأُ مخازِيهم، وهى: الغدرُ، والكذبُ والخيانةُ، والفجور، وعدمُ البرِّ.

وقد أمر اللهُ عزَّ وجل بالوفاء بالعهود والمواثيقِ والمحافظة على الأيمان المؤكِّدةِ لها: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدتُّم وَلَا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ والوفاء بالعهد معناه: الحفاظُ على شروطه، والتزامُه فى كل أمرٍ مُوافقٍ للديانة، فيما يتصلُ بالعقود والمواثيقِ بجميع أنواعِها والنَّقضُ ضِدُّ الإبرامِ والإحكام.

تقول: نَقَض البناءَ، أى هَدَمَه، ونقَضَ الحبْلَ أو الغزْلَ ونكَثَه: يعنى حَلَّ طاقاتِه، وتقولُ فيمَن نَبَذَ عهدَه أو يَمينَه أو بَيْعتَه: فلانٌ نقض العهْدَ ونكَثَه على سبيل المَجازِ بإبراز الأمرِ الذى يُدْرَكُ بالعقْل فى صورة

تُدْرَكُ بالحسِّ الظاهر.

وتوكيدُ اليمينِ توثيقُها وتشديدُها بالعزْم والقصْد ، يقال: تَوكيدٌ وتأكيدٌ ووكَّدَ وأكَّدَ ، وهما لغتان بمعنى واحد ، قال الواحدىُّ: إن قوله سُبحانه: ﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ لإخراجِ لغْو اليمينِ نحو: لا واللهِ ، وبلى واللهِ ، بناءً على أن المعنى بعد توكيدها بالعزْم والعقْدِ ، ولغْوُ اليمين ليست كذلك ، أى لأنها تَجرِى على اللسان بلا قصدِ اليمينِ ، بخلاف اليمينِ المنعقدة(١).

﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً﴾ وهذه الجملةُ فى موضعِ نصبِ حالٌ من فاعل ﴿وَلا تَنقُضُوا﴾ أى: ولا تنقضوا الأيمانَ بعد توثيقِها وتأكيدِها والحالُ والشأنُ أنكم جعلتم اللهَ عليكم شهيدًا رقيبًا ، وفى هذا تأكيدٌ بالتزام البِرِّ والوفاءِ لقُبْح نكْثِ الأيمان ، ونَبْذِ العهودِ والمواثيق ، وتفظيعٌ لهذا الأمر ، إذ كيف يتأتَّى لَمَن جعلَ اللهَ ضامنًا وشاهدًا رقيبًا أن يخونَ أو يَغدرَ أو لا يحافظَ على ما ألزم نفسَه به ، إلا إذا اقتضى الأمرُ نَقْضَ ما أبرم لأسبابٍ شرعيةٍ وموجباتٍ صحيحة ، ثم ذُيِّلت الآيةُ بما يُعلِّل للنهى عن نَقْض الأيمانِ المُوثَّقة ، وقد تضمَّن الوعيدَ لمن يجرؤُ على ذلك ولنتدبر ﴿إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ أى: من النقض أو البِرِّ والوفاءِ فَيُجازيكم على ذلك.

---

(١) الأيمانُ منها: غَموس: وهو أن يحلفَ المرءُ على شىء ماضٍ وهو متعمِّدٌ الكذبَ وهذه من أكبر الكبائرِ وتحتاجُ إلى توبة نصوح ، والمنعَقدة: وهو أن يحلفَ على أمرٍ مباح يفعله أو لا يفعله وعليه الوفاءُ ، فإن حنَث كَفَّر عنه ، واللغوُ وهى الحلفُ على أمرٍ يعتقد أنه فيه صادقٌ ثم يُتبيَّن خلافُه ، أو الحلفُ عن غير قصد ولا نية وهذه لا كفارةَ فيها ، ونرجو الله ألا يؤاخذَنا بها ، كما قال سبحانه ﴿لا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِى أَيْمَانِكُمْ﴾ [البقرة/ المائدة]

الإسلام رحمة:

إِن الناسَ لا غِنَى لهم عن الأخْذ والعطاءِ وتبادلِ المنافعِ والخيراتِ والخبرات ، وهذا ونحوُه يَقتضِي حدودًا مُنظِّمةً للأمور ، وموضِّحةً للشروط ومُبيِّنةً للمواقيت وللحقوقِ والواجباتِ ، لذا اقتضت حياتُهم أن يكونَ هناك **الوعدُ** ، **والعقْدُ** ، **والعهدُ** ، **والميثاقُ** ، سواءٌ على مستوى العلاقاتِ الفرديةِ أو الأمةِ بغيرها ، ومن مزايا الإِسلامِ أنه رسَم الطريقَ للمسلمين بحيث تكونُ معاملاتُهم على نورٍ وهدايةٍ ورَشادٍ ، وعلى أُسسٍ سليمةٍ قائمةٍ على البيان والوضوحِ التامِّ ، مع وجوبِ وفاءِ كلِّ طرفٍ بما عاهَد عليه أو وَعَد به ، ومن أمثلة ذلك أننا نَجدُ فى آية الدَّينِ من سورة البقرةِ ما يدلُّ على مُعْجزة الدِّين الذى أكْرمنا اللهُ به فى بيان التفاصيلِ والشروط اللازمةِ للحفاظ على حقوق الدائنِ والمَدينِ ، ولنتدبر منها على سبيل المثال قولَه تعالى: ﴿**وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَـٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ**﴾[1] [الآية: ٢٨٢]

أى: لا تَملُّوا أو لا تكْسَلوا عن كتابة الحقِّ مع بيانِ صفةِ الدَّينِ وقَدْره ووقْتِ حلولهِ وبيانِ شهودهِ سواءٌ كان الدَّينُ صغيرًا أو كبيرًا ، وقُدِّمَ الصغيرُ اهتمامًا به ، فأكَّد اللهُ تعالى التحضيضَ فى إِثبات قليلِ الدَّينِ وكثيرِه لحفظ الحقوق ، ولإِزالة كلِّ شكٍّ يطْرأُ فى جِنس الدَّين أو قَدْره وأَجَلِه وشهودِه ونحو ذلك. قال الكيا: يُستدل به على أن يُكتَبَ صفةُ الدَّين وقدرُه ، لأن الأجَلَ بعضُ أوصافِه ، فحكمُ سائرِ أوصافِه بمنزلته[2].

---

(١) وأقسط يعنى: أعدل وأحفظ ، وأقومُ للشهادة: يعنى أثبت لها وأعون على أدائها.

(٢) قول الكيا منقول من: «الإكليل فى استنباط التنزيل» للشيخ الإمام جلال الدين السيوطى الشافعى المتوفى فى عام ٩١١ من الهجرة

وهذا مثالٌ مِمَّا جاء فى كتاب ربِّنا فى هذا الجانب الحيوىِّ من حياة الناس ، كى تتجهَ مسيرتُهم وجهودُهم فى مجال العمارةِ والبناءِ على أساسٍ من تعاونٍ سليمٍ يساعدُهم على الاستقرار ، وتحقيقِ الأمانِ والثقة ويَشدُّ من عزْمهم ، ويجعلُهم أكثرَ طمأنينة ، وأعظمَ قُدرة على النهوض بالأعباء ، والقيامِ بالتبعات مع تضافرِ القُوى والإمكاناتِ والقدراتِ المختلفة ، مِمَّا يجعلُ العيشَ أهنأَ وأرْغَدَ ، والحياةَ أكثرَ يُسرًا ، والنفوسَ أعظمَ تطلُّعًا دومًا إلى حياةٍ أفضلَ.

وفى هذا الـمَساقِ جاءت الأوامرُ والنواهِى ، وضُرِبَت الأمثالُ فى سورة النَّحلِ ليكونَ المسلمون على بيِّنة ، فقد أمر اللهُ بالعدْل، والإحسان والوفاءِ بالعهد ، والبرِّ بالأَيْمان ، ونَهَى عن البغْى والتعدِّى ، وعن نبْذ الأَيمانِ والعهود ، ولتقبيح الغدْر ونَقْضِ العهود والمواثيقِ مَثَّلَ اللهُ عزَّ وجلَّ حالَ مَن يفعلُ ذلك بحال امرأةٍ حمقاءَ فاقدةِ الرشد تبذلُ جُهدًا لتغزلَ غزلَها ، ثم تبذلُ جهدًا آخرَ لِتَنقُضَ ما غزلَت وتَحُلَّه(*) وتنفشَه وتُعِيدَ صوفَها أو ما غزلَتْ من شَعْرٍ إلى مِثْلِ حالتِه الأُولى ، ثم تغزلَه وهكذا، فَتُضيِّعَ فى كل مرَّةٍ زمنَيْن وتبدِّدَ جُهدين ، دون أن يعودَ عليها ذلك بفائدة.

وإنَّ العاقلَ ذا البصيرةِ يربأُ بنفسه أن يكونَ على حالٍ تُشبِهُ حالَ هذه المرأة ، وإن ناقضِى العهودِ الـمُوثَّقةِ بالأيمان يرتكبون حماقةً شبيهةً

(*) الفعل تَحُلُّ الغزلَ مضارع حَلَّ الثلاثى المضعَّف المفتوح العين فى الماضى المتعدِّى - أى ينصب المفعول به بنفسه - وهذا النوع يطّرد فيه: فَعَلَ يَفْعُلُ أى بفتح العين فى الماضى وضمّها فى المضارع: أمَّا قولُنا حَلَّ فلانٌ من إحرامه فالفعل هنا لازم يتعدّى إلى المفعول به بواسطة حرف الجر، لذا يطرد معه كسرُ عينه فى المضارع تقول: يَحِلُّ من إحرامه، وتقول حَلَّ بالمكان يَحِل بكسر المضارع.

بحماقة هذه المرأة التى نقَضت غزلَها من بعد قُوة أنكاثًا ، أى من بعد أن كان غزلُها مُبْرَمًا مُحكَمًا فيه قوةٌ يُنتفَع به ، أعادته صوفًا أو شعرًا أو قُطنًا كما كان أولًا دون مبرِّرٍ سِوى فسادِ الرأى وسوءِ التدبير.

ولنتدبر: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا من بَعْد قُوَّة أَنكَاثًا﴾ أى: لا تكونوا فى نقْض الأيمانِ ونكْث العهودِ كالمرأة التى أنحت على غزلها بعد أن أحكمتْه وأبرمتْه فجعلته «أَنكَاثًا» جمع نِكْث وهو ما يُنكَثُ فتلُه قيل: هى رَيطةُ بنتُ سعدِ بنِ تَيم بنِ مُرَّة وكانت خرقاء[1] ، اتخذت مغزلًاقدْرَ ذراعٍ وصنَّارةً مِثلَ إِصْبَع وفلكةً عظيمةً على قَدْرها ، فكانت تغزلُ هى وخدمُها من الصباح إلى الظهر ، ثم تأمرهُنَّ فينقضْنَ ما غزلْن.

وقال مجاهدٌ وقتادةُ: وذلك ضَرْبُ مَثلٍ ، لا على امرأة معيَّنة ، أى: إن فى الآية تشبيهَ حالِ الناقضِ أيمانَهُ بحالِ الناقضِ - غزلَه - فى أخسِّ أحوالِه تحذيرًا من نقْضِ العهودِ والأيمانِ ولبيان أن ذلك ليس من فعل العقلاء ، وأن صاحبه داخلٌ فى عداد حمقى النساء.

﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ والدَّخَلُ: الدَّغَل، والخَديعةُ والغِشُّ وقال أبو عُبيدة: كلُّ أمرٍ لم يكن صحيحًا فهو دخَلٌ ، وهو فى الأصل ما يَدْخلُ الشىءَ ولم يكن منه ، ثم كُنِّىَ به عن الفساد والعداوة المُستبطَنة كالدَّغَل ، وفسَّره قتادةُ: بالغدر والخيانة ، و«دخلًا» مفعولٌ ثان ، لا تَّخذ ، والمفعولُ الأولُ «أيمان» والجملةُ حال أى: لا تكونوا مُشَبَّهِين بامرأةٍ هذا شأنها حالة كونكم مُتَّخذين الأيمانَ وسيلةً للغدْر والفسادِ بينكم ، حتى ولو كان غرضُكم من نقْض العهدِ تقويةَ الأمةِ كما

---

(١) الخرقاء: المرأةُ غيرُ الصَّناع، وفى المَثل: تحسبُها خرقاءَ وهى صَناع - أى: ماهرة فى العمل باليدين - والجمع صُنُعٌ.

قال سبحانه: ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّة﴾ أى: لأن تكونَ جماعةٌ أكثرَ عددًا وأوفرَ مالاً وأعلى من جماعة أُخرى.

قال مجاهد: وذلك أن العربَ كانوا يُحالفون الحلفاءَ فإذا وجَدوا قومًا أكثرَ من أولئك وأعزَّ نقضُوا حِلْفَ هؤلاء، وحالفُوا الأكثر، والمعنى: أنكم طلبتُم العزَّ بنقْض العهدِ لأَنْ كانت أُمَّةٌ، أى جماعةٌ أكثرَ من جماعة، فنهاهم اللهُ عن ذلك، وأمرهم بالوفاء بالعهد لِمَن عاهدوا وحالفُوا، وهذا غايةُ ما تطمحُ إليه نفوسُ المصلحين فى خُلُقِ الوفاء.

وفيه إنكارُ أن تُتَّخَذَ الأَيمانُ وسيلةً لخداع الناسِ وغِشِّهم بها حتى يُصَدِّقوا الحالفَ فى عَهْده ووعْده، ويطمئنُّوا إليه، ثم هو ينقُضُ ما حلَف عليه بغير حقٍّ، فهذا أمرٌ كبيرٌ وشَنيع، وتترتبُ عليه مفاسدُ كثيرة.

وقد زادتهم الآيةُ تحذيرًا وتنبيهًا، وبيَّن الله لعباده أنهم فى مَوضِعِ الامتحانِ والاختبار، وهذا يتطلبُ التزامَ الحدود، والوفاءَ بالعهود والوعود: ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ﴾ أى: يختبركُم بما أمركم به من الوفاء بالعهد، هل تُوفون بعهدكم؟ وإِنَّ أعظمَ العهودِ هو عهدُ العبد مع الله ورسولِه، قال صاحبُ الكشاف: الضميرُ فى «به» عائدٌ إلى المصْدر المُنسَبِك من «أن تكُون» أى: إنما يختبركُم - أيها المؤمنون - بكونهم - أى مشركى قريش - أربى وأكثرَ عددًا لينظُرَ أتتمسكون بحبلِ الوفاءِ بعهدِ الله، وما عقدتُم على أنفسكم، ووكَّدتُم من أَيمان البيعةِ لرسول الله ﷺ، أم تَغترُّون بكثرة قريشٍ وثروتهم وقوتهم، وقلة المؤمنين وفقرِهم وضعفِهم: ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ فيجازيكم بأعمالكم ثوابًا وعقابًا، وفيه إِنذارٌ وتحذيرٌ من مخالفة مِلَّةِ الإسلامِ ومن عدم الوفاءِ بعهد الله.

ثم بيَّن السياقُ أن مشيئةَ الله اقتضت أن يكونَ فى العباد المؤمنُ والكافر ، والمطيعُ والعاصى ، والموحِّدُ والمشرك ، فللعبد اختيارُه والتوفيقُ والخذلانُ بيده سبحانه: ﴿وَلَو شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أى على مِلَّةٍ واحدة ﴿وَلَكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ﴾ بخذلانه إياهم، ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ بفضله وتوفيقه وذلك ممَّا اقتضته الحكمةُ الإلهيةُ لا يُسألُ عما يفعَلُ وهم يُسألُون، وهو قوله تعالى ﴿وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٣] أى لتسألن يومَ القيامة سؤالَ محاسبةٍ ومجازاةٍ عن أعمالكم ومعتقداتِكم ليُجزَى المحسنُ بإحسانه ويعاقَبَ المسيءُ بإساءته.

ثم أكَّد السياقُ على وجوب حفظِ العهود ، والوفاء بالأيمان بتأكيد التحذير من إضمار نيَّةِ الغدرِ واتخاذِ الأيمانِ وسيلةً للخديعة، إظهارًا وتبيانًا لعِظَم أمرِ نقْضِ العهد ، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُم دَخَلًا بَيْنَكُم﴾ أى: لا تعقدوا الأَيمان بالانطواء على الغدر والخديعةِ والفسادِ فيغترَّ الناسُ بها ، فيطمئنوا إلى أيمانكم ، ويأمنوا إليكم ، وفى هذا تأكيد للنهى عن نقْض العهد ومبالغةٌ فى قُبح المنهىِّ عنه ، وتمهيدٌ لقوله سبحانه: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ أى: فتزلَّ ـ يعنى النفوس ـ عن طريق الحقِّ بعد رسوخها فيه بالإيمان وهذه مصيبةُ المصائب. وهذا مثَلٌ يُضرَبُ لكل مَن وقَع فى بَليَّة ومِحْنة بعد عافية ونعمة ، لأن القدمَ إذا زلَّت حقيقةً نقَلَت الإنسانَ من حالِ خيرٍ إلى حالِ شرٍّ ، ثم استُعمل هذا المثَلُ لكل مُبتلًى بعد عافية، أو ساقطٍ فى ورْطة فيقال: زلَّت قدمُه، ثم توعَّد اللهُ مَن نَقَضَ عهدَ رسول الله ﷺ بخزى الدَّارين ، فقال: ﴿وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ٩٤]

لأن ناقضَ العهدِ يُعلِّم غيرَه فهو صادٌّ غيرَه عن سبيل الله بعد صُدوده هو بنقْضِه عهدَ اللهِ ورسوله. «والله أعلم»

(١٢٠٤)

من سورة التوبة :

١٨٦- أ- مسجدُ الضِّرار وأثرُ النَّوايا والمقاصدِ

إنَّ المنافقَ فى سعْيه لتحقيق أغراضِه يتخذُ كلَّ الوسائلِ التى تُعِينُه على سَتْرِ معايبِه ، وتساعدُه على مُواراة مقاصده ، فهو يُظْهِرُ أمرًا ، ويُبطِنُ نوايا أُخرى ، ويَتخِذُ مِمَّا هو حقٌّ سِتارًا يُخفِى وراءه مَرامِيَه الخبيثة فغايتُه تُبرِّرُ له الوسيلةَ ، ولا يَرى بأسًا مِن جَعْل الخيرِ وسيلةً لشرٍّ يَبتغيه ولباطلٍ يرجوه ، وفى عهْدِ النُّبوة والوحْىُ يَنزلُ على رسول اللهِ ﷺ فضَح القرآنُ العظيمُ أمرَهم ، وكشَفَ عمَّا ستَروه من أغراضهم ، ومكايدهم[1] تنبيهًا لأهل الإِيمان ، وليكونوا على بينة حتى لا ينالَ هذا العدوُّ الماكرُ اللئيمُ منهم فى محاولاته لتفريق صفِّهم ، وسعْيِه لزعزعة أمنِهم ، وإثارةِ الشكوكِ والمخاوفِ فى نفوسهم ، فكم اتخذ المنافقون من الأيمان درِعًا يتوسَّلون بها إِلى كسب ثقةِ النبىِّ ﷺ والمؤمنين ، وهم فى الوقت نفسه يَرمون إِلى الصدِّ عن سبيل الله ، والصدودِ عن متابعة الهادِى الحبيب ﷺ : ﴿**اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [المنافقون: ٢]

وحين يَلتمسون الأمانَ لأنفسهم حذرًا من فضْح نواياهم يُكثِرون الحلفَ يؤكِّدون به أنهم من المؤمنين ، وهم كاذبون فى دعواهم الانتسابَ

---

(١) مكايد: جمع مكيدة ببقاء الياء بعد ألف الجمع الأقصى لأنها فى المفرد مدّ أصلى لذا لم يُعَلَّ بالهمز فى الجمع (من كاد يكيد مكيدة والجمع المكايد) ومثلها: مُريبة ومرايب ومصيف ومصايف ومسيل ومسايل، ومصير ومصاير أما نحو مدينة من مدن فجمعها الأقصى مدائن، والأصل مداين قُلبت الياءُ همزة فى الجمع الأقصى لأنها كانت فى المفرد مدًّا زائدًا وعلى هذا النحو: إمارة وأمائر - لأن الألف فى المفرد مدّ زائد - وقِسْ - .

للصف المؤمن الموحِّد الصادق ، يقول سبحانه من سورة التوبة:
﴿وَيَحلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَكِنَّهُم قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾
[الآية: ٥٦]

وفى سورة التوبةِ تحليلٌ لنفسياتهم وبيانٌ لحقيقة ما يُضمرونه فى نفوسهم ، فقد أزاحت الستارَ عن الكثير من خباياهم ، وعرضت نماذجَ من مسالكِ هؤلاء المنافقين ، وأنماطًا من مناهجهم ، كما بيَّنت بعضَ الأحكامِ المتعلقةِ بهم ، مِما فيه عظةٌ لذوى البصائر ، وعبرةٌ لأولى الألباب.

وإن قصةَ مسجدِ الضِّرار فى سورة التوبةِ تضعُ المتدبرَ أمام نموذجٍ من البشرِ فيه مكرٌ ودهاءٌ وخُبث ، وله منهجٌ عمليٌّ يسعى عن طريقه للوصول إلى ما يُريده من الكيد للحق وأهله ، ويتخذُ من الخير وسيلةً لنُصرة الشرِّ ، ويجعلُ مِمَّا هو حقٌّ دِرْعًا لإعزاز الباطل.

إن المساجدَ تُبنى لعبادة اللهِ وحده: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحدًا﴾ [الجن: ١٨]

ويعمرُها أهلُ التقوى والإخلاصِ بالصلاة فيها، وبتلاوةِ القرآنِ، وذكْرِ اللهِ عز وجل ، وهى مُلتقى أهلِ التوحيد لتزدادَ ألفتُهم ، وتتوثقَ مؤاخاتُهم ، وتنموَ مودتُهم ، ويلتحمَ صفُّهم ، وليكونوا دومًا أكثرَ تعاطُفًا و تعاونًا وبرًّا ، فهى بيتُ المهتدين ، ودارُ أهلِ الخشية والتقوى:
﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾
[التوبة: ١٨]

وفيها يتزودُ المؤمنون بالعلم النافع.

لهذه الغاياتِ الساميةِ تُبنى المساجد ، ولأجل هذه المقاصدِ العاليةِ يُرفَعُ

عِمادُها: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ۞ رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ الزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ﴾

[النور: ٣٦، ٣٧]

إِنهم الرجالُ الذين أخلصوا النوايا ، وصدَقوا فى إِيمانهم ، ولهَجت ألسنتُهم بذِكْرِ اللهِ ، وأطاعوا أمرَه ، وأَدَّوا فرائضَه ، وعرفُوا حقَّ الفقيرِ والمسكينِ وأَدَّوه على الوجْه الأكمل؛ لأنهم يخافون يومًا عظيمَ الهول شديدَ الكرْبِ ، تجدُ الناسَ فيه سُكارى وما هم بُسكارى ولكنَّ عذابَ الله شديد.

هذه هى النماذجُ الصالحةُ المصلحة...

أمَّا أصحابُ مسجدِ الضِّرار فقد اتخذوا من فكرة إقامةِ المساجدِ مطيةً لأهوائهم المريضة ، ومَعْبَرًا لمقاصدهم الخسيسة ، وصارت قصتُهم مثلاً لخُبث النية ، وفسادِ الطوية ، وقُبحِ السَّريرة ، وسُوءِ التدبير: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّىءُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣]

وتعالوا نتدبرْ معًا قولَ الحق تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾

[التوبة: ١٠٧]

وترتبطُ قصةُ هذا المسجدِ باسم رجلٍ من الخزرج اسمُه «أبو عامر» الملقَّبُ بالراهب ، كان قد تَنصَّر فى الجاهلية ، وقرأ علْمَ أهلِ الكتابِ وتعبَّد ، وكان له منزلةٌ فى قومه بالمدينة ، ثم أصابه داءُ الحسدِ بعد أن

هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة ونَصَره اللهُ فى بدْر ، ورأى أنّ أمرَ الإسلام فى ازدياد ، فسعى أبو عامر فى الإفساد، وتأليبِ المشركين على الرسول ﷺ وظَاهَرَ بالعداوة ، ثم أدَّاهُ حسدُه وغيظُه من ارتفاع أمرِ رسولِ الله ﷺ وظهورِه إلى السعى لتأليب الروم ، فذَهب إلى هِرقلَ ملكِهم يَستنصِرُه على المسلمين ، فرحَّب به ، ووعَده ومنَّاه ، وأقام عنده ، وفكّر فى أن يُعدَّ لنفسه مركزَ اتصالٍ بالقرب من المدينة المنورة ، يلتقى فيه مَن هُم على شاكلَته ، ويصلُ إليه مَن يوفدهم حتى يستكملوا الأُهبةَ للانقضاض على المسلمين فى المدينة.

وكان لسانُ حاله يقول: ولِمَ لا يكونُ هذا المركزُ من الأماكنِ التى يُحبُّها رسولُ الله ﷺ والمؤمنون ، ويَجدُ فيه أهلُ الإيمانِ سكينتَهم وراحةَ نفوسِهم؟ لم لا يكونُ مسجدًا وعن طريقه يُمكن إخفاءُ النوايا والمقاصدِ اللعينةِ التى أرادها هو ومَن كانوا على نفاقٍ وريبةٍ من أهل المدينة؟

شرَع أعوانُه بمشورته فى بناء مسجدٍ مجاورٍ لمسجد قباءَ ، فبَنَوْه وأحكمُوه ، ثم أظهروا الإخلاصَ، وسعَوا إلى تقريرِ مسجدهِم، وإثباته فدعَوا رسولَ الله ﷺ للصلاة فيه والدعاءِ لهم بالبركة ، وادَّعوا أنهم إنما بَنَوْه للتيسير على الضعفاء منهم ، وأهلِ العِلَّة فِى الليلة الشاتيةِ والليلةِ المَطيرة ، وكان الرسول ﷺ يتجهزُ وقتَها للخروج إلى تبوكَ فقال لهم: «إنَّا على سفر ولكنْ اذا رجعنا إن شاء الله».

فلَّما قَفَلَ عليه السلام راجعًا إلى المدينة من تبوكَ نَزل عليه الوحْىُ قبل وصولِه بخبرِ مسجدِ الضرار ، وبنوايا الذين بَنَوه مِن الكُفر والتفريقِ بين جماعةِ المؤمنين فى مسجدهم ، مسجدِ قباءَ الذى أُسِّس مِن أولِ يومٍ على التقوى والنيةِ الصالحة ، وانكشَف الغطاءُ عن الغرض الذى رَمَوا

إليه ، وهو أن يكونَ المسجدُ أشبهَ بمركزٍ للعيون والجواسيس ، وجمعِ السلاح ، وتكثيرِ الأعوان ، واستقبالِ مَن يُوفدهم أبو عامرٍ من بلاد الروم استعدادًا لوصوله على رأس جيشٍ من الروم ، وأن يكون المسجد له ركيزةً وقاعدةً فى قباءَ بالقرب من المدينة المنورةِ ليُخرِجَ فى زَعْمه محمدًا ﷺ وأصحابَه من المدينة.

وحكَم رسولُ اللهﷺ فى هذا المسجدِ بحُكم الله عزَّ وجل فأمر بهدْمه وإِحراقه ، هذا سببُ نزولِ الآيات ، وعَصَم اللهُ نبيَّه محمدًاﷺ من الصلاة فيه ، وأُخمِدَت الفتنةُ فى مهدها بفضل الله عز وجل.

وبعد هذه الجولةِ مع أسبابِ النزولِ نعودُ إلى تدبُّر الآياتِ للعظة والاعتبار ، ولنتأمل: كيف تختلفُ الأفعالُ باختلاف المقاصدِ والإراداتِ والنوايا، وكيف أن العبرة بالقلوب وما تحمِلُ من خير أو شرّ: «إِنَّما الأعمالُ بالنياتِ وإنما لكُل امرئٍ ما نَوى» [الراوى عمر بن الخطاب وأخرجه البخارى]

﴿**وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا**﴾ أى: ومن المتخلفين عن غزوة تبوك(١) المنافقون الذين اتخذوا مسجدًا ضرارًا بقباء ، ومَسْجِدُ: اسمُ مكانِ السجودِ مُشتقٌّ من مصدر الفعل سَجَدَ الثلاثىِّ صحيحِ الأولِ والآخرِ ومضمومِ العَين فى المضارع «**يَسجُد**» وقياسُه فى اسْمَىَ الزمانِ والمكانِ (مَسْجَد) بفتح وسطه مثل: كتب يكتُب مكتَب ، ودرس يدرُس مدرَسة ، ولكنَّ السماعَ فيه بكسرِ وسَطِه(٢) و«**ضِرارًا**» مفعولٌ لأجله

(١) كانت هذه الغزوة فى رجب سنة تسع من الهجرة وكانت السنةُ شديدةً قاسية لهذا سميت أيضا غزوة العسرة.

(٢) وقد ورد فى مسجد فتح وسطه على القياس مع كسره، وقد التمس سيبويه لمكسور العين علة تُبعده عن الشذوذ فقال «فأما المسجد ـ بكسر الجيم ـ فإنه اسم للبيت ولستَ تريد به موضعَ السجود وموضِعَ جبهتك ولو أردتَ ذلك لقلتَ مَسْجَد ـ بفتح الجيم ـ يعنى أن مكسور العين فى رأيه اسمٌ لمكان خاص على هذه الصيغة غير جارٍ على نمط أسماء المكان فى صلاحيتها لكل مكان فيه الحدث [شيخى الشيخ محمد طنطاوى فى تصريف الأسماء ـ طبعة ١٩٤٩م].

منصوب ، أى: مُضارَّة للمؤمنين ، والضِّرار: طلبُ الضرر ومحاولتُه جاء فى تفسير القرطبى ، قال علماؤنا[1]: وكلُّ مسجدٍ بُنى على ضِرار أو سُمعةٍ فهو فى حُكْمِ مسجدِ الضرار لا تجوزُ الصلاةُ فيه ، وقالوا: وإذا كان المَسجدُ الذى يُتَّخَذُ للعبادة ، وَحَضَّ الشرعُ على بنائه يُهْدَمُ ويُنزَعُ إذا كان فيه ضررٌ بغيره ، فما ظنُّك بسواه؟ بل هو أحرى أن يُزال ويُهدمَ حتى لا يدخلَ ضررٌ على الأقدم.

وفى الحديث الذى رواه الدارقطنى عن أبى سعيد الخدرى ، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ضَرَرَ ولا ضِرَار ، مَن ضارَّ مسلمًا ضَرَّ اللهُ به ، ومن شاقَّ شاقَّ الله عليه» والضررُ والضِّرارُ بمعنًى واحدٍ ، وقد تكلّم بهما جميعًا على جهة التأكيد ، وقد فرّق بعضُ العلماء بينهما فقالوا: الضررُ: الذى لك به منفعةٌ ، وعلى جارك فيه مَضرة ، والضِّرار: الذى ليس لك فيه منفعةٌ وعلى جارك فيه المضرة.

أمَّا قوله سبحانه: ﴿وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا﴾ بالنصب بالعطف على «ضِرارًا» أى: لأجل الضرر والكفرِ ، والتفريقِ والإرصاد بمعنى: وتقويةً للكفر الذى يُضمرونه ، وتفريقَ كلمةِ المؤمنين الذين كانوا يجتمعون فى مسجد قباء ، فإن من مَقَاصِدِ المنافقين صرفَ بعضِ المؤمنين إلى مسجد الضرارِ ، وتركَ الجماعةِ فى أول مسجدٍ بُنى فى الإسلام وهذا يؤكدُ لنا أن المَقصدَ الأكبرَ والغرضَ الأظهرَ من الجماعة فى الصلاة تأليفُ القلوب ، وجمْعُ الكلمة على الطاعة ، وتصفيةُ النفوس من وَضَرِ الأحقادِ.

أمَّا الإرصاد: فهو الترقُّبُ والانتظارُ ، وكان من مقاصدهم فى بنائه أن

---

(1) أى علماء المالكية.

(١٢١٠)

يُعَدَّ لاستقبال الذى كان يحاربُ اللهَ ورسولَه من قبلِ اتخاذِ هذا المسجدِ وهو «أبو عامر الراهب» الذى سماه الرسولُ ﷺ «الفاسقَ» وقد بَقُوا منتظرين قدومَه ليصلِّىَ فيه ، ويظهرَ على رسولِ الله ﷺ ، وقد تَمَّ هَدْمُ هذا المسجدِ وإحراقُه ، وهلَك أبو عامر بِقِنَّسرينَ بالشام ، وبقى ما أضمروه حسرةً فى قلوبهم.

وكما أرادوا التسترَ ببناء المسجدِ للوصول إلى مآربهم الخسيسة ، فإنهم اتخذوا من الأيمان وسيلةً يُخفون بها قبائحَهم وجرائمَهم ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى﴾ أى: ما أردنا ببناء هذا المسجدِ إلَّا الخَصلةَ الطيبةَ والفِعْلَةَ الحُسْنَى ، وهى العبادةُ والرفقُ بالمسلمين ، والتوسعةُ على المصلين بتقريب المسافة لذى العلَّة والحاجة ، ولـمَّا كان المقصدُ الظاهرُ يُخفى وراءَه نيةً سيئةً بيَّن الله لنبيه والمسلمين خُبثَ ضمائرِهم وكَذِبَهم فيما حلَفوا عليه فقال: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أى: فى حلِفهم ذلك وكفَى بالله شهيدًا.

❊ ❊ ❊

١٨٧- ب- إنَّك لا تجنى من الشَّوك العِنَب (*)

نَهى اللهُ عزَّ وجلَّ نبيَّه ﷺ عن الصلاة فى المسجد الذى بُنِى لتفريق كلمةِ المؤمنين ، وتمزيقِ وحدتِهم ، ولتقوية الكفرِ وتمكينِ أهلِه من إظهار ما فى نفوسهم من ضلال ، وليتمكَّنوا من تدبير الكيدِ فيه للمسلمين تحت ستارِ العبادة والصلاة ، وهم أهلُ نفاقٍ وشقاقٍ ، قال الله عز وجل:

﴿لا تَقُمْ فِيه أَبَدًا﴾ [التوبة:١٠٨]

أى: يا محمدُ لا تُصَلِّ فى مسجد الضرارِ أبدًا ، هذا المسجدُ الذى بناه المنافقون ضِرارًا وكفرًا وتفريقًا بين المؤمنين ، ومركزًا لاستقبال رسائلِ وأعوانِ أبى عامرٍ الراهب الذى حارب اللهَ ورسولَه ، وكان يُعِدُّ العُدَّةَ للانقضاض على المسلمين فى المدينة عن طريق هذا المركزِ ، وأعوانِه فيه بعد أن يَستكمِلَ أُهبتَه فى بلاد الروم.

وقد عبَّر فى الآية الكريمةِ بالقيام عن الصلاة ، كما فى قولنا: فلانٌ يقوم الليلَ ، ومنه الحديث الذى أخرجه البخاريُّ ورواه أبو هريرة: «مَن قام رمضان إيمانًا واحتسابًا غُفِر له ما تقدَّم من ذَنبه» لأن القيامَ أحدُ أركان الصلاةففيه مَجازٌ مُرسَلٌ من التعبير بجزءِ الشىءِ عن كلِّه ، وذلك كما يُعَبَّر بالركوع عن الصلاة ، كما فى قوله تعالى من سورة البقرة:

﴿وارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعين﴾ [الآية:٤٣]

أى: صَلُّوا مع المصلين.

ثم بَيَّن اللهُ عز وجل فضيلةَ مسجدِ قُباء الذى بناه ﷺ وأسَّسه أولَ

(*) هذا مثل يضرب لمن يُسىء ثم يرتقب الإحسان أو لمَن يُقدِّم الشرَّ ويَنتظر فى الجزاء عليه خيرًا، وقد رأيته مناسبًا لعمل المنافقين.

قُدومِه ونزولهِ على بنى عمرو بنِ عوف قبل أن يدخلَ المدينةَ المنورةَ ويَبنىَ مسجدَه فيها ، وحَثَّه على الصلاة فيه فقال سبحانه: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوى من أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيه﴾ [التوبة:١٠٨]

إنه المسجدُ المباركُ الذى وُضِعت قواعدُه ، وأُحكِم بناؤه منذ أولِ يومٍ لوجوده وتأسيسه على الإخلاص ، والخشيةِ من الله ، والرغبةِ فيما عنده من الرحمة والغُفران ، وقد أكدَّت السنَّةُ الشريفةُ فَضْلَه ، فقد ورد عن ابن عمر: أن رسول اللهﷺ كان يزور مسجدَ قُباءَ راكبًا وماشيًا [مسلم وأحمد]

وفى الحديث: «صلاةٌ فى مسجدِ قباءَ كعمرة»

[الراوى أسيد بن ظهير الأنصارى وأخرجه ابن ماجة]

والأُسُّ: أصلُ البناء ، وكذلك الأساس ، و «أُسِّسَ» أى: بُنيت جُدرُه ورُفعت قواعدُه ، يقال: أَسَّ البناءَ وأسَّسه: أى وَضع أساسَه والأساسُ: قاعدةُ البناء التى يُقام عليه ، وأصلُ كلِّ شىء ومبدؤُه ، ويُطلَق التأسيسُ على إحكام البناء.

واللام فى «لَمَسْجِدٌ» لامُ الابتداء ، ومسجِد مبتدأٌ مرفوع ، وجملة «أُسِّس عَلَى التَّقْوَى» فى مَوضِع رفْع صفة لمسجد[1] ، و «أَحَقُّ أن تَقُومَ فِيه» خبرُ المبتدأ ، أى: إن المسجدَ الذى تَمَّ بناؤه على الإخلاص وتقوى الله وطاعته هو أولى وأَحقُّ أن تصلىَ فيه والمؤمنون ، ففى هذا المسجدِ المؤَسَّسِ على التقوى رجالٌ من الأنصار يُحبُّون الله ورسولَه ويُحبُّهم اللهُ ورسولُه ، رجالٌ طَهُرت بواطنُهم بصدق اليقينِ وسلامةِ الدين ، كما طَهُرت ظواهرُهم بِحبِّهم النظافةَ ، وعنايتِهم بطهارة الأبدان

(١) لأن الجمل بعد النكرات صفات، وبعد المعارف أحوال.

فكانوا نِعْم الرجالُ ، وقد أثنى الله عليهم بقوله: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا﴾ [التوبة:١٠٨]

أى: من الأنجاس والأخباث مُطلقًا ، بدنيةً كانت أو عمليةً كالمعاصى والخصالِ الذميمة: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة:١٠٨]

أى: يحب المتطهرين ، ويُدنيهم من جنابِه إدناءَ الـمُحبِّ لحبيبه ، قال أبو العالية: إن الطُّهْرَ بالماء لحَسَنٌ ، ولكنهم الـمُطَهَّرون من الذنوب وفى تفسير المقصودِ بالمتطهِّرين قال الأعمشُ: التوبةُ من الذنب ، والتطهيرُ من الشِّرك ، وقال الحسنُ: هو التطهُّرُ من الذنوب بالتوبة ، ومع طهارةِ الباطنِ والجوارحِ من المعاصى جاء التفسيرُ بطهارة الظاهرِ والعنايةِ بإزالة أثرِ البولِ والغائطِ ، فقد رُوى أن هذه الآيةَ لـمَّا نزلت مشَى رسولُ الله ﷺ ومعه المهاجرون حتى وقَف على باب مسجد قباء ، فجلَس ، ثم قال: «يا معشرَ الأنصارِ إن اللهَ قد أثنى عليكم ، فما الذى تصنعُون عند الوضوء ، وعند الغائط؟ فقالوا: نُتْبِعُ الغائطَ الأحجارَ الثلاثة ، ثم نُتبِع الأحجارَ الماءَ ، فتلا الآية: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا﴾ من حديث أخرجه ابن ماجةَ والحاكم. وفى لفظ عند أصحاب السنن: «نستنجِى بالماء» وفى رواية ابن عباس عند البزَّار فقالوا: «نُتْبِعُ الحجارةَ الماءَ» ، وقيل: كانوا لا ينامون الليلَ على الجنابة ، ويُتبعون الماءَ أثرَ البول.

وفى قوله سبحانه: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ دليلٌ على استحباب الصلاةِ فى المساجد القديمةِ المؤسَّسةِ من أول بنائِها على عبادة اللهِ وحده لا شريكَ له ، وعلى استحباب الصلاةِ مع جماعةِ الصالحين ، والعبادِ العاملين ، المحافظين على إسباغ الوضوء والتنزُّهِ عن ملابسة القاذورات.

وقد اختلف العلماءُ فى المسجد الذى جاء فى مُقَابلَةِ مسجدِ الضرار فقالت: طائفةٌ هو مسجد قُباء ، وفى ذلك وردت الآثار ، وعليه جَمْعٌ من الصحابة والتابعين ، وقال آخرون: هو مسجدُ رسولِ اللهِ ﷺ بالمدينة وقد ورد فى ذلك بعضُ الآثار ، منها ما جاء عن أبى سعيد الخدرى وأخرجه الترمذىُّ أن رسول اللهِ ﷺ قال: «هو مسجدى» حين سُئل عن ذلك ، والأولُ عند بعضِ أهلِ العلم أشهرُ وأوفقُ للقصة ، إِذ المسجدُ بِقُباء ، فالموازنةُ بينهما أَولى من الموازنة بين ما بِقُباء وما بالمدينة ، وقال الحدادى: لا يمتنعُ أن يكونَ المرادُ بالمسجد الذى أُسس على التقوى كلا المسجدين مسجدِ النبى عليه الصلاة والسلام ، ومسجدِ قباء.

الإخلاص روح العمل:

ثم أكَّد السياقُ فى قصة مسجد الضرارِ فضْلَ الإخلاص ، وأنه روحُ العمل ، وبفضل إخلاص النية فى العبادة يُرفَع العملُ الصالحُ ، ويصعدُ إلى الله بإذنه وتوفيقه ، ويكون العملُ نورًا لصاحبه وأهلِه ، أَمَّا النيةُ الخبيثةُ فهى مُحبطة للأعمال ، مضيِّعةٌ لبركاتها ، ولنتدبر قوله تعالى:

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ [التوبة: ١٠٩]

والهمزةُ للاستفهام الإنكارى ، والفاءُ للعطف على مُقدَّر ، أى: أبعد ما عُلم حالُهم ، فمَن أَسس بنيانَ دينِه على تقوى اللهِ وطاعتِه وطلبِه رِضوانَه خيرٌ أم مَّن أَسَّس بنيانَ دينِه على ضلالٍ وكفرٍ وعلى النفاق؟ والكلامُ على التمثيل.

والتأسيسُ: وضْعُ الأساس ، وهو أصلُ البناء وأولُه ، والبنيانُ: مصدر كالغُفران وقد استُعمل بمعنى اسم المفعول ، أى: الـمَبنىُّ ، والمرادُ من

الرِّضوان طَلَبُه بالاشتغال بالطاعة على سبيل المَجَاز[1] ، و «مَنْ» اسمُ موصول بمعنى الذى ، وهى فى موضع رفع بالابتداء ، وخبُره «خَيْر» وفى الكلام استعارةٌ مكنية ، حيث شُبِّهت فيه التقوى بقواعد البناء تشبيهًا مُضمرًا فى النفس ودَلَّ عليه ما هو من لوازمه وروادِفه ، وهو التأسيسُ والبنيانُ.

والشَّفا: هو حرفُ الشىءِ وطَرَفُه وشَفيرُه ، والجُرُف بضمتين: البئرُ التى لم تُطْوَ ، أو الهُوَّةُ ، أو المكانُ الذى يَجرِفُه الماءُ ويذهبُ به والمراد أنه مكانٌ لا يَثْبُتُ عليه بناءٌ لضعْفه وعدمِ تَمَاسُكه ، و«هَارٍ» أى هائرٌ ساقطٌ ، يقال: هارَ البناءُ إذا سقَط ، أو هو متصدِّعٌ مُشْرِفٌ على السقوط وهو نعتٌ لـجُرُف ، وقد مُثِّل بناءُ الدين على الباطل بالبناء على شفا جُرُف هار ﴿فَانْهَارَ بِهِ﴾ أى فسقَط الـجُرُف بالبنيان مع المبانى ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ قال الحدادى: كما أنَّ مَن بَنى على جانب نهرٍ صِفَتُه ما ذكرنا انهار بناؤُه فى الماء ، فكذلك بناءُ أَهْلِ النفاقِ مسجدَ الشِّقاقِ كبناءٍ على حَرْفِ جهَنَّم يَهُور بأهله فيها.

ويقول صاحبُ الكشاف والبيضاوىُّ فى تفسير هذا التمثيل: والمعنى: أفمَن أَسَّس بنيانَ دينِه على قاعدةٍ قويةٍ مُحكَمةٍ وهى الحقُّ الذى هو تقوى الله وطلبُ مرضاتِه بالطاعة ﴿خَيْرٌ أَم مَّن﴾ أَسسه على قاعدةٍ هى أضعفُ القواعدِ وأرخاها وأقلُّها بقاءً ، وهو الباطلُ والنفاقُ الذى مثلُهُ مَثَلُ

---

[1] أى المجاز المرسَل بإطلاق المسبَّب وإرادة السبب لأن الرضوانَ مُسَبَّب عن الاشتغال بالطاعة أى أفمن أسس مبنيَّه على خشية من اللهِ وطلبِ مرضاته بطاعته، كقوله: ﴿وَمَا أنزلَ اللهُ من السّماء من رزقٍ فأحْيا به الأرضَ بعْد موتِها﴾ أى من مطرٍ فأطلق المسبَّب وأُريد السببُ وسُمِّىَ المطرُ رزقا لأنه سببُ الرزق.

﴿شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ فى قِلَّةِ الثباتِ والاستمساك ﴿فَانْهَارَ بِهِ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ فأدَّى به خَوَرُه ، وقلةُ استمساكِه إلى السقوط فى النار.

وقد وُضع شَفَا الـجُرُفِ ـ وهو ما جرَفه الوادى ـ الهائرِ فى مقابَلةِ التقوى تمثيلًا لِمَا بَنَوْا عليه أمرَ دينِهم فى البُطلان وسرعةِ الانطماس.

يقول الزمخشرى: «فإن قلتَ: فما معنى قوله ﴿فَانْهَارَ بِهِ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ قلتُ: لـمَّا جُعِلَ الـجُرفُ الهائرُ مجازًا[1] عن الباطل قيل: فانهار به فى نار جهنَّمَ ، على معنى فطاح به الباطلُ فى نار جهنم ، إلاَّ أنه رَشَّح المجاز[2] ، فجىء بلفْظ الانهيار الذى هو للجُرف ، وليُصَوِّرَ أن الـمُبطِلَ كأنه أَسَّسَ بنيانًا على شفا جُرف من أودية جهنَّم ، فانهار به ذلك الـجُرفُ ، فهوى فى قعْرها ، ولا ترى أبلغَ من هذا الكلام ، ولا أدلَّ على حقيقة الباطل وكُنْه أمرِه ـ منه ـ»

وفى تعليق القرطبى قال: وهذه الآيةُ ضَرْبُ مَثَلٍ لهم ، أى: مَن أَسَّس بُنيانَه على الإسلام خيرٌ أم مَّن أسس بنيانَه على الشرك ، والنفاق وبَيَّن أنَّ بناءَ الكافرِ كبناءٍ على جُرفِ جهنمَ يتهَوَّرُ بأهله فيها.

وفى تفسيرٍ آخرَ للمثل جاء فى روح المعانى: مَثَّلَ حَالَ مَن أخلص لله تعالى وعَمِلَ الأعمالَ الصالحةَ بحالِ مَن بنى بناءً مُحكمًا يستوطنُه

---

(١) ففى الكلام استعارةٌ تصريحية: إذ شُبِّه الباطلُ والنفاقُ بشفا جُرف هار، فى قلة الثبات ثم استُعير لذلك، والقرينة المقابلة بين المتضادين المقصودين وفى قوله ﴿فانهار به فِى نار جهنم﴾ ترشيح للاستعارة.

(٢) الترشيح: للاستعارة عند علماء البيان هو: ذكرُ ما يلائم المشبَّه به، تقويةً للاستعارة ومثال آخر: سَلمتُ على بحرٍ يفيض، فالبحر مستعار للرجل الكريم ويفيض مما يلائم البحر ففيه تقوية لها.

ويتحصنُ به ، ومَـثَّل حالَ المنافق بحالِ مَن بنى بناءً غيرَ مُحْكَم على طرفِ بئرٍ مُتصدِّعٍ فما يُوشك إلا أن ينهارَ ويسقطَ فى الهاوية ، فالأول: بناؤُه يَقيه مِمَّا يخاف ويحذر ، والآخرُ: بناؤُه لا يحفظُ ولا يَقى ، ويُؤدِّى صاحبَه إلى الهلاك.

ومن العلماء من قال فى قوله تعالى: ﴿فانهارَ بِهِ فِى نَارِ جهنَّمَ﴾ إنَّ ذلك على سبيل الحقيقة ، لأن النبىَّ ﷺ لـمَّا أَرسل إلى المسجد فهُدِم رُؤى الدخانُ يخرجُ منه ، وعند ابن جرير الطبرى عن جابر بنِ عبدالله: رأيتُ المسجدَ الذى بُنى ضِراراً يخرجُ منه الدخانُ على عهد النبىِّ ﷺ وفى التعليق على الأخبار الواردةِ فى ذلك يقول الألوسى(١): وأنت تعلمُ أنى والحمدُ لله تعالى مؤمنٌ بقدرته سبحانه على أتمِّ وجْه ، وأنه تعالى جلَّ جلالُه فعَّالٌ لِمَا يُريد ، لكنِّى لا أُومن بمثل هذه الظواهرِ ما لم يَرِد فيها خبرٌ صحيحٌ عن رسول اللهِ ﷺ.

وفى ختام الآيةِ يُبيِّن اللهُ سبحانه أنه لا يُصلِحُ عملَ المفسدين من هؤلاء المنافقين وأضرابِهم من ذوى العقائد الباطلة ، والنوايا الخبيثة فقال: ﴿وَاللهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِين﴾ إنهم ظلموا أنفسَهم باختيارهم الضلالةَ وإِصرارهم على الشرك والنفاق والكفرِ ، والظلمُ فى الحقيقة: وَضْعُ عبادة الدنيا ومحبتِها والحرصِ فى طلبها فى موضعِ عبادةِ اللهِ تعالى ومحبتِه والصدقِ فى طلب مرضاته.

ثم فى الأثر النفسىِّ الذى خَلَّفه هَدمُ مسجدِ الشقاقِ والضرارِ وإحراقُه

(١) صاحب: روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى المتوفى عام ١٢٧٠م.

فى نفوسهم يقول سبحانه: ﴿لا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِى بَنَوا رِيبَةً فِى قُلُوبِهِم إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلوبُهُم﴾.

و«رِيبَة» أى شكًّا فى الدين ونفاقًا، وكان القومُ منافقين، وإنما حملَهم على بناء هذا المسجدِ كُفرُهم ونفاقُهم، فلمَّا هدَمه الرسولُ ﷺ ازدادوا تصميمًا على النفاق ومقتًا للإسلام لِمَا غاظهم من إحراقه وهدْمه وعَظُمَ على نفوسهم المريضة، فالمعنى: لا يزالُ هَدْمُه سببَ شكٍّ ونفاقٍ زائدٍ على شكِّهم ونفاقِهم لا يزول وَسْمُهُ عن قلوبهم، ولا يضمحلُّ أثرُه ﴿إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قلُوبُهم﴾ قِطعًا وتُفَرَّقَ أجزاء فحينئذ يَسْلُون عنه، فأمَّا ما دامت سالمةً مجتمعةً فالريبةُ باقيةٌ فيها متمكنة، فيجوز أن يكونَ ذِكْرُ التقطيع تصويرًا لحالِ زوالِ الرِّيبة عنها، ويجوزُ أن يُرادَ حقيقةُ تقطيعها وما هو كائنٌ منه بقتْلِهم أو فى القبورِ أو فى النار.

والبنيان: مصدر أريد به المفعول: أى لا يزال مسجدُهم مَبْنيًّا أو مهدومًا سببَ ريبةٍ وشكٍّ فى الدِّين كأنه نفسُ الريبة ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أى: عالمٌ بما يَشرع «حكيمٌ» فيما حكَم وأَمَر من هَدْم مسجدهم وإِظهارِ نفاقِهم.

نسألُ الله سلامةَ الدين وصِدْق اليقين

❊ ❊ ❊

(١٢١٩)

من سورة الإسراء :

١٨٨ - أ - نعوذ بالله من انصراف القلوب عن الهدى

الحمد لله الذى أنزل القرآنَ هُدى ونوراً ، وأرسل به رسولَه الأعظمَ مبشرًا ، ونذيرًا ، فبلَّغ الرسالة ، وأدَّى الأمانة ، وأنقذ من الضلالة وبصَّر من العمى .

قال الله عز وجل لنبيه الكريم ﷺ :

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرآنَ جعَلْنَا بيْنَكَ وبَيْنَ الَّذينَ لا يُؤْمنُونَ بِالآخِرَةِ حجَابًا مَّسْتُورًا * وَجَعَلْنَا عَلى قُلُوبِهِم أَكنَّةً أَن يَفْقَهُوه وَفِى آذَانِهِم وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ ربَّكَ فِى الْقُرآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِم نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥، ٤٦]

المعجزة الكبرى :

القرآنُ الكريمُ كلامُ ربِّ العالمين ، نزل به الروحُ الأمينُ على قلب خاتَمِ النبيين بلسانٍ عربىٍّ مُبين ، وكان قومُه أئمةَ البيان ، وفرسانَ الفصاحة ، وأعلامَ البلاغة ، فبهرهم القرآنُ بآياته البيِّنة ، وحُججِه الدامغة ، وبراهينه الساطعة ، وحكَمه البالغة ، وأخبارِه الصادقة وأدهشتهم فصاحةُ لفْظه ، ورصانةُ نظْمه ، وسموُّ بلاغته ، وروعةُ أسلوبِه ، وأدركوا أنه ليس من كلام الإنس ، ولا من كلام الجن ، وأن له حلاوةً ، وأنَّ عليه طلاوةً ، وأنه يعلُو وما يُعلى - عليه - ، وأيقنوا أنه كلامُ ربِّ العالمين ، وأن الذى بلَّغه صادقٌ أمين ، فهو أُمىٌّ ، من أمة أُمية لم يعرفْ الكتابة ، ولم يقرأ المكتوب ، ولم يَختلفْ إلى معلِّم ، ولا سبيلَ له ولا لغيره من فصحاءِ العربِ إلى الإتيان بشىء من مِثل القرآنِ الكريم ، فخضعت أعناقُ فصاحتِهم أمام آياتِ إعجازِه ، وتطأمنت

كبرياءُ بلاغتِهم ، فخرُّوا له ساجدين ، وأذعنوا مقرِّين ، فمنهم مَن آمن ومنهم مَن كفر ، وقد جحد عنادًا ، وأبى استكبارًا ، فكان من المخذولين من كلِّ مَن آمن عقلُه وحسُّه ، وكفَر قلبُه ، وكأنَّ حِجابًا ساترًا قام أمام القلبِ فلم يصِل إليه دعاءُ الداعى إلى الله ، أو كأن هذا القلبَ قد غُشِّى بأغطية منعته من فهم ما يُتلى ، لقد اختاروا الضلالةَ فخذلهم الله.

كان الأَولى بأهل العقلِ أن يتدبروا ، ولا يتعنَّتوا ، وكان الأليقُ بهم أن ينظروا فى أحوال الداعى ، وأن يُذعنوا بالقلب والعقْل للبرهان كما فعل وفدُ الجِن حين استمعوا القرآنَ ، وقد أثنى اللهُ عليهم لحُسن إصغائِهم وتدبرِهم ، ثم قيامِهم بالدعوة إلى ما هُدوا إليه من الخير ولنتدبر قولَه تعالى من سورة الأحقاف: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ۞ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِل مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِى إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ۞يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِىَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ...﴾ [الآيات: ٢٩-٣١]

وفى هذه القصةِ: توبيخٌ لكفار مكةَ ، إذ إنهم كفروا بالقرآن وجحدوا أنه من عند الله ، وهم أهلُ اللسانِ الذى نَزل به الكتابُ العزيز ، ومع ذلك عجَزوا عن معارضته ، كما أنهم من جنس الرسولِ الذى جاء به فما بالُ الجِنِّ يستمعون إليه ، ويُحسنون الإنصاتَ والتدبرَ ، وتنفعلُ قلوبُهم به خشوعًا وانبساطًا ، فبادروا إلى الإيمان بمجرد سماعِه ، وأنتم أيها المتعنتون من قريش تُولُّون الأدبارَ حين تسمعون أدلةَ التوحيد وبراهينَ الإيمان ، تفعلون ذلك حسدًا وكبرًا؟!.

وفى سورة الإسراء سَلَّى الله نبيَّهﷺ ، وَقرَّع المعاندين ، ووبَّخ المكابرين لسوء تدبرِهم ، وشدةِ نفورِهم من الحق:

فضرب اللهُ مثلاً للصوارف المعنويةِ التى تَصرِفُ قلوبَ هؤلاء المتعنتين عن الإنصات الى الداعى والتأملِ الصحيح ، وعن التدبر الذى يَهدى إلى الإيمان ، مَثَّل ذلك: بالحجاب الساترِ الذى يَحجُبهم عن فهْم ما يتلوه عليهم ، وبالأكِنَّة وهى الأغطيةُ التى تُكِنُّ مَن فيها وتُغَطِّيه ، ولا تمكِّنُه من الشعور بما وراءها ، فتحجُبه عن نور الشمس ، وعن رؤية ما فى مدى البصر من أشياءَ ، أى تمنعُ القلوبَ عن إدراك الحق ، ورؤيةِ أنواره ، فهى محرومةٌ من الفهم لِمَا ينفعُها ، ومن الوعى لما فيه خيرُها ونجاتُها ، ثم مَثَّلها بالوقر الذى يُحْجَبُ به السمعُ عن أصواتٍ كثيرة أى: كأن فى أسماعهم وقْرًا وَثِقَلًا وصَممًا ، يمنعهم عن سماع الداعى والإصغاءِ إلى آى القرآن.

إن انصرافَ إراداتِهم عن الاستجابة للحق تسبَّب فى حَجْبهم عن الخير وحرمانِهم من فهْم ما أُنزل عليهم من الآيات لاختيارهم الضلالةَ ، وفى حجْب قلوبِهم عن نور الإيمان وحلاوةِ اليقين ، وعن أنْ تفقهَ معانىَ القرآن ، وعن إدراك مراميه ، وقبولِ ما جاءهم به ، كما تَسبَّب اختيارُهم الضلالةَ فى حجْب آذانهم عن سماع هذه الآياتِ سماعَ تدبرٍ وإنعامٍ فكأَنَّ فى آذانهم وقْرًا وثِقَلًا من نوع خاصٍّ يَحجُب عن سماع الداعى ، والإنصاتِ إلى آيات الله.

فَمَثَلُ غفلةِ هؤلاء ونُفورِهم عن الداعى وجهلِهم بشؤونه كَمَثَلِ الحجابِ الساترِ الذى يحولُ بينهم وبينهﷺ ، ومَثَلُ الصوارفِ المعنويةِ لقلوبهم عن فهم آيات الله كمثَلِ الأكِنَّة ، ومَثَلُ الصوارفِ المعنويةِ

لآذانهم عن الإنصات والسماعِ سماعَ تدبرٍ كمَثَلِ الوقْر.

فتأمل: دقةَ التصوير ، وصدقَ المماثلةِ بين الممثَّلِ به والممثَّلِ له ، مع الإيجاز البديع ، والإعجاز: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ﴾ أى: يا محمدُ ﴿جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ أى ذا سِترٍ أو على أنه بمعنى فاعل أى: ساترًا ، وأصلُ الحِجاب: كالحَجْبِ وهو المنْعُ من الوصول ، فهو مصدرٌ أُريدَ به الوصفُ أى: حاجبًا ، وقد خُصَّ بالذكر كفرُهم بالآخرة فى هذا المقامِ من بين سائرِ ما كَفروا به من التوحيد ونحوه تمهيدًا لما سيُنقلُ عنهم من إنكار البعث واستعجالِه ونحوِ ذلك مِمَّا يوضِّحُه سياقُ السورة كقوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٤٩]

قال قتادة: الحجابُ المستورُ: هو طَبْعُ اللهِ على قلوبهم حتى لا يفقهوه ولا يُدركوا ما فيه من الحكمة.

وقال الحسنُ: أى إنهم لإعراضهم عن قراءتك ، وتغافلِهم عنك كمَن بينك وبينه حجابٌ فى عدَم رؤيتهِ لك حتى كأنَّ على قلوبهم أغطيةً ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ والأكنَّة: جمْع كِنان وهو الغطاءُ وكلُّ شىءٍ يَقى شيئًا ويستُره ، والأَكِنَّةُ: الأغطيةُ الساترةُ الواقية ، والأكِنَّةُ والأكنانُ جمع كِنٍّ وهو: كلُّ ما يَرُدُّ الحرَّ والبردَ من الأبنية ونحوها وهذا تمثيلٌ لتجافى قلوبِهم عن الحق ونُبوِّها عن قبوله كأنها فى غُلُفٍ وأغطية تحولُ بينها وبينه وتمنعُ من نفوذه ، وقد نُزِّلتْ الأكنةُ منزلةَ الـحُجبِ المعنويةِ فكأنها هى.

﴿وَفِى آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ والوقْر: المرادُ به الصممُ أو الثِّقَلُ تقول: وقَرتْ

أذنُه تَوْقَر وقْرًا[1] وقد نُزِّلَ الوقْرُ منزلةَ الحجاب المعنوىِّ للسمع، فكأنه هو ولقد بُنيت الأحكامُ على الـمَثَل كأنه عينُ الـمُمَثَّل له.

وفى بيان هذا المثلِ يقول بعضُ المحققين كما فى روح المعانى «ونقله بعبارة فيها تصرف الشيخ حسنين مخلوف فى صفوة البيان»: بعد أن بين اللهُ سبحانه عدمَ فِقه هؤلاء الكافرين الجاحدين للبعث دلالةَ الـمُحْدَثَات على صانعها وعلى وحدانيته وقدرته: مَثَّلَهم فى كمال جهلِهم بشئونه ﷺ وبصدقِ رسالته، وفرطِ نُبوِّ قلوبهم عن فهْم القرآن، ومَجِّ أسماعهم له - مَثَّلهم - بمَن أُقيم حجابٌ ساترٌ بينه وبين مخاطِبِه، وجُعِلت على قلبه أغطيةٌ تَحولُ دون فهْم كلامِه، وصُمَّت آذانُه صَممًا ثقيلاً يمنعُ من سماعه، فهو لا يَرى، ولا يفقَه، ولا يسمع. «انتهى كلامه»

ولـمَّا كان القرآنُ العظيمُ معجزًا من حيث اللفظُ والمعنى أثبت مساقُ الآياتِ لمنكريه ما يمنعُهم عن فهْم المعنى حقَّ فهمِه، وإدراكِ اللفظ حقَّ إدراكه، فقال جَلَّ شأنُه: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى الْقُرْآنِ وَحْدَهُ﴾ أى: واحدًا غيرَ مشفوعٍ به آلهتُهم، أى إذا قلت: لا إِلـهَ إلَّا اللهُ، وقيل هو قوله: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَلَّوْا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ أى: هربُوا ورجعُوا حالَ كونهم نافرين، ويجوز أن يكون «نُفُورًا» مصدرُ الثلاثىِّ «نَفَر» ويُعرب مفعولاً مُطلقًا مؤكِّدًا للفعل «وَلَّوْا» لأنه متضمنٌ معنى نَفَروا، فيكون المعنى: نَفَروا نفورًا، وفيه حركةٌ تدلُّ على الإعراض الشديد والخذلان الأشدِّ والعياذُ بالله من فقدان التوفيقِ للخير والحق والهُدى؛ فإن ذلك خَسارةٌ ما فوقها خسارة، نسأل اللهَ سلامةَ الدين

(١) الثقل: يراد به خفة السمع، أما الصمم فيذهب معه السمع كله، وفى قولنا: فى أذنه ثقل أو وقر كناية عن الصمم.

وصحةَ اليقين.

قال أبو الجوزاء: ليس شىءٌ أطردَ للشيطان من القلب من قول: لا إله إلاَّ الله ، ثم تلا الآية: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى القُرآنِ وَحْدَه ولَّوا عَلَى أَدْبَارِهِم نُفُورا﴾

ثم أخبر اللهُ نبيَّهﷺ أنه سبحانه أعلمُ بما يُضمره هؤلاء المتعنتون من الشر فى نفوسهم ، وبما يُبدونه فيما بينهم سرًّا من الهُزء والاستخفافِ حين يسمعون الداعِىَ يحثُّ على إحياء القلوب بنور الإيمان ، وعلى طهارة النفوس من الشرك ، والإلحاد ، ويحض على النظر فى البراهين وفى الآيات الدالةِ على وحدانية الله وتفردِه بالإلهية والربوبية ، ويتضمنُ ذلك معنى التهديدِ للمعاندين ، والبشرى بالنصر، والتأييد لرسول اللهﷺ ولنتدبر: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوى﴾ أى: نحن أعلمُ بالحالة التى يستمعون بها إليك يا محمدُ ، وهى حالةُ الاستهزاء والإعراضِ والإنكارِ والتكذيبِ ، حين تدعوهم إلى التوحيد وتُسمِعُهم دلائلَه ، وحين تحثُّهم على الإيمان باليوم الآخر ، ونحن أعلمُ بما يتناجَون به سرًّا فيما بينهم عنك وعن دعوتك ، وذلك ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ ظرفٌ لأعلمُ ، وفائدتُه تأكيدُ الوعيد والتهديد ، وكذلك قولُه: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوى﴾ أى: نحن أعلم بغرضهم من الاستماع حينَ هم مستمعون إليك مُضمرون لغرضهم ، وقد انطوت نفوسُهم على الشر وحين هم ذوو نَجوى يتناجَون فيما بينهم بما فى نفوسهم ، ونجوى: مصدر.

قال قتادة: كانت نجواهم قولهم: إنه مجنون ، وإنه ساحر ، وإنه يأتى بأساطير الأولين وغير ذلك.

ثم بينت الآيةُ أن تناجيَهم بقولهم إنه مسحورٌ ، هو من باب الظلم

والمسحورُ هو الذى سُحر فزال عقلُه ، ولنتدبر: ﴿إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الإسراء: ٤٧]

ووُضِع «الظَّالِمُون» موضع الضمير ، للدلالة على أن هذا القولَ منهم ظلمٌ وتجاوزٌ عن الحد ، وفيه دليلٌ على أن ما يتناجون به غيرُ ما يستمعون به ، أى: يقول كلٌّ منهم للآخرين عند تناجيهم ﴿إِن تَتَّبِعُونَ﴾ أى ما تتبعون إن وُجِد منكم الاتباعُ فرضًا ﴿إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ أى: سُحر فَجُنَّ ، فمِن ظُلمِ هؤلاء وتعدِّيهم أنهم وضَعوا اسمَ المسحور موضع المبعوث.

وقد قال الله لنبيِّه للتعجيب من شأن هؤلاء المتعنتين: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾. [الإسراء: ٤٨]

أى: كيف يتأتى لعاقل أن يصفَ نبيًّا مرسلًا من عند الله اصطفاه ربُّه وكمَّله وأدَّبه بأنه مسحور؟ إن المجنون حقًّا هم أولئك الذى أبَوا قبولَ الحق واتباعَ النبى ﷺ ، كما قال سبحانه من سورة القلم: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝ بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ﴾ [٥و٦]

أى: فى أىِّ فريقٍ منكم: الذى فُتن بالجنون؟ وفى أيهما يُوجد مَن يستحق هذا الوصف؟ أفى فريق الكافرين أم فى فريقِ المؤمنين المهتدين؟.

إن الذى ينصرفُ عن البرهان ، ولا ينظرُ فى الدليل نظرَ إنعامٍ، وتدبرٍ ولا تنفعه العظةُ ، ولا يتبع الهدى حسدًا وكبرًا هو الخاسر الضال.

نسأل اللهَ سلامةَ الدين وصحةَ اليقين ، والكلام متصل.

❄ ❄ ❄

١٨٩ - ب - حوارٌ وإقنـاع

كان رسولُ الله ﷺ يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويُقدِّمُ الدليلَ والبرهان ، ويخاطبُ الناسَ بما يَفْهَمون ، ويَلفِتُهُم إلى آيات الله فى الكون ، وبراهينِ قدرته فى النفس ، ويَضرِبُ لهم الأمثالَ لِيدلَّهم على الغائب بالمشاهَد ، ويُقَرِّبَ البعيد ، ويَجْعلَ الـمُدْرَكَ بالعقل كأنه ماثلٌ أمام الحسِّ والعِيان ، وفَنَّد ﷺ شبهاتِ المشركين والملحدين فيما يتصلُ بأُمَّهات المسائلِ لتصحيح العقائد ، وتنقيتِها من الشوائب ، وأَزال بما أُوحى إليه كلَّ شَكٍّ ، ودحَض كُلَّ شُبهة ، فيما يتعلق: بالإلهيات والنبوَّاتِ ، والبعثِ والجزاء ، والقضاء والقدَر ، وخاطَب العقْلَ بالأدلة الساطعة ، والبراهينِ القاطعة، بما لم يَتْرُكْ لمعاند مجالًا للردِّ عليه، أو تكذيبِه.

ووَاجَه ﷺ فى فَجْرِ الدعوةِ حملةَ تشكيكٍ قادَها الحاسدون والمتكبِّرون من أهل مكةَ لِيَصدُّوا الناسَ عنه ، ويصرِفُوهم عن الاستماع إليه واستعانوا على ذلك بكلِّ سهْمٍ فى كِنَانةِ مكْرِهم وخُبْثِهم ودَهائِهم ، ومن وسائلهم أَنَّهم مَثَّلُوه بالساحر والكاهنِ والشاعرِ والمجنونِ ، فبرَّأَه اللهُ مِمَّا قالوا ، وعَجَّبَ رسولَه ﷺ من صَنيعهم فقال له من سورة الإِسراء:

﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾

[الآية: ٤٨، وسورة الفرقان: ٩]

أى: ضَلُّوا وتحيَّروا فى جميع ما حاولوه ضلالَ مَن طَلبَ فى التِّيه طريقًا يسلُكه فلا يقدرُ عليه ، فهو متحيِّرٌ فى أمره ، لا يَدرى ما يصنع؟.

وفى تعليق الشيخِ أحمدَ المراغىِّ فى تفسيره: أى: تأمَّل وانظُر أيها الرسولُ ، كيف مَـثَّلوا لك الأمثالَ ، وشَبَّهوا لك الأشباهَ ، فقالوا: هو

مسحورٌ، وهو شاعرٌ ، ومجنونٌ ، فحادوا فى كلِّ ذلك عن سواء السبيل ، ولم يهتدوا لطريق الحقِّ ، لضلالهم عنه ، وبُعْدهم منه.

وفى هذا من الوعيد للمشركين ، وتسليةِ الرسولﷺ ما لا يَخفَى.

أَتمُّ الناس أدباً وعقلاً :

لقد كانﷺ أحسنَ الناسِ خُلقًا كما أثنى عليه ربُّه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]

وفى كمال عقله ، وتمامِ أدبه، وعِظَمِ حِلْمه، يقول صحابىٌّ جليل له:

خُلِقْتَ مُبَرَّأً مِن كلِّ عَيبٍ كأنك قد خُلقتَ كَما تَشاء

وفى الثناء على أخلاقهﷺ قال حسانُ بنُ ثابت فى رثائه:

وما فَقَدَ الماضون مِثْلَ مُحمد ولا مِثْلُه حتى القيامة يُفْقَد
أَعفَّ وأوفى ذمةً بعد ذمَّـــةٍ وأقـربَ منـــه نائلاًلا يُنكَّد(١)
وأبذلَ منه للطَّريـــفِ وتالدٍ إذا ضَنَّ معطاءٌ بما كان يُتْلَد(٢)

وقال العلماء: وهَبَ اللهُ تعالى نبيَّه محمداًﷺ من رَجاحة العقلِ وبراعةِ العلم ، وسَعةِ الحلم ، وحميدِ السير ، وجميلِ المآثر ، ونورِ الوجْهِ ما أغنى كثيرًا عن طلَب مُعجزةٍ تدلُّ على صِدْقه ، وآمن بمجرَّد رؤيته ، ومن ذلك قولُ عبدِ الله بنِ سلام: جئتُه ـ حين وصل المدينة ـ لأنظُر إليه ، فلمَّا استبنتُ وجهَه ، عرفتُ أن وجهَه ليس بوجهِ كذابٍ وقال أبو رِمْثَةَ التميمىُّ: أتيتُهﷺ ، فلمَّا رأيته ، قلتُ: هذا نبىٌّ!.

فكيف يكون ـ إذن ـ شأنُ مَنْ شَاهَد أخلاقَه ، وعَرَف أحوالَه ، فى

---

(١) لا يُنكَّد: أى: إن عَطاءه لا يُكدَّر بالمَنِّ الذى يُفْسِدُ النائلَ والمعروف.

(٢) التليد ضدّ الطريف الذى هو المالُ المستحدَث، والتالد: المال القديم الموروث، ويُتلد: يُكتسَب قديمًا.

مكةَ المكرمة قبل البعْثةِ[1] وبعدها؟ لقد أجمعوا على أنهﷺ أكملُ الناسِ عقلًا، وأعفَّهم، وأصدقُهم، وأصفاهم نفسًا، وأعلاهم همةً، وأعظمُهم أمانة، وما كان لقبُه فيهم إلَّا الصادقَ الأمينَ، فلمَّا أكرمه اللهُ بالوحْى وزانَه بالنبوة، كَمُلَت صفاتُه، وتَمَّت حُسْنًا خلالُه.

لهذا لم يجدْ عتاةُ المشركين حيلةً فى صدِّ الناسِ عنه، ولا وسيلةً للطعن فيهﷺ، لأن الناسَ عَرَفُوه بخلاف ما قالوه عنه من: السِّحر والشعرِ والكذِب والكهانةِ وغيرِها، فكانت صفاتُه وأخلاقُه أعظمَ مِن أن ينالَ منها الحاسدون والمتكبرون فباءت حملتُهم بالفشل، ويَجِدُ المتدبر الإشارةَ إلى هذا فى قوله تعالى: ﴿فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾ أى تحيَّروا فلم يَجِدوا وسيلةً للطعْن والتشكيكِ إذْ كان هناك إجماعٌ على التسليم بتمام أدبِه، وكمالِ خُلقه، وسلامةِ نفسهﷺ.

وكما ضربوا الأمثالَ للتشكيك فى القرآن الكريم، والطعنِ عليهﷺ كذلك ضربوا الأمثالَ للتشكيك فى البعث واستبعادِ إعادةِ الحياة إلى الأموات بعد ما صاروا عِظامًا ورُفَاتًا، وفى مواقفَ نابضةٍ بالحركة والصوتِ يُقدِّم لنا السياقُ من سورة الإِسراءِ هذا الحوارَ: ﴿وَقَالُوا أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا۝قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا۝ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيبًا۝يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الآيات: ٤٩-٥٢]

(١) البعثة: بكسر أوله مصدرٌ يدلُّ على الهيئة من «بَعَث» وبفتح أوله مصدر يدل على المرة منه - أيضا - [واسم الهيئة يصاغ من الفعل الثلاثي على «فِعلَة» بكسر أوله وسكون ثانيه، وجاء نادرًا من غير الثلاثى مثل - عِمَّة مِن اعتمَّ]

استبعد منكرو البعثِ أن تُعاد الحياةُ إلى العظام بعد ما بَلِيتْ وصارتْ ترابًا ، وجاء التعبيرُ عن ذلك بالاستفهام الذى يَحملُ معنى الجحْدِ والإنكارِ والتعجبِ : ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ والرُّفاتُ: ما تكسَّر وبَلِى من كلِّ شىء أى: أتُعاد إلينا الحياةُ ونصيرُ خلْقًا جديدًا كما كنَّا قبل الموت؟.

لقد تصوَّروا أنهم يُقدِّمون حُجةً حين جاءوا بِمَـثَلٍ من بقايا أجسادِ الموتى إذ لم يُشاهِدوا فى حياتهم شيئًا من العِظام والرفاتِ يعودُ إلى الحياة ، وقاسوا قدرةَ الخالقِ على قدرتهم هم ، فأنكروا خبرَ البعث للحساب والجزاء.

فهذا مَثَلُهم ، وذاك قياسُهم ، وكلٌّ منهما مَنْزَعُه الوهْمُ الفاسدُ.

أمَّا البرهانُ الربانىُّ فقد قَدَّم مَـثَلاً مُنتزَعا من الواقع ، فقد لفتَهم إلى قدرة الله على خلْقهم أنفسِهم أولَ مرة إذْ لم يكونوا شيئًا مذكورًا ، وهذا المَثَلُ المنتزَعُ من الواقع يُقدِّم برهانًا على قدرة الخالقِ على إعادتهم بعد فَناء أجسادِهم ، لاستواء عمليتى الخلْق فى البدْءِ والإعادة.

وقد أَمر اللهُ رسولَه أن يُجيبَهم بما يؤكِّدُ فى النفوس قدرتَه سبحانه على إحياء الأمواتِ على أىِّ حالٍ يكونون: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا۝ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ﴾ أى: افترِضوا ما شئتُم أن تَفترضوا من مادَّة أو صورة تَتحوَّلُ أجسادُكم إليها بعد الموت ، كونوا: حجارةً ، أو حديدًا مِمَّا هُوَ مَثَلٌ فى الشِّدَّة والقوةِ ، أو كونوا خلقًا مِمَّا يعظُم شأنُه فى نفوسكم ، وتَستبعدون أن تَلْحقَه الحياةُ كالسموات والأرضِ والموت لا مجردَ أن تَصيروا عظامًا وترابًا ، فإنكم ستُبعثون لا محالة.

يقول صاحبُ الكشاف: لـمَّا قالوا: أءذا كنا عظامًا ورُفاتًا؟ قيل لهم: ﴿كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ فَرَدَّ قولُه «كونوا» على قولهم «كُنَّا» كأنه قيل: كُونوا حجارة أو حديدا، ولا تكونوا عظامًا فإنه سبحانه يَقدرُ على إحيائكم، والمعنى: أنكم تستبعدون أن يُجدِّدَ اللهُ خَلْقكُم، ويردَّه إلى حال الحياة، وإلى رُطوبةِ الحيِّ وغضاضتِه، بعد ما كنتُم عظامًا يابسةً مع أن العظامَ بعضُ أجزاءِ الحيِّ، بل هى عمودُ خَلْقه الذى يُبْنَى عليه سائرُه، فليس بِبدْعٍ أن يردَّها اللهُ بقدرته إلى حالتها الأولى، ولكن إذا كنتم أبعدَ شىءٍ من الحياة ورطوبةِ الحيِّ، و - أبعد - من جنس ما رُكِّب منه البشر، وهو أن تكونوا حجارةً يابسةً أو حديدًا مع أن طباعَها الجساوةُ والصلابةُ لكان قادرًا على أن يردَّكم إلى حال الحياة.

﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ﴾ أى: أو خلقًا مما يكبرُ عندكم عن قبول الحياة، ويَعظُمُ فى زعْمكم على الخالق إحياؤُه فإنه يُحييه.

قال مجاهد: يَعنى السمواتِ والأرضَ لعِظَمِهما فى النفوس، وقال ابنُ عباس وغيرُه: يعنى الموتَ، لأنه ليس شىءٌ أكبرَ فى نفس ابنِ آدمَ منه، قال أميةُ بنُ أبى الصلت: والموتُ خَلْقٌ فِى النفوسِ فَظِيع.

يقول: إنكم لو خُلقتم من حجارة أو حديدٍ أو كنتم الموتَ لأُميتنَّكم ولأَبعثنَّكم، لأن القدرةَ التى بها أنشأتُكم، بها نُعيدُكم، بعد هذا سيقولون: مَن يُعيدنا إلى الحياة إذا تَحولَّت أجسادُنا هذا التحولَ الكبير؟ وهو معنى قولِه: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فطَركم: خلَقكم وأنشأكم، والجوابُ هو نفسُ البرهانِ القائمِ فى نفس كلِّ إنسانٍ، وهو إنشاؤُه من العدَم، فإنشاؤُه من مادةٍ قائمة يكون أهونَ فى نظَر العقل.

إن الذى يفعلُ ذلك هو القادرُ العظيمُ الذى ذَرأكم أولَ مرةٍ على غير مِثالٍ يُحتذَى ، ولا مِنهاجٍ مُعيَّن يُنْتَحَى ، وكنتم ترابًا ما شَمَّ رائحةَ الحياة أليس الذى يَقدر على ذلكَ يقدرُ على أن يُفيضَ الحياةَ على العظام البالية ويُعيدَها إلى ما كانت عليه أولا؟ بلى إنه سبحانه يقولُ للشىء كن فيكون.

وإذِ انقطعت حُجَّتُهم أمام هذا البرهان ، وأُزيلتْ شبهاتُهم بهذا الدليل، لجأ المعاندون إلى التعبير الصامتِ فحرَّكوا رءوسَهم تعجبًا واستهزاءً ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ إذْ أُلْجِمَ الخَصْم ، وبَطلَت حجتُه، ولكنَّه ظَلَّ مُصرًّا على باطله ، فأنغَض رأسَه: أى حَرَّكه من أسفلَ إلى أعلى ومن أعلى إلى أسفلَ ، وهى صورةٌ مُعبِّرةٌ عن الإنكار والاستهزاءِ والتعجبِ ، يفهمُ العربُ مغزاها النفسىَّ ، ودلالتَها الشعوريةَ ثم عادوا إلى أمر البعثِ يسألون عن وقته ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ﴾؟ وهو سؤالٌ يَحْمِلُ معنى الاستبعادِ فقال الله لرسوله: ﴿قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ أى: فاحذَرُوا ذلك ، فإنه قريبٌ منكم سيأتيكم لا محالة ، وكلُّ آتٍ قَريب ، وكلُّ ما هو مُحقَّقُ الحصولِ قريبٌ وإن طال زمانُه ، وأمَّا وقتُه فَعِلْمُه عند الله وحده ، ليس عِلْمُ ذلك عند أحدٍ من الخلْق: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ والدعاءُ: النداءُ إلى الـمَحْشرِ بكلامٍ تسمعُه الخلائق ، يدعوهم اللهُ تعالى فيه بالخروج وقيل: بالصَّيحة التى يَسمعونها فتكون داعيةً لهم إلى الاجتماع فى أرض القيامة.

وقوله: «بِحَمْده» حالٌ منهم أى: تَستجيبون حامدين وهى مبالغةٌ فى انقيادهم للبعث ، وتأكيدٌ بأنه حاصلٌ لا محالة ، وفى هذا تنبيهٌ للعباد ليُعِدُّوا أنفسَهم لهذا اليومِ بالعقيدة الصحيحةِ والعملِ الصالح.

﴿وَتَظُنُّونَ إن لَّبِثْتُم إلاَّ قَلِيلًا﴾ أى وحين تَرَوْنَ أهوالَ القيامة تَستقصِرون مدةَ لُبْثكم فى الدنيا وتَحسبُونها يومًا أو بعضَ يوم ، وعن قتادةَ: تحاقرتْ الدنيا فى أنفسهم وقَلَّت حين رأوا يومَ القيامة.

إِن هذا الحوارَ وما فيه من نذير وبرهانٍ يُزيلُ عن العيون الغِشاوةَ وعن النفوس القساوةَ ، ويُبَصِّرُ ذوى النُّهى فيزدادُ المؤمنُ إقبالاً على عمل الآخرة ، ويَرعوِى الملحدُ والغافلُ ، عن غَيِّه ويعودُ إليه رُشدُه.. فَطُوبى لِمَن تدبَّر وانتفَع..

❋ ❋ ❋

حديثٌ قدسىٌّ:

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسولﷺ: «قال الله تعالى:
يَشْتُمُنى ابنُ آدمَ، وما ينبغِى له أن يشْتِمَنى ويُكَذِّبُنى وما ينبغى له.
أمّا شَتْمُه فقولُه: إنَّ لى ولَدًا، وأمَّا تكْذيبُه فقولُه: ليس يُعِيدنى كما بَدَأَنى»

أخرجه البخارى

١٩٠ - الحزمُ وعدمُ الغفلةِ مِن خصالِ المؤمن

عن أبى هريرةَ رضى اللهُ عنه أن النبىَّ ﷺ قال: «لا يُلْدَغُ المؤمنُ مِن جُحرٍ واحدٍ مرَّتين».

هذا الحديثُ رواه البخارىُّ فى كتاب الأدبِ، وفى رواية «لا يُلدَغُ المؤمنُ من جُحرٍ مرتين»، وقولُه «لا يلدغُ» مضارعٌ مبنىٌّ للمجهول مرفوعٌ، ولا: نافية، والمؤمنُ نائبُ فاعلٍ مرفوع، و: اللدغُ مصدرُ لَدَغ، من بابِ مَنَع، يقال لدَغَتْه العقربُ والحيةُ لدغًا وتلْداغًا فهو ملدوغٌ ولَدِيغ، وقومٌ لَدْغَى كسكْرَى، واللدغُ كاللَّسع وزنًا ومعنًى وقيل: اللسعُ لذوات الإبرِ كالعقرب، واللدغُ لذوات الفَمِ كالحيَّات ومن المَجاز: رجلٌ لُسَعَةٌ كهُمَزة إذا كان قَرَّاصةً للناس بكلامه، وفلانٌ مِلْسَعٌ كمِنْبَر إذا كان حاذقًا، أمَّا اللذْعُ بالذال والعَين فإنه يكون من النار، ومن المجاز: رجلٌ لَذَّاع مَذَّاع كشَدَّاد، أى مِخْلافٌ للوعد، واللوذَعُ واللَّوذَعِىُّ: هو الذكىُّ الذهْنِ، الحديدُ الفؤادِ، واللَّسِنُ الفصيحُ، كأنه يلذَعُ بالنار من ذكائه.

و «**الجُحْرُ**» الثُّقبُ المستدير، وهو ما يَحتفِرُه الهوامُّ والسباعُ لأنفسهما كالـجُحْران جَمْعه جِحَرَة كعِنَبة وأجحار، وَجِحَر كعِنَب و «مرتين»(١) أى مرَّةً بعد مرة، ولفظُ الحديث على روايةِ الرفع يكون الكلامُ خبرًا فى اللفظ إنشاءً فى المعنى لأن المرادَ منه النهىُ.

وفى رواية أخرى: لا يُلْدَغِ المؤمنُ بكسر الغينِ على أن لا ناهيةٌ والفعلَ مجزومٌ بالسكون وحُرِّك آخرُه بالكسر لالتقاء الساكنين.

---

(١) مرّتين: إمَّا منصوبٌ على الظرفية الزمانية وإمَّا على المفعولية المطلقة.

والحديث من الأمثال النبويةِ التى جَمَعت بين جمالِ التشبيهِ وطرافتهِ وقوةِ العبارة وتلاحُمِها ، وإيجازِها ، مع الثراءِ فى المعنى ، والتوجيهِ السديد ، وعُمقِ التجربة ، وبُعدِ النظر ، وسُموِّ المقصدِ والغرض.

يقول صاحبُ مجمع الأمثال فى مقدمته عن الأمثال النبوية: «وإن كلامَ النبىِّ محمدٍ ﷺ - وهو أفصحُ العرب لسانًا ، وأكملُهم بيانًا وأرجحُهم فى القول ميزانًا - لم يَخلُ فى إيرادِه وإصدارِه ، وتبشيرِه وإنذارِه من مَثَلٍ يحوزُ قصبَ السبْقِ فى حَلْبة الإيجازِ ، ويستولى على أمد الـحُسْنِ فى صنعةِ الإعجاز».

أمَّا منشأُ هذا المثَلِ ومورِدُه فهو أن الشاعرَ أبا عزةَ الـجُمَحى كان قد أُسِرَ بغزوة بدر ، فشكا عيالَه وفقرَه ، فرَحِمَه النبىُّ ﷺ ومَنَّ عليه وأطلَقه فما كان منه إلَّا أن هجا النبىَّ ﷺ ، وسَخِر من إطلاقه دون فداءٍ ، ثم أُسِر هذا الشاعرُ بحمراءِ الأسدِ على ثمانيةِ أميالٍ من المدينة المنورةِ فى اليوم التالى لغزوة أُحد ، فقال للنبى ﷺ: مُنَّ علىَّ ، وذَكَر فَقْرَهُ، وعيالَه فقال له النبىُّ ﷺ: «لا تَمْسَحْ عَارِضَيْكَ بِمكةَ ، تقول: سَخِرْتُ بمحمدٍ مرَّتين! لا يُلْدَغُ المؤمنُ مِن جُحرٍ مرَّتين ، وأَمَر به فقُتل.

والمعنى: ليكن المؤمنُ حازمًا حَذِرًا مجرِّبًا للأمور ، فإذا نُكب مِن وجْهٍ فلا يَعُدْ إليه فيُنكَبَ ثانيًا ، ففى الكلام استعارةٌ تمثيليةٌ حيث شُبهت الصورةُ الحاصلةُ من تكرار الـخِدَعِ من وجْهٍ واحدٍ ، بالصورة الحاصلةِ من تكرُّرِ اللَّدْغِ من جُحر واحد.

وقد خُصَّ المؤمنُ بهذه النصيحةِ، لأن الغالبَ على حاله سلامةُ الضمير وحُسْنُ الظنِّ الذى قد يُؤدى به إلى الغفلة فيُخْدَعُ مرةً بعد أخرى.

وعلى هذا التوجيه قالوا: يُؤخذ من الحديث التحذيرُ من الغفلة

والإشارةُ إلى استعمال الفطنة.

وقد يستشكلُ على بعض الناسِ إذا نَظر لظاهر الخبرِ فى قوله: «لا يُلْدَغُ..» الحديث، برفع الفعل، إذ فيه نَفْىُ أَنَّ المؤمنَ لا يُخْدَعُ مِن جهةٍ واحدة مرَّتين مع أن كثيرًا من المؤمنين يتكررُ انخداعُه من وجهٍ واحدٍ، ويُلدَغُ من الموضع الواحِد مرتين.

وأُجيب بأن هذا المثلَ: خبرٌ فى اللفظ ولكنه إنشاءٌ فى المعنى لأن المرادَ نَهْىُ المؤمنِ عن الغفلة والاستسلامِ للخديعة.

وفَسَّره الخطابىُّ بأن لفظَه خبرٌ ومعناه أمرٌ، والمعنى: ليكن المؤمنُ حازمًا حذرًا لا يُؤتَى من ناحيةِ الغفلةِ فيَنْخَدِعَ مرةً بعدَ أخرى، وقد يكون ذلك فى أمرِ الدين، كما يكون فى أمرِ الدنيا.

وقالوا: ويصحُّ أن يكونَ خبرًا لفظًا ومعنًى، والمقصودُ نَفْىُ الانبغاءِ لا نَفْىُ الوقوع، والمعنى: لا ينبغى للمؤمن إذا نُكب مِن وجْه أن يعودَ إليه أو يُرادُ بالمؤمن فى الحديث المؤمنُ الكاملُ الذى وقَّفَتْهُ معرفتُه على غوامضِ الأمور، حتى صار يحذرُ مِمَّا سيقعُ، وأمَّا المؤمنُ ذو الغفلةِ فقد يُخدَع مِرارًا.

وفى روايةِ النهى: «لا يُلدغِ المؤمنُ...» الحديث، بِجزْم يُلدغ استُشكِل أيضًا بأنه إن كان إنشاءً لم يَصِحّ لأنه ليس ثمةَ منهىٌّ.

وأجاب الطيبىُّ: بأن النبىَّ ﷺ لـمَّا رأى من نفسه الزكيةِ مَيْلًا إلى الـحِلم، جَرَّدَ منها مؤمنًا حازمًا، فنهاه عن ذلك، كأنه قال للمؤمن الذى جَرَّده من نفسه الشريفةِ: انْتَهِ عن حديث الـحِلم، وامضِ لشأنك فى الانتقام من هذا المتمرِّدِ والانتصارِ من عدوِّ الله، فإن مَقَامَ الغَضب للهِ تعالى يأبى الـحِلْمَ والعفوَ بعد هذه التجربة، وقد أَطلقتَه المرةَ الأُولى

فسخرَ بالمؤمنين ، وهجَاهم ، فلا تُطلقه المرةَ الثانية ، فيسخَرَ بالمؤمنين ويهجوَهم كالمرة الأولى.

وفى هذا توجيهٌ وتربيةٌ للمؤمنين ، فالرسولُ ﷺ على هذا التفسير جَرَّد نفسَه مؤمنًا حازمًا ونَهاه عن الميل إلى العفو والحِلم فى مِثْلِ هذه الحَالةِ التى لا يلتزمُ فيها الخصْمُ الوفاءَ بالعهد ، ويعودُ إلى انتهاك الحرمات وذلك على معنى أنه ليس من شِيمَةِ المؤمنِ الحازمِ الذى يَغْضَبُ لله أن ينخدِعَ من الغادرِ المتمرِّدِ ، فلا يستعملَ الحِلْمَ فى حقِّه ، بل ينتقمَ منه فالحلمُ ليس بمحمود مطلقًا كما أن الجودَ ليس مطلوبًا فى كل موطن.

وقد قالوا فى التعليق على هذا المثل النبوى: إن الحلمَ والجودَ ليسا محمودين مطلقًا ، بل يجبُ الحذرُ فى استعمالهما حتى لا يقعَ مستعملُهما فى شَرَكِ ماكرٍ مُخادعٍ.

وكما جاء فى المثَل العربى:

وَوَضْعُ النَّدَى فِى مَوضِعِ السيفِ بالعُلا
مُضِرٌّ كوَضْع السيفِ فى مَوضِعِ النَّدى

لقد جاءنا الإسلامُ بكل خيرٍ وهدًى ونور ، وبصَّرنا بمواقعِ الأمورِ وما ينبغى وما لا ينبغى ، وقد مدَح القرآنُ الكريمُ العقلَ ، ولفَت أُولى الألبابِ إلى ما فى الحياة من عبَرٍ ، وما اشتملت عليه من أسرار وحِكَم قال تعالى: ﴿فاعتَبروا يَا أُولى الأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢]

وقال: ﴿إنَّ فى ذَلكَ لَذكْرَى لمنَ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧]

وقد جاءت السُّنَّةُ المطهرَةُ حافلَةً بالثناء على أُولى العقول والبصائر ، وفى الحديث: «الكيِّسُ مَن دَانَ نفسَه وعَمِل لِمَا بعْد الموت ، والأحمقُ من أَتبَعَ نفسَه هواها ، وتمنَّى على الله» ـ أى الأمانى ـ ودانَ نفسَه: أى

حاسَبها. [رواه شدادُ بنُ أوس ، وأخرجه الترمذى وقال: حديثٌ حسن - وأحمد بنُ ماجة وفى سنده أبو بكر بنُ عبدِ الله الغسانى وهو ضعيف ، قال عنه الذهبى: واهٍ]

ولم يُرسلْ اللهُ رسولًا إلا وهو فى الذِّروة العُليا من الفطانة والحزْمِ والكيَاسة ولذا منَع الشرعُ الـمُغفَّلَ والصبىَّ والسفيهَ أن يَلُوا القضاءَ والمعاملاتِ الماليةَ لنقْصِ عقولِهم ، لذلك أمر النبىُّ ﷺ بالحزْم والحذَر ونهَى عن الغفلة والاستسلامِ لأهل الخداعِ والرِّيَبِ بأسلوبٍ حكيم فقال: «لا يُلْدَغُ المؤمنُ من جُحر واحدٍ مرَّتين» ذلك أن الغفلة والبلاهة قد يجران صاحبهما إلى الوقوع فى المآثم والخوض فى المحارم، والانزلاقِ إلى المهالك.

إنَّ فى هذا المثلِ النبوىِّ مع إيجازه آدابًا عاليةً ، ومعانِىَ ساميةً وحكمةً بليغةً ، وتربيةً شريفة ، وتوجيهًا رشيدًا ينبهُ الأمةَ إلى الحذر مِمَّا يخافون سوءَ عاقبتِه ، ويحثُّها على الحزم والكياسةِ ويُنفِّرُ من البَلهِ والتغفُّلِ وعدمِ التدبُّر فى عواقبِ الأمور ، وفيه التنفيرُ من نقْض العهدِ ، وتقبيح الغدْر إذ هو يُثيرُ الحليم ، ويُغْضِبُ الوَقُور ، ومَن نكَث فإنما ينكثُ على نفسِه وإنَّ أبا عَزَّةَ الـجُمَحى بحماقته وغَدْرِه وسوءِ أدبِه ومسلكِه أوقَع نفسَه فيما يستحقُّه وأمثالُه من العقوبة الرادعة.

وقصةُ مَـثَل للعرب في الجاهلية:

وفيمَن لا يَفى بالعهد يَضرِبُ العربُ مثلًا مَوْرِدُه حكايةٌ رمزيَّةٌ ، وقد جرَى على لسان حيَّةٍ لِمَن أراد أن يعودَ إلى عهدِ الأمانِ معها بعد غَدْرِه بها ، فقالت له: كيفَ أُعاوِدُكَ وهذا أَثَرُ فأْسِكَ.

وأصلُه على ماحكَت العربُ أن أخوين كانا فى إبِل لهما ، فأجدبتْ بلادُهما ، وكان بالقرب منهما وادٍ خصيبٌ وفيه حَيَّةٌ تَحميه من كل أحَد، فأشار أحدُهما على الآخر أن ينتقلَ بالإبل إليه ، وخَوَّفه أخوه من

شراسة الحيَّة ، ولكنه هبَط الوادِيَ بالفعل ، ورعى به إِبلَه زمنًا ، ثم إِنَّ الحيةَ نهشتْه فقتلتْه ، فحَزِن أخوه ، وهبَط ذلك الوادى ، وطلَب الحيةَ ليأخذَ بثأر أخيه منها ، أو يَلْحَقَ به ، فعرَضت عليه الصلحَ على أن يعيشَ فى الوادى ، وتُعطيَه كلَّ يومٍ دينارًا ما بَقِيت.

ومرَّت الأيامُ ، وكثُرَ مالُه ، ولكنه تذكَّر أخاه ، فَعَمد إلى فأسٍ فأخذها ، ثم قَعَد لها ، فمرَّت به فتبعها ، فضربها فأخطأها ، ودخلت الجحر سالمةً ، وتركت الفأسُ أثرَها فوقَ الجُحر ، فلمَّا حدَث هذا قَطَعت عنه الدينارَ ، فخاف الرجلُ شرَّها ونَدِم فقال لها: هل لكِ فى أن نَتَواثَق ونعودَ إلى ما كنَّا عليه؟ فقالت: كيف أُعاوِدُكَ وهذا أثرُ فأسِك، وهذا من مشاهير أمثالِ العربِ ، يُضْرَب لِمَن لا يفى بالعهد.

وقد أشار نابغةُ ذبيان فى أبياتٍ له إلى هذه القصة وفيها يقول:ـ

فقامَ لها من فوقِ جُحرٍ مُشيَّدٍ ليقتُلَها أو يُخطِئَ الكفُّ بادِرَه
فلمَّا وقاها اللهُ ضربةَ فأسه وللشرِّ عَينٌ لا تُغمِّضُ نَاظِرَه
فقال: تعالَىْ نَجعلِ اللهَ بيننا على ما لنا أو تُنجزِى لِىَ آخِرَه
فقالت: يمينُ اللهِ أفعلُ[1] إننى رأيتُك مشئومًا يمينُك فاجِرَه
أبى لى قبرٌ لا يَزالُ مُقابِلى وضربةُ فأسٍ فوقَ رأسِى فَاقِرَه

❊ ❊ ❊

(١) أى: لا أفعلُ بتقدير لا النافية، لذا جاء الفعل المضارع غير مؤكد بالنون فى جواب القسم لأنه منفى، وقد جاء المضارع فى قوله تعالى من سورة يوسف «تالله تفتأ تذكر يوسف» غير مؤكد بالنون لأنه منفى أى: تالله لا تفتأ. .» لأن من شرْط وجوب توكيدِه بالنون فى جواب القسم أن يكونَ مثبتا، دالا على المستقبل، متصلا بلام القسم مثل: «تالله لأكيدنَّ أصنامكم» من سورة الأنبياء.

من سورة غافر:

١٩١ - أ - السعيد من وُعِظ بغَيره

مِن القضايا الكبرى التى شَغلت الناسَ ، وما زالت: قضيةُ النبوةِ وقضيةُ البعث للحساب والجزاء.

ولقد أرسل اللهُ الرسلَ ، وأنزل الكتبَ ، وأيَّدهم بالمعجزات ، وقد لَقِيَ هؤلاء الرسلُ الكرامُ أذًى شديدًا ، وعنتًا عظيمًا من المتكبرين والجبابرةِ الذين أَبَوا إلا الجحْدَ والمعاندة ، ولم يُذعنوا للدليل ، ولم ينظروا فى البرهان نظَرَ إنعامٍ ورغبةٍ فى معرفة الحق ، وأرخَوا لأنفسهم ولـمَن اتبعوهم على الضلال العِنانَ فى حَلْبةِ الشهواتِ والشبهاتِ والمعاصى مُنكرين الحياةَ بعد الموت ، غيرَ عابئين بالجزاء ، كما استهزأوا بالرسل ، وأنكروا أن يَبْعثَ اللهُ رجلًا من جِنسهم رسولًا يدعوهم إلِى الهدى والخير.

وفى سورة غافرٍ نجدُ عنايةً شديدةً بقضية النبوة ، وبيانِ مآلِ الأممِ التى كذَّبت الرسلَ تسليةً للنبى محمدٍ ﷺ ، وتثبيتًا لفؤاده ، وقد أُوذى فصَبر وسعى المتعنتون من ذوى الدهاءِ والمكرِ إلى التشكيك فى أمر نبوته وضَربوا له الأمثالَ والأشباهَ فقالوا: ساحرٌ وشاعرٌ وكذابٌ وكاهنٌ ونحوُ ذلك كما فعل المتجبرون من قوم نوحٍ ، ومن عادٍ وثمودَ ، ومن قوم إبراهيمَ وقومِ لوط ، وكما فعل فرعونُ وقومُه ، فهؤلاء جميعًا تعنَّتوا وجادلوا فى آيات اللهِ بالباطل ، وخاصمُوا فى أمر النبوة ، وتحزَّبوا على أنبيائهم ، يريدون أن يُطفئوا نورَ اللهِ بباطلهم ، فأخذهم اللهُ أخْذَ عزيزٍ مُقتدر ، وصاروا عِبرةً لِمَن يَعتبر.

(١٢٤٠)

وفى أولِ السورةِ الكريمة سجَّل اللهُ على المجادلين فى آيات الله بالكفر فقال: ﴿مَا يُجَادِلُ فِى آيَاتِ اللهِ إِلَّا الَّذِينَ كفرُوا﴾ [غافر: ٤]

والمراد هنا: الجدالُ بالباطل من الطعن فى الآيات ، والقصدِ إلى إدحاض الحقِّ، وإطفاءِ نورِ الله ، وليس المرادُ الجدالَ بمعنى السؤالِ بقصْد الفهم، والتعلُّمِ ، واستنباطِ معانى الآياتِ وردٍّ أهلِ الزيغ بها وعنها ، ومحاورةِ أهلِ الباطلِ بالحجة والبرهان كما فى قوله تعالى: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِى هِىَ أَحْسَن﴾ [النحل: ١٢٥]

فهذا من الجهاد فى سبيل الله.

ولَمَّا شَهِد اللهُ بالكفر على المجادلين فى آيات اللهِ بالباطل ، وإنَّ الكافرَ لا أحدَ أشقى منه عند الله، فقد وجب على مَن تحقق ذلك وعَلِمَه أن لا ترجُحَ أحوالُهم فى عَينه ، وألَّا يَغُرَّه إقبالُ الدنيا عليهم وتقلبُهم فى البلاد بالتجارات الرابحة ، وسلامتُهم مع شدةِ شكائمِهم فى الكفر قال سبحانه لنبيهِ والمؤمنين: ﴿فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُم فِى الْبِلادِ﴾ [غافر: ٤]

وكان القرشيون كذلك يتقلَّبون فى بلادِ الشامِ واليمن ، ولهم أموالٌ يتَّجرون فيها ، ويتربَّحون ، إذ إنَّ مصيرَ ذلك ، وعاقبتَه إلى الزوال ووراءه شقاوةَ الأبد.

ثم ضَرب السياقُ لتكذيبهم وعداوتهم للرسل وجدالِهم بالباطل وما ادَّخرَهُ لهم من سوء العاقبة مثلًا مَّا كَان من نحو ذلك من الأمم السابقة وما أخَذهم به من عقابِه ، وأحلَّه بساحتهم من انتقامه ، فقال:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ من بَعْدهِمْ وَهَمَّتْ كَلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الحَقَّ فَأَخَذْتُهُم فَكَيْفَ كَانَ عِقَاب﴾ [غافر: ٥]

إن الأحزابَ: هم أولئك الذن تحزَّبوا على الرسل ، وناصبُوهم ، مِثْلُ عادٍ وثمودَ وفرعونَ وقومِه وغيرِهم ، وقد همَّت كلُّ أمةٍ من هذه الأممِ برسولهم ليتمكَّنوا منه ، ومن الإيقاع به ، وإصابته بما أرادوا من تعذيبٍ أو قتْل ، فكان جزاؤهم على إرادة أخْذِه أنْ أخذَهم اللهُ بعذاب مِن عنده، ثم لَفت اللهُ العبادَ إلى مآلهم للتفكر والاتعاظ ، فقال: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ وهو تقريرٌ فيه معنى التعجب ، وفيه تسليةٌ للنبى ﷺ وبُشرى بالنصر على عدوه ، ووعيدٌ لمشركى قريش فهم مِمَّن جادلوا فى آيات اللهِ بالباطل ، أى: فإنكم تَمرُّون على بلادهم ، وعلى مساكنهم ، وبقايا ما خَلَّفوه وراءهم ، فتُعاينون أثر ما حلَّ بهم من العقوبة ، وما نزل بهم من الهلاك ، وفى هذا ما يزجرُ النفوسَ عن غيِّها، ويكفُّها عن عنادها وتعنُّتها.

ثم بين السياقُ أن هذا الحكمَ عامٌّ فيمن حَقَّ عليهم العذابُ بسبب الاشتراكِ فى الصفات والمشاربِ: ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [غافر: ٦]

لقد اشترك كفارُ قريشٍ مع الأمم التى تحزبت على أنبيائها فى العِلَّة الـمُوجبةِ للعقوبة ولكونهم من أصحاب النار ، وهى: أنهم أنكروا النبوةَ، وعاندوا الحق ، وأرادوا إطفاءَ نورِ الله ، وآذَوا الأنبياء وحرَصُوا على قتْلهم.

بعد ذلك عرَض السياقُ مشاهدَ من أحوال أهلِ التوحيد ، وأُخرى من أحوال أهلِ الجحود والنكران: فأهلُ التوحيد تدعو لهم الملائكةُ المقرَّبون بالمغفرة ، وتطلبُ من الله الرحمةَ للتائبين المتَّبعين الصراطَ المستقيم والوقايةَ من عذاب الجحيم ، وأن يُدخِلَهم ومَن صلَح من آبائهم وأزواجِهم

وذرياتِهم جنات النعيم ، وأن يَصرِفَ عنهم سوءَ عاقبةِ سيئاتِهم التى أَتَوْها قبل توبتِهم بتكفيرها أو بقبولِ توبتِهم.

ثم بيَّن أن أهلَ الجحودِ يَعترفون يومَ القيامةِ بذنوبهم ، وباستحقاقهم ما يَحِلُّ بهم من العذاب ، ولفرْط ما فى نفوسهم من الفزَع يسألون الرجوعَ إلى الدنيا لتلافِى ما فرَط منهم ، فيُوبَّخون على ما كان منهم من إنكارٍ وشِركٍ ومعاداةٍ للنبوة: ﴿ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ [غافر: ١٢]

أى: ذلكم الذى أنتم فيه من الهول والفزع ، وأن لا سبيلَ لكم إلى خروجٍ قط بسبب كفرِكم بتوحيد الله ، وإيمانِكم بالإشراك به.

ثم لَفت اللهُ عبادَه إلى آيات قدرتِه ورحمتِه ليوحِّدوه ويشكروه: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر: ١٣]

وما يَتعظُ وما يَعتبرُ بآيات الله إلا من يتوبُ من الشرك ، ويرجعُ إلى الله ، فإن المعاندَ لا سبيلَ إلى تذكُّرِه واتعاظِه ، فإذا علِمتم أن الاتعاظَ والاعتبارَ بآياتِ الله خاصٌّ بمَن يُنيب ، فادعوا اللهَ وحده مخلصين له العبادةَ والطاعةَ ، وإنْ غاظ ذلك أعداءَكم ـ يا أهلَ التوحيد ـ ممَّن ليس على دينكم: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ١٤]

ثم ذكَر اللهُ من صفات جلاله وعظمةِ سلطانه أنه ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ﴾ أى: أنه أرفعُ الموجوداتِ وأعظمُها شأنًا لأنَّ كلَّ شىءٍ محتاجٌ إليه ، وهو مستغنٍ عمَّا عداه ، وأنه ﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ أى مالكُه ومدبِّرُه فهو مستولٍ على عالَم الأجسامِ وأعظمُها العرشُ ، كما هو مستولٍ على عالم الأرواح ، وهى مسخرةٌ له.

ثم نبَّه السياقُ إلى قضية النبوةِ وقضيةِ البعثِ وأنه سبحانه أرسلَ مَن اصطفاهم مِن خَلْقه لإنذار المعاندين بيومٍ عظيمِ الهولِ والشدة ، وأنَّ الجميعَ سيُحشرون إلى ربهم حُفاةً عراةً ظاهرين لا يستُرهم شىء ، ولا يَخفى على الله شىءٌ من أعمالهم وأحوالِهم وأنهم مجزيُّون لا محالةَ بأعمالهم ، فهو سبحانه: ﴿يُلْقِى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ۝يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْهُم شَىْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٥، ١٦]

والرُّوحُ هو سببُ الحياة ، وقد استُعير للوحْى الذى هو أمرٌ بالخير وبعْثٌ عليه ، وبه حياةُ القلوب ونورُها ، كما قال تعالى من سورة الأنعام: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِى بِهِ فِى النَّاسِ﴾ [الآية: ١٢٢]

وبعد أَنْ ذَكَر صفاتِ قهرِه سبحانه فى يوم القيامة ، أردفها بصفات عدلِه وفضله: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ١٧]

وقد أَنذر الناسَ الأنبياءُ بأمر ربِّهم بشدائد هذا اليوم ، وبقُربِ وقوعه ليكونوا على بينة: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ۝يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى الصُّدُورُ۝وَاللهُ يَقْضِى بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ إِنَّ اللهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر: ١٨-٢٠]

إنه يومٌ يعظُم فيه الخوفُ ، ويشتدُّ الكربُ ، وتبلغُ القلوبُ الحناجرَ ولا ينفعُ الكافرَ فيه قريبٌ ولا صديقٌ ، وليس له شفيعٌ ألبتة:

﴿مَا للظَّالمينَ مِنْ حَمِيم وَلا شَفِيعٍ يُطَاع﴾ وإن الله عزَّ وجل مُطَّلعٌ على السرائر والضمائرِ لا يَخفى عليه شىءٌ من استراق النظرِ إلى ما لا يَحلُّ وما تَنطوى عليه صدورُ العباد: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى الصُّدُورُ﴾ وهو سبحانه لا يَقضى إلا بالحق والعدلِ لاستغنائه عن الظلم ومقته له ، وفى الحديث القدسى الذى أخرجه مسلم ورواه أبو ذَرٍّ يقول ربُّ العزة: ((يا عبادى ، إنى حَرَّمتُ الظلمَ على نفسى وجعلتُه مُحرَّمًا بينكم فلا تَظَّالَموا)).

أمَّا الآلهةُ التى عبدوها فإنها لا تَقضى بشىء ، لأنها لا قدرةَ لها ولا وزنَ: ﴿وَاللهُ يَقْضِى بِالْحَقِّ وَالَّذين يَدْعُونَ من دُونه لا يَقْضُونَ بِشَىءٍ إِنَّ اللهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصير﴾ فكيف يُعْبَدُ من لا يَسمعُ ولا يُبْصِر ، ولا إحاطةَ له بما تَنطق به الألسنةُ وتفعلُه الجوارح ، وتُكِنُّه الصدور؟ فوجب على العباد أن يعبدوا الذى يَقدِرُ على كل شىء، ولا يَخفى عليه شىءٌ - سبحانه -.

ثم طلب اللهُ إلى عباده أن ينظروا إلى مَن كان قبلهم ، وأن يتدبروا مصارعَ الأمم التى تحزَّبت على رسلها ، وقد خلَّفوا وراءهم ما يدلُّ على أنهم كانوا أعظم قدرةً من مشركى قريش ، وأشدَّ تمكُّنًا من التصرفات ، فقد تركوا قلاعًا مُحكَمة ، ومدائنَ حصينة ، ونحتوا البيوتَ والقبورَ فى الجبال ، وبَنَوا الأهرام ، وأقاموا المعابدَ ، والعُمدَ الطوال ، ولـمَّا كابروا، وعاندوا الرسلَ ، وكفروا النعمة ، ولم يشكروا المنعم ، قلَبها عليهم جحيمًا ، ولنتدبر: ﴿أَوَلَمْ يَسيرُوا فى الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذين كَانُوا من قَبْلِهِم كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وآثَارًا فى الأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِم وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللهِ من وَاقٍ﴾ [غافر: ٢١]

إن هذه الأممَ القويةَ عاندت الرسلَ ، وجادلوا فى قضية النبوةِ بالباطل، ولم يُذعنوا للمعجزات والبراهين ، وفى نفس الطريق سار مشركو قريش: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [غافر: ٢٢]

لقد غرُّوا بما أُوتوا من بسطة الجسم ، وكثرةِ المال ، وقوةِ العقل ، وما حباهم اللهُ من قدرةٍ ومعرفةٍ بأمور الدنيا وتدبيرِ شؤونها ، فاعتقدوا ـ جهلًامنهم ـ بأنه لا علمَ أنفعُ من علومهم الماديةِ ، ففرِحوا ، ورضُوا بالحياة الدنيا ، واطمأنوا إليها ، وقد جاء بيانُ ذلك فى ختام سورة غافر ـ أيضا ـ فى قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِى الأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۞ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الآيتان: ٨٢، ٨٣]

لقد لفت اللهُ عبادَه فى سورة غافرِ إلى أحوال الأممِ المعاندة والأحزابِ المتكبرة على طاعة ربِّها على سبيل الإجمال ، لينظروا فى مواطنِ العبرةِ والعظة.

أمَّا ما كان من أمر فرعونَ مع موسى عليه السلام فقد قدَّم لنا سياقُ السورةِ الكريمة حِوارًا بديعًا رائعًا متصلًا بقضية النبوة ، وقد تعدَّدت أطرافُه ، وتنوَّع بين الشدةِ واللينِ حسبَ المقام ، وبرَز فيه على مسرح الحوادثِ المتتابعةِ رجلٌ مؤمنٌ من آل فرعونَ يكتُم إيمانه ، قيَّضه اللهُ عز وجلَّ للدفاع عن قضية النبوة ، والوقوفِ إلى جانب الحقِّ مخلصًا منافحًا بالحجة والبرهانِ وبالحكمة والموعظةِ الحسنة ، فكان نِعم النموذجُ الصالح

والمثلُ الطيبُ للدعاة إلى الله.

وقد بدأت قصةُ موسى عليه السلام في السورة الكريمة بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ۝إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ۝فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾

[غافر: ٢٣-٢٥]

❊ ❊ ❊

دعاء مباركَ:

«اللَّهُمَّ اجْعَلْ فى قَلْبى نُورًا ، وفى بَصَرِى نورًا وفى سَمْعى نورًا، وعن يَمينى نورًا، وعن يسارِى نورًا ، وفَوْقى نورًا ، وتحتى نُورًا ، وأمامى نُورًا وخَلْفى نورًا، واجْعَل لِّى نورًا، وعَظِّمْ لى نورًا»

أخرجه البخاريُّ بدون: «وعَظِّم لى نورًا»

فقد جاءت عند مسلم والراوى ابن عباس

١٩٢ - ب - أنموذج للمؤمن الغيور والداعية الحكيم

لقد أرسل اللهُ نبيَّه موسى عليه السلام إلى فرعونَ وقومِه مؤيَّدًا بالمعجزات الباهرة ، والحجةِ القاطعة ، والبرهانِ الشاهدِ بصدقه ، وبأنه رسولُ ربِّ العالمين ، قال تعالى من سورة غافر: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ۞إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [٢٣، ٢٤]

لقد جاءهم موسى عليه السلامُ بالنور الساطع ، ولكنهم آثروا الظلامَ ولجئوا إلى السِّباب ، وتركوا البُرهان ، فقالوا: هو ساحرٌ يكذبُ فيما ادَّعاه: أنه رسولُ ربِّ العالمين ، فَسمَّوا السلطانَ المبينَ ، وهوالحجةُ الظاهرةُ والمعجزةُ سمَّوه: سحرًا وكذبًا منكرين بذلك نبوتَه ، وقد خُصَّ فرعونُ وهامانُ وزيرُه وقارونُ بالذِّكر لأنهم القادةُ المتعنتون ، والناسُ تَبعٌ لهم.

ولـمَّا سطَع برهانُ موسى عليه السلام ، ونطَقت حُجَجُه بأنه نبيٌّ مرسَل ، انتقلوا من الشتائم والسبابِ إلى التهديد والوعيد بإلحاق الأذى بالمؤمنين لإرهاب الناس ، وتخويفِهم ، وإبعادِهم عن موسى: ﴿فَلَمَّا جَاءهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا﴾ أى: بالنبوَّة ﴿قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَالٍ﴾ [الآية: ٢٥]

لقد جاءهم موسى عليه السلام بالنبوة ودلائلها ، وكان الواجبُ النظرَ والتدبرَ والرضوخَ لسلطانِ الحقِّ وبراهينه ودلائله ، ولكنَّ عُتاةَ المجرمين نقلوا الأمرَ من ساحة التحدِّى بالآيات والمعجزاتِ والجدالِ بالحكمة والموعظةِ الحسنةِ إلى ما هو أشبهُ بحالة إعلانِ حربٍ على الفئة القليلةِ

المؤمنةِ لإِدخال الرعبِ إلى النفوس ، باستخدام القوةِ فى غير موضعها وإرداةِ البطشِ بالضعاف من البنين والنساء ، فالذكورُ من أولاد الذين آمنوا مع موسى للقتْل ، والإناثُ منهم يتمُّ استبقاؤُهن للخدمة.

قال قتادة: هذا قَتْلٌ غيرُ القتْلِ الأولِ ، لأن فرعونَ كان قد أمسك عن قَتْل الوِلدان بعد ولادةِ موسى ، فلمّا بَعث اللهُ موسى ، أعاد القَتْلَ على بنى إسرائيل عقوبةً لهم ، فكان يأمر بقتل الذكور ، وتركِ الإناث ليمتنعوا من الإيمان ، ولئلّا يكثرَ جمعُهم ، ويَشتدَّ عَضدُهم بالذكور من أولادهم ، لكنَّ الله شغلهم عن ذلك بما أنزل عليهم من أنواع العذاب كالضفادع، والقملِ، والدمِ، والطوفانِ إلى أن خَرج بنو إسرائيل من مصر.

وإلى هذا جاءت الإشارةُ فى قوله سبحانه: ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَالٍ﴾ أى: فى ضياع وذَهابٍ باطلًا لم يُجْدِ عليهم بشىء ، ولم يَعُدْ عليهم بما رَجَوْه من التهديد ، فقدَ وَهِمَ المجرمون أنهم بذلك يصدُّون الذين آمنوا عن مُظَاهَرة موسى ومؤازرتِه ، وما عَلِموا أن كيدَهم ضائع وأن قضاءَ الله نافذٌ لا محالةَ ، فهو سبحانه ينصر أولياءَه ، ويكبتُ أعداءَه.

كان فرعونُ مملوءًا غيظًا ، وكلَّما مضت الأيامُ ازداد رعبًا من موسى وحسدًا وحنقًا ، فانتقل من التهديد بقْتل البنين واستحياءِ البناتِ من بنى إسرائيلَ إلى إرادةِ اجتثاثِ الشجرةِ الطيبةِ المباركةِ من أصلها ، كما صَوَّر له وهمُه ونَزَقُه ، فانبعث كالثور الهائج قائلاً لقومه: ﴿ذَرُونِى أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّه﴾. [غافر: ٢٦]

إنَّ فرعونَ كان على يقينٍ من أن موسى نبىٌّ مرسَلٌ ، وأن ما جاء به آياتٌ وما هو بسحر ، وكان لذلك يَخشى دُعاءَ موسى عليه ، ويُرعَبُ

منه ، ولولا ذلك لَمَا احتاج وهو صاحبُ الكلمة الأولى فى قومه لأنْ يقولَ لِمَن حوله: دعُونى أنفرِدْ بموسى لأقتلَه ، ولْيدعُ ربَّه ، أى: وليكن ما يكون ، لقد أراد أن يكتمَ خوفَه مِن قتْل موسى بأن يقولَ لهم: ذَرونى أقتلْه ، ليكفُّوه عنه ، ويمنعُوه من ذلك ، فَيُنسبَ الانكفافُ عن قَتْله إليهم لا إلى خوفه هو ورعبِه.

لقد كان فرعونُ مكاراً خداعًا سفاكًا للدماء فى أهونِ أَمْرٍ ، فكيف لا يَقصِدُ قتْلَ مَن أحسَّ منه بأنه هو الذى يُزِيلُ هيمنتَه على نفوس الناس ويهدمُ ما ادَّعاه من الربوبية ، ولكنه كان يخافُ إذا همَّ بقتْله أن يُعاجَلَ بالهلاك ، وقولُه ﴿وليدْعُ ربَّه﴾ شاهدُ صِدقٍ على فَرْط خَوفِه منه ومن دَعوتِه ربَّه.

وفى بيان السببِ الداعى إلى قتل موسى جاء على لسان فرعون: ﴿إِنِّى أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى الأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر:٢٦]

إنه يَخشى أمرين: تبديلَ دينِهم ، وإِحداثَ فتنةٍ بين الناسِ بسببه ، إنهم كانوا يَعبدون فرعونَ ، ويعبدون الأصنام ، وهو لا يريد تغيير ذلك لأنه صاحبُ نفسٍ مريضةٍ بالغرور والكبرياء ، وكان خبيثًا ماكرًا يبسطُ سلطانَه على النفوس بالقهر والقسْر والخداع ، والمراد بالفساد: التفاتنُ والتهارُج الذى يَذهبُ معه الأمنُ ، وتتعطلُ المزارعُ والمعايشُ ، ويحدُث التنازعُ والتقاتُل ، وما الفسادُ فى الحقيقة إلا ما كان عليه فرعونُ ومَن تابعَه من الضالين المضلين.

قال ابن كثير: يخشى فرعونُ ـ قبَّحه الله ـ أن يُضِلَّ موسى الناسَ ويُغيِّرَ رسومَهم وعاداتِهم ، وهذا كما يقال فى المثل: «صار فرعونُ مُذكِّرًا» أى: واعظًا يُشفِق على الناس من موسى عليه السلام ـ يُضْرَبُ

فيمن يكون على مفْسدَة وينهى غيره عنها -

إن فرعونَ أراد للناس الاستمرارَ على الضلال والعمى ، مع أنهم كانوا فى أشدِّ الحاجةِ إلى دينِ اللهِ الذى فيه صلاحُ أمورِهم وهدايتُهم إلى ما فيه خيرُهم ، وفى ظلاله الرحيمة: الإخاءُ ، والمحبةُ ، والرحمةُ والمساواةُ ، والعدلُ ، وخضوعُ الناس لرب الناسِ وحده ، لا إلهَ غيرُه ولا مشاركَ له ، ولا نِدَّ.

سَمِع موسى عليه السلام بما أجراه فرعونُ من حديثِ قَتْله فلجأ إلى ربِّه مستعيذًا به من شرِّ كلِّ متكبرٍ لا يُذعِنُ للحق ، ولا يؤمِنُ بيوم يُحَاسِبُ اللهُ فيه الخلائق: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ٢٧]

وقوله «وَرَبِّكُم» فيه تعليمٌ وبعْثٌ لهم على أن يقتدوا به ، فيعوذوا بالله عياذَه ، ويعتصموا بالتوكل عليه اعتصامَه.

وقال: ﴿مِن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ لتشملَ استعاذتُه فرعونَ وغيرَه من الجبابرة وليكونَ على طريقةِ التعريض ، فيكونَ أبلغ[1] ، وأراد بالتكبر: الاستكبارَ عن الإذعان للحق ، وهو أقبحُ استكبار ، وأدلُّه على دناءة صاحبِه ومهانة نفسِه ، وعلى فَرْط ظُلمِه وعَسْفه ، وقال: ﴿لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ لأنه إذا اجتمع فى الرجل التجبرُ والتكذيبُ بالجزاء ، وقلةُ المبالاةِ بالعاقبة فقد استكمل أسبابَ القسوةِ ، والجراءةِ على الله وعبادِه

(١) التعريضُ: المقصودُ به التوريةُ والتلميحُ دون التصريح، من عَرَّضَ - بتشديد وسطه - تقول: عَرّض لفلان بالقول: لم يبيّنه ولم يصرّح به، وعرّض بفلان وله: أى قال فيه قولا يَعيبه، ومصدرُه التعريض، وفى الحديث: «إن فى المعاريض لمندوحة عن الكذب» والمعاريض جمع مِعْراض: وهو التورية والفحوى وأصله السِّتر والمقصود: استخدام الرمز فى الكلام دون التصريح.

ولم يترك عظيمةً إلا ارتكبها.

إن الأنبياءَ والصالحين يلجئون إلى الله عز وجل فى شدائدهم ويُفوِّضون أمورَهم إليه ، وكان من دعاء النبىِّ محمدٍ ﷺ إذا خاف قومًا: «اللهم إِنى أجعلُك فى نُحورِهم ، وأعوذُ بِكَ من شُرورِهم».

[مسند الإمام أحمد/ عن أبى موسى]

ولَفْظُه عند أبى داود: «اللهم إنَّا نعوذُ بك من شُرورهم ، وندرأُ بك فى نُحورهم».

ظهور مؤمن آل فرعون:

لقد تحدَّى فرعونُ بنفسه موسى قائلًا لأتباعه ومستشاريه: دعُونى وجهًا لوجْه وموسى لأقتلَه وليكُن ما يكون ، ثم بيَّن السياقُ فى صُورٍ حَيَّةٍ متتابعةٍ أنَّ اللهَ عز وجل قَيَّضَ لموسى مِن آلِ فرعونَ مَن يدافعُ عنه ليطفىءَ نارَ الفتنة ، مستعينًا بالدليل فى مخاطبةِ العقول ، مستميلًا النفوسَ بتلطُّفه فى الحِوار ، وحُسْنِ مَدَاخِله بسلامةِ المنطقِ والحكمةِ والتدرُّجِ فى الحِوار بما يُناسِبُ موقفَ الخَصْم.

إِن هذا الرجلَ لم يَظهرْ فى الميدان إلا حين قال فرعونُ: ﴿ذَرونِى أَقْتُلْ مُوسى﴾ فأخذتْه غَضْبةٌ لله عز وجل ، وقال كلمةَ العدلِ عند الذى ادَّعى الألوهيةَ والربوبية ، وبدأ حوارَه بأسلوبٍ لافتٍ للانتباه ، مُثيرٍ للتفكير ، داعٍ إلى التأمل قائلًا: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ اللهُ؟﴾ أى: لأن يقولَ ربِّى الله ، وهذا إنكارٌ منه عظيم ، وتبكيتٌ شديد ، كأنه قال: أترتكبون الفَعلَةَ الشنعاءَ التى هى قتْلُ نفسٍ مُحرَّمة ، وما لكم عِلَّةٌ قطّ فى ارتكابها إلَّا كلمةُ الحقِّ التى نَطق بها وهى قوله: ﴿رَبِّىَ اللهُ﴾ ثم استدرَجهم هذا المؤمنُ فى الإيمان باستشهاده على صِدْق موسى بإحضاره

عليه السلامُ مِن عِند مَن تُنْسَبُ إليه الربوبيةُ بَيّنات عِدةً لا بينةً واحدةً ﴿وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [غافر:٢٨] أى هو ربُّكم لا ربُّه وحده وأتى «بِالبيِّنات» مُعَرَّفةً بالألف واللام ومعناه: بالبينات العظيمة التى شهدتموها وعرفتُموها ، وهو يسعى بهذا المَدْخَل لَيُلينَ جِمَاحَهُم ويكْسرَ من حدَّتهم ، ويُطفِئَ نارَ غضبهم ، ويَدفعَهم إلى التروِّى والتريُّث والتفكُّر.

ثم أخذهم بالاحتجاج بطريق التقسيمِ فقال: ﴿وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ [غافر:٢٨] فهو يقول لهم معلِّمًا ومحذِّرًا: لا يخلو أن يكونَ موسى كاذبًا أو صادقًا ، فإن يك كاذبًا فضررُ كَذِبه عائدٌ عليه ، وإن يكُ صادقًا يُصبْكُم إن تعرَّضتم له بعضُ الذى يَعِدُكم.

وهو بهذا يخاطبُهم ، بما يَستميلُهم على طريق المُداراة والمُناصحةِ لهم ليَقبلُوا منه ، ولا يَردُّوا عليه كلامَه ، فقدَّم افتراضَ أنه كاذبٌ على ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا﴾ ليناسبَ عقليةَ الخَصم ، ويُبْعدَ عن نفسه تهمةَ التعصبِ له ، ومن هذا القبيلِ قولُه: ﴿يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ مع إيمانه بأنه نبىٌّ صادق ، وأنه يُصيبهم جميعُ ما وَعَدهم لا محالة ، ليبدو فى ظاهر كلامه أنه يَهضِمُه بعضَ حقِّه ، وليُرِيَهم أنه ليس بكلامِ مَن أعطى مُوسى حَقَّه وأثنى عليه فضلًا عن أن يكونَ متعصبًا له ، وهو بهذا يصلُ إلى نفوس الخصومِ بالحكمة والتلطُّف ، ويهدىءُ من ثائرتهم ويدفعُهم إلى النظر فى الأمر بعين الرَّويَّةِ والحكمةِ والخوفِ ممَّا قد يُصيبهم من العذاب ، وإن بعضَ ما وَعدهم به لكافٍ ، لأنه مُهلكٌ فظيع

وفى هذا مبالغةٌ فى التخويف والتحذير ، أو أن البعضَ بمعنى الكُل لأنه إذا وقَع بهم البعضُ أصابهم الكلُّ لا محالةَ - كما يقول أبو عبيدة - وقيل: وَعدَهم موسى العذابَ إن كفروا ، والثوابَ إن آمنوا ، فإذا أَصرُّوا على الكفر يصيبهم بعضُ ما وُعِدُوا أى العذاب.

ثم ختَم هذه المرحلةَ من الحوار بحكمة نفيسةٍ صادقةٍ موحيةٍ فيها إيجازٌ وإعجازٌ وفيها تعريضٌ بالخصوم دون تصريح ، وفيها مداراةٌ لاستمالتهم إليه فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾[1] [غافر:٢٨]
حَقًّا: إن الله لا يُوفِّقُ مَن اختار الضلالةَ وكُتبت عليه الشقاوةُ ، وأسَرفَ على نفسه فى الشِّرك والمعاصى ، وكان من دَأْبه الكذبُ ، لا يوفِّقُه لخيرٍ ولا يُلهِمُه طريقَ الفلاح.

وفى هذا تعريضٌ بفرعونَ بأنه مسرفٌ فى القتل والفساد ، كذَّابٌ فى ادعاء الربوبية والألوهية ، وفيه أيضًا تعزيزٌ لموقف موسى على سبيل التلميح ، فلو كان كاذبًا لظهر ذلك فى أقواله وأفعاله ، إذ تكونُ فى غاية الاضطرابِ والاختلافِ ، أمَّا الحقيقةُ فتؤكِّدُ أَنَّ أمرَ موسى سديدٌ ومنهجهَ مستقيمٌ ، وأنه صدوقٌ صالح ، ولو كان غيرَ ذلك لَما هَداه الله وأرشدَه واصطفاه وعصَمه.

ثم تدرَّج الرجلُ المؤمنُ معهم فى التحذير والتخويفِ على سبيل أنه واحدٌ منهم يَحرِصُ على سلامة الجماعةِ ممّا قد يُسبِّبه عنادُهم وتعنتُهم.

فماذا فعل الرجل الصالح؟

---

(١) وهذه العبارة بإيجازها وروعتها ودقتها فى بيان خذلان المسرفين فى المعاصى المصرِّين على الكذب والعناد، قَد جرَت مَجْرَىَ المثل، واكتسبت صفة المثَل بعد نزولها وشيوعها فى المسلمين، وإذا أنت قلت هذه العبارة بعد حديث عن أبى جهل - مثلا - وتعنته وَجُرأته على الباطل، فقد أصبْتَ وأحسنتَ . . وهكذا.

١٩٣- ج - شتَّان بين ناصحٍ أمين وغاشٍّ لئيم

من تأملات الصحابةِ رضوانُ اللهِ عليهم فى قصة مؤمنِ آلِ فرعونَ الذى كان يكتمُ إيمانَه ، وأثنى اللهُ عليه فى كتابه ، وكان نموذجًا صالـحًا لأهل الإيمانِ فى حكمته وصبرِه وقوةِ يقينِه أنهم وجَدُوا فى أعمال أبى بكرٍ الصديق ما به تَرَجُح كِفتُه فى درجات الصدِّيقين أولياءِ اللهِ الصالحين الذين أخلصُوا جهادَهم لله.

ولا غَرْوَ فأبو بكرٍ رضى الله عنه فى مقدِّمة الصحابةِ الذين هم أعلى الناسِ درجةً فى سُلَّم الوَلايةِ بعد الأنبياءِ الذين ليسوا بمرسَلين ، ولقد رَوَوْا من فضائله رضى الله عنه:

أنَّ عروةَ بنَ الزبير قال لعبد اللهِ بنِ عمرو بنِ العاص رضى الله عنهم: أخبِرنى بأشدِّ شىء مـمَّا صنعه المشركون برسول اللهِ ﷺ ، قال: بينا رسولُ اللهِ ﷺ يُصلِّى بفناء الكعبةِ ، إذ أقبل عقبةُ بنُ أبى مُعيط ، فأخذ بِمَنكِب رسولِ اللهِ ﷺ ، ولَوَى ثوبَه فى عُنقه ، فخنقَه خنقًا شديدًا ، فأقبل أبو بكرٍ فأخذ بِمَنكِبه ودفَع عن النبى ﷺ ، ثم قال: ﴿أَتَقْتُلونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ من رَّبِّكُم﴾ . [غافر: ٢٨]

هذه رواية البخارى: وعند النَّسائى قال ابنُ عمرو: مَرَّ رسولُ اللهِ ﷺ بقريش ذاتَ يوم ، فقالوا له: أنت تنهانا أن نعبُدَ ما يَعْبدُ آباؤنا؟ فقال: «أنا ذلك» فقاموا إليه ، فأخذوا بمجامعِ ثيابه ، فرأيتُ أبا بكرٍ مُحتَضِنَه من ورائه ، وهو يصيحُ بأعلى صوته ، وإن عينيه لَتَسيلان ، ويقول: يا قوم ﴿أتقتلُون رجلًا أن يقولَ ربِّيَ اللهُ؟...﴾ حتى فرَغ من الآية كلِّها.

وفى رواية البزارِ أن علىَّ بنَ أبى طالبٍ قال لبعض الصحابة:

أنشُدكم: أمؤمنُ آلِ فرعونَ خيرٌ أم أبو بكر؟ فسكَتَ القومُ ، فقال: ألَا تُجيبون؟ فواللهِ لساعةٌ من أبى بكرٍ خيرٌ من مِثْلِ مؤمنِ آلِ فرعونَ ، ذاك رجلٌ يكتمُ إيمانَه ، فأثنى اللهُ عليه فى كتابه ، وهذا رجلٌ أعلَن إيمانَه وبذَل مالَه ودمَه.

وفى هذا ما يَدلُّ على أن ما قام به أبو بكر كان أشدَّ مِمَّا قام به مؤمنُ آلِ فرعونَ ، وفى كلٍّ خيرٌ رَضِىَ اللهُ عنهما ، فكلٌّ منهما نورٌ ساطعٌ فى ظُلمة الفتنِ التى أثارها أعداءُ الله ، وكلٌّ منهما جاهَد مخلصًا ، وقال كلمةَ العدلِ عند العتاة المتجبِّرين ، دفاعًا عن النبوة ، وغَيْرةً على الحق ودحضًا للباطل ، وكلٌّ منهما سلَك السبيلَ المناسبَ للموقف فى حِينه وأدَّى واجبَه على أحسنِ الوجوهِ وأكملِها. إنها الرجولةُ حقًّا فى أعظم صورِها ، وأبهى مواقفِها رضى اللهُ عنهم أجمعين.

ونعودُ بعد هذا إلى مُحاورةِ الرجلِ المؤمنِ التقىِّ قومَه ، فقد أنكر عليهم أن يَقصِدوا قَتْلَ رجلٍ يُؤمنُ بالله ، ويتحدَّاهم بالمعجزات الظاهرةِ لهم ، وبيَّن لهم أنه من العقل والحكمةِ ، والرأىِ التامِّ ، والحزمِ أن يتركوا موسى ونفسَه ، فلا يُؤذوه ، وأن يُخلُّوا بينه وبين ما هو فيه تاركين أمرَه لله عز وجل ﴿وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ [غافر:٢٨] بعد هذا زاد قومَه تحذيرًا وألحَّ على كُبريات المسائلِ التى ينبغى للقوم أن يَلتفتوا إليها ، ويَحرِصوا عليها فقال: ﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِى الأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللهِ إِن جَاءَنَا﴾ [غافر:٢٩] يُخوِّفهم زوالَ نعمةِ الله عنهم ، وأن يَقلِبَها سبحانه عليهم عذابًا ، لأن النعمةَ تَثبُتُ وتدومُ بالشكر وطاعةِ الرسل.

«يَاقَوم» نداءٌ يُشعِرُهم به أنهم قريبون من نفسه ، ويُمهِّدُ بذلك لقوله متحدثًا بضمير المتكلمين: ﴿فَمَن يَنصرُنَا من بَأسِ الله إن جَاءَنَا﴾ لتأكيد الإشعارِ بأنه منهم فى القَرابة ، وليُعلِمَهم بأن الذى يَنصحُهم به هو مساهِمٌ لهم فيه ، وهو بهذا يَتحبَّبُ إليهم ، ليكونوا أقربَ إلى قبول وَعْظه.

و﴿ظَاهِرِينَ فِى الأَرضِ﴾ أى عالين فى أرض مصرَ ، ولكم مُلْكُها وقد صارت لكم الكلمةُ على سائر الناسِ فيها ، وفى هذه المقدمة تشويقٌ لِمَا يأتى بعدُ ، وهو قوله: ﴿فَمَن يَنصرُنَا من بَأْسِ الله إن جَاءَنَا﴾ وهو أَسلوبُ استفهامٍ يَحمِلُ معنى النفى ويَلفِتُ السامعَ إلى التفكُّر ، ويوجِّهُ النفوسَ إلى المعنى المقصودِ من أقرب طريقٍ وأروعه ، وهو: أن لا أحدَ يستطيعُ أن يَرُدَّ عنا عذابَ اللهِ إن نَزل ، ولا تُغنى عنا هذه الجنودُ والعساكرُ إن أراد اللهُ خصومَ موسى بسوء.

وهذا من بديع حوارِه وقدرته على الإقناع ، وحكمته فى توجيهِ الخطاب ، وتلطُّفه فى استمالتهم ، وحَملِهم على التريثِ والتدبرِ فى أمر معاداتِهم لرسولِ الله وعواقبِه التى لا قِبَلَ لهم بها ، وإن فى تخويفهم من زوال النعمةِ حثًّا على وجوب رعايتِها وشكرِ المنعمِ بالإيمان والطاعةِ وتصديقِ رسوله.

لَمَّا سَمِع فرعونُ مقالةَ الناصحِ الأمينِ ، الذى كان أحقَّ بالـمُلك منه وأدَرك ظهورَ حُجته ، جاء بمراوغةٍ ، سعى بها إلى تحويل الانتباهِ إليه ولنتدبر: ﴿قَالَ فِرْعَونُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَى وَمَآ أَهْدِيكُم إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]

أى: قال فرعونُ لقومه رادًا على ما أشار به هذا الرجلُ الأمينُ البارُّ الراشدُ ﴿مَا أُرِيكُم إِلَّا مَا أَرى﴾ أى ما أُشِيرُ عليكم إلا بما أَراه لنفسى

وقد كَذَبَ فرعونُ وغَشَّ ، لأنه كان يتحققُ صِدْقَ موسى فيما جاء به من الرسالة ، كما جاءت الإشارةُ إلى ذلك فى سورة الإسراء على لسان موسى فى الردِّ على فرعون: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [الآية: ١٠٢]

وفى سورة النمل: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [الآية: ١٤]

فقولُ فرعونَ إنه يختارُ لهم ما يختارُ لنفسه كَذَبَ فيه وافْتَرى ، وخانَ اللهَ ورسولَه ورعيتَه ، فغشَّهم وما نَصَحهم ، وكذا قوله: ﴿وَمَا أَهْدِيكُم إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ وما أدعوكُم بهذا الرأى إلا إلى طريق الحقِّ والصدقِ والرُّشد ، أو ما أُعلِمُكُم إلا ما أَعْلَمُ من الصواب ، ولا أَدَّخِرُ منه شيئًا ولا أُسِرُّ عنكم خلافَ ما أُظهِر ، يعنى أن لسانَه وقلبَه متواطئان على ما يقولُ وقد كَذَب فرعون أيضًا فى ذلك ، لأنه يعلمُ أن موسى صادقٌ ولم يَتَّبِعْه ، ولم يَدْعُ قَوْمَه إلى اتِّباعِه ، ولأنه من ناحيةٍ أُخرى ، كان مستشعرًا للخوف الشديدِ من جهة موسى ، ولكنَّه كان يتجلَّد ، ولولا استشعارُه لم يَستشِرْ أحدًا ، ولم يَقِف الأمرُ على الإِشارة ، وأَخْذِ الرأى على تحقيق عَزْمِه قَتْلَ موسى.

ومع وضوحِ غشِّه وخداَعه أطاعه قومُه واتَّبعوه فهلكوا كما جاء بيانُه فى سورة هود: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ۝إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوٓا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ۝يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ۝وَأُتْبِعُوا فِى هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ [الآيات: ٩٦-٩٩]

والوِرْدُ المورود: المقصودُ به: الـمَدْخَلُ المدخولُ فيه ، وهو النار والرِّفْد: العطاءُ ، والمعنى: لقد لُعِنوا فى الدنيا ، ولُعنوا فى الآخرة أى فبئس العطاءُ الـمُعطَى لهم فى تلك اللعنةِ المضاعَفةِ ، وسُمِّيت اللعنةُ رِفْدًا على سبيل التهكم بهم.

وفى سورة طه: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾ [الآية:٧٩]

وفى الحديث: «ما من إِمام يموت يومَ يموتُ وهو غاشٌّ لرعيته إِلَّا لم يَرُحْ رائِحةَ الجنةِ وإِنَّ رِيحَها لَيُوجَدُ من مسيرة خمسِمائةِ عام»

[فى الصحيحين ومسند الإمام أحمد برواية معقل بن يسار]

ولفظُه فى البخارى عنه: «ما مِن والٍ يَلِى رعيةً من المسلمين فيموتُ وهو غاشٌّ لهم إلَّا حَرَّم اللهُ عليه الجَنَّةَ».

وفى لفظ آخر عند البخارىِّ: «مَا مِن عَبدٍ استرعَاهُ اللهُ رعيةً فلم يَحُطْها بنصيحةٍ إِلَّا لم يَجِد رائحةَ الجنة».

وقوله: «فلم يَحُطْها» أى لم يَحْفَظْها ، والنصيحةُ والنُّصحُ: إرادةُ الخيرِ لغيرك وإِرشادِه له.

وهذا وعيدٌ شديدٌ لَمِن يلِى أمرًا من أمور الناسِ ويغشُّهم ، وقد تضمَّن الحثَّ على الإِخلاصِ والسعْىَ فيما فيه صلاحُهم وخيرُهم.

رأى الرجلُ الصالحُ أن فرعونَ عاد إلى تعنته وإِصرارِه على تكذيب موسى وإِيذائه ، فكرَّر لهم النصحَ ، وعاد إلى تحذيرهم بأسَ اللهِ وعقوبتَه ، ضاربًا لهم الأمثالَ بما جرَى للذين تَحزَّبوا على أنبيائهم ولنتدبر: ﴿وَقَالَ الَّذِىٓ ءَامَنَ يَا قَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ﴿ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٣٠:٣١]

(١٢٥٩)

أى: فقد حلَّ بهم جميعًا بأسُ الله وعذابُه ، وكان لكل قومٍ يومٌ صارَ مثلًا للعبرة والازدجارِ ، وما ردَّ عنهم العذابَ رادٌّ ، ولا صَدَّه عنهم صادٌّ.

وقولُه: ﴿مِثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ﴾ أى: مِثْلَ أيامِهم ، لأن كلَّ حِزبٍ منهم كان له يومُ دمارٍ ، وقد اقتَصر على الواحد من الجمْع لأن المضاف إليه وهو «الأحزاب» ، أغنى عن ذلك ، وقد فسَّره الزجاجُ بقوله: مِثْلَ يومِ حِزْبٍ حِزْبٍ ، وقولُه ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَومِ نُوحٍ وَعادٍ وَثَمودَ والَّذينَ مِن بَعْدِهم﴾ وإنَّ دأبَ هؤلاء هو دُؤوبهم واستمرارُهم فى عملهم من الكفر والتكذيب وسائرِ المعاصى ، وكونُ ذلك دائبًا دائمًا منهم ، لا يَفترون عنه ولا بدَّ هنا من تقدير حذفِ مضافٍ يُريد: مِثْلَ جزاءِ دأْبِهم وإصرارِهم على المخالفة والعناد.

﴿وما اللهُ يُريدُ ظُلْمًا للعِبَاد﴾ وفى هذا تنبيهٌ للعباد ليستقيموا على أمره طلبًا لمرضاته ، ويجتنبُوا ما يكون سببًا لسُخطه ، فإنه سبحانه إنما أهلَكَ الأممَ المتجبِّرةَ بذنوبهم ، وبتكذيبهم رسلَه ، ومخالفتِهم أمرَه ، فأنفَذَ فيهم قَدَرَه.

وبعد أن خَوَّفَهم بأسَ الله فى الدنيا حَذَّرهم من عذابه فى الآخرة فقال: ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ يعنى: يومَ القيامة وَسُمِّى بذلك لأن الناسَ يُنادِى فيه بعضُهم بعضًا للاستغاثة ، ويتصايحُ فيه الكفارُ بالويل والثبورِ والحسرة ، ويُنادى أهلُ الجنةِ أهلَ النار: ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حقًّا﴾ [الأعراف: ٤٤] ويُنادى أصحابُ النارِ أصحابَ الجنة: ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ﴾ [الأعراف: ٥٠] وتُنادى

الملائكةُ أهلَ الإيمانِ والعملِ الصالحِ: ﴿أَن تِلْكُمُوا الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]

قال البغوى وغيرُه: إنه سُمِّى بيومِ التنادِ لمجموع ذلك ومثلِه، وهو قَوْلٌ حَسَن.

وفى هذا اليومِ العظيمِ الهولِ يُولِّى أهلُ الشرِّ والإلحاد هاربين من زفير جهنمَ وشهيقِها، وأنَّى لهم الفِرارُ منها؟ ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [غافر: ٣٣]

أى ما لكم مانعٌ يمنعُكم من عذاب الله وبأسه، ومَن أضلَّه اللهُ فلا هادِىَ له سِواه سبحانه، ومَن خذَله فلا مُخَلِّص له من شقاء الأبد.

ثم ساق الرجلُ الصالحُ لهم بعد ذلك مَثَلًا من أحوال آبائهم وعنادِهم مع الأنبياءِ زيادةً فى التحذير من مخالفة موسى ومن التعرُّضِ لعقوبة اللهِ.

فماذا قال؟

❊ ❊ ❊

(١٢٦١)

١٩٤ - د - حُجَّةٌ على المُلْحِدين وعِبْرَةٌ لذوى العقولِ والفِطَن

فى مَساقِ نُصحِ الرجلِ المؤمنِ قومَه القبطَ والاحتجاجِ عليهم لردْعهم عن التعنت والعنادِ بيَّن لهم أن تكذيبَهم موسى كتكذيب آبائِهم وأسلافِهم مِن قَبْل ، وهذا معناه أنه كما أَهلَك أُولئك قديمًا وذهبوا بآثامهم كذلك يَفعل بهؤلاء ، قال: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ [غافر: ٣٤]

والكلامُ لأهل مصرَ ، وفى تعليق ابنِ كثير يقول: قد بَعث اللهُ فيهم رسولًا من قَبْلِ موسى ، وهو يوسفُ ـ عليه السلام ـ كان عزيزَ أهلِ مصر وكان رسولًا يدعو إلى اللهِ أمتَه القِبطَ (*) ، فما أطاعوه تلك الساعةَ إلا لمجرد الوَزارةِ والجاهِ الدنيوى ، ولهذا قال: ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ أى: يَئِستم فقلتم طامعين: ﴿لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ وذلك لكفرهم وتكذيبهم ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ أى: كحالكم هذا يكونُ حالُ من يُضِلُّه اللهُ لإسرافه فى أفعاله ، وارتيابِ قلبِه ، أو مِثْلِ

(*) يوسف بن يعقوب عليه السلام من بنى إسرائيل، ولعل ابن كثير نظر إلى أنه صار أحد المسؤولين فى الدولة يسعى فى مصالح الرعية. والقبط هم الأمة التى يتولى يوسف أمسّ شؤونها ويسعى مخلصا فى تحقيق الخير لهم، فصاروا أمته يطيعونه فيما ولاه الله من أمورهم، فهو وزيرهم، وقد اصطفاه الله للرسالة يدعوهم إلى الهدى والخير.

هذا الخذلان المُبين يَخذُل اللهُ كلَّ مُسرفٍ فى عِصيانه ، مُرتابٍ[1] فى دينه.

لقد وبَّخهم الرجلُ المؤمنُ: بأنَّ يوسفَ أتاهم من قبلُ بالمعجزات فشكُّوا فيها ، ولم يزالوا شاكِّين كافرين حتى إذا قُبض ، قالوا: ﴿لَن يَبْعَثَ اللهُ من بَعْده رَسُولًا﴾

حُكمًا من عند أنفسِهم من غير برهانٍ ، وتَقدِمةَ عَزْمٍ منهم على تكذيب الرسل ، وكأنه قال لهم: فإذا جاءكم رسولٌ جحدتُم وكَذَّبتُم بناءً على حكمكم الباطلِ الذى أسَّستُموه ، وليس قولُهم: ﴿لَن يَبْعَثَ اللهُ من بَعْده رَسُولًا﴾ بتصديقٍ لرسالةِ يوسفَ ، وكيف وقد شكُّوا فيها وكفَروا بهاَ ، وإنما هو تكذيبٌ لرسالةِ مَن بَعْدَه مضمومٌ إلى تكذيب رسالتهِ عليه السلام.

ومن البيِّنات التى جاءهم بها يوسفُ حجاجُه العقلىُّ كما جاء فى قوله من سورة يوسف: ﴿أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَم اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّار۝مَا تَعْبُدونَ من دُونِهِ إلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُموهآ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّآ أَنزلَ اللهُ بِهَا من سُلْطَانٍ إنِ الْحُكْمُ إلَّا للَّه أَمرَ أَلَّا تَعْبُدُوآ إلَّآ إيَّاهُ ذَلكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [٣٩ ، ٤٠]

إِنه اللهُ المتوحِّدُ بالألوهية الذى نطَقت آياتُه بوجوده وكمالِ سلطانِه

---

(١) مسرف: اسم فاعلٍ من أسرف، ومُرتاب اسمُ فاعل - أيضا - من ارتاب المبنىِّ للمعلوم، لأنه فى الآية وصفٌ للفاعل، وهذه الصيغة تأتى اسمَ مفعول من ارتيب المبنىّ للمفعول تقول: هذا شىء مرتاب فيه. وعليه يقاس مثل: محتاج، معتاد، منقاد ونحوه اذا كان الفعل على وزن افتعل أو انفعل الأجوفين (احتاج، اعتاد، انقاد) ومثله ما كان من افتعل وانفعل المضعَّفين مثل: امتد وانحل أو فاعل أو تفاعَل أو افعلّ أو افعالّ المضعفات مثل: حادّ، وتحابّ، واحمرّ، واحمارّ، فالمدار فى اسمى الفاعل والمفعول منها على القرينة ويختلف الوزن بالتقدير.

وعدمِ حاجتِه إلى شريك ، وهو القهارُ الغالبُ الذى لا يُعادلُه ولا يقاومُه غيرُه. هو الذى يَقصِمُ ظهورَ الجبابرةِ فيقهَرُهم بالإذلال والإهانةِ والنكباتِ والإهلاكِ ، والقهَّارُ مبالغةٌ فى القاهر وهو سبحانه: ﴿القَاهِرُ فَوْقَ عِبَاده﴾ [الأنعام:١٨ وآية: ٦١]

فكيفَ تَعبدون من سَمَّيتموها آلهةً ولم يدلّ على استحقاقها الألوهيةَ عقلٌ ولا نَقْلٌ؟ إنكم أطلقتم عليها أسماءً مِن غير حُجةٍ تدلُّ على تحقُّق مُسمَّياتِها فيها ، فكأنكم لا تعبدون إلا الأسماءَ المجردةَ ، وهذا وهْمٌ فى وهْم ، وضلالٌ فى ضلال.

إنَّ الـحُكْمَ فى أمر العبادة لله وحده ، لأنه المستحقُّ لها بالذات من حيث إنه الواجبُ لذاته الموجدُ للكل ، والمالكُ لأمره ، وقد أمر سبحانه على لسان أنبيائه ﴿ أَلا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ الذى دلَّت عليه الحُجَجُ ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أى الحقُّ الثابت ، وأنتم يا قومَ فِرعونَ لا تميِّزون المعوَجَّ من القويم.

وهذا نموذجٌ عالٍ فى الدعوة إلى الله بالحكمة:

إنه من التدرُّجِ فى الدعوة وإلزامِ الحجةِ عن طريق الـخَطابة ، ثم بَرْهَنَ على أنَّ ما يسمُّونها آلهةً ويعبدونها لا تستحقُّ الألوهيةَ ، فإن استحقاقَ العبادة إمَّا بالذات ، وإمَّا بالغير وكِلا القِسمين مُنْتفٍ عن هذه الآلهة ، ثم نَصَّ يوسفُ عليه السلام لرفيقيه فى السجن ولأهل مصرَ على ما هو الحقُّ القويم ، والدينُ المستقيمُ الذى لا يَقتضى العقلُ غيرَه ، ولا يَرتضى العلمُ دونه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ فَيَخبِطون فى جهالاتهم.

لقد نَسب الرجلُ المؤمنُ تكذيبَ الآباءِ يوسفَ إلى المخاطَبين فى

عصره للإيحاء بأن العنادَ فيهم قديمٌ ، وللتنبيه إلى أن السيرَ على درب الآباءِ دونَ إعمالِ العقلِ فى الحجج والبراهينِ والآياتِ يَضرُّهم ولا ينفعُهم ، ولأن الأممَ متكافلةٌ فيما بينها ، فَيُنسَبُ ما حدَث من بعضها إلى جميعها، خصوصًا إذا كان المخاطَبون على مثْل حالِ مَن سَبَقوهم ولقد وبَّخَ القرآنُ الكريمُ كفارَ قريش لجمودهم على الموروثات العَفِنةِ بمثل قوله: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُم لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠]

ثم انتقل سياقُ الحوارِ إلى بيان منهجِ المُسرفين المرتابين فى الجدال والحِجاج ، وهو منهجٌ لا يَعتمدُ العقلَ ولا النقل ، وإنما يرتكزُ على الأغاليط وتقديمِ السبابِ مكانَ الدليل ، وعلى القياسِ المركَّبِ من الوهميات عِوضًا عن البرهان المؤسَّسِ على المنطق الدقيقِ الذى يُنيرُ للعقل طريقَه ، ويرشدُه إلى الصواب ، ويدلُّه على الحق كالبراهين القرآنيةِ مثل: ﴿أَفَمن يَخْلُق كَمَن لَّا يَخْلُق﴾ [النحل: ١٧]

و ﴿أَمْ خُلقُوا من غَيرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُون﴾ [الطور: ٣٥]

و ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ الله عِبادٌ أَمْثَالُكُم فَادْعُوهُم فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُم إِن كُنتُمْ صَادِقِين﴾ [الأعراف: ١٩٤]

ونحوِ ذلك من البينات التى تتسمُ بقوة الدلالة ، وسطوعِ البرهان.

ولنتدبر ما جاء فى سياق سورة غافر من توبيخٍ للَّذين يُجادلون بغير دليل ، ويَطْعَنون فى الآيات بغير بيِّنة: ﴿الَّذينَ يُجَادلُونَ فِى آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُم كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّار﴾ [الآية: ٣٥]

أى: إنَّ جِدالَ الَّذين يُجادِلون فى آيات اللهِ بالباطل وبغيرِ حُجةٍ ولا

بُرهانٍ عظيمٌ إثمُه وكَبُرَ جرْمُ أصحابه عند الله ، كما كَبُر عند أهلِ الإيمان مَقْتُه وبُغْضُه لأنَّ المؤمنين يُبْغِضُون الجدالَ بغير حقٍّ ، والمماراةَ بالباطل والزور ، ولا يُحبون مَن يطعنُ بالباطل ، ويَردُّ بغير دليل ، ولا يَستخدم العقلَ فى الحِوار طلبًا للحق ، ورغبةً فى الهداية ، فإنَّ مَن كانت هذه خِصالَهُ يَطبعُ اللهُ على قلبه ، فلا يَعرِفُ بعد ذلك معروفًا ولا يُنكِرُ مُنكرًا ، ويكونُ ضالًّا مُضلًّا .

إنَّ مَقْتَ الله تعالى: معناه: ذَمُّه لهم ، ولَعْنُه إيَّاهم ، وإحلالُ العذابِ بهم ، ومَقْت المؤمنين لهذا: هو بغضُهم لهذا المَسْلَك المَعيبِ الذى لا يَتَّسِمُ فيه أصحابُه بالتعقُّل والرغبةِ فى الوصول إلى الحقِّ والتزامه .

إنَّ فِرعونَ بعد سماعِه موعظةَ المؤمن ، وتحذيرَهُ له من بأس الله إذا هو كَذَّب موسى ، وبعد ما أظهره الرجلُ الصالحُ مِن إشفاقٍ على قومِه وما أبداه من رغبةٍ فى الخير لهم ، بعد هذا النمطِ الرفيعِ من جِدِّيةِ الجِدَالِ خَرَج فرعونُ عن وقار الموقفِ ، وعن الإصغاءِ لصوت العقلِ والحكمةِ وصاح هاربًا فقال: ﴿يَاهَامَانُ ابْنِ لِى صَرْحًا لَعَلِّى أَبْلُغُ الأَسْبَابَ ۝ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّى لأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾[غافر: ٣٦: ٣٧]

إنه بذلك خرج من الحِجَاج العقلىِّ والمنطقِ السديدِ إلى الوهْميَّات إذْ أراد أن يُوهِمَ الرعيةَ أنه يعملُ شيئًا يتوصَّلُ به إلى تكذيب موسى ، وهو طلبُه من وزيره الأحمقِ أن يبنِيَ له قصْرًا عاليًا شاهقًا ليصلَ عن طريقه إلى طُرق السمواتِ وأبوابِها وما يؤدِّى إليها ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾ والأسبابُ جمْعُ سبَبٍ وأصلُه الحبْل ، ثم استُخْدِم على سبيل المَجَازِ فى كلِّ ما أدَّاك إلى شَىء ووصلْتَ عن طريقه إلى غاية ، كالطريق ونحوه ، لقد أراد فرعونُ بذلك: الاستهزاءَ والتهكُّمَ وذلك من فَرْط كُفرِه

وتَمردِه ثم أكَّد تكذيبَه وقُبْحَ طَويَّتِه وإصرارَهُ فقال: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ وقد بَيّن سياقُ الآيةِ الكريمةِ السببَ الذى دعاه إلى ما صَنع فقال: ﴿وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِه وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ وما ذلك إلا لـخذْلانه ، أى وهكذا زَيَّن الشيطانُ لفرعونَ هذا العملَ السيئَ فاستمرَّ على تَعنّتِه وتجبُّرِه ، وصُدَّ عن سبيلِ الله بأمثال هذه التمويهاتِ والشبهاتِ فَضلَّ وأَضلَّ ، وما كان ذلك إلا لسوء اختيارِه ، وفسادِ استعدادِه وظلامِ قلبِه ، ثم أكَّدت الآيةُ عن طريق الحصْرِ بِمَا وإلَّا أنَّ سعْيَه فى ضَياع، وأن عاقبةَ أمرِه الـخُسران ، فما هو فيه من الزهْو ومن القوةِ والتسلُّطِ إنما هو استدراجٌ وإمهالٌ: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾ [غافر:٣٧] أى وما مكْرُه واحتيالُه فى إبطال آياتِ موسى إلا فى ضَياع وهلاك: والتبابُ فيه معنى الـخُسرانِ والضَّياعِ والهلاكِ ، وإن النصرَ فى العاقبة للمتقين.

وفى هذا تسليةٌ لأهل الإيمانِ وبُشرى ، ووعيدٌ لكلِّ جاحدٍ مُسرفٍ جبَّار.

وتأمَّلْ ما فى الآيات من إعجازٍ وروعةٍ ودقةٍ ، وكيف صَوَّرت ما يدورُ فى النفوس من عقائدَ وتوجُّهاتٍ أبدعَ تصويرٍ وأَدقَّه ، ونَقلتْ إلينا الألفاظُ والعباراتُ عقليةَ المتحدثِ وشعورَه وتوجُّهَه على نحوٍ يأخذُ بالألباب ، مع تقريبِ الأمورِ إلى أفهامنا وعقولِنا بما نَتصوَّرُه ونُدركُه ونُعايشُه كأننا على الساحة فى أرض مصرَ أيام فرعون موسى نسمعُ ونرى ونُشاهدُ ما يَجرى من صراعٍ بين الحقِّ وأهلِه والباطلِ وأعوانِه ، إنه كلامُ ربِّ العالمين الذى لا يأتيه الباطلُ من بيْن يديْه ولا من خَلفه.

ثم هَيَّا إلى الرجل المؤمنِ وقد عاد يَنْصَحُ ، ويَدأَبُ ، ويُثابرُ على التوجيه والإرشاد ، ويدعو دعوةً صريحةً إلى ما آمن به.هو ، وهو طريقُ الهُدى والسدادِ والفلاح ، وقد تَدرَّج فى موعظته ، وجاءت

الأساليبُ مُنوَّعةً بين الخبرِ والإنشاء ممَّا يَلْفتُ السامعَ ، ويُحيي شعورَه كما تَنوَّعت بين الشدَّة واللِّين بما يأخذُ بمجامعِ القلوبِ وينفذُ إلى النفوس فَيُرقِّقها ويُلينها: ﴿وَقَالَ الَّذِيٓ آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ۞يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ۞مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾. [غافر: ٣٨: ٤٠]

أَجْمَلَ لهم الدعوةَ في عبارةٍ قويةٍ موجزةٍ موحيةٍ فقال: ﴿اتَّبِعُونِي أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ ثم فَسَّر ذلك فافتتح التفصيل بِذَمِّ الدنيا وتصغيرِ شأنِها لأن الإخلادَ إليها هو أصلُ الشرِّ كلِّه ، ومنه يتشعبُ جميعُ ما يُؤدى إلى سُخْطِ الله ، ويجلبُ الشقاوة في العاقبة ، وثَنَّى بتعظيم الآخرة ، وبيانِ حقيقتها ، وأنها هي الوطنُ والمستقرّ ، وذكَر الأعمالَ سَيِّئَها وحَسَنَها وعاقبةَ كلٍّ منهما ليُثبِّط الهممَ عَمَّا يُهلكُ النفسَ، ويُتلفُها ويُنشِّطَ لِمَا يُقرِّبُ ويُزْلِفُ ويَجْعَلُ الإنسانَ أهلًا لرحمة الله عزَّ وجل.

ثم وازَن الرجلُ الصالحُ أَجْمَلَ موازَنةٍ بين الدعوتين دعوتِه إلى دين الله الذي ثمرتُه النجاةُ ، ودعوةِ الخصومِ إلى اتخاذ الأنداد الذي عاقبتُه النارُ ، فقال: ﴿وَيَا قَوْمِ مَالِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى النَّارِ۞تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾ [غافر: ٤١: ٤٢] وفي المقابلة بين الأمورِ المتضادةِ ما يَلفتُ أُولِي الألبابِ إلى حُسن مآلِ المؤمنين ويُرغِّبُ في طريقهم ، ويلفت إلى قُبح مصيرِ المعاندين والمصرِّين والتنفيرِ من مسالكهم ، ثم تأمّل نداءاته «يا قَوم... يا قوم» وتأكيدَه استمالتَهم بها ، وحُسْنَ مُداخلَتِه إلى النفوس

إذْ هو يرجو لهم النجاةَ ويسعى فى دعوتهم إلى أسبابها جُهْدَه ، فهل من العقل والحكمةِ أن يُكافَأَ على ذلك بالدعوة إلى ما يكون سببًا فى عذاب جهنَّمَ ، فهم يدعُونه إلى الشرك والكفرِ ولا دليلَ على حَقِّهم فى ذلك، وهو يدعوهم إلى العزيزِ الذى لا يُغلَب الغفارِ الذى يَرْحَم التائبين ويعفو عن النادمين الصادقين ، فأىُّ الفريقين أحقُّ بالاتباع يا أهلَ العقل والبصيرة؟.

ثم حَذَّر الرجلُ قومَه وأنذر ، وخَوَّفهم عاقبةَ دعاءِ مَن لا يملكُ نفعًا ولا ضُرًّا وما هو ليس بشىء على الإطلاقِ ، ولفتهم إلى عاقبة المُسرفين المتمادين فى الضلال ، وأكَّد لهم أنهم سيذكُرون كلَّ ما نصحَهم به مع انقضاء الدنيا وإقبالِ الآخرة ، حيث يَندمون ولا ينفعُهم الندمُ فقال: ﴿لا جَرَمَ أَنَّ ما تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِى الدُّنْيَا وَلا فِى الآخِرَةِ وأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى اللهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ۞فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى اللهِ إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [غافر:٤٣: ٤٤] أى: أَتوكلُ على الله وأستعينُه وألجأُ إليه وحده ، وهو سبحانه بصيرٌ بِعباده فيَهدى مَن يستحقُّ الهداية ، ويُضِلُّ مَن يستحقُّ الإضلال ، وله الحجةُ البالغةُ ، والحكمةُ التامة ، والقَدَرُ النافذ.

فَوَّض أمره إلى الله فحَفظَه اللهُ فى الدنيا من مكرهم، ونجَّاهُ مع موسى وفى الآخرة يفوزُ بجنات النَعيم ﴿فَوَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾ أمَّا أعداءُ الحق فإلى الهلاك فى الدنيا وإلى العذاب المقيمِ فى الآخرة ﴿وحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ . [غافر: ٤٥]

إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ استثنى هذا الرجلَ الصالحَ من آل فرعونَ ، وجعلَه حجةً عليهم ونموذجًا صالحًا لذوى العقولِ والفطنَ ، وعبرةً للمعتبرين.

وإنه لنموذجٌ ومثَلٌ عظيمٌ صالحٌ للدعاة والمرشدين..

(١٢٦٩)

١٩٥ - أ - مَثَلٌ فِي الصَّبر

مِن أنبياء الله أيوبُ عليه السلام ، وقد جاءت سِيرتُه فى كتبِ أهلِ الكتاب ، وفى القرآن الكريم ذُكِرَ اسمهُ عليه السلامُ أربعَ مرات: فى سورة النساءِ فى قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِه وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً﴾
[الآية: ١٦٣]

وفى سورة الأنعام: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُـلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِه دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الآية: ٨٤]

أى: من ذرية إبراهيمَ الخليلِ عليه السلام ، وفى سورة الأنبياء جاء تفصيلُ شيءٍ من مواطنِ العبرة والأُسوةِ الحسنةِ من حياته عليه السلامُ فى آيتين من قوله: ﴿وأيوبَ إِذْ نادى ربَّه..﴾ [٨٣ ، ٨٤]

وفى سورة صاد فى أربع آياتٍ من قوله تعالى: ﴿واذْكُرْ عبدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ...﴾ [الآيات: ٤١-٤٤]

وإِنَّ اسمَ أيوبَ عليه السلام اقترن بالصبر على البلاء ، والرِّضى بالقضاء ، وبسلامة نفسه الشريفة من الضجَر والجزَع ، فَضُرِب به المثَلُ فى الصبر ، وصار حالُه فى ضُرِّه وفى كشْفِ الضُّرِّ عنه تذكرةً وعِبرةً لغيره من العابدين ، إذ بالتأمُّل يزدادُ اليقينُ بكمال قدرةِ الله عز وجل وبكمال رحمتِه ، ويُذعِنُ أولو البصائر لأمرِه سبحانه بالشكر على النعماء، وبالصبرِ على الضُّرِّ والبلاء ، كما صبَر أيوبُ ، فَيُثابون كما

أُثيب عليه السلام ، ويَحْيَوْن مطمئنةً نفوسُهم ، ساكنةً قلوبُهم لإِيمانهم بأن ما شاء الله كان ، وما لا يشاء لا يكون ولو كره الناس.

وفى مواطنِ العبرةِ من أحوال الأنبياء وسيَرِهم يقول الله تعالى عن أيوبَ من سورة الأنبياء: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّه أَنِّى مَسَّنِىَ الضُّرُّ وَأَنت أَرْحَمُ الرَّاحِمِين﴾ أى: واذكر أيوب حين نادى ربَّه بأنى مَسَّنى الضُّر أى: الضررُ فى النفس من مرضٍ وهزالٍ.

أما الضَّرُّ بالفتح فهو الضررُ فى كل شىء ، وقد ألطفَ عليه السلامُ فى السؤال حيث ذكَر نفسَه بما يستدعِى الرحمةَ ، وذكَر ربَّه بغاية الرحمة، ولم يُصَرِّح بالمطلوب ، وإِنَّ المقصودَ بذكرِ قِصتّه عليه السلام استحضارُ حالته ، والتيقظُ لها ، والتدبرُ فيها ، واستخلاصُ الحكمةِ والعِظة ، والانتفاعُ بما تُرشدُ إليه، وليس مجرَّدَ الخطورِ بالبال، فقد سِيقت القصةُ فى كتاب ربِّنا للاتعاظ والاعتبار.

وقد سُمِّى: أيوبَ لكثرة إِيابِه ورجوعِه إلى الله فى جميع أحوالِه فى السراء والضراءِ ، والشدةِ والرخاء ، قال ابن عباس: سُمى أيوبَ لأنه آبَ إلى الله فى كل حال ، وقد نبه اللهُ عبادَه إلى ما كان أصابَه من البلاء فى جسمه وماله وولده ، وذلك أنه كان له من الدواب والأنعامِ والحرْثِ شىءٌ كثير ، وأولادٌ كثيرة ، ومنازلُ مُرضية ، فابتُلِىَ فى ذلك كلِّه وذَهب عن آخره ، ثم ابتُلِى فى جسده فصبر صبرًا جميلًا فوهبه الله العافية وأعطاه أكثرَ مِمَّا فقَد من أهلٍ ومال ، وأثنى عليه ثناءً جميلًا فى كتابه العزيز وجعله نبيًّا.

وكانت لأيوبَ زوجةٌ صالحةٌ قامت بأمره ، وأخلصت له فى مرضه وعند الحاجةِ صارت تخدمُ الناسَ من أجله ، وقد جاء عند بعض

(١٢٧١)

أصحاب السننِ عن سعد بنِ أبى وقاص أن النبىﷺ قال: «أشدُّ الناسِ بلاءً الأنبياءُ ، ثم الصالحون ، ثم الأمثلُ فالأمثل» قال الترمذى: حديث حسن صحيح ، وفى مسند الإمام أحمد: «يُبتلَى الرجلُ على قدْر دينه فإن كان فى دينه صلابةٌ زِيدَ فى بلائه».

لم ينقطع أيوبُ عن ذكر الله وطاعته لحظةً ، وكان بقدَر اللهِ راضيًا مطمئنةً نفسُه ، مُثنيًا على ربِّه أنْ فَرَّغَ قلبَه للاشتغال بمولاه وحده ذاكرًا شاكرًا حامدًا راجيًا خائفًا ، قال يَزيدُ بنُ ميسرةَ: «لـمَّا ابتَلى اللهُ أيوبَ عليه السلام بذهاب الأهلِ والمال، ولـم يبق له شىءٌ ، أحسنَ الذِّكر، ثم قال: أحمدُك ربَّ الأربابِ ، الذى أحسنتَ إلىَّ ، أعطيتنى المالَ والولدَ فلم يبقَ من قلبى شُعبةٌ إلا قد دخله ذلك ، فأخذتَ ذلك كلَّه منِّى وفَرَّغت قلبى ، ليس يَحولُ بينى وبينك شىءٌ ، لو يعلمُ عدوِّى إبليسُ بالذى صنعتَ ، حسدَنى ، قال: فلقى إبليسُ من ذَلك شيئًا مُنكرًا».

التفريج عنه:

ولما أراد الله عز وجل أن يُفرِّج عنه قال تعالى له: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص: ٤٢]

رُوى: أنه قيل له: ارفعْ رأسَك فقد استُجيب لك ، أى حين نَادى ربَّه: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ اركض برجلك ـ أى اضرِبْ بها الأرض ـ فركَض فنبعتْ من تحتِها عينُ ماءٍ ، فاغتَسلَ منها فلم يبق فى ظاهرِ بدنه جراحةٌ إلا برئت ، ثم ركَض مرةً أُخرى فنبعتْ من تحتها عينٌ أخرى ، فشرِبَ منها، فلم يبق فى جوفه داءٌ إلا خَرَج وعاد صحيحًا ، ورَجع إلى شبابه ، ثم كُسى حُلَّة ، وقيل: هى ركضةٌ واحدة ، وعينٌ واحدةٌ اغتسل منها وشَرِب، فعاد سليمَ الظاهر ، صحيحَ

الباطن ، كما هو ظاهرُ الآيةِ الكريمة.

وقيل إن إخبارَه عنه أنه قال: ﴿مَسَّنِىَ الضُّرُّ﴾ لم يسلُبْه اسمَ الصبر حيث أَخْبَرَ عنه سبحانه بقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾ لأن الغالبَ كان من أحواله الصبرُ ، فنادرُ قَالتِه لم يسلُب عنه الغالبَ من حالته ، قال القشيرىُّ: والإشارةُ من هذا إلى أنَّ الغالبَ من حال المؤمنِ المعرفةُ أو الإيمانُ بالله، فهو الذى يَستغرقُ جميعَ أوقاته، ولا يخلُو منه لحظة، ونادرُ زلَّاتِه - مع دائمِ إيمانِه - لا يزاحمُ الوصفَ الغالبَ.

ويقال: لـمَّا لم يكن قولُه ﴿مَسَّنِىَ الضُّرُّ﴾ على وجْه الاعتراضِ على التقدير - بل كان على وجْه إظهار العجزِ - فلم يكن ذلك منافيًا لصفةِ الصبر. وقيل إنه نهض ليصلِّىَ فلم يَقدِر فقال ذلك إخبارًا عن حاله لا شكوى لبلائه.

ويقال: إنه سبحانه أجراه على لسان أيوبَ ليكونَ حجةً لأهل البلاءِ بعده فى الإفصاح عمَّا ينزِلُ بهم ، وإن الشكوى إلى الله سبحانه لا تُنافى الصبرَ الجميل ، فإن نبىَّ اللهِ يعقوبَ عليه السلام وَعَدَ بالصبر الجميل ، فقال كما جاء فى سورة يوسف: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا﴾ [الآية: ٨٣] والنبىُّ إذا وَعَد لا يُخلِفُ ثم قال: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّى وَحُزْنِى إِلَى اللهِ﴾(١) [يوسف: ٨٦]

وقد أخبر اللهُ عن أيوبَ عليه السلام أنه وجده صابرًا مع قوله: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ الضُّرُّ﴾ قال العلماء: ولم يكن قولُ أيوبَ ﴿مَسَّنِىَ الضُّرُّ﴾ جزَعًا، لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّا وجدْناه صَابرًا﴾ بل كان ذلك دعاءً منه

---

(١) أى: إن الشكوى إلى الله على سبيل التضرع وإظهارِ الحاجة والفاقةِ له وحده لا تنافى الصبرَ الجميل.

والجزَعُ فى الشكوى إلى الخلْق لا إلى الله تعالى ، والدعاءُ لا ينافى الرِّضا.

إن الذى ينافى الصبرَ شكوى اللهِ لا الشكوى إلى الله ، كما رأى بعضُهم رَجُلًا يشكو إلى آخرَ فاقةً وضرورةً ، فقال: يا هذا تشكو مَن يَرحمُك إلى من لَّا يرحمُك؟ ثم أنشده نصيحةً غالية:

وإذا عَرَاكَ بليةٌ فاصْبِرْ لهـــا   صَبْرَ الكريمِ فإنـــه بِـــكَ أعلَـــمُ
وإذا شكَوْتَ إلى ابنِ آدمَ إنما   تشكُو الرحيمَ إلى الذى لا يرحَمُ

وصفوةُ القول: أنه لا بأسَ أن يُخبِرَ المريضُ بما يَجِدُه مِن ألمٍ لا على سبيل الضجرِ والسُّخطِ مبتدئًا بحمدِ اللهِ بأن يقول: الحمدُ لله أَجدُ كذا وكذا ، أو الحمدُ لله بى كذا وكذا من الأذى أو الوجَع ، وقد أخرج الشيخان عن ابن مسعودٍ قولَه: إذا كان الشكرُ قبل الشكوى فليس بشَاك.

وأخرج البخارى فى الأدب المفرد: أن عبدَ اللهِ بنَ الزبير سأل أُمَّه أسماءَ بنتَ أبى بكرٍ فقال: «كيف تَجِدِينَكِ؟ قالت: وَجِعةٌ»

[رواه هشامُ بنُ عروة عن أبيه]

إن إخبارَ المريضِ صديقَهُ أو طبيبَه عن حاله لا بأسَ به ، ولقد كُلِّفَ العبدُ فى حال المصيبةِ ألَّا يقعَ منه مَالَهُ سبيلٌ إلى تَرْكه كالمبالغة فى التأوُّهِ والجزَعِ الزائد ، ولا يَليقُ بالمؤمن أن يشكوَ إلى العباد بِذِكْرِ الألمِ على سبيل التضجُّر ، ولْيَحْذَرِ التسخُّطَ للمقدور ، وليذكُرْ دائمًا أن الشفاءَ من الله وحده ، وأنَّ فى صبره ورِضاه تكفيرَ السيئاتِ ، وطلبَ مرضاةِ الرب وقد أخرج البخارىُّ عن عائشة رضى الله عنها أن النبىﷺ قال: «ما مِن مُصيبةٍ تُصِيبُ المسلمَ إلَّا كفَّر اللهُ بها عنه حتى الشوكةِ يُشَاكُها» وعند الشيخين وأحمد عن أبى سعيد وأبى هريرة أنهﷺ قال: «ما يُصيب المؤمنَ من نَصَبٍ ، ولا وصَبٍ ، ولا هَمٍّ ، ولا حَزَنٍ ، ولا أذًى ولا

غَمٌّ حتى الشوكَةِ يُشاكُها إلا كفَّر الله بها من خطاياه» ، وهذه بشارةٌ عظيمةٌ للمؤمن الصابرِ على البلاء ، الراضى بالقضاء.

والمراد بتكفير الذنب: سترُه أو مَحْوُ أثرِه المترتبِ عليه من استحقاق العقوبة.

والنصَبُ - بفتحتين - التعبُ ، والوصَبُ: المرضُ ، والهمُّ: الحزنُ على ما يأتى أى الكربُ يحصلُ للقلب مِمَّا يُتَوَقَّعُ حصولُه ، والغمُّ: الألمُ لِمَا وقَع ، أى الكربُ الحاصلُ للقلب على ما حدَث من رُزء.

قال القرطبى: مَحلُّه إذا صَبر المصابُ واحتَسب؛ لحديث صُهيب بنِ سنان أن النبىﷺ قال: عجبًا لأمرِ المؤمنِ إن أمرَه كلَّه خيرٌ ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سَرَّاءُ شكَر فكان خيرًا له ، وإن أصابته ضراءُ صَبَر فكان خيرًا له». [أخرجه مسلم]

والله عز وجل يقول: ﴿إنما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]

وفى هذه البشرياتِ بتكفير الذنوب ، ورفعِ الدرجات ما يُهَوِّن على النفوس متاعبَ الحياة ، ويُسرِّى عن المؤمن عند وقوعِ المكروه ، ويدفعُ عن قلبه أسبابَ القلقِ والهلعِ ، لِعلْمه أن ما أخطأه لم يكن لِيُصِيبَه ، وما أصابه لم يكن لِيُخطئَه ، وأن مع الصبر الأجرَ ، وأن مع العُسر يسرًا.

ونعود إلى أيوبَ الصابرِ واستخلاصِ المعانى والعبر ، فمن لطائف الإشارات قولُ القشيرى: ويقال لم يكن هذا القولُ من أيوبَ على جهة الشكوى ، وإنما كان من حيث الشكر: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ الضُّرُّ﴾ أى: الذى تخصُّ به أولياءَك ، ولولا أنك أرحمُ الراحمين ، لما خصصتنى بهذا ولكن برحمتك أهَّلْتنى لهذا.

ونلتقى مع أيوبَ والصبرِ بإذن الله تعالى ، ، ،

❊ ❊ ❊

١٩٦ - ب - فاستجبنا له

رُوِى أنَّ الله عزَّ وجَلَّ أرسل نبيَّه أيوبَ عليه السلامُ إلى أهل «حرَّانَ» وهى قريةٌ بِغُوطةِ دمشقَ ، وقد كثُرَ مالُه وأهلُه ، ثُم مَرِض ، وبَقِىَ فى مَرَضِهِ مُدةً اختلفوا فى تقديرها ، ويراها بعضُهم أنها نحوُ ثمانى سنواتٍ، فقالت له يومًا امرأتُه: لو دعوتَ اللهَ! فقال لها: كم كانت مدةُ الرخاء؟ فقالت: ثمانين عامًا ، فقال: أنا أستحْيى من الله أن أَدعوَه وما بلغتْ مدةُ بلائى مدةَ رخائى.

وكما جاء الخلافُ فى مدةِ مرضِه ، جاء فى وصف هذا المرضِ فبعضُهم روَى فى بلائه أقوالاً تدلُّ علَى أنه مَرِضَ مرضًا مُشَوِّهًا ومُنفِّرًا للناس من قرْبانِه والدنُوِّ منه.

ورَدَّ ذلك بعضُهم لتَنافيه مع مَنصبِ النبُوَّةِ ، وقد قرَّر علماءُ التوحيدِ أن الأنبياءَ مُنزَّهون عن الأمراض المنفِّرةِ ، فكيف يتفقُ ذلك مع منصبِ النبوة؟.

قال الطُّبرسىُّ: قال أهلُ التحقيق: إنه لا يجوزُ أن يكونَ بصفة يَستقذِرُه الناسُ عليها؛ لأنَّ فى ذلك تنفيرًا ، فأمَّا الفقرُ والمرضُ وذَهابُ الأهلِ فيجوزُ أن يَمتحِنَ اللهُ نبيَّه بذلك.

ورأَى بعضُهم(١) أن الابتلاء على هذا الوجْه إن كان فالـمُحتَملُ أنه وقَع قبلَ النبوة ، وأن منحَةَ النبوةِ إنما كانت لِمَا بَدا من أيوبَ من الصبر والرِّضا بما أصابه من مكْروه ، وملازمته جانبَ الرضا عن الله عزَّ وجل أو أنهم فَسَّروا ما جاء فى سِفرِ أيوبَ عند أهلِ الكتابِ من عباراتٍ فى

(١) فضيلة الشيخ عبد الوهاب النجار «قصص الأنبياء»

وصف مرضِه فيها نوعٌ من المُبالغة ، لأنها عباراتٌ أدبيةٌ أشبهُ بالشِّعر والشعرُ فى كل لغةٍ ميدانُ المبالغةِ ، كما جاء فى شعرِ بنِ الفارضِ من مبالغةٍ لتصوير ما فى نفسه يقول:

فطُوفانُ نُوحٍ عندَ نَوْحِي كأَدْمُعِي ... وإِيقَادُ نيرانِ الخليـلِ كَلَوْعَتِي

فَلـولا زَفِيرى أغرقتْنِي مَدامعى ... ولولا دُموعِي أحرقَتْنِى زفْرتِي

ومثْلُ هذا فى بعض فنونِ الشعر واردٌ ، وهو شِعرٌ يُقرأُ ، ولكنه لا يُعَوَّلُ عليه ، لِمَا فيه من إسرافٍ فى المبالغة كقول المتنبى وكان ضخْمَ الجُثَّة:

كَفَى بِجِسْمِي نُحولًا أَنَّنى رجُلٌ ... لَوْلا مُخَاطَبَتِى إِيَّاكَ لَم تَرَنِى

فكيف كان هذا النحولُ: وكيف وصل به إلى الحدِّ الذى يُسْمَعُ فيه صوتُه ولا يُرَى شخصُه؟ إنه الإسرافُ فى المبالغة والتصوير.

ويجدرُ التنبيهُ هنا إلى ما نقلَه صاحبُ روح المعانى عن هداية الـمُريد للقَانِى قال: «إنه يجوزُ على الأنبياءِ عليهم السلامُ كلُّ عَرَضٍ بَشَرِىٍّ ليس مُحَرَّمًا ، ولا مكروهًا ، ولا مباحًا مُزْرِيًا ، ولا مُزمنًا ولا مِمَّا تَعافُه الأنفسُ ، ولا مِمَّا يُؤدِّى إلى النُّفْرة ، ثم قال: وأَحترِزُ بقولنا: ولا مُزمنًا، ولا مِمَّا تعافُه الأنفسُ عمَّا كان كذلك: كالإقعاد ، والبرَصِ والجُذامِ ، والعَمى ، والجنون ، وأمَّا الإغماءُ فقال النووىُّ: لا شكَّ فى جَوازه عليهم لأنه مرضٌ بخلاف الجنون فإنه نَقصٌ ، وقَيَّد أبو حامدٍ الإغماءَ بغير الطويلِ ، وجزَم به البلْقينىُّ ، قال السبكىُّ: وليس كإِغماء غيرِهم ، لأنه يسترُ حواسَّهم الظاهرةَ دون قُلوبِهم عليهم السلامُ لأنها معصومةٌ من النوم الأخفِّ ، قال الألوسىُّ: ولعلك تختارُ القولَ بحفْظِهم عليهم السلامُ مِمَّا تعافُه النفوسُ ، ويؤدِّى إلى الاستقذارِ

والنُّفْرَةِ مُطلقًا ، وحينئذ فلا بُدَّ من القول بأن ما ابتُلِى به أيوبُ عليه السلام لم يصلْ إلى حدٍّ الاستقذارِ والنفرةِ ، كما يُشعِرُ به ما رُوِى عن قتادةَ ونقَلَه القُصَّاصُ فى كُتُبِهم ، وذَكَر بعضُهم أن داءَهُ كان الجُدَرِىَّ ولا أعتقدُ صِحَّةَ ذلك ـ واللهُ تعالى أعلم ـ.

إنِ عِظَمَ بلاءِ أيوبَ عليه السلامُ مِمَّا شاعَ وذَاع ، ولم يختلف فيه اثنان فقد امتحنه اللهُ عزَّ وجل فى بدنه ، ومَرِض مرضًا شديدًا ، فلم يَشْكُ ولم يَتبرَّم ، ولم يَضْجَرْ ، ومع طولِ البلاءِ ، وشماتةِ الأعداءِ دعا ربَّه وكان دعاؤُه عَرَضًا عَرَضَه على الله تبارك وتعالى ، يُخبِرُه بالذى بلَغه صابرًا لِمَا يكونُ من الله تبارك وتعالى فيه ، وقد قيل: إن معنى ﴿مَسَّنِى الضُّرُّ﴾ أى من شماتةِ الأعداءِ ، ولهذا قيل له بعد كشْفِ البلاءِ عنه: ماكان أَشَدَّ عليك فى بلائك؟ قال: شماتةُ الأعداءِ.

أدبُ السؤال:

وقد حَفظ أيوبُ أدبَ السؤال فتوسَّل إلى الله برحمته فقال: ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِين﴾ بَيَّن افتقارَه إلى الله ، ولم يقُلْ: ارْحَمْنى لُطفًا فى السؤال ، وحِفْظًا للأدب فى الخِطاب ، فإن أكثرَ أسئلةِ الأنبياء فى كشْفِ البلاءِ عنهم إنما هى على سبيل التعريضِ ، فإنْ قيل: أليس صَرَّح زكريًّا فى الدعاء إذْ قال: ﴿فَهَبْ لِى من لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٥]

قلنا هذا سؤالُ العطاء لا يَجْمُلُ به التعريضُ ، وذاك سؤالُ كشْفِ البَلاءِ فَيجمُل به التَّعريضُ لئلا يَشْتَبهَ بالشكاية.

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ﴾ أى: فاستجبنا دعاءَه فكشفنا ما نزَل به من البلاء والمرض ﴿وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُم﴾ بأن وُلِدَ له

ضِعْفُ ما كان ، جاء عن ابن عباس: كان بنوه قد ماتُوا ، فأُحْيَوْا له وَوُلِدَ له مِثلُهم معهم ، وجاء عن ابن مسعود: مات أولادُه وهم سبعةٌ من الذكور ومِثْلُهم من الإِناث ، فلمَّا عُوفِى نُشِرُوا له ، وَوَلَدَت امرأتُه سبعةَ بنين ، وسبعَ بنات.

قال القرطبىُّ: لأنهم ماتوا قبلَ آجالِهم أى فأحياهم اللهُ له ، وَرُدُّوا عليه بأعيانهم.

وفى خبرٍ عن مجاهد: قِيل له: يا أيوبُ ، إِن أهلَك فى الجنة ، فإن شئتَ أتيناك بهم ، وإِن شئتَ تركناهم لك فى الجنة ، وعَوَّضناك مثلَهم! قال: بل اتْركْهُمْ لِى فى الجنة ، فَتُرِكُوا له فى الجنة ، وعُوِّضَ مثلَهم فى الدنيا «تفسير الطبرى ونقلَه ابنُ كثير». وعن نَوفٍ البكالى قال: أُوتى أجرَهم فى الآخرة ، وأُعطِىَ مثلَهم فى الدنيا ـ واللهُ أعلم ـ.

والذى يَميل إليه الألوسىُّ: أن الله وهَبه مَن كان حيًّا منهم ، وعافاه من الأَسقام ، وأرْغَد لهم العيشَ ، فتناسلوا حتى بلغ عددُهم عددَ من مضَى ﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُم﴾ فكان له ضِعْفُ ما كان.

وفى روايةٍ أن اللهَ رَدَّ إلى امرأتِه شبابَها، فولدتْ له ستةً وعشرين ولدًا وقد رَدَّ أموالَه ، وكان رحيمًا بالمساكين ، يكفلُ الأيتامَ ، والأراملَ ويُكرِمُ الضيفَ ، وفى الحديث: «بينما أيوبُ يغتسلُ عُريانًا خَرَّ عليه رِجْلُ جَرَادٍ[1] من ذَهَب ، فجَعَل أيوبُ يَحثُو فى ثوبه فناداه ربُّه: ألم أكن أغنيتُك عمَّا ترَى؟ قال: بلى وَعِزَّتِك ، ولكنْ لا غِنَى عن بركتِك»

[أخرجه البخارىُّ والنسائى]

(١) من معانى الرِّجل: الجماعة الكثيرة من الجراد خاصَّةً، وهو جمعٌ على غير لفظ الواحد، والرِّجل أيضا واحدة الأرجُل «الجوهرى فى الصحاح»

وفى لفْظٍ عن أبى هريرة: «ولـمَّا عافى اللهُ أيوبَ أمْطَرَ عليه جرادًا من ذهَب ، فجعل يأخذُ بيده ويجعلُه فى ثوبه ، قال: فقيل له: يا أيوبُ ، أَمَا تَشْبَعُ؟ قال: ياربّ: ومَن يَشْبَعُ من رحمتِك» [أصلُه فى الصحيحين]

لقد عافاه الله ، وأغناه ، وآتاه أهلَه ومِثْلَهم معهم ، وبارك له فى المال والذُّريةِ فكثُر عددُهم ، رحمةً منه سبحانه بعبده الصالحِ الصابرِ الشاكرِ على كلِّ حال ، ولله عزَّ وجَلَّ أن يمتحنَ عبادَه بما شاء من الغِنَى والفقر، والصحةِ والمرضِ ، والزيادةِ والنقْص ، فله سبحانه الحكمةُ البالغةُ فى كلِّ ذلك ، فمَن شكر فلنفسه ، ومن كفَر ، وجَحد فعليها وهو سبحانه مالكُ كلِّ شىء ، وإليه يصيرُ كلُّ شىء ، إذا أَعطى فمن فضْله وإحسانه ورحمتِه ، وإذا أخَذ فله ما أَخذ يفعلُ ما يشاء ، ويَحكُم ما يُريد ، وكلُّ شىءٍ عنده بمقدار. وإن اختبارَ أيوبَ عليه السلامُ فى حالَى السلامة والضُّرِّ فيه ذِكْرَى وتنبيهٌ لأهل التقوى والإيمان ، لئلَّا يَظُنَّ أهلُ البلاء أنَّ ما يقعُ لهم منه إنما لِهَوَانِهم على الله ، وإنما هو التمحيصُ ورفْعُ الدرجات ، وستْرُ العيوب ، وغُفرانُ الذنوب لأهل الإيمانِ مع الصبرِ والتسليمِ والرِّضَا ، كما صار أيوبُ فى حالَىْ السَّراءِ والضَّراءِ أُسوةً للعابدين الصالحين فى الصبر على مَقدوراتِ الله ، وابتلائِه لعباده بما يشاءُ ليكونوا أهلًا لرحمته سبحانه.

وفى نداءِ أيوبَ ربَّه وتضرعِه فى سورة «ص» جاء قولُه: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ والنُّصْبُ ، بِضَمِّ أَولِه وسكونِ ثانيه ـ والنَّصَبُ ـ بفتحهما ـ هو التعبُ والمشقةُ ، وتنوينُه للتضخيم ، وكذلك التنوينُ فى «وَعَذَاب» وأَراد به الألمَ ، وقيل: النُّصْبُ والضُّرُّ فى الجَسَد، والعذابُ فى ذَهَابِ الأهلِ والمالِ ، وهذا حكايةٌ لكلامه عليه

السلامُ الذى نادى رَبَّه عزَّ وجل بسببه وإِلَّا لقيل: إنه مَسَّهُ إلى آخرِ دعائهِ أى بضمير الغَيبة.

قيل: إن الشيطانَ حَسَد أيوبَ لـمَّا سَمِع ثناءَ الملائكةِ عليه فسأل اللهَ تعالى أن يُسلِّطَه على جسدِه ومالِه وولدِه ففعَل عزَّ وجل ابتلاءً له ، وفى ذلك وردتْ أخبارٌ متعددةٌ.

وورد أن الضُّرَّ الذى أتعَبه وعَذَّب رُوحَه، كان بسبب وَسْوسةِ الشيطان وقد تكرَّر فى القرآن أنَّ الشيطانَ لا سلطانَ له ، إِلَّا الوسْوَسةَ فَحسْب وقد جاء إسنادُ الـمَسِّ إليه على سبيل الـمَجازِ لأنه السببُ فيما مَسَّه اللهُ تعالى به من النَّصَب والعَذَاب ، وقد راعى عليه السلام الأدبَ فى الـخطاب حيث لم يَنسبْ الـمَسَّ إلى اللهِ سبحانه فى دعائه مع أنه عزَّ وجلَّ فاعلُه[1] ، ولا يَقدِرُ عليه إلَّا هو ، وهذه الوسوسةُ التى كانت سببًا فى نزول الضُّرِّ قيل: هى وسوستُه إليه عليه السلامُ أن يسألَ اللهَ تعالى البلاءَ لِيَمْتَحِنَ ويُجَرِّبَ صَبْرَه على ما يُصيبه ، وسؤالُه البلاءَ دون العافيةِ ذنبٌ بالنسبة لـمَقَامِه عليه السلام لا حقيقةً ، والمقصودُ من ندائه بذلك الاعترافُ بالذنب.

وقيل: أراد ما كان يُوسوس به إليه فى مَرَضِه من تعظيم ما نَزَلَ به من البلاء ويُغرِيه على الكراهةِ والجزَع فالتجأَ إلى الله تعالى فى أن يكفِيَه ذلك بكشْفِ البلاء ، أو بالتوفيق فى دَفْعه وردِّه بالصبر الجميل.

تضرَّع أيوبُ متذلِّلًا ، فقال له ربُّه: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ فاغتَسل وشَرِب فبَرأَ من عِلَلِه الظاهرِ منها والباطنِ ، وردَّ اللهُ

---

(١) كما فَعَل إبراهيمُ الخليلُ عليه السلام فى قوله من سورة الشعراء: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ ولم ينسب المرضَ فى اللفظ إلى الله مع إيمانه بأنه سبحانَه الفاعلَ وحده.

عليه أهلَه ومالَه ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَى لأُولِى الأَلْبَابِ﴾ أى إنَّ الهبةَ للرحمة ، ولترغيبِ ذوى العقولِ فى الصبرِ على البلاء وفى عاقبة الصابرين.

وكان أيوبُ فى حالِ المرضِ حَلَفَ لَيَضْرِبَنَّ امرأتَه مائةً إذا بَرأَ ، فَحلَّل اللهُ يمينَه بأهون شىء عليه وعليْها ، لـحُسن خدْمتها إياه ، ورضَاه عنها ولنتدبر: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلا تَحْنَثْ﴾ والضِّغْثُ: الـحُزْمَةُ الصغيرةُ من حَشيشٍ أو رَيحانٍ أو غيرِ ذلك ، وعن ابن عباس: قَبضةٌ من الشجر.

ثم أثنى الله على عبده الصالح: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أى: وجدَه صابرًا محتسِبًا راضيًا بقضاء اللهِ وقَدَرِه.

عليه وعلى نبيِّنا أفضلُ الصلاة والسلام.

❊ ❊ ❊

(١٢٨٢)

١٩٧ - ج - من الأمثال النبوية
«والابتلاء بالخير والشرّ»

أخرج البخاريُّ عن أبى هريرةَ رضى اللهُ عنه أن رسولَ اللهِ ﷺ قال: «مَثَلُ المؤمنِ كمَثَلِ الخَامَةِ مِن الزَّرعِ ، من حيثُ أتتها الريحُ كَفَأَتْها ، فإذا اعتدلَت تكَفَّأُ بالبلاء ، والفاجرُ كالأرْزَةِ صَمَّاءَ مُعتدلة حتَّى يَقْصِمَها اللهُ إذا شَاء» ، وأخرجه عن كعْب بنِ مالكٍ رضى الله عنه بلفظ: «مثَلُ المؤمنِ كالخامَةِ من الزرع تُفَيِّئُها الريحُ ، وتُعدِّلُها مَرةً ، ومَثَلُ المنافقِ كالأَرْزَةِ ، لاتزالُ حتى يكونَ انجعافُها مرةً واحدةً» وأخرجه مسلمٌ وفيه بعد تُفَيِّئُها الريحُ: «تَصرَعُها مرةً وتَعدِلُها أُخرى حتى تَهيجَ ، ومَثَلُ الكافرِ كالأرْزَةِ الـمُجْذِيَةِ على أصلها لا يُفيِّئُها شيءٌ حتى يكونَ انْجعَافُها».

اللغة:

مثَلُ المؤمن: أى: صِفَتُه ، وهى الرضا بالقضاء ، والاستسلامُ للبلاء.

الخامة: بِوزْن الطاقة ، وهى أولُ ما يَنبتُ من الزرع على ساقٍ واحدٍ غَضًّا طَرِيًّا لَيِّنًا ، وأَلفُها منقلبةٌ عن واو.

«**من الزرع**» صفةٌ للخامة أو حال ، ومِن: لبيان الجنسِ بيانًا مَشوبًا بتبعيض.

أتتها الريحُ: أىْ مِن أىِّ جانبٍ وصلَتْ إليها الريحُ ، والجارُّ والمجرورُ متعلقٌ بقوله كفأَتْها: أى أمَالَتْها ، والجملةُ كلُّها مستأنَفَةٌ سِيقتْ لبيان وجْهِ الشَّبَه لا مَوضِعَ لها من الإعراب ، وعند أحمدَ من حديث كعب: «تَحْمَرُّ مرةً وتصفَرُّ أخرى» وله من حديث جابر: «مثَلُ المؤمنِ مثَلُ سُنْبلةٍ

(١٢٨٣)

تستقيمُ مرةً وتَخرُّ أُخْرى».

تُفيِّئها: تُميِّلُها وزنًا ومعنًى ، وجملة تُفيِّئُها: حالٌ من الخامة.

تكَفَّأ بالبلاء: بحذْف إحدى التاءين تخفيفًا ، والأصلُ تتكفَّأ ، أى: تَمِيل وتنقلبُ ، والمعنى: كلَّما اعتدلت بعد سكونِ الريحِ هاجت الريحُ من جانبٍ آخرَ فَتَميلُ بها ثانيًا ، فالريحُ تَقلبُها من كلِّ جانب.

الأَرْزة: نبات يطولُ طولاً شديدًا ويَغلُظُ ، وقيل هو الصنَوْبر.

صماء: أى صُلبةٌ شديدةٌ من غير تجويف.

يَقصِمها: أى: يكسِرُها.

وانجعافها: أى انقلاعُها.

تَهيجُ: تستوى ويكمُل نُضْجُها.

والـمُجْذِية: أى الثابتةُ المتمكنةُ ، يقال: جَذا يَجذو وأَجذى يُجذى.

يُرشِدُنا النبىُّ ﷺ إلى أن المؤمنَ أكثرُ عرضةً للبلاء فى الدنيا لِتَهُونَ عليه المصائبُ ، ويلتزمَ الصبرَ واليقينَ رجاءَ ما هو أعظمُ من الدنيا وما فيها وأنَّ الكافرَ أو المنافقَ قد تتيسَّرُ حالُه ، وتصفو دُنياه من الشدائد ، والـمِحَنِ ويُحالِفُه النجاحُ فى مساعيه للعمارة ، وليس ذلك كلُّه إلا للاختبار والامتحان ، فإذا أَصرَّ وتمادى كانت العاقبةُ غايةً فى السوء ، ولا ينفعُه مالٌ ولا بنون ولا جاهٌ ولا أعوان.

تشبيه تمثيلىّ:

وفى هذا المَثَلِ النبوىِّ: تشبيهٌ تمثيلىٌّ حيث شُبِّهَ حالُ المؤمن ، وهو لايزالُ البلاءُ يُلِمُّ به الفينةَ بعد الفينةِ حتى يستوفِىَ أجلَه بحالِ الخامةِ من الزرع لايزالُ الريحُ يُداعبُها، ويُميلُها عن استقامتها ، فتارةً يَصْرَعُها فَيهوِى بها ، وتارةً يتركُها تعودُ سِيرتَها الأولى بجامعٍ: أن كلاًّ هيئةٌ

حاصلةٌ من انتقالٍ من حالٍ إلى حال ، ولا يَخفَى ما فى هذا التمثيلِ من الروعة والبلاغةِ وتقريبِ الأمورِ المعنويةِ التى تقومُ فى النفس فى صورةٍ محسوسةٍ ملموسةٍ مماً يجعلُ الغرضَ واضحًا ، والمعنى جليًّا .

والغرضُ من التشبيه : أنَّ المؤمنَ من حيث جاءَه أمرُ اللهِ تعالى طَاعَ وانقاد ولان ورَضِيَ به ، فكلَّما وقَع له مكروهٌ صَبَر ، ورجا فيه الأجرَ. وَوَجْهُ الشَّبَهِ ، وهو الصفةُ المشتركةُ بين الطرفين : قبولُ العوارضِ التى تُخرِجُ الشيءَ عن اعتداله قهرًا ، فالخامةُ أى الزرعُ الطرىُّ اللَّيِّنُ أو السنبلةُ تَقبلُ الميلَ مع مرور الريحِ والاعتدالَ إذا سكَنَتْ ، وهكذا تَميلُ وتعتدلُ ، والريحُ تَقلِبُها من كل جانب ، وكذلك المؤمنُ بفطرته النقيةِ وإيمانِه بالقضاء والقدرِ يتلقَّى قضاءَ اللهِ بالقبول والرضا صابرًا شاكرًا فى الضراء والسراءِ حتى يأتِيَ أمرُ الله ، وهو بذلك يُضاعَفُ أَجرُه ، وتُكفَّرُ عنه سيئاتُه ، وتُحَطُّ عنه خطاياه ، ويكونُ أهلاً لرحمة اللهِ لصبره على الابتلاء ورضاه بالقضاء ، وإيمانه باللقاء والحسابِ والجزاء.

أمَّا الفاجرُ الـمُستدْرَجُ فلا يَتفَقَّدُه اللهُ باختباره ، بل يجعلُ له التيسيرَ فى الدنيا ليتعسَّرَ عليه الحالُ فى المعاد؛ حتى إذا أراد اللهُ إهلاكَه قَصَمَه وأخذَه على غِرَّة فيكونُ موتُه أشدَّ عذابًا عليه ، وأكثرَ أَلـمًا وتعسُّرًا فى خُروج نَفْسِه من المؤمن الـمُبتلى الذى صبَر على البلاء ، وأُثيب عليه بفضل الله وإحسانه.

ووجْهُ الشَّبَهِ بين الأَرْزَة والفاجرِ قِلةُ العوارضِ التى تُخرِجُ الشيءَ عن اعتداله ، حتى يأتيَه الهلاكُ دَفعةً ، ونحن كثيرًا ما نرى الفاجرَ والملحدَ فى حالٍ ماديةٍ مُيسَّرة ، ونجاحٍ فى أموره ، وسلامةٍ فى عيشه ، وصحتِه وتلك لا تدلُّ على إكرامٍ أو خصوصيَّةٍ لذات الـمُمتَحَنِ باليُسرِ والسلامةِ :

أيشكرُ أم يكفرُ؟ أيتواضعُ لله أم يتجبَّرُ ويتمادى فى العِصيان ، كما أننا نرى المؤمنَ فى أحوالٍ كثيرةٍ يُختَبرُ فى نفْسِه ، أو فى ولَده وأهلِه ، أو فى مالِه ، بما يَضرُّ ويُؤلِمُ ، وليس فى ذلك دليلٌ على إهانة ، بل هو التمحيصُ: أيصبرُ أم يضجَرُ؟ وعلى قدْرِ صبرِه ورِضاه تكونُ منزلتُه عند مولاه ، وقد ابتُلى الأنبياءُ والصالحون ، وهم أخصُّ عبادِ الله وأولياؤُه فصبَروا ، وشكَروا ، وكانت لهم المنازلُ العُلا بفضله وإحسانه.

يقول بعض شُرَّاح الحديث[١]:

لقد بيَّن رسولُ الله ﷺ فى هذا المثَل حالَ المؤمنِ وانتفاعَه بالمواعظ والنُّذُرِ ، ومقدارَ حُبٍّ اللهِ له ، فإذا جاءه أمرُ اللهِ انصاع له ، فإن كان خيرًا فَرِحَ به وشكَر ، وإن كان مكروهًا صبَر ، ورجَا فيه الخيرَ والأجرَ فإذا اندفع عنه اعتَدل شاكرًا ، كما بيَّن حالَ المنافق أو الكافرِ وإعراضَه عن الله ، ومقدارَ بُغْضِه له ، فهو يَحصُل له التيسيرُ فى الدنيا ليتعسَّرَ عليه الحالُ فى المعاد ، حتى إذا أراد اللهُ إهلاكَه قَصَمَه فيكونُ موتُه أشدَّ عذابًا له وأكثرَ ألـمًا.

فَشَبَّه الرسولُ ﷺ المؤمنَ يُصيبه البلاءُ مرةً بعد أخرى بالخامة من الزرع تَقلبُها الريحُ ذاتَ اليمينِ وذاتَ الشمال ، فكما أن الخامةَ فى صعودها وهُبوطها تواجهُهَا الشمسُ ، وتتغلغلُ أشعتُّها فى ثناياها ، وذلك أصلحُ لشأنها ، وأمنعُ لجانبها إذْ يُكسبُها الحياةَ والنماءَ حتى تَستوِىَ قائمةً على سُوقها ، كذلك المؤمنُ لا يزيدُه الابتلاءُ إلا قوةً فى إيمانه وصلابةً فى رجولته ، ولا يزالُ يزدادُ فى بحْرِ الامتحانِ نورًا على نور ، وبالصبر والرضا قوةً ومناعةً ، حتى يُوافِيَه أجلُه ، وهو على حالٍ تُقِرُّ عينَه

(١) الشيخ محمد داود بيهى (فى شرح المختار من هدى الرسول ﷺ)

(١٢٨٦)

وتشرحُ صدرَه بما كسَب فى الدنيا من خير، وما أُعدَّ له فى الآخرة من فوْز.

وَشَبَّهَ الكافرَ أو المنافقَ يُترَكُ من غير ابتلاءٍ ، حتى يأتِيَه أجلُه بالأرْزة فكما أنَّ الأرزةَ لا تزالُ ثابتةً صلبةً ، لا تعصفُ بها الريحُ حتى تُقْصَمَ مرةً واحدةً حين يُراد لها ذلك ، كذلك الكافرُ أو المنافقُ يُترَكُ كالبهيمة السائمةِ يخوضُ فى بؤر الفساد ، ويرتَعُ فى مراتِع اللهو ، وهو عن عاقبة أمرِه ساهٍ لاهٍ حتى تَقْرَعَهُ قارعةٌ فيموتَ ميتةً جاهليةً يَعقُبها حسرةٌ وندامة ، وقد جرَت سنةُ اللهِ فى عباده الـمكلَّفين أن يقدِّمَ لهم النُّذُرَ ويُرسِلَ لهم الرسلَ ، ويَهَبَهم العقولَ المميزةَ ، فمَن استجاب لحُكم العقلِ ، واستمع لداعى اللهِ ، وأعرض عن هواه ، فهو الجديرُ بأن يَزدادَ هداية ، ويكونَ الابتلاءُ له رحمةً ، وعليه نعمةً ، وَمَن أَعرَض عن نصيحة العقلِ ، واستمع للهوى ، فلا يَزِيدُه الغَىُّ إِلَّا طَمسًا ، ولا يُرجى من ابتلائه بالنُّذُرِ إلا إمعانًا فى ضلاله.

ومن الفوائد:

وفى هذا المثَلِ النبوىِّ الشريفِ ما يُرشِدُ المربِّين والوعَّاظَ والدعاةَ إلى أفضل الطرقِ فى مخاطَبة الناس وتوجيهِهم ، بِضرْب الأمثالِ ، وتقريبِ المعانى المعقولة بالصورِ المحسوسة ، وبالوقائعِ الملموسةِ لهم.

وانْظُر إلى قُدوتنا فى طِبِّ النفوسِ وعلاجِها وتقريبِها وتحبيبِها فى الخير كيف يُسلِّى بهذا المثلِ ونحوِه الناسَ بما يخفِّفُ عنهم آلامَ الدنيا ، ويُهَوِّنُ على نفوسهم مصائبَها ، ويبيِّنُ لهم أنها دارُ ابتلاء ، وأن المؤمنين أشدُّ الناسِ بلاءً لتعلُوَ منازلُهم بعُلوِّ مراتبِهم فى الإيمان ، والرضا بالقضاء وقبولِ ما قدرَّه اللهُ بسكينةِ نفسٍ وطمأنينةِ قلبٍ ، ورغبةٍ فيما عند الربِّ

من الرحمة والرضوانِ كما فَعل أيوبُ عليه السلام.

وفى حَثِّهِ أهلِ الإيمانِ على تَلَقِّى البلاءِ بالصبر، مع عِظَمِ الرجاءِ فى رحمة اللهِ عزَّ وجل وعفْوِه، وحتى تَظَلَّ قلوبُهم مطمئنةً، ونفوسُهم راضيةً ساكنةً. جاء فى الحديث الذى أخرجه الشيخان والنسائىُّ ورواه أبو هريرة: «مَن يُرِدِ اللهُ به خيرًا يُصبْ منه» أى: يَبتليه اللهُ تعالى بالمصائب لِيُثِيبَهُ عليها، وإذا كان الفعلُ: يُصَبْ منه بالبناء للمفعول يكون المعنى: يُوجَّه إليه البلاءُ فيصيبُه.

وفى الحديث الذى أخرجه أحمدُ بسندِ رجالُه ثقاتٌ عن محمود بنِ لبيد أن النبىَّ ﷺ قال: «إذا أَحبَّ اللهُ قومًا ابتلاهم، فمَن صبَر فله الصبرُ ومَن جَزِعَ فلَهُ الجَزَع». ولفظه عند الترمذى: «إن عِظمَ الجزاءِ مع عِظَمِ البلاءِ، وإن اللهَ إذا أحبَّ قومًا ابتلاهم، فمن رضىَ فله الرضا، ومن سَخِطَ فله السُّخط» وقال حديث حسن.

إن الصبرَ على البلاء رافعٌ للدرجات، مُكفِّرٌ للسيئات بفضل اللهِ وإحسانه، وفى الحديث الذى روته عائشةُ أن النبىَّ ﷺ قال: «ما مِن مُصيبةٍ تُصِيبُ المسلمَ إلَّا كفَّر اللهُ بها عنه حتَّى الشوكةُ (١) يُشَاكُها» [أخرجه البخارى] وفى هذه الأحاديثِ وغيرِها بشارةٌ عظيمةٌ للمؤمن لأنه لا ينفكُّ غالبًا عن ألَمٍ من مرَضٍ أو نحوه.

وقد بيَّن لنا المَثَلُ أنَّ المؤمنَ مع الصبرِ تَحسُن حالُه، وأنه أكثرُ الناسِ

(١) حتى الشوكةُ: يصح جرّ الشوكة على أن حتّى غائية تجر الاسم بعدها أو بالعطف على لفظ مُصيبة المجرورة بمن الزائدة وهى فاعل مرفوع بضمة مقدرة منَع من ظهورها وجود حركة حرف الجر الزائد، ويجوز فى شوكة الرفع على أن حتى عاطفة على مدخول من الزائدة وهو «مصيبة» ويجوز النصب على إضمار عامل والتقدير حتى وجدانه الشوكةَ، وهو أضعفها وجملة يشاكها! إما صفة للشوكة أو حال منها.

بلاءً ، وأن الكافرَ والمنافقَ أَقلُّ الناسِ بلاءً وأنه إذا سَعى فى شىء يربو ويزيدُ امتحانًا واختبارًا وتأهيلاً للدركَةِ التى هو أهلٌ لها حسبَ طُغيانِه وتماديه وإصراره.

إنَّ ضَرْبَ الأمثالِ فى الدروس والمواعظِ والخُطبِ، يكون أَبْيَنَ للمقصود وأكثرَ توضيحًا للغرض ، وأعظمَ وقْعًا فى النفس مع تقريبِ المعانى بأيسرِ عبارة، وجَعْلِ ما هو غائبٌ عن الـحِسِّ كأنه ملموسٌ وماثلٌ لِلعيان.

❄ ❄ ❄

حديث شريف:

قال رسول الله ﷺ:

«إذا أراد اللهُ بعبده الخيرَ عَجَّل له العُقوبةَ فى الدنيا، وإذا أراد بعبده الشرَّ أمْسَكَ عنه بذَنبِه حتَّى يُوافِىَ به يومَ القيامة» رواه أنس [عن رياض الصالحين باب الصبر]

(١٢٨٩)

١٩٨ - «لَنَفِدَ البحرُ قبلَ أن تَنفَدَ كلماتُ ربِّى»

جاء فى مسند الإمام أحمدَ عن عكرمةَ عن ابن عباس قال: قالت قريشٌ ليهود: أعطُونا شيئًا نسألُ عنه هذا الرجلَ، فقالوا: سَلُوه عن الرُّوحِ، فسألوه، فنزلتْ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ العلمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]

قال اليهودُ: أُوتينا علمًا كثيرًا، أُوتينا التوراة، ومَن أُوتى التوراةَ فقد أُوتِىَ خيرًا كثيرًا، قال: وأنزل اللهُ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّى لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩]

وعند ابنِ جريرٍ عن عكرمةَ جاء فيه: قال اليهودُ: يزعمُ أَنَّا لم نُؤتَ مِن العلم إلا قليلًا، وقد أُوتينا التوراة، وهى الحكمةُ ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]

فنزلت: ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِى الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ﴾ [لقمان: ٢٧]

قال رسولُ اللهِ ﷺ: «ما أُوتيتم مِن علمٍ فَنَجَّاكم اللهُ به مِن النار فهو كثيرٌ طيّبٌ، وهو فى عِلْم اللهِ قليل» [تفسير الطبرى والنقل عن ابن كثير]

وعند ابنِ إسحاقَ عن عطاء بنِ يسار جاء فيه: قالوا: إنك تتلُو أَنَّا أُوتينا التوراة، وفيها تِبيانُ كلِّ شىء، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: هى فى عِلْم اللهِ قليلٌ، وقد آتاكم ما إن عَمِلتُم به استقمتُم، وأنزل اللهُ: ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِى الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ...﴾ الآية. «المصدر السابق وفيه «انتفعتم

(١٢٩٠)

بدل استقمتم».

وقيل: قالت اليهودُ للنبىﷺ: إنك أُوتيتَ الحكمة، ومَن أُوتى الحكمةَ فقد أُوتى خيرًا كثيرًا، ثم زَعمْتَ أنك لا عِلْمَ لك بالرُّوح؟ فقال اللهُ تعالى لنبيِّه قل: وإن أُوتِيتُ القرآن، وأُوتيتم التوراةَ فهى بالنسبة إلى كلماتِ الله تعالى قليلة.

إن ما فى القرآن العظيم، وما فى كتبِ اللهِ المنزَّلةِ على رسلِه قَبله يُعَدُّ خيرًا كثيرًا، وعِلْمًا غزيرًا، ونبعًا فياضًا بالبركة والهُدى، ولكنه قَطْرَةٌ من بحْرِ كلماتِ اللهِ عزَّ وجل.

وقد ساقت سورةُ الكهف مثلًا افتراضيًا، يُقرِّبُ هذا المعنى إلى الأفهام ويُوضِّحُه بأجلى بيان، لتعظيم عِلْمِ الله عزَّ وجل، وإجلالِ كلماته، وبيانِ ثَراءِ معانى آياته فى كتابه الـمُنزَّلِ على آخر أنبيائه، قال سبحانه لنبيِّه:

﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّى لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾

إنَّ البحرَ فى نَظَرِ الناسِ خَلْقٌ عظيمٌ هائلٌ، والبحرُ: جِنْسٌ يشملُ بِحارَ الدنيا كلَّها مِمَّا هى فى رُوعِ الناسِ لا يُحصى ماؤُها كثرةً، ووزنًا وإذا أُضيف إلى ذلك شجرُ الدنيا كلِّه، وهو ما لا يُمكِنُ للبشر حَصْرُه ولا عَدُّه، ثم يُقطَّعُ هذا الشجرُ كلُّه، ويُجزَّأُ إلى أجزاءٍ صِغَارٍ تُبرَى كلُّها أقلامًا تُستخدَمُ فى كتابة معلوماتِ الله عزَّ وجلَّ وحكمته أو معانى آياته فى كتابه لَنفدَ ما يَتصوَّرُه البشرُ من ماء البحرِ الذى تَمدُّه بحارٌ من ورائها بحارٌ، ولتكسَّرت الأقلامُ كلُّها، وانقضى هذا وذاك مع كثرتهِ لتناهيه قبل أن تنفَدَ كلماتُ ربِّى لعَدَم تناهيها.

والـمِدادُ: اسمُ ما تُمَدُّ به الدواةُ من الـحِبر، وما يُمَدُّ به السراجُ من

السَّليط، ونقول: نَفِدَ الشيءُ يَنفَد: إذا تمَّ وفرَغ.

﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ أى زيادةً على البحر عددًا ووزنًا أى: لو جئنا بمثل البحرِ مدادًا لَنفد أيضًا، والكلماتُ غيرُ نافدَة.

والـمَدَدُ: مِثْلُ الـمِدَادِ وهو ما يُمَدُّ به، وعن ابن عباس: بمثله مدادًا.

والمعنى: قُل: يا محمدُ: لو كان ماءُ البحرِ مدادًا للقلم الذى تُكتب به كلماتُ ربى وحِكَمُه وآياتُه الدالةُ عليه لَنفِدَ البحرُ قبل أن يَفْرُغَ كتابةُ ذلك، ولو جئنا بمثل البحرِ آخرَ، ثم آخرَ، ثم آخرَ وهَلُمَّ جرًّا بحورٌ تَمُدُّه، ويُكتَبُ بها لَمَا نَفِدت كلماتُ الله، كما بيَّن اللهُ تعالى فى سورة لقمان بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الآية: ٢٧]

جَعَلَ البحرَ الأعظمَ بمنزلَة الدواة، وجَعَلَ الأبحرَ السبعةَ مملوءةً مدادًا فهى تَصُبُّ فى البحر مدادَها أبدًا صبًّا لا ينقطعُ، والمعنى: ولو أن أشجارَ الأرضِ أقلامٌ، والبحرَ ممدودٌ بسبعة أبحرٍ، وكُتبت بتلك الأقلامِ، وبذلك المداد كلماتُ الله الدالةُ على عظمته وجلالِه لما نَفِدت كلماتُه، ونَفِدت الأقلامُ، ونَفِد الـمدَادُ.

وإنما ذُكِرَت السبعةُ أبحرٍ[1] للدلالة على الكثرة مطلقًادون قَصدِ التخصيصِ، وفيما يَتصورُه البشرُ، ويجعلونه مثلًا لِمَا يَتعذَّرُ الوصولُ إليه

---

(١) فى تعريف العدد المضاف بال يدخل حرف التعريف على المضاف إليه يقال: سبعة الأبحر، وثلاث الليالى، وهو مذهب البصريين، وهو الأشهر. ويجوز السبعة الأبحر، والثلاث الليالى بإدْخال (ال) على العدد والمعدود، وهذا أجازه الكوفيون ويجوز السبعة أبحر والثلاث ليال بإدخال أل على العدد وهو مذهب الكوفيين ـ أيضا ـ

فيقولون: هو خَلْف سبعةِ أبحرٍ أو رَمَوه وراءَ سبعةِ أَبحُر[1].

قال الزمخشريُّ: فإن قلتَ: لِمَ قِيل من شجرة على التوحيد دونَ اسمِ الجنس الذى هو شَجَرٌ؟، وأجاب بقوله: أُرِيدَ تفصيلُ الشجر، وتَقصِّيها شجرةً شجرةً حتى لا يَبْقَى من جنسِ الشجر ولا واحدةٌ إلا قد بُرِيت أقلامًا.

ثم يَطرح سؤالًا فيقول: الكلماتُ جمعُ قِلَّة، والموضعُ موضعُ التكثيرِ لا التقليل، فَهلاَّ قِيل: كَلِمُ الله؟ ثم أجاب بقوله: معناه أن كلماتِه سبحانه لا تَفِى بِكِتْبَتِها البحار، فكيف بِكَلِمه؟.

وقُصارى ذلك: أنه سبحانه أَخْبَر أن عظمتَه وكبرياءَه وجلالَه وأسماءَه الحُسنَى لا يُحِيطُ بها أحدٌ، ولا يَصِلُ البشرُ إلى معرفةِ كُنهِها، وعددها كما جاء فى الحديث: «سبحانك لا نُحصِى ثناءً عليك أنت كما أثنيْتَ على نفسِك».

---

(١) جاء فى عدةِ الصابرين لابن القيم (٢٢٨/٢٢٩): إن مثَلَ الدنيا بالنسبة إلى الآخرة كمثَل الذى يُدخِل إصبعَه فى اليمِّ، فبِمَ يَرجع؟، ذلك أن الدنيا منقطعة فانية والآخرة أبدية لا انقطاعَ لها، ولا نسبة للمحصور إلى غير المحصور.

بل لو فُرض أن السمواتِ والأرضَ مملوءتان خَرْدلاً وبَعْد كلِّ ألْف سنةٍ طائرٌ ينقُلُ خردلة واحدة لفنِيَ الخردلُ أما الآخرة فلا تفنى، فنسبة الدنيا إلى الآخرة فى التمثيل كنسبة خردلة واحدة إلى ذلك الخردل - وإن الآخرة أمرُها أعظمُ وأجلّ -.

ولهذا لو أَن البحرَ يمدُّه من بَعْده سبعةُ أبحر، وأشجارَ الأرضِ كُلُّها أقلامٌ يُكتَبُ بها كلامُ الله لنفدَت الأبحرُ والأقلامُ، ولم تنفَد كلماتُ الله، لأنها لا بداية لها ولا نهاية، والأبحرُ والأقلام متناهية.

قال الإمام أحمد وغيرُه: لم يزل اللهُ متكلمًا إذا شاء، وكمالُه المقدَّس مقتضٍ لكلامه، وكَمَالُهُ مِن لوازم ذاته فلا يكون إلا كاملا، والمتكلمُ أكملُ ممن لا يتكلم، وهو سبحانه لم يلحقه كلَل ولا تعبٌ ولا سآمة من الكلام، وهو يخلق ويدبرُ خلقه بكلماته، فكلماتُه هى التى أوجدَ بها خلقَه وأمرَه، وذلك حقيقة ملكِه وربوبيتِه، وإلهيته، وهو لا يكون إلا ربًّا ملِكًا إلها لا إلهَ إلا هو.

وقال ابنُ عباس: كلماتُ ربى: أى مواعظُ ربِّى.
وقيل: عُنِى بالكلمات الكلامُ القديمُ الذى لا غايةَ له ولا مُنتهى.
وقيل: أى ما نَفِدت العباراتُ والدلالاتُ التى تدلُّ على مفهومات معانى كلامه سبحانه وتعالى.
وقال الربيع بن أنس: «إن مَثَلَ علْمِ العبادِ كلِّهم فى علْمِ الله كقطْرة من ماء البحورِ كلِّها، وقد أنزل اللهُ ذلك: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مداداً لِّكَلمات ربِّى لَنفدَ البحرُ قبْلَ أن تنفدَ كَلمَاتُ ربِّى وَلوْ جئْنَا بمثْله مَدداً﴾ يقول: لو كانَ البحرُ مدادًا، والشجرُ كلُّه أقلامًا، لانكسرت الأقلامُ وفَنِى ماءُ البحر، وبَقِيت كلماتُ الله قائمةً لا يُفنيها شىءٌ، لأن أحدًا لايَستطيع أن يَقْدُرَ قَدْرَه، ولا يُثنِى عليه كما يَنبغى، حتى يكونَ هو الذى يُثنِى على نفسه، إن ربَّنا كما يقول، وفوْقَ ما نقول، وإن مَثَلَ نعيمِ الدنيا أولِها وآخرِها فى نعيم الآخرةِ كحَبَّةٍ من خردلٍ فى خلال الأرضِ»

«انتهى كلامه ـ نقلا عن ابن كثير»

وقال السدِّىُّ ـ كما عند القرطبى: «أى إنْ كان البحرُ مدادًا لكلمات ربى، لنفِد البحرُ قبل أن تنفَدَ صفاتُ الجنةِ التى هى دارُ الثواب».
وهذا حَقٌّ ومثالٌ يوضحُ المطلوب، فما بالُك فى وصْف ما لا يتناهى من كلام ربِّنا وَعِلْمه؟.
وشَبيهٌ بهذا المثالِ قولُ عِكرمةَ: لَنفِدَ البحرُ قبل أن ينفدَ ثوابُ مَن قال: لا إلهَ إلَّا الله.

وفى هذا السياقِ جاء من قصة موسى وصاحبِه عليهما السلام، أنهما حين ركبا السفينةَ: جاء عصفورٌ فوقع على حرف السفينةِ، فنقَر نَقْرةً فى البحْر ـ أى غَمَس مِنقارَه يشرب ـ فضَرَب له الرجلُ الصالح مثلًا يُقرِّبُ

المعنى إلى الأذهان ويبيِّنُ أَنَّ علْمَ اللهِ عزَّ وجل غيرُ مُتَناه، وأنه لا يُمكِنُ الإِحاطةُ به فقال لموسى: ما عِلْمى وعِلمُك مِن عِلْم اللهِ إلا مِثْلُ ما نَقَصَ هذا العصفورُ من ماء هذا البحر، وفى لفظ: ما علمى وعلمُك وعلمُ الخلائق فى علم الله إلّا كما أَخَذَ هذا العصفورُ من هذا البحر، ولهذا قال سبحانه ﴿وما أوتيتم مِّنَ العلمِ إلَّا قليلًا﴾.

والعِلْم هنا: بمعنى المعلوم، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا يُحِيطُون بِشَىْءٍ مِّن عِلْمِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]

أى من معلوماتِه، وهذا من الرجل الصالِح تمثيلٌ، أى: معلوماتى ومعلوماتُك يا موسى لا أَثَر لها فى عِلْم اللهِ، كما أن أَخْذَ هذا العصفورِ من هذا البحرِ لا أَثَر له بالنسبة إلى ماء البحر، وإنما مَثَّلَ ذلك بالبحر لأنه أكثرُ ما يشاهدُه ممّا بَيْن أيدينا، وإطلاقُ لفْظِ النقْصِ هنا تَجوزٌ قُصِد به التمثيلُ والتفهيمُ إِذْ لا نَقْصَ فى عِلْمِ اللهِ، ولا نهايةَ لمعلوماته.

وقد أوضح هذا المعنى البخارىُّ فقال: واللهِ ما عِلْمى وما عِلْمُك فى جَنْب عِلْمِ اللهِ إلا كما أَخَذَ هذا الطيرُ بمنقارِه من البحر(*).

وفى لفْظٍ عند ابن كثير: فقال لموسى: كم تَرَى هذا الخُطَّافُ - العصفور - رزَأَ من هذا الماءِ؟ قال: ما أَقَلَّ ما رزَأَ! قال: يا موسى، فإِن عِلْمى وعِلْمَك فى عِلْمِ اللهِ كَقدْرِ ما استقَى هذا الخطَّافُ من هذا الماء. وكان موسى قد حَدَّث نفسَه أنْ ليس أحدٌ أعلمَ منه، أو تكلَّم به، فَمِن ثَمَّ أمرَ أن يَأتِيَ هذا الرجلَ الصالحَ، ليتعلمَ منه مِمَّا عَلَّمه اللهُ شيئًا يسترشِدُ به فى أموره، مِن علمٍ نافعٍ وعمَلٍ صالح.

(*) القرطبى/ سورة الكهف

وفى ختام سورة الكهف أمرَ اللهُ عزَّ وجل نبيَّه أن يقولَ للمشركين المكذبين برسالته: ﴿قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ أى: أنا لا أعلمُ إِلَّا ما يُعلِّمُنى اللهُ تعالى، وَعِلْمُ اللهِ تعالى لا يُحصَى، وإن الرسولَ ﷺ لا يَدَّعِى الإحاطةَ بكلماته جَلَّ وعلا، وإنما أُمِرتُ بأن أُبلِّغكم بأنه لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنا أدعوكم إلى عبادة الله وحده مع إخلاصِ الطاعةِ له سبحانه، واتباع نبيِّه: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَاء رَبِّه فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَة رَبِّه أَحَدًا﴾ أى مَن أراد الجزاءَ الصالحَ والنعيمَ الأُخرويَّ فيلكن عملُه موافقًا لشرْعِ اللهِ ، وفيه اتباعٌ لنبيِّه وخالصًا لله لا رياءَ فيه.

ـ والله أعلم ـ

❊ ❊ ❊

عن عبد الله بن عمرو بنِ العاص رضى الله عنهما: أن رسولَ الله ﷺ قال: «لا يُؤْمِنُ أَحَدُكم حتى يكونَ هواهُ تبَعًا لِمَا جئتُ به»

قال ابن رجب الحنبلى فى شرحه الأربعين النووية «جامع العلوم والحِكَم»: خرّجَه الأئمة فى مسانيدهم ثم خرّجه الطبرانى.

من سورة الحج:

١٩٩- أ- وَمَا هُم بِسُكَارَى

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ﴾
[الآية: ١، ٢]

إن اللهَ عزَّ وجل يُنبِّهُ عبادَه: المؤمنَ منهم والكافرَ، المطيعَ، والعاصيَ ليلتفتوا إلى ما يأتى بعد النداء: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ ولتتيقَّظَ مشاعِرُهم وتتفتحَ عُقولُهم وقلوبُهم له، لأنه أمرٌ عظيمُ الشأن، بالغُ الخطَرِ، ينبغى لأهل الحكمةِ والبصيرةِ أن يَتلقَّوْه بِهمَمٍ عالية، وألَّا يَتوانَوْا فى قَبوله والعملِ بمقتضاه، وهو أمرُه سبحانه بتقواه، أى باجتناب معَاصيه، والعملِ بما فيه مرضاتُه، وبالوقوفِ عند حدودِه: ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ أى: احترسُوا بطاعته من عقوبته، والمخاطَبُ بهذا جميعُ المكلَّفين أى: اخشَوْا ربَّكم فى أوامره أنْ تتركُوها، ونواهيه أن تُقْدمُوا عليها، وأصلُ الاتِّقاء: الاحتراسُ من المكروه، وتقول: وقَيْتُ الشيءَ وقايةً: أى صنتُه وحَفظْتُه ممَّا يَضرُّه ويُؤذِيه، واتقُوا: أمرٌ مِن اتَّقَى بِوزْن افتعل، وأصلُه: اوتقى، من وَقَى يَقِى قُلِبتْ فيه الواوُ تاءً وأُدغمَت فى التاء الأُخرى فصار: اتَّقى.

ومن رحمة اللهِ بالناس أن أرسلَ لهم الرسول، وأنزل عليه الكتابَ ليهيِّئوا أنفسَهم للمعاد، وليتزوَّدوا ليوم الحساب، ليكونوا أهلًا لرحمة الله فى يومٍ يَشيبُ فيه الوِلدان، وتُبدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ والسمواتُ ويحَدُثُ فى العالَم من الخراب والتغيرِ ما يملأُ القلوبَ رُعبًا وفزعًا، فإن

ما يحدُثُ فى آخر عُمرِ الدنيا، وأولِ أحوالِ الساعة أمرٌ رهيبٌ قَدَّمته لنا الآياتُ بما تُطيقه عقولُنا، وتتصورُه مداركُنا، وقد تَقدَّمت لنا نُذُره فى دنيانا لنكونَ على بيِّنة، ولئلَّا يكونَ للناس على اللهِ حُجَةٌ: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ إنَّ الزلزلةَ تَعنى شدةَ الحركة، وهذه اللفظةُ تُستعمَلُ فى تَهويل الشيء، وزَلزلةُ الساعةِ نُذرُها ومقدِّماتُها المتلاحقةُ، ومن أراد أن يعيشَ أهوالَها كأنه يراها، وكيف تَتمُّ الزلزلةُ فى الكون كُلِّه فليقرأْ متدبرًا متعظًا مَطْلعَ سورةِ الانفطار: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ۝ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ۝ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾.

فالسماء ُ تَتشقَّقُ، والكواكبُ تتناثرُ وتتساقطُ متفرقةً، والبحارُ تَشَّقَّقُ جوانبُها وتُزالُ الحواجزُ التى بينها، وتتغيرُ معالـمُها، والقبورُ يُقْلَبُ ترابُها ويُثارُ ما فيها من الموتَى ليستقبلوا العالمَ الآخر، ويَجدُ كُلٌّ منهم ما عَمِل من قولٍ أو فِعْلٍ حاضرًا، وهذا التصويرُ الحىُّ المتحرِّكُ الذى يملأُ النفسَ رهبةً نَجِدُه فى مَطْلَعِ سورةِ التكوير: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ۝ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ أى قُرنت الأرواحُ بالأبدان، وأحيَا اللهُ الناسَ للحساب والجزاءِ، أو قُرِن كلُّ إنسانٍ بشكْله مِمّا هو على مُعتقَدِه ومَشْرَبِه فى الدنيا، ثم يقول سبحانه: ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ أى قُلِعَت وأُزيلت، فلَمْ تَبْقَ سماءٌ تُغطِّى ما تحتَها، كما يُكشَطُ الإهابُ عن الذبيحة: ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝ وَإِذَا الْجَنَّةُ

أُزْلِفَتْ۝عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ وفى هذا تنبيهٌ للإنسان، وحَثٌّ له علَى التفكُّر، وتَيقيظٌ للنفوس والعقول لتعملَ لهذا اليومِ العظيمِ الهول.

ولنتدبر: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ۝وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ۝وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ۝وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ۝وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ الآياتُ من سورة الانشقاقِ لِنرى دلائلَ القدرة، وعِظَمَ ما يُصيبُ العالَمَ عند قيامِ الساعةِ مِن زلزالٍ رَهيبٍ يشملُ الأرضَ والسماءَ فلا يَبقَى شىءٌ فى موضعه، ولا يستقرُّ حالٌ على ما هو عليه، وقد رَوى ابنُ عمرَ أن النبىَّ ﷺ قال: «مَن سَرَّه أن ينظُرَ إلى يومِ القيامةِ كأنَّه رأْىُ عَيْنٍ فَلْيقرأْ: إذَا الشمسُ كُوِّرت، وإذَ السماءُ انفطَرتْ، وإذا السَّماءُ انشقَّت»

[أخرجه الإمام أحمد والترمذى وحسَّنه الحاكم وصحَّحه]

قال الضحاك: ﴿وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ﴾ أى: بُسِطَت باندكاك جبالها وآكامِها وتَسويتِها فصارت قاعًا صفصفًا، لا تَرى فيها عِوجًا ، ولا أَمْتًا ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ أى رمَت ما فى جوفها من الموتى، والكنوز وخلَت عمَّا فيها غايةَ الـخُلوِّ حتى لم يبقَ فيها شىءٌ من ذلك، وقيل: تَخلَّت مِمَّن على ظهرها من الأحياء، أو: مِمَّا على ظهرها من الجبال والبحار.

فأىُّ زلزال أعظمُ من هذا الزلزالِ؟ وإنه لآت لاريبَ فيه، وفى سورة طه ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا۝فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا۝لا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا﴾ [الآيات: ١٠٥-١٠٧]

أى يَقْلَعُها مِن أُصولها، ثم يجعلُها كالرمل، ثم يُصيِّرُها كالصوف المنفوش، ثم تَذروها الرياحُ، ثم يُصيِّرُها كالهباء المنثور، وتبدو الأرضُ

حيئذ ملساءَ مستويةً، وتخلُو من الأودية والروابى لا مُنْخفضَ فيها ولا مُرتفَع.

إنها الصاخَّةُ، إنها الحاقَّة، إنها القارعةُ، وقد قَرَّب إلينا الوحْىُ أهوالَها ومخاوفَها بما نَفهمُه، ونتصورُه، ليرتدعَ ذوو العقولِ والألبابِ عن الباطل ويعملوا ليومٍ يقولُ فيه كلُّ إنسان: نفسى، نفسى.

وقد رَوَى الترمذىُّ عن عمرانَ بنِ حُصين أن النبىَّ ﷺ لـمَّا نزلت: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُم إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ إلى قوله ﴿وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيد﴾ قال أُنزِلت عليه، وهو فى سفَر فقال: «أتدرُون: أىُّ يوم ذلك» فقالوا: اللهُ ورسولُه أعلم، قال: «ذاك يومٌ يقولُ اللهُ فيه لآدمَ: ابْعَثْ بَعْثَ النار، قال: ياربِّ ومَا بَعْثُ النار؟، قال: تِسعُمائةٍ وتسعةٌ وتسعون إلى النار وواحدٌ إلى الجنة، فأنشأ المسلمون يبكُون، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «قَارِبوا وسَدِّدوا فإنه لم تكن نُبوَّةٌ قَط إلا كان بيْن يديْها جَاهِلية - قال - فيُؤخَذ العددُ من الجاهلية، فإنْ تَمَّت وإلّا كَمُلَت من المنافقين، وما مَثَلُكم والأُممِ إلَّا كمثَل الرقْمَة فى ذِرَاعِ الدابةِ أو كالشَّامة فى جَنْب البَعِير - ثم قال - إنى لأرجو أن تكونوا رُبْعَ أهلِ الجنة، فكبَّروا، ثم قال: إنى لأرجُو أن تكونوا ثُلثَ أهلِ الجنة، فكبروا ثم قال: إنى لأرجُو أن تكونوا نِصْفَ أهلِ الجنة، فكبَّروا، قال: لا أدرى قال الثُلثين أَمْ لا». قال: هذا حديث حَسَن صحيح، وقد رُوى من غير وجه عن الحسن عن عمران بن حصين.

والرَّقْمةُ: الدائرةُ الناتئةُ فى ذراع الدابَّة مِن داخِل، وهما رقْمتان فى ذراعيْها، والشامةُ: علامةٌ تُخالفُ البدنَ الذى هى فيه، أى: الخالُ فى

الجسَد، وقد مثَّل بهما النبىُّ ﷺ أمتَه بالنسبة لسائر الملل والنِّحَل.

وقوله: «**قَارِبُوا**» أى اقتصدُوا فى الأمور كلِّها، واتركوا الغُلوَّ فيها والتقصيرَ، يقال: قارَب فلانٌ فى أموره إذا اقتصد.

و «**سَدِّدوا**» أى: اطلبُوا بأعمالكم السدادَ والاستقامة، وهو القصدُ فى الأمر والعدْلُ فيه.

يقول ابن كثير: ﴿**إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَىءٌ عَظِيمٌ**﴾ أى: أمرٌ كبير وخطْبٌ جليل، وطارقٌ مُفظِع، وحادثٌ هائل، وكائنٌ عجيب، والزِّلزال: هو ما يحصلُ للنفوس من الفزَع والرعْب.

ومن آثار أهوالِها ومخاوِفها وما تُسبِّبُه من الفزَع والدهَشِ ما جاء تصويرُه أصدقَ تصوير وأروعَه وأشدَّه وَقْعًا على النفوس فى قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى...**﴾.

يوم تروْنها: أى ترونَ الزلزلةَ، والهاءُ ضميرُ الشأنِ، ولهذا جاء تفسيره فى: ﴿**تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ**﴾ أى تشتغلُ لهوْل ما ترى عن أحبِّ الناسِ إليها، والتى هى أشفقُ الناسِ عليه، تُدْهَشُ عنه فى حالِ إرضاعِها له، ولهذا قال: ﴿**كُلُّ مُرْضِعَةٍ**﴾ ولم يقُل: «**مُرْضِع**»، وقال: ﴿**عَمَّا أَرْضَعَتْ**﴾ أى: عن رضيعِها قبْل فطامِه.

والمرضعةُ: «التى تُرضِعُ وثَديُها فى فَمِ ولدِها، والـمُرضِعُ: التى معها الصبىُّ الرضيعُ».

والذُّهولُ: الغفلةُ عن الشىء بطروء ما يُشغِلُ عنه من هَمٍّ أو وجَعٍ أو غيرِه، قال ابنُ زيد: تتركُ ولدَها للكرْب الذى نزل بها.

وهذا يفسِّرُ الهولَ بلازمه وهو أن تنسى المرضعةُ وليدَها والثدْىُ فى فمه وتشتغِلُ عنه، ومن هذا القَبيل قوله: ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ أى قبل تمامه لشدة الهول، وهذه كلُّها من الآثار النفسيةِ، لشدة الخوفِ ثم رسَمت الآيةُ الكريمةُ صورةً للموقف العامِّ للناس، وقد دَهشَت عقولُهم، وذهبَت نفوسُهم كلَّ مذهب، وغابَت أذهانُهم فى ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى﴾ أى من شدة الأمرِ الذى صاروا فيه وما يُدرِكُهم من الفزَع والرعب، والمعنى على التشبيه وتقريبِ المعنى بالتصوير الحىِّ لحال الناسِ، لهذا قال: ﴿وَمَا هُم بِسُكَارَى﴾ أى من الخمْر، وقال أهل المعانى: «ترى الناسَ كأنهم سُكارى».

إنَّ الآية الكريـمَةَ تَشرحُ الخوفَ وانفعالاته من الناحية النفسيةِ العلْميةِ شرحًا صادقًا، وتقدمُ لنا ذلك فى إيجازٍ وإعجازٍ وفى مظاهرَ حيةٍ كأنها ماثلةٌ للعِيان، وتقدمُ صورة عامة للبشر منذ آدم حتى تقوم الساعةَ وهم فى حالة تبعث على الازدجار وترك الغفلة ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى﴾ ألفاظٌ قليلةٌ رَسَمَت صورةً ذاتَ أبعادٍ فسيحةٍ وحركةٍ عامةٍ غيرِ متوازنةٍ مع الإيحاءِ بمشاهدَ عجيبةٍ وأحوالٍ غريبة، وقُل ما شئتَ عن الدقة والروعة والإعجاز، ثم يُرْفَعُ الغطاءُ عن الحقيقة ﴿وَمَا هُم بِسُكَارَى﴾ إنَّ المسألةَ ليست خمْرًا وآثارَها، ولكنَّها حقيقةٌ نفسيةٌ أَخرَجَت أعقلَ الناسِ عن اتزانِه وحالتِه السويةِ، فأىُّ مخاوفَ هذه التى تنتظرُنا ونحن فى غفلة ساهون؟ نسأل اللهَ السلامةَ وصدْق اليقين، والأمنَ يومَ الفزَعِ الأكبر.

إنَّ الخوف فى نظَر المحلِّلين النفسيِّين يُحْدثُ الذهولَ، والخوفَ يُوقعُ صاحبَه فى غيبوبة يَظنُّ معها أنه فعَل الشىءَ وهو لم يفعله، يترنَّح ترنُّحَ السكران، وما به من سُكر، وقد يُطلِقُ الخوفُ الأجهزةَ الإفرازيةَ وقد

يَقْبِضُها، وهو يؤثِّر فى الجسم تأثيرًا من شأنه الإِجهاضُ، وأن تَضَعَ كلُّ ذاتِ حملٍ حَمْلَها، وخصوصًا عند شدة الصدمةِ للوهْلة الأولى.

فتأمَّلْ هذه الظواهرَ العلميةَ التى قرَّرها الدينُ، ونطَق بها النبىُّ الأمىﷺ الذى نشأ فى بيئةٍ أُمية، تأمَّل ، وقُل: إنه كلامُ ربِّ العالمين الدالُّ على صِدْق النبىِّ الأمينِ، والمعجزةُ الكبرى الباقيةُ تتحدَّى العقلَ إلى يوم الدين.

❋ ❋ ❋

الشفاعة العظمى:

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: «إن الناس يصيرون يومَ القيامةِ جُثًا ـ بضَمِّ الجيم وفتح الثاء المخففة المنونة ـ كلُّ أمَّةٍ تَتْبعُ نَبيَّهَا، يقولون: يا فلانُ اشْفَعْ، يا فلانُ اشْفَعْ، حتى تنتهىَ الشفاعةُ إلى النبىﷺ، فذلك يومَ يَبْعَثُهُ اللهُ الـمَقَامَ المحمودَ» [أخرجه البخارى]

وجُثًا: أى جماعات، وكل جماعة تقولُ لنبيِّها: اشْفَعْ حتى تنتهى إلى رسول اللهﷺ فيشفع بإذن ربه ليُقضى بين الخلق وليُريحهُم من كَرْب ذلك اليوم وشدَّته.

٢٠٠ - ب - تنبيه العبادِ لئلاّ يغفلوا عن المعاد

فى مَطْلع سورةِ الحَجِّ حَرَّضَ اللهُ عزَّ وجل عبادَه على التأهُّب لليوم الآخِر ، وحَثَّهم على الاستعداد له بالعقيدة الصحيحةِ ، والعملِ الصالح فقد لفتَهم إلى أهوال الساعةِ بعبارةٍ قويةٍ مُصَوِّرة، تُوحِى بالحركة الشديدة والأصواتِ المُفزِعةِ ، والتغيُّرِ المفاجئ فى الكون ، مِمَّا يخلَعُ القلب ويقذفُ الرعبَ فى النفوس ، كما تَقذفُ الزلازلُ والبراكينُ بالحُمَم: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ وأصلُ الكلمة: مِن زَلَّ عن الموضِع أى: زالَ عنه وتحرَّك ، وعندما يأْذَنُ اللهُ بخرابِ هذا العالمِ الدنيوىِّ فإنَّ كلَّ شىءٍ سيزولُ عن مكانه ، وسيكونُ الأمرُ فظيعًا حقًّا ، إِذْ تتهاوى الكواكبُ ، وتتساقطُ النجوم ، وتُفجَّرُ البحار ، وتُنْسفُ الجبالُ نسفًا وتُزلزلُ الأرضُ ، وتَتَشقَّق ، وتَرمى بما جوفها ، وتَحدثُ أصواتٌ فوقَ طاقةِ الإِنسانِ ، تَصُخُّ الآذانَ وتَصمُّها صَمًّا ، ويخرُج الناسُ هائمين كأنهم جرادٌ منتشر ، أو كالفراش المبثوثِ فى حيرة ورُعبٍ وذهول ويَنسى الحبيبُ أعزَّ الناسِ لديه ، ثم يكونُ بعدَ ذلك ما هو علَى الكفَّار أدهى وعلى المشركين أمرٌّ فى دركاتِ جهنمَ ، وبئْسَ المصير.

أنذَر اللهُ عبادَه بمخاوفِ القيامةِ لينتبهوا ، إِذْ لا توبةَ بعد الغرْغرةِ وبعد رُؤيةِ مَلَكِ الـموت ، ومَن رحمته سبحانه وتعالى أنه يَقبلُ عبدَه النادمَ ويرحمُ التوابين والأوابين ، وبابُ الرجاء مفتوحٌ أمام الكفارِ والمشركين والعصاةِ والزنادقةِ والملحدين إِذا هُم آبُوا إلى الحق ، ورجعُوا عن الغىِّ واتَّبعوا رسولَ اللهِ ﷺ نادمين على ما كان منهم.

وبعد هذا النذيرِ لفَت اللهُ عبادَه إلى المشكّكين فى الحق ، أدعياءِ العِلْمِ والمعرفة ، الذين يَسْعَون فى الأرض فسادًا ، ليصدُّوا الناسَ عن دين الله وهم يطعَنون فى آيات اللهِ بالباطل ، ويُزخرِفون القولَ لإلقاء الشُّبَه فى الصدور ، ولنتدبر قولَه تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِى اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شيطانٍ مَرِيدٍ﴾ [الحج: ٣]

وهؤلاء هم الذين يَقِيسون قدرةَ الخالقِ على قدرة المخلوقِ ويَستخدِمون المقاييسَ القائمةَ على الوَهْميَّاتِ دونَ اعتمادٍ على عقْلٍ سَليم ، ولا نَقْلٍ صَحيح ، فيقولون: أَيُحيى اللهُ الإنسانَ بعد ما يَبْلَى ويَصيرُ عظامًا وترابًا؟ ولو أنهم أنصفُوا وعَدَلُوا القضيةَ عن اعوجاجِها فقالوا: إنَّ الذى أَوْجَد الإنسانَ من العدَم لَقادرٌ على أن يُعيدَ إليه الحياةَ بعد ما مات وصار ترابًا ورُفاتًا ، «أو: إنَّ الذى أَحْدثَ الناسَ بعد أن لم يكونوا ، كيف يمتنعُ عليه إحياؤهم بعد موتهم؟ كما قال سبحانه: ﴿ولقد عَلِمْتُم النشأةَ الأُولَى فَلَوْلا تَذَكَّرون﴾ [الواقعة: ٦٢] أى: فهلّا تذكرون ، فتعلمون أن مَن أنشأ شيئًا بعد أن لم يكن قادرٌ على إعادته بعد عَدَمه؟[١] ، فهو سبحانه كما بدأكُم يُعيدُكُم ، لو أنهم فَعلُوا ذلك ومِثلَه لكان قياسُهم صحيحًا ، وتفكيرُهم فى القضية سديدًا ، يَعتمدُ على الفكْرِ المستقيم والنقْل الصحيح ولنتدبر: ﴿وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْه﴾ [الروم: ٢٧]

---

(١) مابين القوسين من: مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام الانصارى المتوفى ٧٦١ من الهجرة ـ الجزء الثانى ـ عند الكلام عن: هل ومعانيها **﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا﴾**.

﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِىٓ أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩]

لذا ذَمَّ اللهُ عزَّ وجل مَن كَذَّب بالبعث فى الآيةِ من سورة الحجِّ، وقَبَّح تفكيرَهم ومَسْلكَهم لإنكارهم قدرةَ الله على إحياء الموتى ، وإعراضِهم عمَّا أنزل اللهُ على أنبيائه ، مُتَّبعين فى إنكارهم وكُفرِهم كلَّ شيطانٍ مَريدٍ من الإنس والجنِّ ، وهذا حالُ أهلِ الضلالِ والبِدَعِ الـمُعرِضين عن الحق الـمُتَّبِعين للباطل ، يتركون البراهينَ والأدلةَ والأقيسةَ الصحيحة ويَتَّبِعُون أقوالَ رؤوسِ الضلالة ، والدعاةِ إلى البدعِ بالأهواءِ والآراءِ ولهذا قال فى شأنِ مَنْ كَانَ منهم فى عَصْر النبوة وفى أشباههم إلى يومِ القيامة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِى اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ أى: بغير عِلْمٍ صحيحٍ ولا حُجَّةٍ قاطعة ، والشيطانُ الـمَريدُ: هو العاتى المتمرِّدُ الذى يُضِلُّ كُلَّ مَن جعَله له وليًا : ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّه مَن تَوَلاه فَأَنَّهُ يُضِلُّه وَيَهْدِيه إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [الحج: ٤]

أى: يُضِلُّه فى الدنيا ، ويقودُه فى الآخرة إلى عذاب السعيرِ ، وهو الحارُّ المؤلمُ الـمُزعِجُ الـمُقلِقُ.

وفى هذا تحذيرٌ من الانقياد لأرباب البِدَعِ والأهواءِ ، ولـمُزيِّنى المعاصى فَمَن اتَّبَع هؤلاء وقَلَّدهم فى إلحادهم وفُجورِهم وانساق وراء أهوائهم أَضلُّوه وضيَّعوه ، وهم بين الناسِ كالأفاعى لَيِّنٌ مَسُّها ، قاتلةٌ سُمومُها وما أَكْثَرَهم فى عصر المدنيةِ المعاصرة! وقد تعدَّدت وسائلُهم ، وتنوَّعَت أساليبُهم. وينبغى للشباب الراشد، ولأهل الحكمةِ والبصيرةِ أن يَتَجنَّبوهم ويحذَرُوا منهم ، بل ويَفِرُّوا كما يَفِرُّ الإنسانُ من النار المحرقةِ ، ومن الأمراض الـمُنتقلةِ الـمُهلِكة ، وهذه هى التقوى بحماية النفسِ من الـمُردِيَات فى الدنيا ، الـمُهلِكاتِ فى الآخرة ، ومن الأسباب الموجبةِ

(١٣٠٦)

لغضب الربِّ سبحانه وتعالى.

ولـمَّا ذكَر اللهُ تعالى الـمُجادلَ فى آيات اللهِ بغير حقٍّ ، الجاحدَ للبعث ، المنكرَ للمَعاد ، ذكَر تعالى الدليلَ على قدرته سبحانه على إعادة الأجسام بعد تَفَتُّتِها، وهو دليلٌ قائمٌ على الـحِسِّ، وعلى مايَعرفونه ليكونَ أوْضَحَ فى الـحُجَّة. فقال سبحانه مخاطبًا الناسَ جميعًا مؤمنَهم وكافِرَهم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ أى: التفتُوا وتنبَّهُوا لِمَا يأتى ، وأَقْبِلوا على الفهم والتأمُّل ﴿إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ﴾ أى: إِن كنتم فى شكٍّ من الإعادة ، وقيامِ الناسِ أحياءً يومٍ القيامة للحساب والجزاء ، فتدبَّروا فى خَلْق أبيكم آدمَ ، وفى خلْق أنفسكم: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ﴾ أى: إنه أَصلُ بَرْئه لكُم ، وهو الذى خلَق منه آدمَ عليه السلام ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾

[الحج: ٥]

لقد خلَق اللهُ عزَّ وجل أبانا آدمَ وهو أصلُ البشرِ من تُراب ، ثم أَطلعَتْنا الآيةُ الكريمةُ على أطوار التكوينِ وأنَّ الواحدَ منا يَنتقِلُ من الماء الـمَهين أى النُّطفة ، إلى العلَقَة ، ثم إلى الـمُضغة الـمُخلَّقةِ وغيرِ الـمُخلَّقة ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ يُريد سبحانه: ليبيِّنَ لنا كمالَ قُدرته بتصريفه أطوارَ خلْق الإنسان ﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾

فتدبرْ - ياذا اللُّبِّ - من عجائبِ الصنعة فى خلْق الإنسان: إنه يَخرجُ مِن ظلام الرَّحِم إلى النور ضعيفًا فى بدَنه وسمْعه وبصَره، وحواسِّه وبطْشه وعقْله، ثم يُعطيه اللهُ القوةَ شيئًا فشيئًا، ويَلطُفُ به، ويُحنِّنُ عليه والديْه فى آناء الليلِ وأطرافِ النهار، ولهذا قال: ﴿ولِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُم﴾ أى: كمالَ عقولِكم ونهايةَ قُواكم، ومن كمال قدرة اللهِ وكمالِ حكمته وتدبيرِه أنَّ الموتَ يَقْطفُ الإنسانَ عندما يَحينُ حَيْنُه ويَنقطعُ به طريقُ حياتِه لا يُجاوزُ ما قُدِّرَ له من الأيام والثوانى ﴿وَمنكُم مَّن يُتَوفَّى﴾ أى وهو صغيرٌ أو فى عُنفوان شبابِه وقُواه ﴿وَمنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُر﴾ أى أخسِّه وأدْونه وهو الشيخوخةُ والهَرَمُ، وضَعْفُ القوةِ والعقلِ والفهْمِ، وتَناقُصُ الأحوالِ من الخَرَف وضعْفِ الفكْرِ، ولهذا قال سبحانه ﴿لِكَيْلا يَعْلَمَ من بعْدَ علْمٍ شيْئًا﴾ كما قال تعالى من سورة الروم: ﴿اللهُ الَّذى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جعَلَ من بعْد ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾

[الآية: ٥٤]

وكان مِن دعاء الرسولﷺ: «اللهُمَّ إنِّى أعوذُ بكَ من البُخْل، وأعوذُ بكَ من الجُبْن، وأعوذُ بِكَ مِن أن أُرَدَّ إلى أَرْذَلِ العُمُرِ، وأعوذُ بِكَ مِن فِتْنَةِ الدنيا وعَذَابِ القَبْر» [أخرجه النسائىُّ عن سعد]

إنَّ الذى خلَقَ آدمَ من تراب، وجعَل نسْلَه من سُلالةٍ من مَّاء مَّهين وحَفظه فى ظُلمةِ الرَّحِمِ وأمدَّه بأسباب الحياةِ، وهو الذى يَقْبضُه إليه ويَسْلُبه الحياةَ فى أىِّ مرحلة يشاء، هو القادرُ على إحيائه بعد موته للحساب والجزاء، ولو تفكَّرَ الإنسانُ مَلِيًّا، وأَنْعَمَ النظرَ طلبًا للحق لَما بَقِىَ على وَجْهِ الأرضِ مُلْحِدٌ ولا مُشْرِكٌ، ولكنَّها حِكْمَةُ اللهِ عزَّ وجل

فى خلْقه: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]

أى: وإن جَنَّةَ الخُلْد ونعيمَها لِمَن آمَن، وأصلَح، واتَّبع الرسلَ واتقَى ربَّه فى السِّر والعَلَن، ومن آيات قدرةِ الخالقِ، وبراهينِ حكمته وكمالِ سلطانه التضادٌّ بين المخلوقات: فمنهم المؤمنُ والكافرُ، والصالحُ والطالحُ، والموقنُ والشاكُّ، كما أنَّ منهم الأعمى والبصيرَ، والأصمَّ والسميعَ، والغنىَّ والفقيرَ، وغيرَ ذلك مِمَّا نراه ونعلمُه، وكلُّها شواهدُ ناطقاتٌ بوحدانية الخالقِ، وكمالِ علْمه وتدبيرِه.

ثم قَدَّمَ سياقُ الآيات مثَلًا قِياسيًّا على قدرة اللهِ على إحياء الأجسادِ بعد موْتِها بإِحياءِ الأرضِ بعد مواتِها، فكما يُحيى سبحانه الأرضَ التى لفحَتْها الشمسُ بِشُواظٍ من نار فصارت قَحْلَةً لا نبْتَ فيها ولا شىءَ بالماء يُصَبُّ عليها فإنه يُحيى العظامَ وهى رَميمٌ، وقد خاطَب اللهُ الإنسانَ بما يَراه ويلمسُه بنفسه وانتزعَ له المِثالَ من حياته ليكونَ أبْيَنَ فى الحُجَّة وأَلْزَمَ فى طريق المَحَجَّةِ فقال سبحانه: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ خاطب فى الأولى الناسَ بضمير الجماعة فقال: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ﴾ وفى الدليلِ الثانى قال: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ﴾ فخاطب واحدًا، فتغيَّرَ الخطابُ من الجَمْع إلى الواحد، وفى هذا إِحياءٌ للشعور، وتنبيهٌ للفكر، وإيقاظٌ للعقل ولكنَّ المعنى مُتَّصِلٌ من حيث الاحتجاجُ على منكرِى البعث ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾

[الآية: ٥]

إنه مَشْهدٌ حيٌّ من حياتنا: نَرى الأرضَ يابسةً لا تُنبت شيئًا فإذا أنزل اللهُ عليها المطَر تحركتْ بالنبات وحَيِيَتْ بعد موتها وربَتْ وارتفعتْ وزادتْ، وأخرجتْ ما يُعجِبُ الإنسانَ ويَسُرُّه وَينتفِعُ به ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ أى: حَسَنِ المنظرِ طيبِ الريحِ، فسبحان مَن له كمالُ القدرة الخالقِ المدبرِ الفعَّالِ لمَا يَشاء، من التراب الميِّت الهامدِ تَخْرجُ الأشكالُ والألوانُ والريحُ الطيِّبُ والثَمَرُ... ما أعظمَ هذا كلَّه! ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج: ٦، ٧]

تأكيدٌ بعد تأكيدٍ، وتَنبيهٌ بعد تنبيهٍ وَسَوْقٌ للأدلةِ العقليةِ والأمثالِ القياسيةِ المألوفةِ لدى الناسِ القريبةِ من أفهامهم..

فماذا بعد الحَقِّ إلَّا الضلال؟ نعوذُ بالله من أفكارِ أهلِ النار.

❊ ❊ ❊

٢٠١ - فى ذِكْرِ اللهِ عــزَّ وَجَلَّ وآدابِــه

إِنَّ أفْضَلَ الأعمالِ أن يُفارِقَ الإنسانُ الدنيا ولسانُه رطْبٌ بذكْرِ اللهِ عزَّ وجل ، إذ هو مستحضرٌ فى قلبه عظَمةَ اللهِ دومًا ، ولسانُه يلهجُ بتسبيحه وحمْده وتكبيرِه وتهليله وتعظيمه ، حتى يفارقَ الأهلَ والأحبابَ ويستقبلَ العالَمَ الآخر ، وقلبُه حيٌّ ، ونفسُه مطمئنةٌ ، لأنه صَدَق فى يَقينه وأخلَص الطاعةَ ، وداومَ المراقبة ، وكيف لا؟ وهو يعلَمُ أن اللهَ معه فى سِرِّه وعلانيتِه ، يُحصِى عليه كلَّ قوْلٍ وعمَلٍ ، إذا حَدَّثته نفسُه بمعصيةٍ يجدُ الوازعَ من داخله يُناديه : اتَّقِ اللهَ ، فَيرْتدِعَ ، وينزجرَ ويملأُ الخوفُ قلبَه ، وإذا أغْرَتْه قدرتُه على ظُلم أحَد ، سَمِعَ نداءً خَفيًّا : أنِ اذْكُرْ أنَّ اللهَ أَقْدرُ عليْك من قدرتك على أخيك فَيكُفَّ عن قصْده ، خوفًا من ربِّه وفى هؤلاء الذين يَسْتديمُون الخوفَ من الله ومراقبتَه حتى الموتِ يقولُ الحقُّ تبارك وتعالى من سورة الأنفال : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُه زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِم يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الآية : ٢]

إِنَّ قلوبَ هؤلاء فيها غضارةٌ ، وفيها نَضارةٌ ، وفيها نُور يهدى، لأنها حيَّةٌ دومًا بذكْرِ الله عز وجل ، متيقظةٌ أبدا كأنها على صراطٍ أَحَدَّ مِن السيف ، وقد وضَحت لها بفضل اللهِ مسائلُ الحرامِ والحلال ، وما هو أَصفى من الماء الزُّلال ، وما هو مشوبٌ بالشُّبهات يُخْشَى الانزلاقُ إليه لا يردُّهم عن الخير نفسٌ شحيحةٌ ، ولا تَدفعُهم إلى الشرِّ والمعصيةِ نفسٌ غافلةٌ لاهيةٌ أمَّارةٌ بالسوء.

أَثنى الله عز وجل على أصحاب هذه القلوبِ الحيةِ بذكْرِه وشكرِه

وبشَّرهم برحمةٍ منه ورضوانٍ ، فقال من سورة الأحزاب: ﴿إِنَّ الْمُسلمين والْمُسلمَات وَالْمُؤْمنين والْمُؤْمنات والقَانتين والْقانتَات والصَّادقين والصَّادقَاتِ والصَّابِرِينَ والصَّابِرَاتِ والـخَاشعين والْخَاشعَات والـمُتصدِّقين والْمتصدِّقَاتِ والصَّائمين والصَّائمَات والـحَافظين فُروجَهُم وَالْحَافظَات وَالذَّاكرين اللهَ كَثِيراً وَالذَّاكرَات أَعَدَّ اللهُ لَهم مَّغْفرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [٣٥:]

إِنَّ ذَاكرَ اللهِ فى قومٍ لاهيةٍ قلوبُهم ، غافلةٍ نفوسُهم لأَشْبَهُ بالشجرة الخضراءِ ذاتِ البهجةِ والظِّلِّ الوارفِ والثمرِ النافعِ بين حُطامٍ وهَشيمٍ وبقايا خشَب أتتْ عليه النيرانُ.

إِن القلبَ الخاليَ من ذكْرِ الله ، لأَشْبَهُ بِسَمَكٍ فى بِئْرٍ جَفَّ ماؤُه فانقطعت عنه أسبابُ حياته.

إِن مَثَلَ القلْبِ المحرومِ من ذكْر اللهِ عزَّ وجلَّ كمثَلِ قَبْوٍ مُصْمَتٍ لا يَنفذُ إِليه الضوءُ ، فهو مُظلِمٌ مُقْبِضٌ لا خيرَ فيه.

مثَل نبوى:

وقد مثَّل النبىُّ ﷺ صاحبَ القلْب اللاهى، الغافلِ عن ذكْر الله بالميِّت ومثَّل صاحبَ القلْب الذاكرِ بالحىِّ ، فقال فى الحديث الذى رواه أبو موسى الأشعرى رضى الله عنه: «مَثَلُ الَّذى يَذكُرُ ربَّه والذى لا يَذكُرُ مَثَلُ الحَىِّ والميِّت» [أخرجه البخارىُّ فى صحيحه]

و «**مثَلُ**» أى: صفةُ «**الذى يذكُر ربَّه**» بنوعٍ من أنواعِ الذِّكرِ ، ومنه قراءةُ القرآنِ ، ومُدارسَةُ العلْمِ ، والحديثِ ، «والذى لا يَذْكُر» ربَّه «مَثَلُ الحىّ والميِّت».

وَوَجْهُ الشَّبَه بين الحىِّ والذاكِرِ أن كُلًّا منهما فيه نَفْعٌ ، ومُتزيِّنُ الظاهرِ

والباطنِ ، أمَّا الظاهرُ فَبِحِلْيَةِ الحياةِ والتصرُّفِ التامِّ فيما يُرِيده ، وأمَّا الباطنُ فبنور العلمِ والمعرفة.

وأمَّا وجهُ الشَّبَه بَيْن الميتِ وغيرِ الذاكرِ فهو أن كُلًّا منهما عاطلٌ ظاهرُهُ وباطلٌ باطنُه ، فغيْرُ الذاكرِ لم يَتَزَيَّن بِحِلْيَةِ حياته ، ولم ينتفعْ بها فانقطع تصرُّفه من هذه الجهة ، وبَقِى ظاهرُه عاطلاً ، وأمَّا باطنُه فيبطلُ اتصالُه بنور العلمِ والفهمِ والإدراكِ لِمَا ينفعُه ، وهذه صفاتُ الميِّت.

والغرضُ من التمثيل الترغيبُ فى ذكْرِ اللهِ عزَّ وجل ، والتحبيبُ فى مُدارسَةِ القرآنِ الكريمِ ، وتِلاوتِه ، وحُضورِ مجالسِ العلمِ النافعة والتنفيرُ من الغفلة عن ذكرِ الله ، ومع إِيجازِ العبارةِ فى الحديث الشريفِ فإِنها غنيةٌ بالمعانى والدلالاتِ ، مع ما فى التضادِّ الناشىءِ عن الطِّباق بين: الذى يذكُرُ والذى لا يذكرُ والحىِّ والميِّتِ من جَمالٍ وأثرٍ فى إِبراز شرَفِ الذكرِ والذاكرين ، وخِسَّةِ الغفلةِ والغافلين ، إِذْ بِضدِّها تتميَّزُ الأشياء ، وتزدادُ المعانى والمقاصدُ وضوحًا وتأكيدًا.

مجلس خشوع وأدب:

ولـمَّا كان مجلسُ الذكرِ مجلسَ طاعةٍ وعبادةٍ كان الخشوعُ من لوازمه، والأدبُ والوقارُ من ضروراته ، وإِن الملائكةَ الكرامَ تَغشَى هذه المجالسَ وتُثنِى على أصحابها ، وفى الحديث الذى أخرجه البخارىُّ وغيرُه ورواه أبو هريرة: «إِن لِلَّه ملائكةً يطوفون فى الطُرق يَلْتمسون أهْلَ الذكرِ ، فإِذا وجَدوا قومًا يذكُرون اللهَ تَنَادَوْا: أن هَلُمُّوا إِلى حاجتكم قال: فَيحفُّونَهم بأجنحتهم إِلى السماء الدنيا» وفى رواية مسلم: «يَتَتبَّعون مجالسَ الذكر».

صفة مجالس الذكْر الشرعى:

وقد تحدَّث الشاطبىُ[1] فى كتابه الاعتصامِ عن الوصف الشرعىِّ لهذه المجالسِ فقال: إن مجالسَ الذكرِ الصحيحِ هى ما كانت على ما اجتمع عليه السلفُ الصالح ، فإنهم كانوا يَجتمعون لتدريس القرآنِ فيما بينهم كما جاء فى حديث أبى هريرةَ عن النبىﷺ: «ما اجتمعَ قومٌ فى بيت من بيوت الله يتلون كتابَ اللهِ ويتدارسُونه بينهم ، إلَّا نزلتْ عليه السكينةُ وغَشِيتْهم الرحمةُ ، وحفَّت بهم الملائكةُ ، وذكَرهم اللهُ فِيمَن عنده»

[أخرجه مسلم]

يقول الشاطبىُّ: هذا هو الاجتماعُ للذكر ، وليس على صوتٍ واحد - كما يفعل مَن يجتمعون فى بعض الأوقاتِ ، ويأخذون فى الذِّكْر الجهورىّ على صوتٍ واحد ، وقد يُصاحِبُ ذلك الرقْصُ والغناءُ والمزمارُ - فهذا من البِدَع المستحدَثاتِ المخالفةِ لطريقةِ رسولِ اللهِﷺ ، وطريقةِ أصحابه والتابعين لهم بإحسان.

ثم بَيَّن الشاطبىُّ أنَّ من مجالس الذكرِ الشرعى: أن يجتمعَ قومٌ على التذكرِ لِنعَم اللهِ ، أو التذاكُرِ فى العِلْم إن كانوا علماءَ ، أو كان فيهم عالمٌ فجلس إليه متعلمون ، أو يجلسُ جماعةٌ يُذكِّرُ بعضُهم بعضًا بالعمل بطاعة الله ، والبُعدِ عن معصيته ، وما أشبَه ذلك ، مِمَّا كان يعملُ به الرسولُﷺ فى أصحابه ، وعَمِل به الصحابةُ والتابعون ، فهذه المجالسُ كلُّها مجالسُ ذِكْر ، وهى التى جاء فيها من الأجر ما جاء.

ومن مجالس الذكر: أن تجتمعَ الطلبةُ على معلم يُقرئهم القرآنَ ، أو

---

(١) توفى سنة ٧٩٠ هـ والنقل عن صفوة صحيح البخارى (الجزء الرابع) للشيخ عبد الجليل عيسى أبو النصر.

يعلِّمُهم عِلمًا من العلوم الشرعية ، أو تجتمعُ إلِيه العامَّةُ فيعلِّمُهم أمْرَ دينِهم ، ويذكِّرُهم بأسَ ربِّهم ، ويبيِّن لهم سُنةَ نبيِّهم ليعملُوا بها ، ويبيِّن لهم المحدَثَاتِ التى هى ضلالةٌ ليحذروها ، فهذه مجالسُ ذكرٍ على الحقيقة.

ليست مجالس ذكر:

أمَّا المجالسُ التى فيها التمايلُ والمزمارُ والدفوفُ ورفعُ الصوت والضوضاءُ والتصفيقُ فإِنها تُحْرَمُ مِن غشيَانِ ملائكةِ الرحمن ، ولا سكينةَ فيها ، إِذْ لو كان هذا أوْ بعضُه من الشرْع لعمِلَ به السلفُ الصالح ، وإِننا لا نجدُ فى الكتاب أو فى السنة الاجتماعَ لِلذكرِ على صوتٍ واحدٍ جَهْرًا عاليًا ، وقد قال الله تعالى فى كتابه: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]

وقال سبحانه: ﴿ادْعُوا رَبَّكُم تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥]

وقد فسَّر العلماء «**المعتدين**» بالرافعين أصواتَهم بالدعاء.

فعن أبى موسى قال «كنا مع النبىﷺ فى سفَر فجعل الناسُ يجهرون بالتكبير ، فقال النبىﷺ: «أَرْبِعُوا على أنفُسِكم ،إِنكم لا تَدعُون أَصَمَّ غائبًا ، إِنكم تَدعُون سميعًا بصيرًا وهو معكُم» [أخرجه الشيخان]

«انتهى كلام الشاطبى بشىء من التصرف»

ومعنى أَربِعُوا على أنفسكم: أى: ارفقُوا بها ، وعند الشيخين فى حديث السبعةِ الذين يُظلُّهم اللهُ فى ظلِّه يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه: «ورجلٌ ذَكَر اللهَ خاليًا ففاضتْ عيناه».

قالوا: أى: رجلٌ ذكَر اللهَ بلسانه أو بقلبِه خاليًا من الخلْق ، أى فى

خلْوته لأنه أقربُ إلى الإخلاص ، وأبعدُ من الرياء ففاضت عيناه من الدمع لرقة قلبِه وشدةِ خوفِه.

إن الأعمالَ الصالحةَ تعتمدُ على ركنين أساسيين: إخلاصِ العملِ لله عز وجل ، والأمرِ الثانى هو الاتباعُ لسنَّةِ النبىﷺ.

وإن مجالسَ الذكر: يُذكَرُ فيها الله ، ويُصلَّى فيها على نبيِّه ، ويُتْلَى كتابُه ، ويُسأل اللهُ فيها من فضله للآخرة والدنيا ، ويُمجَّدُ اللهُ فيها ويُعَظَّمُ ولذا ينبغى أن يُظلِّلَها الخشوعُ ، وخفْضُ الصوت ، وأن تُخيِّمَ عليها السكينةُ ، حتى يستشعرَ الذاكرُ حلاوةَ الذكرِ ، ويتجهَ القلبُ إلى ما يرجوه من رحمة ربِّه ورضوانِه ، هذه هى المجالسُ التى رغَّب فيها رسولُ اللهِﷺ ، وفيها يقول كما روى أنس: «لأَنْ أَقْعُدَ مع قومٍ يذكرون اللهَ تعالى من صلاةِ الغَداةِ حتى تطلُعَ الشمسُ أَحَبُّ إلىَّ من أن أُعْتِقَ أربعةً مِن ولدِ إسماعيلَ ، ولأَن أقعُدَ مع قومٍ يذكرون اللهَ من صلاة العصْرِ إلى أن تغرُبَ الشمسُ أَحَبُّ إلىَّ من أن أُعتِق أربعةً»

[الجامع الصغير للسيوطى]

والغُدوة: البُكرة ـ بضمّ أولهما ، أو ما بين صلاةِ الفجرِ وطلوعِ الشمس كالغَداة.

إنَّ ذكْرَ الله عزَّ وجل من أعظم القُربات ، وفيه خيرٌ كثيرٌ وهُدًى ونُور، ويكونُ باللسان والقلب والجوارح.

أمَّا باللسان: فبالنطق بما يدلُّ على تنزيه اللهِ وتمجيدِه، وتحميدِه وتعظيمِه وأمَّا بالقلب: فبالتفكُّر فى دلائلِ وحدانيتِه وبراهينِ كمالِ قدرتِه وحكمتِه ورحمتِه ، والاستدلالِ بالمصنوع على وجود الصانع ، وبعظَمةِ الكونِ على كمال عظمةِ خالقِه وتفرُّدِه بالإلهية والربوبية.

وأمَّا الجوارح: فبإخدامِها فى طاعةِ ربِّها مع اجتنابِ المُنكَراتِ والموبقاتِ ، وأن يتجنَّبَ المؤمنُ أسبابَ غضبِ ربِّ الأرضِ والسموات.

وفى حديث ابن عباس أن النبىَّ ﷺ قال «افتحُوا على صبيانكم أولَ كلمة: بِلا إِلهَ إِلَّا الله ، ولَقِّنوهم عند الموت: لا إِلهَ إِلَّا الله»

[أخرجه البيقهى فى شعب الإيمان]

وفيه توجيهٌ إلى أن حياةَ المؤمنِ تبدأُ بالتوحيد وذكْرِ اللهِ عز وجل ثم المداومَةِ حتى يوفقَه ربُّه للنطق بالكلمة المُنجية عند الغرغرةِ كلمةَ الإخلاص ، «كلمةِ لا إِلهَ إِلَّا اللهُ» التى هى أفضلُ الذكر ، وأفضلُ ما يَنطق ونطَق به اللسانَ ، وأعظمُ وأفضلُ ما يُوضَعُ فى الميزان.

❄ ❄ ❄

وصية غالية:

عن معاذ بنِ جبل رضى الله عنه أن رسولَ اللهِ ﷺ أخذ بيده وقال : «يا معاذُ، واللهِ إنى لأُحبُّكَ» فقال:

«أُوصيكَ يا معاذُ: لا تَدَعَنَّ فى دُبُرِ كلِّ صلاة تقول: اللهمَّ أَعِنِّى على ذِكْرِك، وشُكْرِكَ، وحُسْنِ عبادتِك»

أخرجه أبوداود بإسناد صحيح

٢٠٢ - «وقولوا للناس حسنًا»

إن اللهَ عزَّ وجل خلَق الإنسانَ ، وميَّزه عن سائر الحيوانِ بالعقل والفهمِ والتمييز ، وعَلَّمه البيانَ ، والإِفصاحَ عَمَّا فى نفسه بالكلام وجعَل لسانَه أداةَ النُّطق ، وهو هِبةٌ عظيمة ، ونعمةٌ جليلة ، إِذا أَحسْنَ الإِنسانُ استعمالَها كانت خيرًا وبركةً ، وإِذا أساء كانت شرًّا ونقمةً.

ولذا قالوا: إن الله عزَّ وجل رَفع جارحةَ اللسان على سائر الجوارح فليس منها شىءٌ أعظمَ أجرًا منه إِذا أطاع ، ولا أعظمَ ذنبًا منه إذا جَنَى.

ومِمَّا أُخِذَ على بنى إسرائيل من الميثاق ما جاء فى قوله تعالى من سورة البقرة: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [الآية:٨٣]

وقرأ حمزةُ والكسائىُّ: «حَسَنًا» بفتح الحاء والسين ، قال الأخفش: هما بمعنًى واحد مِثْل: الرُّشْد والرَّشَد.

قال ابن عباس: المعنى قولوا للناس: لا إِلهَ إِلَّا اللهُ ومرُوهم بها ، ولا شكَّ فى أن كلمةَ الإِخلاص أفضلُ ما يَنطِقُ به اللسانُ ، فهى أحسنُ الكلام ، وأجْملُه ، وأشرفُه ، وأعظمُه فى ميزان الحسنات ، وقد جاء فى الحديث: «أفضلُ ما قلتُ أنا والنبيون من قَبْلى: لا إِلهَ إِلّا اللهُ وحْده لا شريكَ له ، له الملكُ ، وله الحمدُ ، وهو على كل شىءٍ قَدير».

وفى تفسير الآية قال سفيانُ الثورى: «مروهم بالمعروف ، وانْهَوْهُم عن المنكَر» أى يُسْتَخْدَمُ اللسانُ فى الدلالة على خير يُجتنَى ، أو التنبيهِ على شرٍّ يُجتنَب ، ويُكَفُّ عنه ، وفى هذا ما فيه من المنافع ، للفرد والجماعةِ ، وقال أبو العالية: «قولوا للناس الطيبَ من القول وجازوهم بأحْسنِ مَا يُحبُّون أن يُجَازَوا به».

قال القرطبيُّ: وهذا كلُّه حضٌّ على مكارم الأخلاق ، فينبغى للإنسان أن يكونَ قولُه للناس ليِّنًا ، ووجْهُه منبسطًا ، طلقًا مع البَرِّ ، والفاجِرِ والسُّنِّى ، والمبتدِعِ ، من غيرِ مُداهَنة - ولا إقرارٍ للمنكر - ومن غير أن يتكلمَ معه بكلامٍ يظنُّ أنه يَرْضَىٰ مذهبَه ، لأن الله تعالى قال لموسى وهارونَ عليهما السلام: ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤]

فالقائلُ ليس بأفضلَ من موسى وهارون ، والفاجرُ ليس بأخبثَ من فرعونَ ، وقد أمرهما اللهُ باللِّين معه.

قال طلحةُ بنُ عمرَ: قلتُ لعطاء: إنك رجلٌ يَجتمِعُ عندك ناسٌ ذوو أهواء مختلفة ، وأنا رجلٌ فِىَّ حِدَّة ، فأقول لهم بعضَ القولِ الغليظ فقال: لا تفعلْ ، يقول الله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ فدخَل فى هذه الآيةِ اليهودىُّ والنصرانىُّ ، فكيف بالحَنيفىِّ.

إن هذه العبارةَ القرآنيةَ اكتسبت صفةَ المثَلِ لمَا فيها من إيجازٍ وإحكامٍ وتوجيهٍ ومعنًى سامٍ ، وقد استخدمها عطاءُ بنُ رَباح فى الموقف الذى احتاج فيه إلى نصح المتحدثِ بلزوم الرفق ، ولينِ القول ، وتطييبِ الكلام ، واستخدامِ الحكمةِ والموعظة الحسنة ، بدلاً من المُخاشنَةَ وتسفيه العقول ، واستعمالِ الألفاظ المنفِّرة ، لأنَّ الكلامَ الطيِّبَ والدليلَ المُقْنِعَ الهادئَ يُحيى المشاعرَ ، ويَستميلُ القلوبَ ، ويَصِلُ بالناصح إلى المقصود من أقربِ طريق ، ولا يترك أثرًا سيِّئًا فى النفوس.

فى معنى المثَل المرسَل:

وهذا الضَرْبُ مِمَّا يُسمِّيه العلماءُ: الأمثالَ المُرْسَلَةَ ، وهى جُمَلٌ قد أُرسِلَت إِرسالًا من غير تصريحٍ بلفْظ التشبيهِ ، وكثُرُ التمثُّلُ بها لِمَا فيها

من التوجيه ، والعظةِ ، والعِبرةِ ، والإقناعِ ونحوِ ذلك ، والأمثالُ بصفة عامةٍ تنبعُ من الناس فى الأمة على اختلاف طبقاتِهم ، وهى أقوالٌ حكيمةٌ توجزُ حادثةً من الحوادث ، أو تدلُّ على معنًى من المعانى المعقولة ، وتمتازُ بِظَرْفِ العِبارة ، وإِصابةِ المعنى ، وإِتقانِ التشبيه وحُسْن الإِيجاز.

وفى القرآن الكريم عباراتٌ موجَزَة كثيرةٌ اكتسبت صفةَ المَثَلِيَّةِ بعْد نُزولها وشُيوعها فى المسلمين ، ولم تكن أمثالًا فى وقْت نزوله ، وهى فى جُملتها مبادئُ خُلقيةٌ ودينيةٌ مركَّزةٌ كقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨]

ومثل: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَآ أُولِى الأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢]

عوْدٌ إلى إحسان القول:

وقد رُوِى عن النبىِّ ﷺ ـ كما جاء عند القرطبى ـ أنه قال لعائشةَ رضى الله عنها: «لا تكُونى فَحَّاشةً ، فإِنَّ الفُحْشَ لو كان رجلًا لكان رَجُلَ سَوءٍ» والمقصودُ خشونةُ الكلامِ والقولُ البذىء ، والفحَّاشُ: صِيغةُ مبالَغةٍ من الفُحْش وهو القبيحُ الشنيعُ من قول أو فعل.

إنَّ طهارةَ اللسان عنوانُ محاسنِ الآداب ، وإِن للإِسلام عنايةً خاصةً بمكارمِ الأخلاق ، إذ بها تَجتمع القلوبُ ، ويُؤلِّفُ بين النفوس وتَذْهب الضغينةُ ، وتَضْمَحِلُّ الجَرِيمة ، ويَلين الناسُ بعضُهم لبعض ويَصيرون على الخير أعوانًا ، ولذا حَبَّبَ إلى المسلمين حُسْنَ الخلُق ، وسعةَ الصدْر وطهارةَ القلْب ، ونظافةَ اللسان ، وإمساكَه عن الشر ، والاستعانةَ به فى حقٍّ يُوضَّح ، أو باطلٍ يُدْحَضُ ويُكْشَفُ فسادُه بالدليل والبرهان ، كما أنَّ الكلمةَ الطيبةَ صدقةٌ لإرشادِ ضالٍّ ، أو تطييبِ خاطرٍ ، أو صُلْحٍ بين

الناس ، أو ردٍّ سائلٍ برفقٍ وأدب ، ومن توجيهِ القرآن للمسلمين فى ذلك قولُه تعالى من سورة البقرة: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾ [الآية: ٢٦٣]

ومن باب الحثِّ على مكارمِ الأخلاقِ ما رواه أبو هريرةَ رضى الله عنه أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «مَن كان يُؤمنُ بالله واليومِ الآخرِ فَلا يُؤْذِ جارَهُ وَمَن كَانَ يُؤْمنُ بالله واليومِ الآخرِ فَلْيُكرِمْ ضَيْفَه ، ومَن كَانَ يُؤْمنُ بالله والْيومِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمتْ» [أخرجه البخارىُّ]

أى: مَن كان يُؤمنُ إيمانًا صادقًا يَستتبعُ آثارَه: مِن فِعْلِ المأموراتِ واجتنابِ المنهيَّاتِ فَلْيُحسِن إلى جارِه ، ويَكُفَّ أذاه عنه ، ولْيُكرِمْ ضَيْفَه بما يُناسبُ الحالَ ، مع مراعاةِ حدودِ الشرعِ وأوامرِه ، وعدَمِ الإسرافِ أو الإثقال.

ثم جاءت الوصيةُ بِحُسْنِ استعمالِ الِّلسان ، وضَبْطِه ، وإمساكِه عن الشرِّ «فليقُلْ خيرًا أو لِيَصمتْ» وهذا من جوامعِ كَلِمه ﷺ ، لأنَّ القولَ إمَّا خيرٌ ، أو شرٌّ ، أو آئلٌ إلى أحدِهما ، فدخَل فى الخير كلُّ مطلوبٍ من الأقوال: فَرْضِها ، ونَدْبِها ، فأُذِن فيه على اختلاف أنواعِه ، وفيما يؤولُ إليه ، ودخل فى الشرِّ كلُّ مَنهىٍّ عنه من الأقوال: حرامِها ومكروهِها ، فأُمرَ عند إرادةِ الخوْضِ فيه أو فيما يؤولُ إليه بالصمْت وقد أخرجه الطبرانىُّ من حديث أبى أمامة بلفْظ «فليقُلْ خيرًا لِيغنمَ ، أو يسكُتْ عن شرٍّ ليسلمَ».

وفى مجال التوجيهِ بِإمساكِ اللسانِ إلا عن خيرٍ أخرجَ البخارىُّ عن سهْلِ بنِ سعد أن رسول اللهِ ﷺ قال: «مَن يضمنْ لى ما بيْن لَحْيَيْهِ وما بين رِجلَيْه أَضمنْ له الجنة».

و «مَن» شرطيةٌ أى: أىُّ إنسان. ((يضمنْ)) بالجزم فعلُ الشرطِ وجوابُه أضمنْ. وأصل الضمان: أن تلتزمَ حقًّا لإنسانٍ على آخرَ، فأُطلقَ على التزام حقِّ اللهِ عليك، ثم أُطلقَ على لازم ذلك، وهو أداءُ الحقِّ الذى لله عليه، فالمعنى: مَن أدَّى حقَّ اللهِ الذى على لسانه مِن النُّطق بما يَجبُ عليه، والصمتِ عَمَّا لا يَعنيه، وأدَّى الحقَّ الذى على ما بين رِجْلَيه مِن كفِّه عن الحرام، ووضْعِه فى الحلال، فهذا المؤمنُ مُبشَّرٌ بالجنة.

وقولُه: «ما بيْن لَحيَيْه» وهما العَظْمان فى جانبَى الفمِ، والمقصودُ بما بينهما اللسانُ، وما يتأتَّى به وهو النطقُ، فالنطقُ أصلٌ فى حصول كلِّ مطلوب، فإذا لم ينطِق إلَّا بخير سَلِم.

وفى رواية الترمذى: «مَن وقاه اللهُ شرَّ ما بين لحْييه وشرَّ ما بيْن رجليْه دخَل الجنة».

إن هذا الحديثَ يُرشدُ إلى أن أعظمَ البلاءِ على المرءِ فى الدنيا بحسب الغالبِ فى لسانه وفَرْجِه، فمَن وُقِىَ شرَّهما وُقِى أعظمَ الشرور.

قال الطيبىُّ: أراد رسولُ اللهِ ﷺ أن يؤكِّدَ الوعدَ - بالجنة لِمَن حَفِظ لسانَه وفرْجَه وصانهما عن القبيح - تأكيدًا بليغًا، فأبرزه فى صورة التمثيل (بالضمان) ليشيرَ إلى أنه واجبُ الأداء، ونحوُه فى التمثيل قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾. [التوبة: ١١١]

إن لسانَ المؤمنِ العاقلِ يكونُ وراء قلبِه، أمَّا لسانُ المنافقِ فيكونُ أمام قلبِه، إذ إن المؤمنَ يفكِّرُ فى الأمر، ويعرضُه على قلبه قبل أن ينطقَ به ولا يتكلمُ إلا بما يَعرفُ حُسْنَهُ، ووقوعَه موَقِعَه، أمَّا المنافقُ فهو ينطقُ

بكل ما يَخطرُ بباله ، ويُثَرْثِرُ بما يَعرف ، وما لا يَعرِف دون ضابطٍ من دِينٍ ، أو عقْلٍ سليم.

وقد حَثَّ النبىُّ ﷺ أهلَ الإيمانِ على أن يتفكَّروا فيما يجولُ بخواطرهم قبلَ النطقِ به ، وينظروا فى عواقبه، لتسلمَ نفوسُهم من الشرِّ وتنجوَ أرواحُهم من غَضب اللهِ عزَّ وجلَّ ، وفى الحديث الذى رواه أبو هريرة يقولُ عليه الصلاة والسلام: «إنَّ العبدَ لَيتكلمُ بالكلمةِ من رِضْوانِ اللهِ لا يُلْقِى لها بالًا يرفعُ اللهُ بها درجاتٍ ، وإن العبدَ ليتكلمُ بالكلمةِ من سَخَطِ اللهِ لا يُلقى لها بالًا يَهوِى بها فى جهنمَ» [أخرجه البخارى]

والمقصودُ «**بالكلمة**» الكلامُ المفهومُ المفيدُ سواءٌ طال أم قَصُرَ كما نقول: كلمةُ الشهادة ، وتقول للخطبة: كلمةُ فلان ، ومعنى «بالكلمة من رضوانِ الله» أى مـمّا يُرْضِى اللهَ كأن يرفعَ بها عن مسلم مَظْلمة ، أو يفرِّجَ بها عنه كُربة «لا يُلقى لهَا بالًا» أى: لا يتأملُ هذه الكلمةَ بخاطره ولا يتفكرُ فى عاقبتها ، ولا يظنُّ أنها تؤثرُ شيئًا ، وإن كان قاصدًا للتحدُّث بها ، وإنما المرادُ: أنه لم يُقدِّر لها ما قدَّره اللهُ لها من الجزاء كما جاء توضيحُه فى الموطَّأ وغيرِه من حديث بلالِ المزنى مرفوعًا: «إن أحدَكم لَيتكلمُ بالكلمة من رِضوان اللهِ ما يظنُّ أن تبلُغَ ما بلغتْ يكتبُ اللهُ بها رضوانَه إلى يوم القيامة» ، وقال فى السخط مِثْلَ ذلك.

فالكلمةُ الطيبةُ والقولُ الحسَنُ يرفعُ اللهُ به عبدَه المؤمنَ درجاتٍ حسبما يكونُ وراءها من نية حسَنة ، وما يكون من أثرها فى نفسه وفى غيره.

«لَيَتكَلَّمُ بالكلمة مِن سَخَطِ الله» أى ما يُسخطُه ويُغضبُه سبحانه مثل الغِيبَة، والنميمةِ ، والشتيمةِ ، والكلمةِ التى لا يَعرِف حُسْنَها، من قُبحها وكلمةِ الزور ، ونحو ذلك مِمَّا يَجب على أهل العقلِ والحكمةِ إمساكُ

اللسانِ عنه، لأن كلمةَ السوءِ تَكُبُّ صاحبَها فى جهنمَ، وتَهوِى به فى قاعها.

إنه لا يليقُ بالإنسان أن يتكلمَ بما لا يتدبَّرُه ، وبما لا يعرفُ حُسْنَه من قُبحه ، وفى المثَل الذى جاء على لسان أبى بكر الصديق: «إنَّ البلاءَ مُوكَّلٌ بالمنطِق».

ومن وصيةِ أكثم بنِ صيفىّ لبنيه: «مَقْتَلُ الرجلِ بَيْنَ فكَّيْه» وقد صارت مثلًا.

ولقد أحسَنَ الذى قال:

عَوِّدْ لسَانَك قَوْلَ الخيرِ تَحْظَ به ... إنَّ اللسانَ لمَا عَوَّدْتَ مُعتادُ
مُوَكَّلٌ بتقاضِى ما سَنَنْتَ لَه ... فاختَرْ لنفْسكَ، وانْظُر كيف تَرْتَادُ

وفى الحديث الذى رواه أنس وأخرجه أحمد: «لا يَستقيمُ إيمانُ عبدٍ حتى يستقيمَ قلبُه ، ولا يستقيمَ قلبُه حتى يستقيمَ لسَانُه».

فتأمل واذكرْ دومًا قولَ الحق سبحانه: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨]

❄ ❄ ❄

من سورة «ق»

٢٠٣ - أ - قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الأَرْضُ مِنْهُم
(ق: ٤)

هذه الآيةُ الكريمةُ من سورة «ق» وتُسمَّى «الباسقات» وهى من السور المكيةِ نزلت بعد سورةِ «المرسَلات» وترتيبُها فى المصحف بعد سورةِ «الحُجرات».

وسورةُ «ق» هى أولُ الحزْبِ المُفصَّل على الصحيح ، وكان رسولُ الله ﷺ يقرأُ بها فى المَجامع الكبار ، كالعيد والجُمَعِ لاشتمالها على ابتداءِ الخلْقِ ، والبعثِ والنشورِ ، والمَعادِ والقيام ، والحسابِ ، والجنةِ والنار ، والثوابِ والعقاب ، والترغيبِ والترهيب[١].

أقسمَ اللهُ عزَّ وجل بحرفٍ من حروفِ الهجاء وهو «ق» للتنبيه على إعجاز القرآنِ العظيم؛ لأنه نزل بلسانٍ عربىٍّ مبين ، على قلبِ خاتمِ النبيين ، فى وقتٍ بلغتْ فيه الفصاحةُ العربيةُ ذِروتَها ، واستوى عودُها شعرًا ونثرًا ، وتبارى أهلُها فى الأسواق والمجامعِ فى حلَبَة البيان ، وكان إذا نَبَغ فى القبيلة شاعرٌ جعلُوا له يومَ عيد ، ونصَبوا الموائدَ ، ودعَوا إليها الناسَ فرحًا وابتهاجًا ، وقد نزل القرآنُ العظيمُ بالحروف التى يتكلَّمون بها ، وينظِمون منها روائعهم ، ويُعبِّرون بها عن خبراتهم وتجارِبهم فى حِكَمٍ بليغةٍ ، وأمثالٍ بَديعة ، فَدُعوا إلى الإتيان بمثْل آيةٍ من القرآن فعجَزوا ، وذُلَّتْ أمامَ بَلاغته أعناقُ فصاحتِهم ، وفُلَّت سيوفُ

(١) ابن كثير ، مقدمة تفسير السورة ، وما جاء عن قراءتها فى العيد ، رواه أحمد عن أبى واقد الليثى ، وفى الجمعة: عن أم هشام بنت حارثة ، ورواه مسلم فى «كتاب الجمعة - وكذلك رواه أبو داود والنسائى وابن ماجة من حديث شعبة».

قَرائحِهم فى حلبةِ التحدِّى ، وهم يَقْدَحُون بها صَفَاةَ البديهةِ ، فَخرُّوا مُستسلمين وكانوا فى كلٍّ حالٍ:

كناطحٍ صخرةً يومًا ليُوهِنَها فَلم يَضِرْها وأَوْهَى قَرْنَه الوعل

يقول ابنُ القيم[1] فى شأن هذه الحروف: الصحيح أن «ن» و «ق» و«ص» من حروف الهجاءِ التى يَفْتتِحُ بها الربُّ سبحانه بعضَ السور وهى: أُحاديَةٌ ، وثُنائيةٌ ، وثُلاثيةٌ ، ورُباعيةٌ ، وخُماسيةٌ ، ولم تُجاوز الخمسةَ ، ولم تُذكَر قطّ فى أول سورةٍ إلا وعَقَّبها بذكْرِ القُرآن ، إما مُقْسَمًا به أو مُخبرًا عنه ، ما خلا سُورتين: «**كهيعص**» و «ن» كقوله سبحانه من سورة البقرة ﴿**الٓمٓ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ**﴾ وغيرِها من السور ، ففى هذا تنبيهٌ على شرَف هذه الحروف وعظَم قدْرِها وجلالتِها ، إذْ هى مبانى كلامِه وكُتبِه ، التى تكلَّم بها سبحانه ، وأنزلها على رسلِه ، وهَدَى بها عبادَه ، وعرَّفهم بواسطتها نفسَه ، وأسماءَه ، وصفاته ، وأفعالَه ، وأمرَه ، ونهيَه ، ووعيدَه ، ووعدَه ، وعرَّفهم بها الخيرَ ، والشرَّ ، والـحَسَنَ ، والقَبيحَ ، وأقدرَهم على التكلمِ بها ، بحيث يبلغُون بها أقصى ما فى أنفسهم، بأسهلِ طريق، وَقِلَّةِ كُلفةٍ ومشقةٍ ، وأَوْصَلِه إلى المقصود ، وأَدلِّه عليه ، وهذا من أعظم نعَمِه عليهم ، كما هو من أعظم آياتِه ، ولهذا عاب سبحانه على مَن عَبَدَ إلهًا لا يتكلم ، وامتنَّ على عباده بأن أَقْدرهم على البيان بها بالتكلُّم، فكان فى ذِكرْ هذه الحروف ـ أى فى أول بعضِ السور ـ التنبيهُ على كمال ربوبيته ، وكمالِ إحسانِه وإنعامه ، فهذه الحروفُ أَولى أن يُقْسِمَ بها من الليل والنهارِ ، والشمسِ والقمر ، والسماءِ والنجومِ

(١) فى كتابه: التبيان فى أقسام القرآن [وأقسام هنا جمع قَسَم ـ بفتح أوله وثانيه أى حَلِف ـ]

وغيرِها من المخلوقات ، فهى دالةٌ أظهرَ دلالةٍ على وحدانيته ، وقدرتِه ، وحكمتِه ، وكماله ، وكلامِه ، وصدْقِ رسلِه.

لقد لفت اللهُ العبادَ إلي أنَّ آياته فى تعليم البيان كآياته فى خلْقِ الإنسانِ، فقال سبحانه: ﴿الرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَانَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الآيات: ١-٤]

فبهذه الحروفِ عَلَّم القرآن ، وبها عَلَّم البيان ، وبها فَضَّل الإنسانَ على سائرِ أنواعِ الحيوان ، وبها أَنزل كتبَه ، وبها أَرسل رسلَه ، وبها جُمِعتْ العلومُ وحُفِظت ، وبها انتَظَمتْ مصالحُ العبادِ فى المعاش، والمعادَ وبها يتميزُ الحقُّ من الباطل ، والصحيحُ من الفاسد ، وكم هُدِيَ بالحروف مِن ضلالةٍ ، وأُقيم بها من حقٍّ ، وهُدِم بها من باطل؟.

كلُّ ذلك صَنعتُه سبحانه فى هواءٍ مُجرَّدٍ خارجٍ مِن باطنِ الإنسان إلى ظاهرِه، فى مَجارٍ هُيِّئَتْ وأُعدَّت لتقطيعه وتفصيلِه ، ثم تأليفه، وتوصيلِه فتبارك اللهُ ربُّ العالمين ، وأحسنُ الخالقين. [انتهى كلام ابن القيم]

إِن أهلَ الضادِ ، وقافٍ ، وصادٍ ،وحاميم ، والر ، والم ، وغيرِها من الحروف العربية عجزوا عن معارضة القرآنِ ، وأقرَّ المُقدَّمون منهم فى الفصاحة لـمَّا سَمِع بعضَ آياته بأنه: يعلُو وما يُعلَى ، وأنه ليس من كلامِ الإنس ، ولا مِن كلام الجنِّ.

هذا بعضُ ما يرمزُ إليه ويدلُّ عليه ذِكْرُ بعضِ الحروف فى أوائل بعضِ السور ، وهو تأكيدُ التحدِّى ، لأن القرآنَ العظيمَ معجزةٌ باقيةٌ خالدةٌ يَتحدَّى العقلَ بِلَفْظه ونَظْمه ومعناه وأخباره وحِكَمه وأحكامه حتى يَرِثَ اللهُ الأرضَ ومَن عليها ، مهما ارتقت عقولُ الناس، وتنوعت علومُهم وازدادوا بصرًا بالأمور ، ومهما نمتْ معرفتُهم بأسرار العربية ، وطرقِ

التعبيرِ بها عن مكنونات النفسِ والشعور.

تفسير للحروف ورأى فيه:

وقد جاءت الآثارُ عن بعض السلَف بتفسير هذه الحروفِ المقطَّعة منها ما هو مبنىٌّ على الرواية ، ومنها المؤسَّسُ على الاستنباط والنظرِ ، من ذلك ما رُوى عن بعض السلف أنهم قالوا «ق» جَبلٌ محيطٌ بجميع الأرضِ يُقال له جبلُ قاف.

ويُعلِّقُ ابنُ كثير منبهًا فيقول: وكأنَّ هذا ـ واللهُ أعلم ـ من خُرافات بنى إسرائيلَ التى أخذها عنهم بعضُ الناسِ ، ثم قال ابنُ كثير: حتى أَنَّ الإمامَ أبا محمدٍ عبد الرحمن الرازى أورد هاهنا أثرًا غريبًا لا يَصِحُّ سندُه عن ابن عباس ، وذكَر الحديث[١] ، وقال: فإسنادُ هذا الأثرِ فيه انقطاع ، وقال: والذى ثبت عن مجاهد: أنه حرفٌ من حروف الهجاءِ كقوله: «ص ، ن ، حم ، طس ، الم» ونحو ذلك. فهذه تُبْعِدُ ما تقدَّم عن ابن عباس ، وذَهب القَرافىُّ كما يقول الألوسىُّ إلى أن جبلَ قافٍ لا وجودَ له ، وبَرْهن عليه بِما بَرْهَن ، ثم قال: ولا يجوزُ اعتقادُ ما لَا دَليلَ عليه ، ثم قال الألوسىُّ فى الردِّ على مَن أنكر على القرافى رأْيه قال: والذى أذهبُ إليه ما ذهب إليه القرافىُّ من أنه لا وجودَ لهذا الجبلِ بشهادةِ الـحِسِّ ، فقد قطعوا هذه الأرضَ بَرَّها وبحْرَها على مدارِ السرطانِ مرَّاتٍ فلم يُشاهدوا ذلك ، والطعنُ فى الأخبار الواردةِ أهونُ مِن تكذيبِ الـحِسِّ.

ومن التفسير الاستنباطىِّ قولُ الزجاج: «ق» أى قُضِى الأمر ، كما قيل فى «حم» أى حُمَّ الأمر ، وقول أبى بكر الورَّاق: معناه قِفْ عند أمرِنا

---

(١) راجع تفسير سورة (ق) فى تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير.

ونهينا ولا تَعْدُهما ، وقولُ محمد بنِ عاصم الأنطاكى: هو قربُ الله من عباده ، بيانُه: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ وغيرُ ذلك مِمَّا ذَهب إليه عددٌ من المفسِّرين وأهلِ الأدب واللغة.

القسَم بالقرآن المجيد:

إِن أكثرَ ما يأتى بعد هذه الحروف: وَصْفُ القرآن الكريم ، أو القسمُ به ، وذِكْرُ الوحْى والنبوةِ ، كما فى قوله تعالى فى مطلع سورة يونس: ﴿الٓرۚ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ۞أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ..﴾ وفى سورة «ق» أقسم سبحانه بالقرآن المجيد: أى الكريمِ العظيمِ ، أو الرفيعِ القدْر ، الكثيرِ الخيرِ والبركة ، أو ذى المجدِ والشرفِ[1] ، وشرفُه على هذا بالنسبة لسائر الكتب ، أمَّا غيرُ الإلهية فظاهرٌ ، وأمَّا الإلهيةُ فلإعجازِه وكونهِ غيرَ منسوخٍ بغيره ، ولاشتمالهِ مع إيجازِه على أسرار يَضيقُ عنها كلُّ واحدٍ مِن هذه الكتب.

وقال الراغب: المجدُ معناه السَّعَةُ فى الكرم ، ووُصِفَ القرآنُ به لكثْرة ما يتضمنُ مِن المكارم الدنيويةِ والأخروية.

أمَّا جوابُ القسم: فهو مضمونُ الكلامِ بعد القسم.

ولنتدبر: ﴿قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ۞ بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ۞ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ۞قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ...﴾

فالجوابُ المستفادُ هو: إثباتُ النبوة، وإثباتُ المعاد وتقريرُه وتحقيقُه، مما

(١) وذلك من باب النسب (كلابن وتامر)

أقام عليه مَساقُ السورةِ الأدلةَ ، وضُرِبت له الأمثالُ مِمَّا يقعُ تحت الـحِسِّ ، ولا يَخْفى على إنسان.

وقيل تقديره: ﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ إنا أنزلناه لتُنذرَ به الناسَ ، وقال بعضُ أهلِ اللغةِ تقديرُه: لَتُبْعَثُنَّ.

وقال ابنُ القيم: «هنا قد اتَّحد المقسَمُ به والـمُقسَمُ عليه ، وهو القرآن فأقسم بالقرآن على ثبوته وصِدْقه وأنه حقٌّ مِن عنده سبحانه ، ولهذا حُذِفَ الجوابُ ولم يصرَّح به لِمَا فى القسَم من الدلالة عليه ، أو لأن المقصودَ نفسُ المقْسَمِ به».

موقف المعاندين:

لقد تعجَّب المعاندون من إرسال رسولٍ من البشر ينذُرهم بالعقاب والحسابِ فى الآخرة ، ويدعوهم إلى إعداد أنفسِهم للمعاد ، ليكونوا أهلًا لرحمة اللهِ ورضوانه.

لقد عَجِبَ الكفارُ من غير عَجيب ، إذْ كيف يتعجَّبُ عاقلٌ من رحمة الخالقِ عبادَه ، وهدايتِه ،وإنعامِه عليهم بتعريفهم على لسان رسوله ﷺ بطريق الخير والشر، وما هم صائرون إليه بعد الموت، ولأمرهم، ونَهْيهم كيف يُقابَلُ ذلك بالتعجُّب ، وهو الحقُّ الذى لا مِريةَ فيه؟ أن يأتيَهم رسولٌ من جنسهم ، إن العجبَ كلَّ العَجَبِ حقيقةً هو جهلُهم وتكذيبُهم! ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾

ثم قال سبحانه مُخبرًا عنهم فى تعجُّبهم أيضًا من المعاد واستبعادِهم لوقوعه: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ والاستفهامُ يُفيد تقريرَ التعجُّب وتأكيدَ إنكارِهم ، أو جاء لبيان موضعِ تعجُّبهم ، وهو أنه يُنْذِرهم بالبعث والحسابِ والعقاب ، إنهم يستبعدون الرجوعَ بعد الموتِ

(١٣٣٠)

والبِلى ، وتَقَطُّعِ الأوصالِ ، وتفتُّتِها ، ويَرون ذلك غيرَ ممكن.

فردَّ اللهُ عليهم بما يُزيل الغِشاوةَ عن النفوس والقلوب ، وينبهُ إلى كمال قدرتِه وعلْمِه سبحانه: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أى: ما تأكلُ من أجسادهم فى البِلى ، نَعلمُ ذلك ، ولا يخفى علينا: أين تفرَّقت الأبدانُ ، وأنَّى ذهبت ، وإلى أين صارت؟ ﴿وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ أى: حافظٌ لذلك ، فالعِلْمُ شاملٌ ، والكتابُ - أيضا - فيه كلُّ الأشياء مضبوطة.

ثم كَشفَ السياقُ عن السبب الحقيقى فى كُفرهم وعنادهم واستبعادهم ما ليس ببعيد فقال سبحانه: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ أى: كذَّبوا بالقرآن ، وبالإسلامِ ، وأنكروا نبوةَ محمدٍ ﷺ كذّبوا دون إعمالِ فكْرٍ ، ولا إمعانِ نظَر ، وبدون إخلاءِ القلبِ من الصوارفِ كالحسد والكبرياء، وقد أَيَّد اللهُ المبعوثَ بالمعجزات والبراهين الساطعات، فهم فى الباطل يموجون ويضطربون ، وفى أمرٍ «مَرِيجٍ» أى مختلفٍ ، يقولون: مرةً ساحر ، ومرةً شاعر ، ومرةً كاهن ، ويقولون عن القرآن: سحرٌ وشعرٌ وأساطيرُ الأولين ونحو ذلك من الأقوال الفاسدةِ والأباطيل.

ثم لَفَت سياقُ السورة بعد هذا إلى أدلةٍ تقعُ تحت حواسِّ العباد وساق أمثلةً ليقيسوا الغائبَ عنهم بالماثل أمامهم ، وليعتبروا ، ليُعِدُّوا أنفسَهم ليوم آتٍ لاريب فيه.

❊ ❊ ❊

٢٠٤ - ب - «كَذَلِكَ الْخُرُوج»

عُنِىَ السِّيَاقُ مِن سُورَةِ «ق» بِالْقَضَايَا الْكُبْرَى الَّتى اخْتَلَفَ النَّاسُ بِشَأْنِها مَنْذُ قَدِيمِ الزَّمانِ ، فَمنهُمْ مَنْ آمَنَ ، وَمِنْهُمْ مَن ضَلَّ ضَلالًا بعيدًا لإِنكارِهِ أَوْ شَكِّهِ وَارْتِيَابِهِ فِى أَمْرِ : النُّبُوَّة ، أَو البَعْث ، أَو الجزاء عَلَى الأَعْمَال فى الْحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ التى تَسْتَقْبِلُ الوافدينَ إِلَيْهَا مِنَ الْحَياة الدُّنْيَا الْمَحْدُودَةَ الْفَانِيَةِ التى لايُمْكِنُ تَصَوُّرُ أَنْ تكُونَ هِىَ خَاتِمَةَ حَياة الإِنْسَانِ وَنهايتَه ، بَلْ لابُدَّ مِنْ حَياةٍ أُخرَى يَلْقَى فيها كُلُّ مُكَلَّفٍ من الإنس والجانِّ جزاءَ ماقدَّمَتْ يَداهُ ، وَهذا ماتُقَرِّرُهُ السورةُ الكريمةُ ، وَتُقيمُ عليه البُرْهانَ وَتَضْرِبُ لَهُ الأَمْثالَ ، وَتُصَوِّرُ الْمَآلَ ، رَدْعًا عنِ الغفْلَة ، وَلُطْفًا بِالْعباد لِيَهْلِكَ مَنْ يَهلكُ عن بيِّنة ، ويُجْزَى الجزاءَ الحسنَ مَن يُجْزَى عن بيِّنَة .

ولو أنَّ كُلَّ ذى عَقْلٍ نَظَرَ بتدبُّرٍ وإِنعامٍ فى دلائلِ التوحيد ، وفى براهينِ النبوةِ لأذْعَنَ ، وَأَسْلَمَ ، واستسلمَ ، ولآمنَ بِالغَيْبِ ، وما هام فى حياته متحيِّرًا ، مُتخبِّطًا ، مضطربةً نظرتُه إلى الأمور ، كما جاء تصويرُ حالِ المشركين فى قوله : ﴿فَهُمْ فِى أَمْرٍ مَّرِيجٍ..﴾ [ق: ٥]

أَى: مُختلطٍ وملتبسٍ ، فهم يتردَّدُون فى ظُلماتِ تَحيّرهم، ويضطربونَ فى شكِّهم ، والمريجُ: هو المختلفُ المضطربُ القلقُ ، ومنه تقول: مَرِجَ الخاتَمُ فى الأصبع إذا قَلقَ مِن الهُزال ، ومن ذلك: أَنَّ المشركين والملْحدين لايَثبتُونَ علىَ رأْيٍ ، ولا يُجْمعُون على اتِّجاهٍ ، كما جاء بيانُه أيضًا فى سورة الذاريات: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ [الآية: ٨]

أىْ متناقضٍ مُتخالفٍ ،إِذْ هُم متخبِّطُون فى المسائلِ الكبرى المتعلقة : بالتوحيد ، والنبوةِ ، والبعثِ ، فهم يقولون: إِنَّ اللهَ خالقُنا وخالقُ كلِّ

شيء ، ثُم يَعبدون الأصنامَ من دونه سبحانه ، ويقولون تارةً عن رسول الله ﷺ: ساحرٌ وأُخرى مجنونٌ أو كاهنٌ ، وفى حين يُنكرون الْحَشْرَ يَزْعُمون تارةً أخرَى أنَّ أصنامَهم شفعاؤُهم عند اللهِ يومَ القيامةِ ، لايَثْبُتون فى أمرٍ على رأْيٍ واحدٍ.

وهذا كلُّه ناشئٌ مِن تكذيبهم بالحقِّ، أى : بالنبوةِ الثابتةِ بالمعجزات، أو بالقرآنِ الكريمِ ، أو بالبعثِ والجزاءِ ، ولو أَنَّ أَهْلَ العقلِ والفهمِ والتمييزِ جالُوا بعَينِ الفِكْرِ فى آفاق النفسِ الإنسانيةِ ، وفى الآيات الكونيةِ فى السماء والأرضِ ، وتدَبَّروا آىَ القرآنِ الكريم ، لَمَا بَقِىَ علىَ وَجْهِ الأرضِ مُلْحدٌ ولا مشركٌ ولا شاكٌّ ،ولاستقرُّوا على طريقٍ واحدٍ يَتَّبِعُون فيه منهجَ النبوةِ الهاديةِ ، ولَسَلِمَتْ النفوسُ من الاضطراب ، والقلوبُ من القلق ، والعقولُ من الاختلاف وتناقضِ الفِكْرِ والاتِّجاه. .ولَكنْ للهِ عزَّ وجل الحكمةُ البالغةُ ، يفعلُ مايشاءُ ويحكمُ بما يريد ، ومَن اهتدَى فإنما يهتدى لنفسه ، ومَن ضلَّ فإنما يَضِلُّ عليها ، وعلى المؤمن العاقلِ أن يتَّبِعَ الوحْىَ ويلزمَ الصراطَ المستقيمَ ، لايضرُّهُ مَن ضَلَّ ، حتى يَحكمَ اللهُ ويَفْصلَ بَيْنَ العبادِ ، ولنتدبرْ قولَهُ تعالَى فى ختام سورة يونس ﴿ **قُلْ يَآأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىَ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِه وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَاوَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ۞وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىَ يَحْكُمَ اللهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ**﴾ .

ولَذا عَجَّبَ السِيَاقُ فى سورة ﴿ق﴾ من تفكير مُنكرِى البعْث ، وحَثَّ على التفكُّرِ فى آثار قدرةِ اللهِ فى خَلْق العالَم ، بأُسلوبِ استفهامٍ يُوقظُ الْعقْلَ ، ويُنبِّهُ المشاعِرَ ، ويَلفِتُ إِلى تدبُّر مضمونِ ماجاء بعده ، ولنتدبرْ

﴿أفلَمْ يَنظُرُوآ إلى السَّمآءِ فوْقَهُمْ كيْفَ بَنَيْنَاها وزَيَّنَّاهَا ومَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [الآية:٦] أى: أوَ لَم يعتبروا؟ أوَ لم يَستدلوا بما رَفعْنا فوقَهم من السماء بغيرِ عَمَد يرَوْنَها ، رفعْنا سَمْكَها فسوَّيناها ، وأَثْبتنا فيها الكواكبَ وبها زيَّنَّاها ، وأَدرْنَا فيها شمسَها وقمرَها؟ أوَ لم يرَوا مافيها من العجائب ويفكِّروا فى تنوُّع أثرِها؟

﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِىَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الآية:٧] أى والأرضَ بسطناها ، فجعلناها لهم مِهادًا ، وجعلنا لها الجبالَ أوتادًا فلا تضطرِبُ ولا تَميدُ ، وأَنبتنا فيها أشجارًا وأزهارًا وأنوارًا. كلُّ ذَلك: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [الآية:٨] أى: علامةً ودلالةً لكلِّ من أَنابَ إلينا ، ورَجَعَ من شُهودِ أفعالِنا ، إلى اليقينِ التامِّ بكمالِ قُدْرَتِنا ، وكمالِ حِكْمَتِنَا ، وكمالِ رحمَتِنَا سبحانه وتعالى.

أَلا تَرَوْنَ إِلَى الماء يَنزِلُ من السماء فيسقِى الزروعَ ، ويَجرِى فى الأنهارِ، ويَمْلأُ العيونَ والآبارَ ، فيه أسبابُ البركةِ والنَّماء ، وفيه حياةُ الأرْضِ والإنسانِ وسائرِ الحيوان ، وفيه من المنافعِ مايَجلُّ عن الحَصْرِ هلَّا فكَّرنا فى السُّنَنِ الكونيةِ الدالةِ علىٰ عظمَةِ مُقَدِّرِهَا ، وعلى كمال قدرةِ مُبْدِعِهَا؟ هلاَّ فكَّرنا فى آثار المطَرِ وما فيه من دلائلِ كمالِ الرحمةِ وكمالِ التدبيرِ ، وهتفْنا من قلوبنا: سبحان خالقِ الحَبِّ والنَّوى ، سبحان مُحيى الأرضِ المَوات ، سبحان مَن أقام ذلكَ بُرهانًا ساطعًا على قدرته علَى إحياءِ الأَموات ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۞ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ [ق:٩: ١٠]

الأَجزاءُ متجانسةٌ .. ولكنَّ أوصافَها فى الطُّعوم والروائِحِ والألوانِ

(١٣٣٤)

والْهَيْئاتِ والمقاديرِ مختلفةٌ. . وكُلُّها تَنطقُ بلسانٍ فصيحٍ: سُبحانَ مَن أوجدَنى على مُقتضى حكمتِهِ وإرادَتِهِ.

هَلَّا تدبَّرْنا الجناتِ والبساتينَ وما فيها من الجمال والخيراتِ: وكيف جعل اللهُ بعضَ الثمارِ متفرقةً كالتفاح والكمثرَى وغيرِهِمَا، وكيف جعل بعضَها مجتمعةً كالعنب والرُّطَبِ وغيرِهما.

هَلَّا فكَّرنا فى الحَبِّ الذى يُحْصَدُ من قمحٍ وشعيرٍ وأرزٍ وغيرِ ذَلكَ من الحبوب والبقول، وما أَوْدَعَ اللهُ فيها من المنافعِ والبركاتِ، وما جَعل فيها من أَمْنٍ للإنسان، ففى هَذا كُلِّه: فاكهتُه، وسرورُ نفسه، وقُوتُه وَغِذاؤُهُ الذى لاغِنَى له عنه: ﴿رِزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ﴾. [ق: ١١]

أَى: وكما سُقْنا هَذا الماءَ إِلىَ بَلْدةٍ جَفَّ نباتُها، وكما فعلْنا كلَّ هذه الأشياءِ فى الأرض والسماء، ونحن قادرون على ذلكَ، كذَلكَ نجمعُكم فى الحشْرِ والنشْرِ، فليس بعثُكم بأبعدَ من هذا: ﴿كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ﴾.

جملةٌ اسميةٌ تَقَدَّمَ فيها الخبرُ علىَ المبتدأ لإفادة القَصْرِ، وفيه تقريرٌ للمعنى وتوكيدُه، وهذا من قياس الغائبِ بالحاضرِ بمثالٍ يُخاطِبُ العَقْلَ وَيُنِيرُ له الطريقَ: أى: مِثْلُ تلكَ الحياةِ البديعةِ التى تُشاهدونها بخروج النباتِ من الأرض خروجُكم أحياءً بعد موتِكم، ثم: تأمَّل التعبيرَ بالإِحياءِ: عن إِخْراجِ النباتِ من الأرضِ، والتعبيرَ بالخروجِ عن إِحياءِ الموتى، وما يدلُّ عليه من تفخيمٍ لشأن الإِنباتِ، وتَهْوينٍ لأمرِ البعْث وَمِن تحقيقٍ للمُماثَلَةِ بين إخراجِ النباتِ وإِحياءِ الأمواتِ، وفى ذلكَ توضيحٌ لمنهاج القياسِ، وتقريبُه إِلى أَفْهامِ الناس، إِذْ كِلا الأمريْنِ خاضعٌ للقُدرة، يقول ابنُ كثير: «إِنَّ هَذا المُشَاهَدَ مِن عظيمِ قدرتِهِ

سبحانه بالحِسِّ أعظمُ مِمَّا أَنْكره الجاحِدون للبعْث» ذَلك أن خلْقَ السمَواتِ والأرضِ أعظمُ مِن خَلْقِ الناس.

حقِّيةُ البعث:

لقد أَجْمَعَ رسلُ اللهِ على حَقِّيَّةِ البعْث، وكلُّ رسولٍ دعا الناسَ إِلى إعداد أنفسهم لليوم الآخرِ بالإيمان الصحيح، والعمَلِ الصالح، وقد أخذ اللهُ المُنكِرين المُتعنِّتين أَخذَ عزيزٍ مُقْتَدِر، وفى مَجال العبرةِ مِمَّا وقَع لهؤُلاءِ مِن نَصْرِ أَوليائه وقَمْعِ أعدائه، جاء التهديدُ لمشركى قريشٍ إذا هم أَصرُّوا، والتسليةُ لرسول اللهِ ﷺ بقولهِ تعالَى: ﴿**كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ۞ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ۞ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ**﴾ [ق: ١٢: ١٤]

أى: فوجَبَ وَحلَّ وعيدى، وهو كلمة العذاب، وهَذا التهديدُ لكلِّ مَن كَذَّب الرسلَ فيما جاءوا به من الشرائع، ومن جُملتها البعثُ.

وفى استفهامٍ يُفيد النفْىَ، في عبارةٍ فيها إِيجازٌ وإِحكامٌ وروعةٌ وقوَّةٌ قَدَّمَ السياقُ برهانًا أسطعَ من الشمس فى رائعة النهارِ على إِمكان البعث قال سبحانه: ﴿**أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ**﴾؟ وفى ذلكَ جوابٌ لقولهم: ﴿**ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ**﴾ وَعَيِىَ بالأمر: لم يَهتدِ لوجْه عَمَله، أى: إِنا لم نَعجَزْ كَما عَلموا عن الخَلْق الأولِ، فكيف نَعجزُ عن الخلْق الثانى، وهو الإِعادةُ؟ لم يَعْتَصْ علينا فَعْلُ شىء، ولم نتعَبْ من شىء، فكيف يَشُقُّ علينا أمرُ البعث؟ أى: ليس كذَلك.

لقد تَركَ المخذولون القياسَ الصحيحَ، وهو أنَّ مَن قَدَر على الإِنشاء كان على الإِعادةِ أَقْدرَ، إِذْ لَبَّس عليهم الشيطانُ وَحيَّرهُم بتسويله إِليهم:

أَنَّ إِحياءَ الموتَى أَمرٌ خارجٌ عن العادة ، وأنساهم ذِكْرَ اللهِ ، والتفكُّرَ فى دلائلِ قدرتهِ العظيمة ، لذا وبَّخُوا بقوله: ﴿بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيد﴾ [ق: ١٥] أى: فى خَلْط وَشُبْهة.

ثم إِنَّ خالقَ الإنسانِ ، وَمُوجِدَه من العَدَم ، أعلمُ به: وبأحواله وبمصيرِه ، لأنه واقعٌ تحت قَهْرِ سلطانه ، لايَخْفَى عليه شئٌ من أمره: فكيف يَعجزُ عن إِعادته بعد موتهِ : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ۞ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيد﴾ [ق: ١٦: ١٧] والمعنَى: أنه لطيفٌ يَتَوصَّلُ علمُه إلَى خطرات النفسِ ، وما لاشئَ أَخفَى منها ، وهو أقربُ من الإِنسان من كلِّ قريب ، وَحَبْلُ الوريدِ أقربُ أجْزاءِ نفسه إلى نفسه حين يَتَلَقَّى الملكان مايَتَلفَّظُ به ، إِيذاناً بأَنَّ استحفاظَ المَلكين أمْرٌ هو غَنِىٌّ عنه ، وكيف لايَستغنِى عنه، وهو مُطَّلِعٌ على أخفى الخفيَّاتِ، وإنما ذَلك لحكمةٍ اقتضت ذلك ، وهى مافى كِتْبَةِ المَلكَينِ وَحِفْظِهما ، وعَرْضِ صحائفِ العملِ يومَ يقومُ الأَشهاد ، وما فى عِلْمِ العبْدِ بذَلكَ مع عِلْمه بإحاطة اللهِ بِعَمَلِه من زيادَةِ لُطْف له فى الانتهاء عن السَّيِّئات والرغبةِ فى الحَسنات.

ويجوزُ: أن يكونَ تَلقِّى المَلكَيْنِ بيانًا للقُرب ، يَعنى: ونحن قريبُون منه مُطَّلعُونَ على أحواله ، مُهيمنون عليه ، إِذْ حَفَظَتُنا وكَتَبَتُنا مُوكَّلون به والتلقِّى: التَلقُّنُ بالحفْظ والْكِتْبَة.

و«حَبْلُ الوَرِيد» يُضْرَبُ به المَثَلُ فى القُرْب الشديدِ ، كقول ذى الرُّمة: والموتُ أَدْنى لى من حَبْلِ الوَرِيدِ. وَمِثْلُه قولُهم: هو مِن أَخيه مَقْعَدَ القَابِلَة ، ومَعْقَدَ الإِزَار.

وزيادةً فى تنبيهِ الإنسانِ قبل فواتِ الأوانِ يوكِّدُ ربُّنا هَذه الرقابةَ المُحيطةَ بكلٍّ واحد منَّا : ﴿مَا يَلْفظُ من قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْه رَقِيبٌ عَتِيد﴾ [١٨] أى : حافظٌ معَدٌّ مُهَيَّأٌ لذلك ، وَإِنَّ فى زيادة التنبيهِ رحمةً بالعباد ،وَإِقامةً للحُجة.

لقد صارت هذه العبارةُ القرآنيةُ البليغةُ ، المُحْكَمةُ النسجِ ،الحكيمةُ الغَنيَّةُ بمعانيها وبِمَراميها الساميةِ ، بعد نُزولها وشيوعها مَثَلًا يُنبِّهُ للحذَرِ مِن سقَطات اللسانِ وعثراتِهِ ، ويُوعَظُ به الغافلُ ، للكفِّ عَمَّا لايَعنيه وللسكوت عن الخَوْض فى أعراض الناسِ ، وللبعد عن قول الزورِ والبهتانِ وإِشاعةِ السوءِ والباطل.

وفى «يَلْفظ» استعارةٌ: من لَفَظ الطعامَ من الفَم ، وقد نُقِل لإِخراجِ الكلامِ ، لِمَا فيه من زيادة بيانٍ وتقويةٍ للمعنى.

وهَذا يدعونا إلى إِمساكِ اللسانِ إِلَّا عن خيرٍ نُوَضِّحُه ،أو باطلٍ نَدْحَضُهُ ونوهِنُهُ ، ونلفتُ إِليهِ لِتَجَنُّبِه وَتَوَقِّيه.

❊❊❊

٢٠٥- ج- ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيد

قال تعالى فى سورة «ق» : ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ۞وَنُفِخَ فِى الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ۞وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ۞لَقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [الآيات: ١٩:٢٢]

هذه الآياتُ فى تصوير شدائدِ الموت ، ونَفْخة البعث ، والخروجِ من القبرِ حيث يُساق المرءُ إلى الحساب ومعه شاهدٌ عليه بما عَمِل فى الدنيا من خيرٍ أو شرٍّ ، وهناك تزولُ الغفلةُ وَيرى كلُّ إنسانٍ الحقيقةَ التى أَنْذَرَ بها الأنبياءُ ، وهناك لاينفعُ أهلَ الشكِّ والجحودِ نَدَمُهُمْ ولا حسرتُهُمْ.

إنَّ هَذه الآيات بما تُصَوِّرُهُ من شدائدِ خروجِ الرُّوحِ ، ومن أحوال البعث والقيامة تَبْعَثُ على الرهبة والخوفِ ، وتُوقِظُ الشعورَ، وَتنبِّهُ العقلَ وتهزُّ القلبَ ، وتدعو إلَى التفكُّر فى الحقيقة التى لامَفرَّ منها ولاخلاص: فالمعانى قويةٌ جليةٌ واضحةٌ، وقد أبرزتْهَا الآياتُ فى صورة حَيَّةٍ كأننا عِشْنا فيها ، ورأينا مافيها من حَرَكَة ، وسَمِعنا مافيها من صَوْتٍ وَفَزِعنا كما فَزِعَ الناسُ ونحن نُساقُ إلى ربِّنا حيث يَشهدُ الإنسانُ على نفسه ، وَتُبادِرُ جوارحُه وأَعضاؤُه صادقةً لتقول فعلتُ كذا ، وارتكبتُ كذا، وهناك يُزالُ الحجابُ الساترُ من الشكوك والنكرانِ ، ويَصيحُ أشدُّ الناسِ إنكارًا مع الصائِحين : ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢]

وأنَّى له ذلك؟

ثم تأمَّلْ تناسقَ الكَلِمات فى كلِّ آيةٍ، وتَعاونَها فى إظهار المعنى المراد وما فيها من جزالةٍ وقوةِ إثارةٍ ودقَّةٍ فى تصويرِ الموقفِ العظيم والإنذارِ به والتنبيهِ عليه ، ثم تأمل مالرؤوسِ الآى من وقْعٍ قوىٍّ الأَثَرِ فى النفوس: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾/ ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾/ ﴿مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾/ ﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ راقِبْ ـ ياذا اللبِّ ـ التماثلَ فى أواخرِ الآيات ، وتأمَّلْ كيف: أنه يَشُدُّ القارئَ ،ويَحوذُ (١) أُذُنَ السامعِ ويُشَوِّقُه ويُقَرِّبُ المعنى منه ، ويبعثُهُ على المتابعة فى خشوعٍ وتدبر.

لقد تآلفتْ الألفاظُ وتآزرتْ وتسانَدَتْ فأعطتْ عطاءً عَظيمًا من المعانى والإِيحاءاتِ ، وأقنعتْ وأَمتعتْ ، وَهَزَّت القلبَ والشعورَ هزًّا ، وجعلتْنا نُعايشُ أَحوالًا ذاتَ خطَرٍ(٢) بالغ ، نعايشُ: سكراتِ الموتِ وشدائدَه التى تَذْهَبُ بالعقلِ لِمَا يراه الملحدُ والشاكُّ ، والجاحدُ من أمارات سوءِ المصير ومن الحقائقِ التى أَنْذَرَ بها الأَنبياءُ ، وخَوَّفوا منها العصاةَ ، والمعاندينَ والمتكبرين ، وقد صارت منهم عند الموتِ قابَ قوسين أو أدْنى(٣) ، فإلى أينَ المفرُّ؟ كَلَّا لا ملجأَ ولا مَهْرب ، إلى ربِّك يومئذٍ المُسْتقرُّ. ويُقال للمُنكرِ ساعتَها: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾أو لعله يقولُ هو لنفسه ذلك متحسِّرًا نادمًا ، أى: هَذا ماكنتَ تبتعدُ منه ، وتنأى ، وتَفرُّ ، هذا ماكنتَ تُصِمُّ أُذُنَيْك عن سماع العظةِ بهِ ، وترفعُ رأْسَك وتَخفضُها

---

(١) من حاذ الشئَ يحوذه، أى غلب عليه، وتقول: حازه يحوزه أى: ضمَّهُ وملَكَهُ.

(٢) الخطر: مِن خطر ـ بضم وسطه ـخطرا ـ بفتح وسطه ـ وخطورًا وخُطورةً : أى: عظم وارتفع قَدْرُه، فهو خطير، والمراد فى العبارة الشأن والقدر.

(٣) مثل يضرب للقرب الشديد.

استهزاءً بالمتكلِّمين عنه ، المنذَرين به . . لقد حَلَّ بك ونَزَلَ.

لقد كشفتْ لك ـ أيها الإنسانُ ـ شدةُ الموتِ وغمراتُه عن اليقين الذى كنتَ تَمترِى فيه ، وأحضَرَتْ سكرتُه حقيقةَ الأمرِ ، الذى أنطق اللهُ به كُتبَه ، وبَعَث به رُسلَه ، وظَهر الحقُّ فيما كان اللهُ تعالى وَعَده وأوعد به.

وقد ثبت فى الصحيح: أن رسولَ اللهِ ﷺ لـمَّا تَغشَّاه الموتُ جعَل يمسحُ العرقَ عن وجهه ويقول: «سبحان اللهِ ، إن للموت سكراتٍ"

[البخارى وعند بعضِ أصحابِ السنن مثله].

وفى سكْرة الموتِ: استعارةٌ من الحالة التى تَعْرِضُ بين المرْءِ وعقْله لِمَا ينزلُ بالإنسان عند الموتِ من الذُّهول ونحوه ، بجامعِ أنَّ كُلًّا منهما يُصِيبُ العقلَ بما يُصيب.

وإن الفعلَ الماضى فى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ﴾ يجعلُ المتدبِّرَ أكثرَ شعورًا بالمعنى ، لأن ماهو كائنٌ حتمًا كأنه كان بالفِعل ، وقد استُعير «الفعل الماضى» فى الآيات مكان المضارع للتنبيه على اقتراب الموتِ والقيامة ، ولأن ذلك مُحققُ الوقوعِ فكأنه وقَع ،وهذا ممَّا يدعو ذوى البصائرِ إلى تهيئة نفوسهم لهذا المصير ، وإعدادِها لتكونَ أَهْلًا لرحمة اللهِ يومَ القيامة ، ولنتدبر أيضًا دلالة الفعل الماضى فى: ﴿وَنُفِخَ فِى الصُّورِ﴾/ ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْس﴾ / ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ اليومَ حديدٌ﴾ / ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَالَدَىَّ عَتِيدٌ﴾ (١).

والمراد بنفخة الصورِ: النفخةُ الآخرةُ للبعث ﴿ذَلكَ يومُ الوَعيدِ﴾

---

(١) وذلك مكان المضارع الذى للاستقبال أى: ستجىء سكرة الموت، وينفخ فى الصور، وتجىء كل نفس، ويكشف الغطاء، ويقول قرينه «بتشبيه المستقبل المتحقق بالماضى فى تحقق الوقوع».

أى: الذى أوعد اللهُ الكفارَ أن يعذبَهم به.

إنَّ الآخرةَ بالنسبة للدنيا كاليقظة ، والدنيا كالمنام ، فحين يخرجُ الناسُ من قبورهم ، ويُساقون إلى ربِّهم ، تشهدُ عليهم الملائكةُ بما عملوا وتشهدُ عليهم جوارحُهم ، ويشهدُ الليلُ والنهارُ ، وتشهدُ الأرضُ ويرَوْنَ مايَرَوْنَ من عظمة المُلْك وَجَلال السلطان ، ويقال: لمَنِ المُلْكُ اليوم؟ لله الواحدِ القهار ، اليومَ تُجزَى كلُّ نفسٍ بما كسبتْ لا ظُلْمَ اليوم، ويقال: لقد كنتَ ـ أيها الإنسانُ ـ فى غفلةٍ عن أن كلَّ نفسٍ معها سائقٌ وشهيد وفى غفلةٍ عن هَذا الذى عاينتَ من أهوال القيامةِ وأحوالِها العجيبةِ فأزَلْنا عن نفسكَ وعينيك الْحُجُبَ الساترةَ ، وتجلَّتْ لك الحقائقُ سافرَةً فبصرُكَ اليوم قوىٌّ نافذٌ يرَى ماكان محجوبًا عنك ، يَرى الميزانَ ، يرى المآلَ ، إمَّا إلى جنة وَإمَّا إلى نار.

وكأنَّ الآياتِ تقول لنا: اتَّقوا اللهَ فى أنفسكم ، عيشوا دنياكم لهَذا اليوم ، اجعلوها مزرعةً لآخرتكم ، اجعَلوها معبرًا ، زِنُوا أعمالكم قبل أن تُوزَنَ عليكم ، وحاسِبوا أنفسكم قبل أن تُحاسَبوا ، إياكم أن تَضِلُّوا أو تزِلُّوا ، بل طريقَ محمدٍ ﷺ الزَموا.

وفى قوله: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ﴾ تصويرٌ جميل أبرزَ المعنوياتِ المانعةَ من الفهْمِ والعلْمِ ومعرفةِ الحق والإذعانِ له فى صورةِ غِطَاءٍ محسوسٍ يُغطِّى على بَصَرِ القلب أو بَصرِ العينِ ، أو هما معًا.

قال الزمخشرىُّ: جُعِلتْ الغفَلةُ كأنها غطاءٌ غُطِّى به جسدُه كلُّه ، أو غِشَاوَةٌ غَطَّى بهَا عينيه ، فهو لايُبصر شيئًا ، فإذا كان يومُ القيامة تَيقَّظَ وزالت الغفلةُ عنه وغطاؤُها فيُبْصِرُ مالم يُبْصِرهُ من الحق ، ورجَع بصرُه الكليلُ عن الإبصار لغفلته حديدًا قويًّا نافذًا لتيقُّظِه.

وفى هذا اليوم العظيمِ الهولِ يرى المرءُ قرينَه ، ويسمعُ منه تقريرَه[1] عنه: ﴿وَقَالَ قَرِينُه هَذا مَا لَدَىَّ عَتِيد﴾ أى: يقول الملَكُ الموكَّل به: هذا ابنُ آدَم الذى وكَّلتنى به ،قد أحضرتُه ، وأحضرتُ ديوانَ عمله.

فعندئذٍ يحكمُ اللهُ عزَّ وجل فى الخليقة بالعدلِ فيقول: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيد﴾ [ق:٢٤] أى: ألْقيا فى جهنمَ كلَّ معاندٍ للحق ، معارضٍ له بالباطل مع عِلْمِه بذلك ، من عَنَدَ يَعْنِد[2] عُنودًا: أى خالف وردَّ الحقَّ وهو يَعْرِفُهُ ، فهو عنيد وعانِد ، وجمعُ العنيد: العُنُدُ والعُنُد ، ومِن صفات هذا الكفَّار ـ أيضًا : ﴿مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ ، مُعْتَدٍ ، مُّرِيب﴾ [ق:٢٥] أى كثيرِ المنعِ للحقوق عن أصحابها ، ولا بِرَّ فيه ، ولا صدقةَ ، ولا صِلَةَ ، وهو متجاوزٌ للحدِّ فى أموره: مسرفٌ فى نفقته ، معتدٍ فى منطقه وفى سيرته وأمورِه ، وهو مريبٌ ، أى : شاكٌّ فى التوحيد من أرَابَ الرجلُ فهو مُريبٌ أى جاء بالرِّيبةِ ، وهو المشركُ ، يَدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿الَّذى جَعَلَ مَعَ اللهِ إلهًا آخَرَ﴾ ثم كَرَّر الأمرَ بإلقائه في جهنَّمَ للتأكيد واستحضارِ الصُّورةِ الرادعةِ عن الشر مَرَّةً بعد مَرَّة ﴿فَأَلْقِيَاهُ فى العَذابِ الشَّدِيد﴾. [ق:٢٦]

(١) التقريرُ: مَصْدر الفعل قَرَّرَ بتضعيف وسطه وله معان عدَّة، وقد صار يُطلَق لفظُ «التقرير» على ماتُثبتُ فيه ماوصلتَ إليه من الرأى وحققتَه إزاء مسألة أو أمرٍ أو شخصٍ أو مُشْكلٍ وقد تُضَمِّنُه ما توصى به، وهو بهذا المعنى مُولَّد، أى: استعماله على هذا النحو مُستحْدَث «بعد عصرِ الرواية» فهو عربىٌّ الأصلِ واستُعمل فى معنًى لم يكن له فى الأصلِ، ومن ذلك قَرَّر المسألةَ أو الرأىَ تقريرًا: بمعنى وضَّحه وحققه «مولد».

(٢) عَنَد يَعنُد: عن الطريق من باب نصر وسمع وكرُم مال: أى وسط الماضى بالفتح والكسر والضم، وعَنَدَ فلان: من باب ضرب خالف الحق ورده عارفًا به فهو عنيد وعاند والجمع عُنَّد كرُكَّع.

وقوله: «ألقيا» بضمير الاثنين ، قال الخليل والأخفش: هذا كلامُ العربِ الفصيحُ أن تُخاطِبَ الواحدَ بلفْظ الاثنين ، قال الفراء: تقول للواحد: قُوما عنِّى ، وأصْلُ ذلكَ: أنَّ أَدنى أعوانِ الرجلِ فى رُفْقَتِهِ فى سفَره وفى إبله وَغنمه اثنان فجَرى كلامُ الرجلِ على صاحِبَيْه ، ومنه ماعتاده الشعراءُ فى مَطْلَع قصائدهم كقول امرئ القيس:

قِفَا نَبْكِ مِن ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنزِلِ   بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ وَحَوْمَلِ

جرَّد من نفسه شخصًا وخاطَبه مخاطبةَ الشخصين

وَعلى هذه اللغة أَنشد ابنُ جرير:

فَإِن تَزْجُرانِى يابنَ عَفَّانَ أَنْزَجِرْ   وَإِنْ تَتْرُكَانِى أَحْمِ عِرْضًا مُمَنَّعا

وفسَّره المازنىُّ فى الآية على أنَّ فى العبارة تكرارًا ملموحًا للتوكيد والمعنى: أَلْقِ أَلْقِ ، وقال المبرِّد: هى تَثنيةٌ على التوكيد ، والمعنى: أَلْقِ أَلْقِ فنابَ «أَلقياهُ» مَنَاب التكْرار.

ويجوزُ أن يكونَ على الحقيقة وأنَّ المخاطبَ الَملَكان على القول بأن الشهيدَ مَلَكٌ ـ أيضًا ـ فالخِطابُ للسائق والشهيدِ معًا.

وقيل: هى نونُ التوكيدِ الخفيفةُ سُهِّلتْ إِلى الأَلِف ، والأَصلُ: أَلقِيَنْ مِثْل ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ [العلق: الآية: ١٥]

وهذا بَعيدٌ لأَنَّ هذا ـ أى تسهيل النون إلى الألف ـ إنما يكونُ فى الوقْف ـ والله أعلم ـ

إن الكافرَ يومَ القيامةِ يحاولُ أن يعتذِرَ فيقولَ : رَبِّ إِنَّ قَرِينى من الشياطين أَطْغانِى ، يارَبِّ هذا أَضَلَّنى عن الذِّكْرِ بعد إِذْ جاءَنى ، فيتقدَّمُ شيطانُه المُقَيَّضُ له قائلًا: ﴿رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِى ضَلَالٍ بَعِيد﴾

أى: ماأضلَلْتُه ، بل كان هو فى نفسه ضالًّا، قابلًا للباطل ، معاندًا للحق لقد كان مجاوزًا للحق باختياره ، وإنما دعوتُه فاستجاب لى.

فحينئذٍ يقول الربُّ سبحانه: ﴿لا تَخْتَصِمُوا لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ﴾ [الآية:٢٨] أى: لا تختصموا عندى ، وقد أعذرْتُ إليكم على ألسنة الرسل ، وأنزلتُ الكتبَ ، وقامتْ عليكم الحُجَجُ والبراهين.

لقد أبطَل حُجَّتَهم فى اعتذارهم بأنَّ الشياطينَ أَغْوَوْهُم وردَّ عليهم بقوله: ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [الآية:٢٩] أى: لايُغَيَّرُ قَضَائى الذى قَضيتُه ، ووعيدى الذى أوعدتُه بتخليد الكفارِ فى الجحيم ، ومجازاةِ العصاة على قدْر مايَستحقون ، ولا أُعَذِّبُ أَحدًا بِغير جُرمٍ اجترمه ، ولا أُعذِّبُ أَحَداً مكانَ أحد ، ولا أعذِّب أحدًا إِلَّا بذنْبه بعد قيام الحجَّة عليه.

ثم ذَكَر مكانَ حلولِ الوعيدِ فقال: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [الآية: ٣٠]

قال ابن عباس: وذلكَ حين لايَبْقَى فيها مَوضعُ إِبْرةٍ [ابن كثير عن العَوْفى] أى: مابَقِىَ فِىَّ موضعٌ للزيادة على أَنَّ «هَلْ» سِيقَت للنَّفْى بمعنى (ما) ويُحْتمل أن يكونَ استفهامًا بمعنى: هل من مزيدٍ فأزدادَ؟ وذلك على جهة التغليظ والاستزادة من الكُفَّار.

والصحيحُ أنَّ سُؤالَ جهنمَ وجَوابَها حقيقةٌ ، وأنَّ اللهَ يَخْلُقُ فيها الإدراكَ بِذلكَ بِشرْطه، وقد وردت بذلك الأخبارُ، لهذا ضَعَّفَ أهلُ السُّنَّة قولَ مَن قال: ليس ثَمَّ قولٌ وإنما هو على طريق المَثَل ، أى : إن النارَ فيما يَظْهَرُ مِن حالِها بمنزلةِ الناطقةِ بذلك ، واستشهدَ أحمدُ الإسكندرىُّ

فى حاشية الكشَّافِ على أن ذلكَ على سبيل الحقيقة لا الخيالِ بما جاء من الخَبَر: عن لَجَاجِ الجنَّةِ والنَّار ، واشتكاءِ النارِ إلى ربِّها فَأَذنَ لها فى نَفَسَيْن ، وقال: وهذه وإن لم تكن نصوصًا فظواهرُ يجبُ حَمْلُها على حقائقها لأننا مُتَعبَّدون باعتقاد الظاهرِ مالم يَمْنَعْ مانِعٌ ، ولا مانِعَ هَهنا فإنَّ القُدرةَ صالحةٌ والعقلَ يُجَوِّزُ ، وإنَّ الظواهرَ قاضيةٌ بوقوع ماصَوَّره العقلُ ، وقد وقَع مِثْلُ هذا قطعًا فى الدنيا: كتسليم الشجَرِ ، وتسبيحِ الحَصَا فى كَفِّ النبىِّ ﷺ ، وفى يدِ أصحابِه ، ولو فُتِحَ بابُ المَجَازِ والعدولِ عن الظاهر فى تفاصيل المقالةِ ـ أى فى كلِّ أمرٍ يَحتَمِلُ الحقيقةَ والمَجَاز ـ لاتَّسَعَ الخَرْقُ ، وضَلَّ كثيرٌ من الخَلْق عن الحق»

[انتهى كلام الإسكندرى].

العبرة:

لقد جاء ذِكْرُ الموتِ والبعثِ والحسابِ والجزاءِ بعد أن احتجَّ السياقُ على مُنكرى البعْثِ بوصفِ قدرةِ الله وَعِلْمه ، وبعد أن أُقيمتْ الحجةُ عليهم فى مَطْلَعِ السورةِ الكريمةِ ، لعلَّ فى ذَلك مايَرْدَعُ الغافِلَ ، ويَزْجُرُ الشاردَ ، ببيان أنَّ ماأنكروه وجحدوه ، هُم لاقُوهُ عن قريبٍ عند موتِهم وعند قيامِ الساعة ، وكلُّ ماهو آت قريب.

فَطُوبى لِمَن ازْدَجر . .

❄❄❄❄

(١٣٤٦)

٢٠٦- أ- دَعُوهَا نَائِمَةً لاتُوقِظُوها

توضيح لمعنى الفتنة:

كَلمَةُ الفتْنَة ، لَها دلالاتٌ متعدِّدَةٌ ، وتُسْتَخْدَمُ فى الشىءِ وَضدِّه وأيًّا كان مَوضِعُها من السِّيَاق فهى تَشُدُّ الانتبَاهَ ، وتَلفتُ السامعَ أو القارئَ لقُدرتها على الإيحاءِ فى مَسَاقِها ، وعُمْقِ عَلاقَتِها بالنفسِ البشرية وبالنوازعِ النفسيَّةِ ، وكلُّ إنسانٍ أيًّا كان موقعُه فهو يَحْيَا فى نَوعٍ من الفتنة أو فى أنواعٍ ، ولا تخلُو حياتُه من اختبارٍ وابتلاءٍ وتمحيصٍ على أىِّ وجْه، وإنَّ الفتْنَةَ ، والامتحانَ ، والاختبارَ ، والابتلاءَ ، والتمحيصَ والإعجابَ ، والاستهواءَ ، والضَّلالَ، والإلهاءَ، والتدلُّهَ، والتَّلَهِّىَ . . . كلُّها ألفاظٌ ترتبطُ بحياة الناس، وتُسْلَكُ مع إيحاء الفتنة ودلالَتها وفَحْواها فى سلْك واحد، وتَجْرِى مَجْرَاهَا، بل يُمْكنُ أن يُقال وتفرَّعُ منها.

ومن استعمالاتِ الفعْلِ فَتَن، يقال: فَتَنَ الرجلُ المعدنَ فَتْنًا وفُتونًا: أى صَهَرَهُ فى النَّار ليختبِرَهُ، ويقال: فتنتْه النارُ أى صهرَتْه، ويُقال: دِينارٌ مَفْتونٌ أى: فُتِن بالنَّارِ، وكلُّ شىءٍ أُدخِل النارَ فقد فُتِن.

ويُنْقَلُ من هذا المعنى إلى الاختبارِ بالشدائدِ والمحَنِ؛ فيقال: فَتَن القومُ فلانًا، أى عذَّبوه ليُحوِّلوه عن مُعْتَقَده، أو دِينه، أو رأْيه. وفى سورة البروج: ﴿ إِنَّ الَّذينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عذَابُ الْحَرِيقِ ﴾ [الآية: ١٠]

وتقول: رَمَوْا فلانًا فى شِدة ليختبرُوه، وفى سورة التوبة: ﴿أَوَلا يرَوْنَ

﴿أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَلا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الآية: ١٢٦]

أى: يُبتَلَوْنَ بالشَّدائد.

وتقول: فتنَه بالأمر، وفتَنَه فيه، وفتَن الشىءُ فلانًا: أُعْجِبَ به واستَهْواه، مِثل: فَتَنَه المالُ، وفتنتْه النساءُ، وفَتَن فلانًا عن الشىء: صرَفَه عنه ولواهُ، وفى سورة المائدة ﴿وَاحْذَرْهُم أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَآأَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [الآية: ٤٩]

ومن مُشتقَّاته: فاتِنٌ وفتَّانٌ للفاعل، ومفتُونٌ وفَتِينٌ للمفعول، وتقول: فَتَّنَه ـ بتشديد التَّاء ـ للمبالغة فى فتنَه، وافْتتنَ بالأمر: استهواه، وأَعْجَبه وافتتن فلانًا: أوقعَه فى الفتنة، وتقول: أعوذُ باللهِ من الفتَّان، وهو الشيطان، واستغوتْهم الفُتَّانُ: أى الشياطينُ، وتقول: الناسُ عبيدُ الفتَّانَيْن، وهما الدِّرهم والدينارُ.

وفى الحديث: «ابْتُلِيتُم بفتنة الضَّراءِ فصبرْتُم، وستُبْتَلَوْن بِفتْنَةِ السَّراء» أراد فى الأولى فِتنةَ السيف، وفى الثانية فتنةَ النساء والمال ونحوهما، وفى سورة الأنبياء: ﴿وَنَبْلُوكُم بالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾، [الآية: ٣٥] معناه: نَختبِرُكم، أى: نعاملُكم مُعامَلَةَ المخْتَبَرُ بما تُحِبُّونَ، وما تكرهُون لأجْل إظهار شُكرِكم وصَبْركم، و«فِتْنَةً» أى: ابتلاءً واخْتباراً مصدرٌ مُؤكِّد لـ «نَبْلُوكُم» من غيرِ لفْظه.

وتَجُرُّ الفِتنَةُ فى بعض مجالاتِها إلى الاضطراب وبلْبلةِ الأفْكار، قال تعالى من سورة آلِ عمران: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ [الآية: ٧]

أى هؤُلاء ذوو المَيْل عن الاستقامة والانحرافِ عن الحق يَسْعَون لفتنةِ المؤمنين عن دينهم بالتشكيك والتلبيسِ وإثارة الشُّبَه، ومن دلالة الفتنة على الضلالِ ماجاء فى سورةِ المائدةِ مِن وصْفِ أحوالِ هؤلاء: ﴿وَمَن يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئًا﴾ [الآية: ٤١]

أى: ومَن يُرِد اللهُ ضَلالتَه.

ومن الحكمة:

ومن الحكمة ألَّا يخوضَ العاقلُ فى الفِتن، وألا يَتعاطَى أسبابَها، وأن يتحاشَى الشُّبَهَ، وأن ينأى بنفسه عن فتنةِ الشهواتِ، ومضَرَّاتِ شقِّ الصفِّ، وإِشاعةِ الشكُوك، وبلبلةِ الأفكار، وإثارةِ الخصومات.

وقد قال حكماؤُنا: إن كنتَ من أهلِ الفِطَنِ، فلا تَدُرْ حولَ الفتَن ذَلكَ أن الذى يَحوم حولَ شىءٍ يُوشِكُ أن يقعَ فيه، وقد تدفعُه نفسُه الأمَّارةُ إلى مافيه هلاكُه، وفى كثيرِ من الأَحوالِ يكونُ الصمتُ حكمةً عاليةً، وعملًا يدلُّ على العقل والرُّشد، وفى أمثالِنا الحكيمة: الصمتُ حُكْمٌ وقليلٌ فاعلُه.

ومن وصيَّةِ الإسلام:

وإسلامُنا يُوصينا بالتنزُّه عن الفِتَن، والابتعادِ عن الشُّبهات، ويدعُونا للحِرْص على وحدةِ الصَّف، وسلامةِ الأُمةِ من التناقض والتباغُض، وفى التحذير من الفتن، والتنبيهِ إلى مساوئها وشرورِها ما رواه حُذيفةُ بنُ اليمان رضى اللهُ عنه قال: كنَّا جلوسًا عند عمرَ رضى اللهُ عنه فقال: أيُّكم سَمِع رسولَ اللهِ ﷺ يذكرُ الفِتَن؟ فقال قوم: نحن سَمِعناه، فقال: لعلَّكم تَعنُون فتنةَ الرجلِ فى أهله، ومالِه، وجارِه، وولدِه، فقالوا:

أجَل، قال: «تلك تكفِّرُها الصلاةُ والصيامُ والصدقةُ».

السؤال عن الفتن العامة:

ثم سألهم عمرُ بعد ذلكَ عن الفِتنِ العامةِ التى يجبُ أن يتنبَّه المسلمون لشرورها فقال: ولكن أيُّكم سَمِع النبىَّ ﷺ يذكُر الفِتَنَ التى تموجُ كموجِ البحْرِ؟ قال حذيفةُ: فأَسْكَتَ القومُ، فقلتُ: أنا، فقال: أنتَ لله أبوك؟ قال حذيفةُ: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «تُعْرَضُ الفِتَنُ على القلوبِ كالحصيرِ عُودًا عُودًا، فأىُّ قَلْبٍ أُشْرِبَها نُكِتَ فيه نُكتةٌ سوداءُ، وأىُّ قلبٍ أنْكَرها نُكِتَ فيه نكتةٌ بيضاءُ حتى تصيرَ على قلبيْن، على أبيضَ مثلِ الصَّفَا فلا تَضُرُّه فتنةٌ مادامتْ السمواتُ والأرضُ، والآخرُ أسودُ مُربَادًّا كالكُوزِ مَجْخِيًّا، لايعرِفُ مَعْروفًا، ولا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إلَّامَا أُشْرِبَ من هَواه» قال حذيفةُ : وحدَّثْتُه أَنَّ بينك وبينها بابًا مُغلَقًا يُوشكُ أن يُكْسَر، قال عمر: أَكَسْرًا، لا أبَالَكَ، فلو أَنَّه فُتِح لعلَّه يُعاد، قلتُ: لا، بلْ يُكسَر، وحدَّثْتُه: أن ذلك البابَ رجلٌ يُقتَل أو يموتُ، حدِيثًا ليس بالأَغاليطِ، قال أبو خالد، وهو راوى الحديث عن سعدِ بنِ مالك، فقلتُ لسعد: ياأبا مالك: ماأسودُ مُرْبادًّا ؟ قال: شِدَّةُ البياضِ فى سَواد، قال: قلتُ: فما الكوزُ مَجْخِيًّا؟ قال: منكوسًا.

(الحديث رواه مسلم فى كتاب الإيمان فى باب رفْع الأمانة من بعض القلوب، ورواه البخارىُّ فى باب أحاديثِ الأنبياءِ فى باب علامات النبوةِ مختصرًا).

نظرات فى الحديث:

أشار الحديثُ إلى الفِتن الخاصة التى تَشْغَلُ العبدَ عن مصالِح آخرتِه وتأتى هذه الفتنُ مِن قِبَل الأهلِ أو الأموالِ أو الأولادِ أو الجيرانِ.

وكان غرضُ الفاروقِ رضى اللهُ عنه لفْتَ العبادِ إلى الشرِّ العامِّ الذى

يضطرِبُ معه الأمرُ، وتنتشرُ المخاوفُ، وتَشِيعُ الشكوكُ، وتدفعُ أبناءَ الأمةِ إلى التحزُّب والتعادِى، وكأنها سيْلٌ جارفٌ إذا لم تُتَّخذْ الأسبابُ لاتقائه كاد أن يُغرِقَ الجميع.

من معانى المفردات:

أَسْكَتَ: تُستخدَم بمعنى أَطْرَقَ وبمعنى سَكَتَ وصمَتَ، والمرادُ فى الحديث الصمْتُ والسكوتُ الذى هو انقطاعُ الكلام.

«كالحصير» الحَصيرُ هو المنسوجُ المعروف، وهو المرادُ فى الحديث والحصيرُ - أيضًا - وصفٌ معناه: الضَيِّقُ الصَّدْرِ، واسمٌ يُطلَقُ على السجن، والحصْرُ مصدرُ حَصَرَ كضَرَبَ ونَصَرَ ومعناه: التضييقُ والحبْسُ عن السفر وغيره كالإحصار.

عُودًا عُودًا: العُودُ بالضم الخشبةُ من الشجر، جمعُه عِيدان، وأعوادٌ وآلةٌ من المعازِفِ والذى للبخُور، والعَوْدُ بالفتْح الرجوعُ كالعَودة والمَعاد.

و«أُشرِبَها» بالبناء للمجهول، تقول: أُشرِبَ فى قلْبه حبَّ كذا، خالطه وتغلغل فيه.

و«نُكتَ فيه نُكْتَةٌ» النّكْتُ كالنَّصْر أن يَضرِبَ فى الأرض بِعُود فيؤثِّرَ فيه، والنُّكتةُ: كالنُّقْطَة وزنًا ومعنًى.

و«الصَّفا» بالقصْر اسمُ جنسٍ واحدُه الصَّفَاةُ، وهى صخْرة ملْساء.

و«مربادًّا» اسمُ فاعل من اربَادَّ، وقيل: الرُّبْدةُ بضمِّ الراء وسكونِ الباء لونٌ بين السوادِ والغُبْرة، أي: بياضٌ يَسير يُخالطُ لونَ السوادِ كلون النعام، وتقول: تربَّدت السماءُ أى: تغيَّمَت وتعبَّسَت.

والكوزُ المجْخِيُّ: هو المنكوسُ، ومَجْخيًّا: اسمُ فاعلٍ من جَخَّى بالتضعيف أى: مَالَ، وتَجخَّى الكوزُ: انْكَبَّ.

الأغاليطُ: جمْعُ أُغلوطَة كالأسطُورة وهى التى يغالَطُ بها، والمقصودُ أنه حدَّثَه حديثًا صادقًا ليس بالأساطير.

وقولُ عمرَ لحذيفةَ: «لله أبوك» جملةٌ اسميةٌ لإنشاء التعجُّب، يجبُ معها تقدُّمُ الخبَرِ؛ لأنها جرَت مَجْرى الأمثال، وتُستخدَم للثناء إذا وُجِدَ من الشخص مايُحمَدُ ويُشكَرُ عليه، فيقال له: للهِ أبوك، أى: حيث رُزِقَ بمثْلك.

و«لا أبَالَك» كلمةٌ تذكرُها العربُ للحثِّ على الشىءِ، ومعناها أن الإنسانَ إذا كان له أبٌ، واشتدَّ به الحالُ، أو حَزَبَه أمرٌ عاونه أبوه، فلا يَحْتاجُ للجِدِّ والاهتمامِ إلى مايحتاجُ إليه حالةَ الانفراد.

ولا: نافية للجنس تعمل عمل إن الناسخة و«أبا» اسمُ لا واللامُ فى «لك» زائدة، والكافُ فى مَحلِّ جرٍّ مضافةٌ إلى «أبا» والإضافةُ غير مَحضَةٍ لأنه لم يُقْصَدْ نَفْىُ أبٍ مُعَيَّن، بل هو دعاءٌ بعَدم الأبِ وكلِّ مَن يُشبهُهُ، والمعنى: لاناصرَ لك، أو «أب» اسمُها مبنىٌّ على لغةِ القصْر وحُذِفَ تنوينُه للبناء، و «لك» خبرُ لا.

هذا الحديث:

هذا الحديثُ ينبِّه إلى الفتَن، وإلى ماتُخَلِّفُه فى حياة الأمةِ من عقابيلَ ومرازئَ، وينبهُ إلى دعاتها وألوانِها وتعدُّدِها، وكيف تجعَلُ القلوبَ هدفًا لها، لتزرعَ الشبهاتِ، وتثيرَ الشكوكَ، ولتزيِّنَ الشهوات.

وفى التنبيه لِلْفتَن نعمةٌ، وفى بيان ماتنطوى عليه من شرور رحمةٌ بأهل العقلِ والحِكْمَةِ كى يكونوا على بصيرةٍ من أمرهم ، ويحفظوا أنفسَهم عند ظهورِ بوادرِها ، فلا يكونَ لهم فيها ناقةٌ ولا جمَل ، ولا يَحْشُرُوا أنوفَهم فى كلاليبِها ، ولا يضعُوا أقدامَهم فى شِراكها.

وفى هذا الحديثِ من الصور البلاغيةِ والأمثالِ مايَزيد المعانىَ وضوحًا ويُبرزُ الفكرةَ فى صورة حيَّةٍ مُجسَّمَةٍ تُقَرِّبُ البعيدَ ، وتجعلُ المقصودَ كأنه ماثلٌ شاخِصٌ أمام العيْن ، وتؤثرُ فى النفوس ، وتحقق الإقناع والإمتاع.

ومن هذه الصورِ والأمثالِ على سبيل الإجمال:

* الفتنُ التى تموجُ كموج البحر.
* تُعْرَضُ الفتَنُ على القلوب كالحصير عُودًا عُودًا.
* فأىُّ قَلْبٍ أُشْرِبَها نُكِتَ فيه نكتةٌ سوداءُ.
* حتى تصيرَ على قلبين على أبيضَ مثلِ الصَّفا.
* والآخرُ أسودُ مُربادًّا كالكُوزِ مَجْخِيًّا.
* وحدَّثْتُه أن بينك وبينها بابًا مغلَقًا يوشكُ أن يُكسَرَ.

وفى الحديث من العِبر والعظاتِ مايُنير الطريقَ لذوى الفِطَن ونواصلُ التأمُّلَ فيما يُقدّمه لنا من المعانى والحكَم ، والعبَرِ ، والتوجيه نحو خيرٍ نجنيه ، والتبصير بشرٍّ لنجتنبَهُ ، حتى يكونَ أهلُ العقلِ والحكمةِ على بيِّنة بسبل السلامةِ من الفتن الخاصِّ منها والعامِّ، حفاظًا على النفس، وصيانةً للأمة.

❊ ❊ ❊

٢٠٧ - ب - الفتنةُ العامَّة كالموْج العَارِم والظَّلام الدامِس

كان الفاروقُ عمرُ رَضِى الله عنه يعلَمُ من شؤون المسلمين المستقبلةِ الشىءَ الكثيرَ مِمَّا أخبره به الصادقُ الأمينُ ﷺ عن وَحْيٍ صادق ، من ذلك حديثُ الفتنةِ الذى رواه حذيفةُ بنُ اليمان رضى اللهُ عنه بقوله: «كنَّا جُلوسًا عند عمرَ فقال: أيُّكم سَمِع قولَ رسولِ الله ﷺ فى الفتنة فقال قوم: نحن سمعناه ، فقال: لعلكم تَعنُون فِتْنَةَ الرجلِ فى أهله ، ومالِه وجارِه ، وولدِه» . . الحديث.

وفى هذا مايشيرُ إلى الفتنة الخاصةِ التى تُصيبُ الإنسانَ فى خاصة نفسِه، وقد تعمُّ بها البلْوى إلا مَن عَصَمَ اللهُ عز وجل.

ومن الفتن الخاصةِ: فتنةُ الرجلِ فى أهله ، فالأهلُ هم أقربُ الناسِ إلى المرء ، وربُّ الدارِ هو العائلُ والراعى ، ومسؤوليتُه جسيمة ، ومَن وقِى شرَّ الإفراطِ والتفريطِ سَلِم ، فخيرُ الأمورِ أوساطُها ، وكِلا طرفَىْ قصْدِ الأمورِ ذميمٌ ، ومن الإفراط أن يُغالى الرجُلُ في محبَّةِ أهلِه والحنوِّ على أولاده ،ويدفعهُ فرْطُ المحبَّةِ والحنوِّ إلى شَغْلِ قلبِه بهم على نحوٍ يملأُ عليه حياتَه ، مِمَّا قد يُؤَدِّيه إلى التفريط فى حقوق كثيرة ، وواجباتٍ لاينبغى له التهاونُ بأمرها. وفى الحكمة المأثورة: «الولدُ مَجْبنةٌ مَبْخلة» فإذا بُولغ فى الجُبْن والبخلِ من أجل الحرصِ على الولد فهذا من الفتنة وإذا ولَغ الرجلُ فى المال الحرامِ من أجل الولدِ والأَهلِ فهذا من الفتنة وإذا تهاون بشأن العبادة ، أو استخفَّ بالحرام من أجل الولدِ فقد فتَح على نفسه أبوابًا من الشرِّ لايعلم مداها إلا الله.

ومن طرفٍ آخَرَ: إذا قَصَّر الرجلُ فى الحقوق الواجبة لأهله كلٌّ بحسبه: فلا يَصِل رَحِمًا ، ولا يُربِّى ولدًا ، ولا يسعى السعْىَ الواجبَ لكفاية حاجتِهم ، ورعايةِ شؤونهم ، وإذا كان لايقوم عليهم بما يُصلِحهم ويكفلُ لهم الحياةَ الآمنةَ الكريمة بقدر مايستطيع فإنه فى هذه الأحوالِ ونحوِها يكونُ قد وقَع فى الفتنة.

ومن فتنةِ الرجلِ فى ماله: الانشغالُ به فى جمْعه ، وانصرافُه لأجلِ ذلك عن العبادة ، وغفلتُه عن الشكر ، ومن فتنة المال الشحُّ به عن الخير ، ومنعُ إخراجِ حقِّ اللهِ منه ، وعدمُ بذْله لأهل الحاجة والضعفِ والمسكنة ، وإنفاقُه فى غير موضِعه ، والإسرافُ فيه.

ومن فتنةالجارِ: وقوعُ الحسدِ بين الجيرانِ ، والمفاخرةُ، والتحسُّسُ(١) ومحاولةُ الاطلاعِ على العورات ، وإهمالُ التعاهد ، وتركُ الحقوقِ المرعيةِ التى تؤكِّد المودةَ.

أمَّا فتنةُ الرجلِ فى ولده: فتقع بالميل الطبَعى إليه ، وإيثارِه على كلِّ أحد ، وتفضيلِ بعضِ الأولاد على بعض ، بدون مقتضٍ ضرورى فالمرادُ بالفتنة بهؤلاء مايَعْرِضُ للمرء معهم ، والالتهاءُ بهم عن عبادة الله، أو أنْ يأتِىَ لأجلهم بما لايَحِلُّ له ، أو يؤدِّىَ فرطُ حنوِّه عليهم إلى الإخلال بما يجب عليه ، أو إهمالِ تربيتهم ، أو الإسرافِ فى الشدَّةِ عليهم ، ونحو ذلك.

---

(١) الفرق بين التجسُّس والتحسُّس هو أن الأولَ خاصٌّ والثانى عامٌّ، فالتجسسُ من الجسِّ وهو اختبارُ الشىء باليد، والتحسسُ من الـحِسِّ وهو الإدراك بإحدى الحواسِّ الخمس، والمرادُ البحث عن عيوب الناس وتتبعها وهو منهِىٌّ عنه، وتقول: جَسَّ الخَبَرَ وتجسَّسَه: بحث عنه وفحص، وتقول: تحسَّس الخبر، تطلَّب معرفتَه، وتحسَّس من القوم: تتبع أخبارهم.

والضابطُ فى ذلك كلِّه أنَّ كلَّ مايشغَلُ العبدَ عن الله فهو فتنةٌ له.

وإنِ المرأةَ كالرجلِ فى كلِّ ذلك فهى مخاطَبَةٌ ومكلَّفَةٌ كالرجل ، ولكنْ جاء تخصيصُ الرجلِ بالذكر لأنه فى الغالب صاحبُ الحُكم فى داره وأهله.

وقد أشار الحديثُ إلى أن تكفيرَ هذه الأمورِ يكونُ بالصلاة والصيامِ والصدقةِ ، وقد خَصَّ هذه الثلاثةَ بالذكر من بين الطاعات والقرباتِ بالإشارةِ إلى عظيم فضلِها ، وعلوِّ قدْرِها ، وليس المقصودُ نفىَ أن غيرها يكفِّر الصغائر ـ أيضًا ـ.

الفتنة العامة:

وبعد السؤالِ الأولِ وجوابِه قال عمر رضى اللهُ عنه: «ولكن أيُّكم سَمِعِ من رسول اللهﷺ يذكرُ الفتنَ التى تموج كموْج البحر».

وتأمَّل هذهِ الصورةَ وما تدلُّ عليه من عُنْفٍ وشدةٍ واضطرابٍ فإِنَّ نسبةَ «التى تموجُ» إلى «الفتَن» شىءٌ غيرُ مألوف فى واقع الناسِ ولكنها مع ذلك تمثِّلُ الإحساسَ بِعُنف الفتنِ وقوتِها أبلغَ تمثيل ، إِذْ تجعلُنا نتصورُها فى صورةٍ ماديَّةٍ تضطربُ وتتحركُ وتتدافعُ بقوةٍ وعنف. ففى قوله «الفتنُ التى تموجُ» استعارةٌ مكنيَّةٌ ، وقد كُسِيت «الفتنُ»وهى أمرٌ معنوىٌّ بأمرٍ حِسِّيٍّ وهو الموجُ الذى استُعير من البحْر للفتن ، فكأنها بحرٌ قائمٌ بذاته ثم زادنا إحساسًا بِعُنفها وشدتِها فَشَبَّه مَوْجَهَا بموْج البحرِ «الفتنُ التى تموجُ كموجِ البحر» أى: تضطربُ اضطرابَ البحر عند هيجانه ، وهذا التصويرُ يجعلنا أكثرَ تصورًّا لشدةِ المخاصمةِ ، وكثرةِ المنازَعَة ، وما ينشأُ عن ذلك من المشاتمةِ والمقاتلةِ والحيرةِ والبلبلةِ ، وهو يقصِدُ بذلك الفتَنَ

العامَّةَ الهادِمةَ التى تُزَلزِلُ كيانَ المسلمين ، وتذهبُ بريحهم ، وتُطْمِعُ فيهم أعداءَهم.

وقد رأينا أنَّ المسلمين مايكادون يُفيقُون من فتنة من هذه الفتنِ العامَّةِ حتى تأخذَهم الأُخرى فتحطمَهم حَطْمَ الهشيم.

ولـمَّا شجَّع عمرُ حذيفةَ على روايةِ ماعنده عن الفتن العامةِ قال حذيفة: «سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: تُعْرَضُ الفِتَنُ على القلوب كالحصيرِ عُودًا عُودًا».

وعُودًا عُودًا: بضمِّ العَيْن تُعَيِّنُ تَشبيهَ عَرْضِ الفتنِ على القلوب بعرْضِ أعوادِ الحصيرِ ، وهو النسيجُ المعروفُ على ناسِجه واحدًا بعد واحدٍ وفى هذا تصويرٌ رائعٌ لعمَلِ شياطينِ الإنسِ والجِنِّ القائمين بعرْضِ الفتنِ وتوجيهِ الدعوةِ إليها ، ليخوضَ الناسُ فيما خاض فيه أربابُ الفتن وليكونوا جنودًا مُسخَّرين لخدمة أهوائِهم ، وتمزيقِ فكْرِ الأمة وتبديدِ شملها.

فقد شبَّه الرسولُ ﷺ المدعوين إلى الفتن وهى تُعْرَضُ عليهم فتنةً بعد فتنة بناسج الحصيرِ إذْ تُعْرَضُ عليه أعوادُها متكررةً عُودًا بعد عُود ، ولا شكَّ أن الحصير بعد إحكامِ نسْجِها وإتمامِ خيوطِها تصيرُ سِترًا للمكان الذى تُفرَش فيه ، وتُغطِّى على ماتحتها ، كذلك الفِتَنُ إذا تعاقبتْ وحُبِكَت خيوطُها ، وسيطرت على النفوس أفكارُها صارت نسيجًا من الظلمات على القلوب يَختِمُ عليها ، ويُغطِّيها فلا ترى الحق ، ولا تُنكرُ الباطل ، ولا تتطلعُ هذه القلوبُ إلى أنوار المعروف والخير ، فتبقى فى ضلالها واضطرابِها وحيرتها.

تحذير:

وفى هذا تحذير من الانزلاق فى مهواةِ الفتنة إذْ الخطوةُ الأولى تتلوها خطواتٌ حتى يَهوِىَ المفتونُ ويغرقَ فيها ، وأهلُ الفطنةِ لايلتفتون إلى الدعاة إليها لأول وَهْلة ، ولا ينساقون على أى وجْه ، بل يربَأُون بأنفسهم ويصونون عقولَهم وقلوبَهم عن التلوث بقذرها.

وفى الرواية الأخرى: عَودًا عَودًا - بفتْح العَين - يَحتمل أن يُرادَ التشبيهُ بالحصير المنسوجِ أيضًا ويكونُ معنى التشبيه حينئذ: أن تلك الفِتنَ تُعْرَضُ على القلوبِ متواليةً متعاقبةً مرةً بعد مرةٍ ، كما يتكرَّر على ناسج الحصيرِ أعوادُه كرَّةً بعد كرَّة.

أو يكون المرادُ الوصفَ بمعنى الحاصِرِ كالسِّجْنِ ونحوه ، ويكون معنى التشبيه: أن تلك الفتنَ لاتزالُ تتواترُ الفَيْنَةَ بعد الفينةِ حتى تكونَ حاصرةً للقلوب ومحيطةً بها إحاطةَ السجن بِمَن فيه ، فتمنعَ المرءَ من حرية التفكير ، وتحولَ بينه وبين صوابِ الرأى ، وتحرمَه من نور التبصُّرِ والرشاد كما يمنع السجنُ مَن فيه من الخروج.

وهذا أدقُّ تصويرٍ لعمل الفتنةِ فى النفوس ، فمَن انزلق إليها قلَّ أن يجدَ خلاصًا ، وربما عاش حائرًا مضطربًا فى مخاوفَ ومحاذرَ يتمنَّى الخلاصَ منها ويندمُ على إقباله عليها.

موقف الناس من عرض الفتنة:

ثم زاد الحديثُ بيانَ حالِ القلوب بعد عرْض الفتنِ عليها بقوله:

«فأىُّ قَلْبٍ أُشْرِبَها نُكِتَ فيه نُكتةٌ سَوْداءُ ، وأىُّ قَلْب أنكَرها نُكِتَ فيه نكتةٌ بيضاء».

وهذا تصويرٌ دقيقٌ لموقف الناسِ من الفتن:

* فمنهم ضعافُ القلوب مرضَى النفوس بالشهوات إذا بدرت لهم الفتنُ ظنُّوا أن سعادتَهم فيها فأقحموا أنفسَهم ، وتشرَّبوا مبادئَها وأفكارَها مبدأً بعد مبدأ وفكرةً بعد فكرة ، حتى يصيرَ القلبُ والفكرُ كالمحبوس ، ويَعْمَى عن الرؤية التى تبصِّرُ المرءَ بأسباب السعادةِ الصحيحة ، وكأن الفتنةَ شرابٌ يُسقاه المرءُ جَرْعةً بعد جرعةٍ حتى يُظْلِمَ القلب.

* أمَّا أصحابُ القلوبِ المطمئنةِ والنفوسِ القويةِ الإيمانِ التى هذَّبتها الطاعةُ فإنّ عرْضَ الفتنِ لايَزيدُها إلا تثبيتًا على صراط الدينِ الحقِّ وتمحيصًا ، ولذا تراهم يشتدُّ إنكارُهم للفتنة وبُعْدُهم عن ميدانها وعن الدعاة إليها ، ومن أثرِ التمحيصِ والابتلاءِ ومجاهدةِ النفس يخرجُ قلبُ المؤمنِ وكأنه نُكِتَ فيه نكتةٌ بيضاء من نور الإيمان يتألقُ ضياؤُها ويزدادُ صاحبُها للحق استبصارًا.

وهذا التمثيلُ يدلُّ على أن تمحيص المؤمنِ يزيدُه وضوحًا ، ويجعلُه أكثرَ تمييزًا بين الحقِّ والباطلِ ، فيعيشُ بنور إيمانه على هداية وبصيرة سراجُه فى قلبه، ودليلُه هدايةُ دينِه.

والكلام متصل فى ظلال الحديثِ الشريف. .

❄ ❄ ❄

٢٠٨ - ج - النَّاسُ إزاءَ الفِتَنِ فَرِيقَان
(تتمَّة شرح الحديث)

بيَّن رسولُ اللهِ ﷺ حالَ القلوب بعد عرض الفتن عليها بقوله فى الحديث الذى رواه حذيفة بنُ اليمان: « فَأَىُّ قَلْبٍ أُشْرِبَها نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ ، وأَىُّ قَلْبٍ أنكرَها نُكِتَ فِيه نُكْتَةٌ بَيضَاء».

وتأمَّل العبارةَ وما فيها من مقابلةٍ بين الحالين وتضادٌ بين الفريقين: فتلك قلوبٌ ضعيفةٌ مرائيةٌ إذا زَيَّن لَها شياطينُ الإنسِ ، أو الجنِّ الفتنَ وعرضوا عليها الشبهاتِ ، خاضتْ مع الخائضين ، وانزلقت مع أربابِ الشكوك والشهواتِ والأهواءِ، راغبةً فى العاجلة، غيرَ ناظرةٍ إلى العاقبة وأقبلت على الفِتَن إقبالَ الظامئ على الماء ، فحلَّت فيها مَحِلَّ الشرابِ فأظلمت ، وهذه الظلمةُ هى المُعَبَّر عنها بالنُّكتة السوداء فيها.

وفى مقابلِ هذه الفئةِ هناك القلوبُ المطمئنةُ بالإيمان الراضيةُ القانعةُ التى رضِيَتْ بالله ربًّا وبالإسلام دينًا ، وبمحمد نبيًّا ورسولًا ، وبالقرآن إمامًا وهاديًا ، هذه القلوبُ لايَزِيدُها ظهورُ الفتنِ وعرْضُها عليها إلا تَمَسُّكًا بهداية السماء ، وثباتًا على الصراط المستقيم ، ولذا فهى تُنكِرُ الفِتَن وتأباها وتردُّها ولا تقبلُها ، فتزدادُ بذلك يقينًا ، ونورًا ، ويخرجُ القلبُ من هذه المحنِ وقد امتلأ بنور الإيمان ، هذا النورُ الذى يزدادُ بازدياد الأدلَّةِ والمداومةِ على الطاعة ، وقد عُبِّرَ عنه فى الحديث بالنكتة البيضاء.

إنَّ هذه المقابلةَ تزيدُ المعنى وضوحًا ، وتجعلُه أكثَر تأثيرًا فى النفس، وتدعو إلى التأمُّل فى حال الفريقين ليختارَ ذوو البصائر الانضواءَ تحت لواءِ

أرشَدِهما فَيسْلَموا من الفتن وشُرورِها وعقابيلها[1].

تصوير رائع:

ثم زاد الرسولُ ﷺ هذا المعنى إيضاحًا وبيانًا وتأكيدًا فقال عن هذه القلوب: «حتى تصيرَ على قَلْبين على أبيضَ مثل الصَّفا فلا تضرهُ فتنةٌ مادامت السمواتُ و الأرضُ ، والآخرُ أسودُ مُرْبَادًّا كالكُوزِ مَجْخِيًّا لا يعرِفُ معروفًا ولا يُنكِرُ منكَرًا إلا ماأُشْرِبَ من هَواه».

وهذا يمثِّلُ حالَ الناسِ أصدقَ تمثيلٍ وأدقَّه ،إذ الناسُ مختلفون فى الإيمان قوةً وضعفًا ، وفيهم المخلصُ فى إيمانه ، الصادقُ فى يقينه وعمله وفيهم المرائى فى إيمانه وعملِه ، أو فى واحدٍ منهما ، وقد تباينت أحوالُ القلوب ، واختلفت المشارب.

وإنَّ الفتنَ التى يُمْتحَنُ بها الناسُ تكشِفُ عمَّا تنطوي عليه القلوبُ من خيرٍ أو شرٍّ ، ومن صدْقٍ وكذب: فالمؤمنون الصادقون مَثَلُهم مَثَلُ الذهب إذا صُهِرَ فى النار خرَجَ نقيًّا خاليًا من الشوائب ، وكذلك أهلُ الإيمان يخرجون من الفِتن والبلايا أكثَرَ نقاءً وصفاءً واستبصارًا ، والتمثيلُ لقلوبهم بالصفا لملاسته ، فهي لا تؤثِّرُ فيها الفتنُ كما لايتأثَّر الصَّفا الأملسُ والحجرُ الصلْدُ فلا يَنبُتُ عليه زرعٌ ولا يَستقِرُّ فيه جِذْر ، وهذا تصويرٌ دقيقٌ لردِّ هذه القلوبِ للفتن ودفْعِها وعدمِ قبولها.

وأمَّا مرضى القلوبِ وضعافُ النفوسِ فإن الفتنَ تُفسِدُ قلوبَهم ، وتدفعُ بهم فى طريق الغواية ، وظلمات الحيرة ، وتكشِفُ عن زَيْغهم، وضلالِهم فهذه القلوبُ مائلةٌ عن الحقِّ ، مُعرِضَةٌ عن الهُدى والاستقامة ، وأحسنُ مثَلٍ لهذه القلوبِ ماجاء فى الحديث الشريف: «كالكُوز مَجْخيًّا ».

---

(١) العقابيل: الشدائد.

وتأمَّل هذه القلوبَ التى انحرفتْ عن مقتضَى الفطرة السليمة واستجابت للشبهات والشكوكِ وانغمستْ فى الفتن ، تأمَّلْهَا وقد صُوِّرت بهيئة الكُوزِ المقلوبِ ، وهو فى هذه الحالةِ لانفْع منه لأنَّ الكوزَ إذا استقام وامتلأَ بالماء العَذْبِ الزُّلالِ كان فيه حياةٌ ومنفعةٌ ، وإذا جُخِّيَ ونُكِّس ذهَب نفعُه ، وضاعت فائدتُه ، وكذلكَ القلبُ المنكوسُ لاخيرَ فيه ولا نورَ له ، وصاحبُه يعيشُ فى ظلام الحيرة.

إنه تشبيهٌ مأخوذٌ من البيئة يجعلُ الأمورَ المعنويةَ كأنها ماثلةٌ أمام الحِسِّ مِمَّا يجعلُ المرادَ أكثرَ وضوحًا وأقوى تأثيرًا فى النفس ، وإقناعًا للعقل.

ونعودُ إلى الحديث الشريفِ لنتأمَّلَ مرةً أخرىٰ الصورَ المتتابعة والأمثالَ التى قَرَّبت لنا المعانِيَ ووضَّحتها.

* تأمَّل عَرْضَ الفِتَنِ على القلوب كالحصير عُودًا عُودًا أى مرَّةً بعد مرَّة.
* تأمَّل القلوبَ الضعيفةَ وقد أُشرِبت هذه الفتنَ كما يَشْربُ الإنسانُ الماء.
* تأمَّل الأثرَ المعنوىَّ فى النفوس والقلوبِ المريضةِ كأنه نُكَتٌ سَوْداءُ تتوالى نكتةً بعد نُكتةٍ حتى يطمسَ القلبُ ـ والعياذ بالله ـ.
* وانظُر إلى القلوب الصافيةِ المؤمنةِ التى أنكرت البدعَ والفتنَ وصارت مهديَّةً بأوامرِ الدينِ الحقِّ وكأنها قد نُكِت فيها نُكتةٌ بيضاءُ بعد نُكتة حتى صارت مُنيرَةً بنور الحق.
* وتصوَّر القلبَ مِثْلَ الصَّفا وهو الصخْرُ الأملسُ لايثبتُ عليه زرعٌ ولا غيرُه ، وهو تمثيلٌ لقلبِ المؤمنِ الذى يَرُدُّ الفتنةَ ولا يقبلُها ولا تجِدُ لنفسها فيه موضعًا تستقرُّ فيه.
* أما القلبُ المنكوسُ المخذولُ وقد صار مصْدرًا للشَّرِّ ، ولا خيرَ فيه فهو كالكوز المركُون وهو مقلوبٌ لايُنتفَع به ، وهذا القلبُ يرى

المنْكَرَ ولا يُنكِرُه ، ويرى المعروفَ، ولا يُقْبِلُ عليه ، وتسيِّرُه شهواتُه ويقودُه هواه المريضُ إلى هلاكه وضياعه «كالكُوز مَجْخيًّا لايَعرِفُ معروفًا ولا ينكرُ مُنكرًا إلا ماأُشرِبَ من هواه».

وتأمَّل تصويرَ الهَوى بماءٍ يُشرَب ، وما فيه من خيالٍ بديعٍ وما له من إيحاء بعدم تفرقةِ أربابِ الهوى بين الحقِّ والباطل ، بل قد يرون الباطلَ أمرًا مُستساغًا مرغوبًا لسوء اختيارهم.

عودٌ إلى كلام حذيفة عن وقوع الفتن:

وإلى هنا انتهى مايتعلق بكلامِ الحبيب المصطفىﷺ عن الفتن فى هذا الحديث ، ثم نعود إلى كلام حذيفةَ رضى الله عنه قال: «وحدَّثتُه أن بينك وبينها بابًا مغلَقًا يوشكُ أن يُكسَرَ ، قال عمر: أكسْرًا لاأبَالك ، فلو أنه فُتِح لعلَّهُ أن كان يُعاد ، قلت: بل يُكْسَرُ».

ومعنى هذا أن شيئًا من الفتن لايخرجُ فى عهد عمرَ بنِ الخطاب رضى الله عنه ، فقد قال لعمر: «حدثتُه أن بينك وبينها بابًا مغلَقًا يوشكُ أن يكسَر» وفى هذا تمثيلٌ رائع أى: لايخرج شئٌ من الفتن فى حياتك ياعمر وكأنَّ بابًا موصدًا أمامها فى عهده ، ولكن قَرُبَ أن يُكسَرَ أى بعده وتندلعَ الفتنُ عارمةً.

ولذا كان جوابُ عمرَ فيه تعجُّبٌ ودهشةٌ عن طريق الاستفهام فقال: أكسرًا لا أبَالكَ؟ ، لأن الكسرَ يُوحى بتشعُّبِ الأمرِ وتشتُّته وسوئه غاية السوء ، ولذا قال: فلو أنه فُتِح - أى ولم يُكسر «لعله كان يُعاد» - أى يُغلَقُ مرةً أخرى وفى زمنٍ يسير ، فأكَّد حديفةُ وأباحَ بشئٍ من الأسرار التى حَمَلها فى قلبه : قلتُ: بل يُكْسَر ، ثم بيَّن حذيفةُ الأمر بشئٍ من الإيضاح اليسير فقال: « إن ذلك البابَ رجلٌ يُقْتَلُ أو يموتُ» وقد كان

ذلكَ مِمَّا وعاه التاريخُ بعد عمرَ بنِ الخطاب رضى الله عنه ، فقد لقى ربَّه شهيدًا ، ثم لَقِى عثمانُ بنُ عفانَ ربَّه شهيدًا.

وقد جاءت الإشارة إلى ذلك فى إخبار النبىِّ ﷺ بهذا الشأنِ ، وهو من معجزاته عليه الصلاة وأبهَى السلام ، فإنه كان جالسًا يومًا على جبلٍ ومعهُ أبو بكرٍ وعمر وعثمانُ رضى الله عنهم ، فتحرَّك الجبلُ ، فخاطَبه بقوله: «اثبُتْ فإنما عليك نبىٌّ وصدِّيقٌ وشهيدان» والشهيدان هما عمرُ وعثمانُ رضى الله عنهما.

إن المتأملَ فى هذا الحديثِ الشريفِ يخرجُ بفوائدَ جمةٍ منها:

الحثُّ على طلَب العِلم ، والسؤالِ عن الحقِّ ، وتمييزِ الخير من الشرِّ إلى جانب الحثِّ على صالح العملِ مع الإخلاص فإنه يزيدُ صاحبَه إيمانًا كما أن العملَ المشوبَ بالنفاق والرياءِ يُضعِفُ صاحبَه عند الامتحان والابتلاء.

وفى الحديث التحذيرُ من اتباع شياطينِ الإنسِ ، والحثُّ على اتباع صالح المؤمنين خصوصًا عند فسادِ الزمانِ وظهورِ الفتن.

وقانا ربُّ العبادِ من شرور الفتنِ ماظهَرَ منها وما بطَن ، ونسأله سبحانه أن يَقبضَنا إليه غيرَ مفتونين ولا مخذولين وأن يُحيينا على اليقين الصادق ، ويثبِّتَ أقدامَنا على صراطه المستقيمِ فى الدنيا والآخرة. إنه نعم المولى ونعم المُعين.

❊ ❊ ❊

٢٠٩ - لَفْتَةٌ أَدبيةٌ فى مواقعِ التمثيل وتأثيرِه النفسىِّ

من الأمثال السائرةِ ذات المَغْزى التهذيبىِّ قولُ العرب:

مَن يزرعِ الشوكَ لا يَحْصَدْ به العنَبا.

هذا لفظُه فى مَجمع الأمثال للمَيدانى ـ الجزء الثالث ـ .

أى: مَن أساءَ إلى إنسان فَلْيتوقَّع مثلَه، ويُضْرب: لِمَن يُسِيءُ ثم يَرتقِب الإحسانَ أو: لمن يُقدِّم الشرَّ وينتظرُ فى الجزاء عليه خيْرًا.

ففيه استعارةٌ تمثيليةٌ، لأن الكلامَ استُعملَ فى غير ماوُضِع له لعَلاقَة المُشَابَهةِ بين: مَن يُقدِّم السيِّئةَ وينتظرُ أن يُجْزَى عليها حسَنة، ومَن يزرعُ الشوكَ ويظنُّ أنه يَجنِى العنبَ.

وثمةَ صورةٌ جميلةٌ فى قوله: «لايَحصد به العنبا» لأنه لايقال: حصدتُ العنبَ، وإنما يقال: قَطفتُه، ولكنه وَضَعَ الحَصْدَ بإزاء الزرعِ واستُعير (لايحصد لقولنا: لايَقطف).

ومعنى قولِه: لايَحصُدُ به، أى لايأخذ ببَدلِه أو: لايحصد بِزَرعِه. أى: لايحصد العنبَ بزرعه الشوكَ.

وقد استشهد عبدُ القادر الجرجانىُّ فى كتابه أسرار البلاغة بهذا المثَل فى بيان الفرق بين تأثير الكلامِ فى التمثيل وعدمِه قال: وكذا فَوازِن بين قولك للرجل وأنت تَعظه: «إنك لاتُجزَى علَى السيئة حَسنةً فلا تغُرَّ نفسَك» وتُمْسك، وبين أن تقولَ فى أثره: «إنك لاتَجنِى من الشوك العنبَ، وإنما تحصدُ ماتزرع» وأشباهَ ذلك.

وخلاصةُ قوله فى بيان أسبابِ قوةِ تأثيرِ التمثيل وعلَله النفسية:

أنَّ استخدامَ التمثيلِ يقتضى أن يَفخُم المعنى، وينَبُلَ، ويَشْرُفَ ويكمُل، ذلك:

* أنَّ أُنس النفوسِ موقوفٌ على أن تُخرِجَها من خَفِىٍّ إلى جَلىٍّ

وتأتيها بصريحٍ بعد مكْنىٍّ.

* وأنْ تَرِدَّها فى الشئ تُعْلِمُها إياه إلى شئٍ آخرَ هى بشأنه أعلمُ وثقتُها به فى المعرفة أحكمُ ، نحو: أن تَنقُلَها من العقل إلى الإحساس ، وعَمَّا يُعلمُ بالفكر إلى مايُعلم بالاضطرار والطبْع.

لأن العلم المستفادَ من طُرق الحواسِّ أو المركوزَ فيها من جهة الطبعِ وعلى حدِّ الضرورة يفضُل المستفادَ من جهة النظرِ والفكرِ فى القوة والاستحكامِ[1]، وبلوغِ الثقةِ فيه غايةَ التمام ، كما قالوا: «ليس الخبرُ كالمعاينة ولا الظنُّ كاليقين» فلهذا يحصُلُ بهذا العلمِ - أى الحسىِّ أو الضرورى - هذا الأنسُ - أى: إذا جئنا به بعد العقلى - أَعنى الأنسَ من جهة الاستحكام والقوة.

وضَرْبٌ آخرُ من الأُنس وهو ما يُوجِبُه تقدُّمُ الإلْفِ ، كما قيل: ما الحبُّ إلا للحبيب الأول.

ومعلومٌ أنَّ العلمَ الأولَ أَتى النفسَ من طريق الحواسِّ والطباعِ ثم من جهة النظرِ والرويَّةِ ، فهو إذن أمسُّ بها رَحِمًا ، وأقوى لديها ذِمَمًا (أى عهدًا) ، وأقدمُ لها صُحبةً ، وآكَدُ عندها حُرمة[2] ، وإذا نقلتَ النفسَ فى الشىء تُمثِّله[3] عن الـمُدرَك بالعقل المحْضِ ، وبالفكرة فى القلْب إلى ما يُدْرَكُ بالحواس ، أو يُعْلَمُ بالطبع ، وعلى حَدِّ الضرورة ، فأنت

(١) أى: من حيث زيادةُ وضوحه، وتَمكُّنه من النفس ، وتأثيره فيها.

(٢) أى: إن المعرفة بدأت بالمدركات بالحواس ثم بما يدرك بالعقل والفكر والنظر ، وما يتأتى عن طريق الانفعال والشعور تجاه الكون والحياة ، فإذا مثلت الأمور العقلية والفكرية المجردة ، وجسّمت ما يتأتى عن طريق الشعور والإحساس بصور تدرك بالحس الظاهر، أو بما علم بالضرورة والطبع ازدادت وضوحا وتأثيرا ، وارتاحت النفس لتلقيها لأنك خاطبتها عن المجهول بما هو معلوم لديها وبالغائب بما هو حاضر عندها، وجعلت المعنى القائم بالنفس أو العقل كأنه ظاهر للعيان أو ملموس بالحواس مع ما فى ذلك من الطرافة والجدة والجمال - وهذا تجد تفسيره فى نفس الفقرة - .

(٣) تمثله : أى تضرب لها مثلا.

كمَن يتوسَّلُ إليها للغريب بالحميم ، وللجديد الصحبةِ بالحبيب القديم».

إن تقريبَ المعنى وتصويرَه عن طريق التمثيلِ أشبهُ بمن يُخبِرُ عن شىءٍ من وراء حِجاب ، ثم يكشفُ الـمُخْبِرُ عنه الحجابَ ويرفَعُ الستارَ ويقول: ها هو ذا فأبْصِره تَجِدْه على ما وصفتُ.

وفى بيان تأثيرِ التمثيلِ فى النفس قَدَّم الجرجانى أمثلةً متنوعة ، وترك للقارئ النظرَ والتذوقَ بالمقارنة بين الحقيقة المجرَّدةِ والصورةِ المعبِّرةِ عنها ومن ذلك قوله:

تَعهَّد الفرقَ بين أن تقول: فلان يَكدُّ نفسَه فى قراءة الكتب ولا يفهمُ منها شيئًا ، وتسكت ، وبين أن تتلوَ قولَه تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذينَ حُمِّلُوا التَّوْراةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوها كَمَثَلِ الْحمارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥]

أو تُنشد قولَ مروانَ بنِ سليمانَ يهجو قومًا من رواة الشعر:

زواملُ للأَشْعارِ لا عِلْمَ عِندهم ... بِجَيِّدها إلَّا كعِلـم الأباعـرِ
لَعَمْرُكَ مايَدْرِى البعيرُ إذا غَـدا ... بِأَوْسَاقه أو راحَ مافى الغَرائِرِ

والزواملُ: جمعُ زاملةٍ وهى مايُحْمَلُ عليها من الإبل وغيرها.

والأباعرُ: جمعُ بعير ، والأَوساقُ جمعُ وسَق وهى الأحمال.

شَبَّههم فى روايتهم للشعر وَحملِهم إياه لنقْله إلى الناس بالإبل تحملُ دواوينَ الشعر ولا تَدرى مافيها ، وقد جسَّم التمثيلُ المعنى ، وجعل الهجاءَ لاذعًا مُرًّا.

وتأمل الفرقَ بين أن تقول: «أرى قومًا لهم بهاءٌ ومنظرٌ ، وليس هناك مَخْبَرٌ ، بل فى الأخلاق دِقَّةٌ ، وفى الكَرم ضعفٌ وقِلَّة» وتقطعَ الكلامَ وبين أن تُتْبِعَهُ بالمَثَل الحكيم «أمَّا البَيْتُ فحَسَنٌ وأمَّا الساكنُ فَرَدِىء».

وبقول ابنِ لنكك:

في شجرِ السَّروِ منهم مَثَل له رُواءٌ وما لــه ثَمرٌ

وقولِ ابنِ الرومى:

فغدا كالخِلافِ يُورِقُ للعَيـــ ـــن ويأبَى الإِثمارَ كلَّ الإِبـاء

وقولِ الآخر:

فإِنْ طُرَّةٌ راقتْك فانظرْ فربَّما أَمَرَّ مَذَاقُ العُودِ والعودُ أخْضر

والطُرَّةُ: هى القُصَّةُ أى الشعرُ المُصفَّفُ على الجبهة ، والمقصودُ جمالُ الوجْه من إطلاق الجزءِ وهو الجبهةُ على الكُل ، وأَمَرَّ: أى صار مُرًّا.

وانظُر إلى الأمثال التى أوردتُها ، وتأملْ تأثيرَها فى النفس ، وتقويتَها للمعنى المقصود ، وتنبيهَ الإنسانِ إلى عدم الاغترارِ بالظاهر قبل الخِبرَةِ والتجربةِ ونحوِ ذلك مما تذهبُ فيه النفسُ كلَّ مَذْهب ، طَرِبةً بما نالت ومسرورةً بما رأت من الصورة المُجَسِّمَةِ للمعانى ، بما هو قريبٌ منها مألوفٌ لديها ، معلومٌ لها من قبل.

وتأمل المعنى الغريبَ: كيف يصيرُ مأنوسًا بالتمثيل وهل تتصورُ أن يكونَ للحسود فضلٌ على المحسودِ؟ إِن أبا تمامٍ رأى ذلك ، ومَثَّل له بما يُمتِعُك ويُقْنِعُك. . واسمعه يقول:

وإِذا أراد اللهُ نَشْرَ فضيلةٍ طُويت أتاحَ لها لسانَ حسودِ

إنها قضيةٌ غريبةٌ إذ يُرينا الحسودَ يُذيعُ فضلَ المحسود ، وينشرُ ماخفِى من أسباب سُؤْدَدِه ، ولذلك بادر الشاعرُ إلى دعْم صحة هذه القضيةِ بإقامة البُرهانِ عليها عن طريق التمثيل فقال:

لولا اشتعالُ النارِ فيما جاورتْ ماكان يُعرَفُ طِيبُ عَرْفِ العُود

فالنارُ إذا امتدت إلى العود فاح ريحُه الطيبُ ، ولفَت إلى مكانه وعرَف الناسُ قَدْرَه. وعَرْفُ العودِ: هو رائحتُه.

لقد استكمل المعنى الذى أراده فضلَه فى النفس ونُبلَه بالتمثيل والتصوير ووجْهُ الشبَهِ: تَرتُّبُ الخيرِ على الشرِّ ، وهو تشبيهٌ ضمنىٌّ قام فيه البيتُ الثانى مَقامَ الدليل على أن المشبَّه أمرٌ ممكن.

فى مجال الوعظ:

وفى مجال الوعظ تُؤتى الأمثالُ أُكُلَها ، وتجعلُ المعنى أكثرَ تأثيرًا ، وتنفذُ بالعظة إلى القلوب فتحركُها ، إذا أحْسَنَ الواعظُ استخدامَ التمثيلِ فى موضعه.

وأنت حين تقول: «إن الذى يَعِظُ الناسَ ولا يتعظُ يضرُّ بنفسه من حيث ينفع غيرَه» وتقتصر على هذا ، لاتجدُ له من التأثير مالو حدثتَ الناس بالقول المأثور: «مَثَلُ الذى يُعلِّم الناسَ الخيرَ ولا يعملُ مَثَلُ السِّراجِ الذى يُضىءُ للناس ويَحرِقُ نفسَه» ، أو «مثلُ الفَتيلةِ تُضىءُ للناس وتحرِقُ نفسَها» [بهذا اللفظ رواه الطبرانى فى معجمه الكبير عن أبى برزة بسند حسن]

وقابِل بين أن تقول: الدنيا لاتدوم ، ولا تبقى ، وبين أن تقول: الدنيا ظِلٌّ زائل ، وعاريَّةٌ مُستردَّةٌ ، ووديعةٌ تُسترْجَع».

وتذكر الحديث: «مَن فى الدنيا ضيفٌ ، وما فى يديه عاريَّةٌ، والضيفُ مُرتَحِل. والعاريَّةُ مُؤدَّاة» [موقوف على ابن مسعود]

ثم تُنشِد فى العظة قول لبيد:

وما المالُ والأهلون إلا ودائعُ ولا بدَّ يومًا أن تُرَدَّ الودائع

وقول الآخر:

إنما نعمـةُ قوم مُتْعةٌ وحياةُ المـرءِ ثوبٌ مُستَعار

فهذه جملةٌ من القول تُبين صُنْعَ التمثيلِ فى إبراز المعنى فى صُورِ أخَّاذة ، قويةِ التأثير ، وتجعلُه أكثرَ وضوحًا ،إذ نقلتْنا من المجهول إلى المعلوم ، ومن الغريب إلى المألوف ، ومن البعيد إلى القريب ، ومن الذى يُدرَك بالعقل إلى مايُدرك بالحسِّ الظاهر.

(١٣٦٩)

ومما قاله السيدُ محمد رشيد رضا فى حاشية أسرار البلاغةِ شرحًا لكلامِ الجرجانى فى مواقع التمثيلِ وتأثيره فيما يتصل بالوعظ (*):

إنَّ للتمثيل مظهرين ، ويتجلى للأنظار فى ثوبين: أحدُهما: أن يجىءَ المعنى ابتداء فى صورة التمثيلِ وهو النادرُ القليل ، ولكنه على قلّته فى كلام البلغاء كثيرٌ فى القرآن العزيزِ ، فمنه قولُه تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذى اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ الآيات من سورة البقرة إلى قوله تعالى : ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ [الآيات: ١٧-٢٠]

وقوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ أَوْلِياءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ . . . الآية. . . [العنكبوت: ٤١]

وغير ذلك من الآيات.

وثانيهما: مايتأثَّر المعانىَ ، ويجىءُ فى أعقابها لإيضاحها وتقريرها فى النفوس وإيداعِها التأثيرَ المخصوصَ ، ومثالُه فى القرآن :

﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَّجُلًا فيه شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩]

(*) أحب أن أشير هنا إلى أن اجتماعَ طلاب العلْم على معلم بعد أوقات الدراسة اليومية لقراءة كتاب (وتفهمه والتعليق عليه) «أسرار البلاغة فى علم البيان» للإمام عبد القاهر الجرجانى، وكتابه «دلائل الإعجاز» أمر مفيد للغاية: وكان هذا دأب بعض أساتذة الأزهر ومعلميه مع مَن يحب من الطلاب، وقد فعل ذلك الشيخ محمد عبده رحمه الله فى الجامع الأزهر، فقد قرأ «أسرار البلاغة» فى دروسه، وله تعليقات أشار إليها السيد محب الدين الخطيب، وفعل ذلك فضيلة شيخنا «الشيخ عبد اللطيف الكريونى» مع عدد من الطلاب فى حديقة المعهد الدينى بشبين الكوم والمؤلف فى القسم الثانوى فى إحدى السنوات من العقد الخامس من القرن العشرين الميلادى، وأذكر هذه التجارب لعلها تجد قلوبا واعية فى مثل هذا الاتجاه النافع بإذن الله، بل يمكن أن يجتمع لهذه الدراسات المفيدة عدد من المعيدين والمدرسين فى الكليات المعنية مع الإفادة من كتب الإعجاز والبيان والمعانى التى ظهرت بعد ذلك، إحياءً للقوة وتدريبًا للعقل، وتمرسا بالأصالة، وإثراءً للقوة البشرية المبنية على أسس قوية.

فقد جاء هذا المَثَلُ بعدما قرَّر سياقُ السورة أمرَ التوحيد ، وشنَّع على الذين اتخذوا من دون اللهِ أولياءَ يقرِّبونَهم إليه زُلفى ، ونَصَبَ الدلائلَ على نَفْى الشرك ، وذَكَر الجزاء.

والأَمثلةُ كثيرة ، فى المدح ، والهجاء ، والحجَاجِ ، والفخْر ، والاعتذار، والوصف ، والشكوى ، وغير ذلك من فنون الكلام ، والتمثيلُ فى كل هذا يُكسِبُ الكلام قوةً وجمالًا وتأثيرًا مِمَّا لايكونُ بدونه ، ونَسترشد فى ذلك بما أورده الجرجانى عن أثر التمثيلِ فى مجال النصيحة يقول: وإن كان وعْظًا كان أشفى للصدر ، وأدعى إلى الفِكر ، وأبلغَ فى التنبيه والزجْرِ ، وأجدرَ بأن يُجلِىَ الغَيَايَةَ (السحابة ونحوها) ، ويبصرَ الغايةَ ويُبرِئَ العليل ، ويَشفِىَ الغَليل.

مثال ذلك من القرآن الكريم قولُه تعالى من سورة الأحزاب: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الآية: ٧٢]

وغير ذلك من الآيات التى ترغِّبُ فى الخير ، وتُنفِّرُ من الشر.

ومن الأمثال فى الحديث: «حُفَّت الجنةُ بالمكاره وحُفَّت النارُ بالشهوات».

ومن الشعر:

وغيرُ تَقىٍّ يأمُرُ الناسَ بالتُّقَى طبيبٌ يُداوى والطبيبُ مَرِيض

فتأمل إذا استعان المتحدثُ والخطيبُ والمعلمُ والمربى والواعظُ بالأمثالِ وكيف يصلُ بها إلى الغاية من أقرب طريقٍ بالإقناعِ والإمتاع ، والإفهامِ، والتأثيرِ ، والإيضاح والتأكيدِ.

تلك لفتةٌ فى هذا الجانب، وإشارةٌ فى هذا الميدان، تُنبِّهُ اللبيبَ إلى ماللتمثيل من تأثيرٍ فى النفس، وما للأمثال من قدرةٍ على تحريك القلوبِ نحوَ المقصود.

٢١٠ - مِنْ جوامِعِ الكَلِم

«مِن حُسْنِ إسلامِ المرءِ تَرْكُه مَا لا يَعْنِيه»

[رواه أبو هريرة وأخرجه الترمذىُّ وابنُ ماجَة وحسَّنه الإمام النووى لأن رجال إسناده ثِقاتٌ وهو من مختاراته فى الأربعين النووية ، وقال بعضهم: هو حديثٌ مُرسَل[1] رواه على بنُ حسين]

هذا المَثلُ أوردَهُ الميدانىُّ فى كتابه: مجمعِ الأمثال - باب ماأولُه ميم - وقال: هذا المثلُ يُروى عن النبى ﷺ ، ويُروى عن لقمانَ الحكيمِ أنه سُئل: أىُّ عَمَلك أوثَقُ؟ فقال: تَرْكى مالا يَعْنينى.

وقال رجلٌ للأحنف بنِ قيس: بِمَ سُدْتَ قومَك؟ وأراد عَيَّهُ ، فقال الأحنفُ: بِتَرْكِى مالا يَعْنِينى ، كما عنَاكَ مِن أمرى مَالا يَعْنِيك.

وقال - أيضًا -: مادخلتُ بين اثنين قط حتى يكونا هما يُدخلانى فى أمرهما. ولا أُقِمْتُ عن مجلسٍ قط ، ولا حُجِبتُ عن باب ، يُريد: لا أجلسُ إلَّا مجلسًا أَعلمُ أنى لا أُقامُ عن مِثْله ، ولا أَقِفُ على بابٍ أَخافُ أن أُحْجَبَ عن صاحبه.

وقال ابنُ رجبِ الحنبلىُّ فى تعليقه على هذا الحديث: هذا أصلٌ عظيمٌ من أصول الأدب.

قال الإمامُ المالكىُّ محمدُ بنُ أبى زَيد: جِماعُ آدابِ الخير وأَزمَّتُه تتفرعُ من أربعة أحاديثَ هى: قولُ النبى ﷺ: «مَن كان يُؤْمن باللهِ واليومِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خيرًا أو لِيَصْمِتْ» [2] ، وقوله: «مِن حُسنِ إسلامِ المرءِ تَركُه ما

---

(١) المرسَل: الذى رواه تابعىٌّ وليس فى سنده صحابى.

(٢) أخرجهما البخارى، ورواهما أبو هريرة رضى الله عنه.

لايَعنيه». وقولُه للذى اختصَر له فى الوصية: «لاتَغْضب»[٢]، وقولُه ﷺ: «المؤْمنُ يُحبُّ لأخيه مايُحبُّ لنفسه»[١].

والعنايةُ معناها: شدةُ الاهتمامِ بالشئ، يُقال: عنَاه يَعنيه إذا اهتمَّ به وطلبه، وليس المرادُ أنه يَتْركُ مالا عنايةَ له به ولا إرادةَ بحكم هَواه وطلبِ نفسِه بل بحُكْمِ الشرعِ والإسلامِ، ولهذا جعله من حُسن الإسلام، فإذا حَسُنَ إسلامُ المرءِ ترَك مالا يَعنيه فى الإسلام من الأقوال والأفعالِ واقتصَر على مايَعنيه ويخصُّه من الأقوال والأفعال.

و «ما» فى قوله: «تَركُه ما لا يَعنيه» اسمُ موصولٍ بمعنى الذى مفعولُ المصدرِ: تَرْكُه، أى: أن يتركَ الذى لايَعنيه، وهذا يُبيِّن أن الزجْرَ فى الحديث يَعمُّ الأقوالَ والأفعالَ، وما لا جدْوى منه لا دينًا، ولا دنيا وأَن الإقدامَ على مثْل ذلك إنما يأتى من سخافةِ العقلِ، وفقدانِ اللُّبِّ وسوءِ التدبير.

وفي هذا المثَل تَقدَّمَ الخبرُ وهو مُتعلِّقُ الجارِّ والمجرور: «مِن حُسن إسلام المرء» على المبتدأ وهو «تركُه» وفى هذا التقديم مزيدُ اعتناءٍ بالمعنى المقصودِ وهو المؤخَّرُ وقَصرُه على المُقدَّم، وتقويةٌ له، وتأكيدُ أنَّ تركَ المرءِ ما لا يَخصُّه ولا هو من شؤونه ثابتٌ وكائنٌ من إيمانه وحُسنِ إسلامه، وتلمحُ ذلك من الفرق بين قولنا: تَرْكُ المرءِ مالا يَعنيه من حُسن إيمانه، ولفظ الحديثَ الذى يمكن التعبيرُ عن مضمونه بقولنا: ماتَرْكُ المرءِ ما لا يَعنيه إلَّا من حُسْن إسلامه، أى: بقصر المبتدأ على الخبر بما وإلَّا.

وقد أشار ابنُ رجبٍ الحنبلى فى جامع العلومِ والحِكَم إلى أنه جاء من

---

(١) أخرجه البخارى ومسلم عن أنس ولفظه «لايؤمن أحدُكم حتى يحبَّ لأخيه مايحبُّ لنفسه».

طريقٍ آخرَ بلفظ: «مِن إيمان المرءِ تركُه مالا يَعْنيه» [مرسَل عن الزهرى]

والشئُ الذى يَعنى الإنسانَ هو ماتتعلقُ عنايتُه به، ويكونُ من مقصده ومطلوبِه، وإِن العاقلَ تتعلقُ عنايتُه بما فيه نفعُه، ويحرصُ على مايعودُ عليه خيرُه لإصلاحِ معيشةٍ، أو لصلاحِ خلُقٍ، واستقامةٍ على طريقٍ قَويمٍ وتثبيتٍ على طاعةٍ تُرضِى ربَّ العالمين.

ومن أمارات النَجاحِ ألا يُقدِمَ المرءُ على مالا نفْعَ منه عائدٌ، ولا خيرَ فيه يُرجى، وإِذا سمع اللغوَ أعرض عنه، وإذا لَمح اللهوَ نأى بنفسه عن مَجالسه، فالعمرُ قصير، والوقتُ ثَمين، وسلعةُ الله غاليةٌ نفيسة، وإن سلعةَ اَللهِ جنةُ الخُلْد، لايكونُ أهلاً لها إلا مَن بَذل الْوُسعَ في طَلب مَرضاةِ الرَّبِّ، واشتغل بذكرِه وشُكرِه آناءَ الليلِ وأطرافَ النهار، وأخْدَمَ جوارِحَه فى طاعة مولاه، وشَغَله عيبُه عن عيوب الناس، فلا ينبغى له أن يَرى القَشةَ أو حَبَّةَ الرملِ فى عيون الناسِ ولا يَرى العُودَ أو الخشبةَ فى عَينِ نفسِه، ولو انصرف كلٌّ منا لِطِبِّ نفسه بدواءِ الوحْى لحصَلْنا على خيرٍ كثيرٍ ومنافعَ تعودُ علينا بالأمن والطمأنينةِ والاستقرار، والترقِّى فى مدارجِ الكمالِ الإنسانيِّ بجانبيه الروحى والمادى.

وقد أَثنى اللهُ عزَّ وجل فى مُحكم التنزيل على الذين يُنَزِّهون أسماعَهم عن اللهو، وينأَوْنَ بأنفسهم عن اللغو والساقطِ الذى لاقِيمةَ له من الفعل والقول، ولنسمعْ ثناءَ الله فى قوله من سورة القصص:

﴿وإذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَآ أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِى الْجَاهِلِينَ﴾ [الآية: ٥٥]

أَىْ أَعرَضوا عمَّا لا خيرَ فيه من القول أو الفعلِ، أو عمَّا فيه مَضرةٌ منهما ومَضْيعةٌ للجُهد والوقت، أعرضُوا عن ذلكَ تكرُّمًا وتنزُّهًا عن

المشاركَة فى عَبَث أو مقابلة السيئة بمثْلها ، وقالوا للَّاغينَ السفهاء العابثين ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمالُكُم﴾ لكلٍّ منا طريقٌ ومنهجٌ ﴿سَلامٌ عَلَيْكُم﴾ أى: سَلِمتُم مِنا لا نُعارِضُكم بالشتْم ، أو ندعو لكم بالسلامة عَمَّا أنتم فيه ، وهذا موافقٌ لوصية الرسولﷺ فيمَن رآهم يَسبُّون ويلعنون شاربَ خمْرٍ ، فأوصى بما معناه: لاتكونُو أعوانًا للشيطان على أخيكم بل ادْعوا له. ﴿لا نَبْتَغِى الْجَاهِلِين﴾ لانطلبُ صُحبتَهم ولا نُريدُها ، وفي هذا توجيهٌ بترْك مُجالسةِ اللَاهينَ العابثينَ الذينَ يَشتغلون بما لاصَلاح فيه لدُنيا ولا خيرَ منه للآخرة ، لأنهم يراقبون ربَّهم ، ويخشَوْن بأسَهُ وغضبَه ويعلمون :أن مَن خاف أَدْلَجَ ، ومن أدْلَجَ بلغَ المنزِلَ: أَلَا إن سِلعةَ اللهِ غاليةٌ أَلَا إن سِلعَةَ الله الجنة(١).

ومِمَّا أثنى به اللهُ على عباده الذين لزموا منهجَه قولُه : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُون * الَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَاشِعُون *وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُون﴾ [المؤمنون: ١-٣]

وقولُه من سورة الفرقان من صفة عبادِ الرحمَن: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الآية: ٧٢]

إن القلبَ العَقُولَ لايَدعُ الجدَّ ، ولا يغفُلُ عن ذِكْر الربِّ ، ولا يشتغلُ باللغو واللّهو ، أمَّا القلبُ الغَفُولُ فإنهُ يَعكفُ على الباطل ، وينجذبُ إلى مالا فائدةَ فيه ، وينخرطُ فى زُمرة الفارغين اللَّاهين ، الذين هم على حافَّة الهاويةِ إلا من تَداركه اللهُ برحمَته فتاب وأناب.

إن الإسلام يقتضى فِعْلَ الواجبات ، والتزينَ بالفضائل ، وتَرْكَ

(١) أدْلَجَ: أى سار فى الليل، والدُّلجة: الظُّلمة، والمقصود: بذل الجهد فى طاعة اللهِ ومراقبتهِ، ولصلاة الليلِ فضلٌ عظيم فى تكفير السيئات ورفع الدرجات.

المحرَّمات ، ونبذَ الرذائل والقبائِح ، وإذا حسُن إسلامُ المرءِ تَرَكَ كلَّ مالايعنى من: المحرمات ، أو المشتبهات ، والمكروهات ، وفضول المباحاتِ التى لايُحْتاجُ إليها ، فإن هذا كلَّه لايَعنى المسلمَ إذا كَمُل إسلامُه، وبلَغ درجةَ الإحسان ، وهو أن يعبدَ الله كأنه يَراه فإن لم يكن يراه فإن الله يراه ، فمَن عبدَ اللهَ على استحضارِ قُربه ، ومشاهدتِه بقلبه أو على استحضار قُربِ اللهِ منه واطلاعِه عليه فقد حَسُنَ إسلامُه ، ولَزِمَ من ذلكَ أن يَتركَ كلَّ مالا يَعنيه فى الإسلام ، ويشتغلَ بما يَعنيه فيه.

ويقتضى هذان المقامان(١) الاستحياءَ من الله ، وتَرْكَ كلِّ مايُستَحْيا منه ذاكرًا قولَ الله عز وجل: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾

[يونس: ٦١]

قال بعضُ العارفين: إذا تكلمتَ فاذكر سمْعَ اللهِ لك ، وإذا سكَتَّ فاذكُر نظرَه إليك.

حفظ اللسان:

إن أكثرَ مايرادُ بتركِ مالا يَعنى: حِفْظُ اللسان من لغْوِ الكلام ، وقد جاء فى الحديث: «إن من حُسن إسلامِ المرءِ قِلةَ الكلامِ فيما لا يَعنيه»

[المسند/ ورواه الحسن]

وقد جاء بمعناه من حديث ابنِ مسعود وخرَّجه الخرائطىُّ ، ومن الحِكَم البليغة: «عَلَى العاقلِ أن يكونَ بصيرًا بزمانه ، مُقبلًا على شَانه ، حافِظًا للسانه ، ومَن حَسَبَ كلامَه مِن عملِه قلَّ كلامُه فيما لايَعنيه».

(١) وهما ترك مالا يعنيه، والاشتغال بما يعنيه.

وقد نَفى اللهُ الخيرَ عن كثيرٍ مما يتناجى به الناسُ بينهم فقال: ﴿لا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤]

قال الحسَن: مِن علامة إعراضِ اللهِ تعالى عن العبدِ أن يجعلَ شُغْلَه فيما لايَعنيه خِذلانًا من اللهِ عز وجل.

إنَّ المَثَلَ النبوىَّ يدلُّ: على أن تَرْكَ مالا يَعنى المرءَ من حُسن إسلامه فإذا تركَ مالا يَعنيه، وفَعَل مايَعنيه كُلَّه فقد كَمُل حُسْن إسلامه، وكان من المبشَّرين برحمةٍ من الله ورضوان، أى: أدَّى الفرائضَ، والواجباتِ ولزمَ جانبَ الطاعةِ والاستقامةِ وكفَّ نفسه عن معاصى اللهِ.

إنَّ فى هذا المَثَلِ تربيةً وتوجيهًا، لترشيد المسالك، إذ من الخير للإنسان أن يجعلَ جُلَّ هَمِّه للعناية بما يَخصُّه، وألَّا يُقحِم أنفَه فى أحوال غيرِه، وأن يتركَ من أمور الناسِ مالا يَعنيه، وأن يَدَعَهم فى أحوالِهم مشغولين بما يَعنيهم، فلا يسعى إلى الاطِّلاع على مالايُحبون أن يطلعَ عليه أحدٌ، ففى ذلك السلامة.

إن هذا المثلَ من جوامع كَلِمهِ ﷺ وهو مع إيجازِه وقلةِ ألفاظه يجدُ المتأمِّلُ فيه المعانىَ الغزيرةَ، والمبادئَ الخلقيةَ العاليةَ، والقيمَ النافعة، والتوجيهَ السديدَ لِمَا فيه خيرُ الدنيا والآخرة.

❄❄❄❄

في ظلال سورة الغاشية :

٢١١ - أ - عاملةٌ ناصبةٌ

سورةُ الغاشيةِ مكيةٌ ، وآياتُها ستٌّ وعشرون ، نزلت بعد الذارياتِ ، وترتيبُها فى المصحف بعد الأعلى.

وهذه السورةُ الكريمةُ تنبهُ على أحوال القيامةِ ، وتُنذِرُ وتُبشِّرُ ، تُنذِرُ للتحذير من عواقبِ الشركِ ومجاراةِ الأهواء ، وتُبشر للترغيب فى منازلِ المقرَّبين والأبرارِ أهلِ التوحيد والإخلاص ، وتَلفتُ إلى دلائلِ القدرةِ فى غرائبِ المصنوعاتِ وعظمةِ المُلك ، لِتبعثَ أُولى النُّهى على التدبُّر والتأمل ، ليكونَ الإيمانُ بالبعث والجزاءِ عن يقين وبرهان ، إذ الإحياء بعد الإماتةِ من شأن القدرةِ الكاملةِ التى أبْدعت ، وصَوَّرت ، وخَلَقت خلقًا هو أكبرُ من خلْق الناس ، ولكنَّ أكثرَ الناسِ عن الآيات الناطقة والبراهينِ الشاهدةِ فى غفلة وعمًى.

والغاشيةُ: هى المغطِّيةُ والحاوية ، وتدل على الغِطاءِ ، وغِلافِ القلبِ وتُطلَقُ على: القيامة ، وعلى الداهية ، والنازلةِ من خيرٍ أو شرٍّ، ومكروهٍ وتقول: غَشِيَ الأمرُ فلانًا غَشًا وغَشْيًا ، أى: غطاه وَحواه ، والغِشاءُ: الغِطاء ، وجمعُه أغشية ، والغِشاوةُ: الغشاءُ ، وكلُّ ماأحاط بالشئ من جميع جهاتِه فهو غَاشٍ له ، وسُميت القَيامةُ غاشيةً لأنها تَغْشَى الخَلقَ بأفزاعها ومخاوفِها وتُجلِّلُهم فتَعمُّهم.

وقد بدأت السورةُ الكريمةُ باستفهامٍ يلفتُ الشعور ، وينبهُ الوجدان ، ويبعثُ على التفكر ، ويدعو إلى التدبر ، ويشوقُ لما يأتى بعدُ من تفصيلٍ وإيضاح : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾؟ إنه استفهامٌ لتعظيم أمرِ هذه

الغاشيةِ وتفخيمه ،وفيه أيضًا معنى التقرير: أى قد جاءك يامحمدُ حديثُ الغاشية ، وقال أبو السعود: هو استفهامٌ أريد به التعجبُ مما فى حَيِّزِه والتشويقُ إلى استماعه ،والإشعارُ بأنه من الأحاديث البديعةِ التى حَقُّها أن يتناولَها الرواةُ ، ويتنافَس فى تَلقِّيها الوعَاةُ ، من كل حاضرٍ وبادٍ.

وقد أُطلِقَ على القيامة لفظُ الغاشية ، لأنها تَغْشَى الناسَ بشدائدها وتكتنفُهم بأهوالها ، فكأن غطاءً محكمًا أحاط بهم من كل جانب.

قال ابن عباس رضى الله عنهما: لم يكن أتاهﷺ حديثُها فأخبره سبحانه عنها فقال جل وعلا: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾ ، والمراد بخاشعة ذليلةٌ ، أى: وجوهٌ يومَ إذ غَشِيَتِ القيامةُ الخلْقَ ذليلةٌ لِمَا اعترى أصحابَها من الخِزْى والهوان ، وهم الكفار ، و «وجوهٌ» مبتدأ مرفوعٌ وجاز الابتداءُ به وإنْ كان نكرةً لوقوعه فى مَوضعِ التنويع ، و«خاشعةٌ» خبرُه وهى اسمُ فاعل من : خشع خشوعًا فهو خاشع ، ومن معانيه: خضَع ، وذلَّ، وخاف ، وخفَض صوتَه ، ورمى ببصره نحوالأرض وغضَّه ، ويقال: خشَع لربه: أى استكان وركَع ، وخشَع فى صلاته: إذا نكَّس رأسَه وتذلل ، وقد وُصفت وجوهُ الأشقياءِ بالخشوع ، ولم توصَفْ بالذل ابتداءً ، لِمَا فى وصْفِها بالخشوع من الإشارة إلى التهكُّم ، وأنها لم تخشع فى وقت ينفعُ فيه الخشوع: ولـمَّا كان فى الخشوع معنى التطامنِ والخضوعِ والخَفْتِ والذلِّ ، كَنَّى به عمَّا يَعترِى الإنسانَ من الخِزْى والهوان، والمرادُ بالوجوه أصحابُها ففيها مجازٌ ، ذلك أن الوجْهَ يظهرُ فيه أثَرُ مايَعترِى النفسَ من الخوف أو السرورِ ، أو القلقِ والندمِ وغيرِ ذلك من الانفعال.

وإن أصحابَ هذه الوجوهِ الذليلةِ حين يُعاينون الحقيقةَ التى أُنذروا بها

فى الدنيا ، ولم يُلْقوا للإنذار بالًا فشكُّوا أو أنكروا وأعرضوا ، إن هؤلاء يُصِيبهُم يومئذ هَمٌّ بالغ ، وحسرةٌ شديدة ، وندمٌ عظيم ، وتُظهِرُ مِرآةُ وجوههم ماأصاب قلوبَهم من الفزع والهوان ، كما تَعكس هذه المرآةُ أثَر خيبةِ أملِهم لحُبوطِ أعمالٍ لهم كان لهم فيها رجاء ، ولكنْ صدَرت عن رياءٍ ونفاق ، أو عن شركٍ وإلحاد ، لذا وَصَف السياقُ هذه الوجوهَ بأنها: ﴿عاملةٌ ناصبَةٌ﴾ إذ المَقصودُ: عَمِلت فى الدنيا أعمالًا والعقيدةُ غيرُ صحيحة ، وشَقُّوا على أنفسهم على غير هداية: كما يفعل كثيرٌ من الوثنيِّين وغيرِ الموحِّدين إذ يغالون فى التشديد على النفس ، وحِرمانِها مما أحلَّ اللهُ عز وجل ، ويُتعِبُون أنفسَهم فى ذلك ، حتى تُوافِيَهم الغاشيةُ ويُعاينوا الحقيقةَ ، وهناك يرون هذه الأعمالَ هباءً منثورًا ، أو كرمادٍ اشتدت به الريحُ فى يوم عاصف.

ومعنى النَّصَب: التعب ، ومنه الناصبةُ أى التَّعِبةُ ـ بكسر العين ـ

جاء عن زيد بنِ أسلم أنه قال: أى: عاملةٌ فى الدنيا ، ناصبة فيها ، لأنها على غير هدًى فلا ثمرةَ لها إلا النَّصبُ ، وخاتمتُه النار.

«روح المعانى»

وقال بعضُ أهلِ العِلم: «إن خشوعَ الظاهر ، ونَصْبَ الأبدانِ لايُقرِّبان إلى الله تعالى ، وإنما يُقرِّب منه خشوعُ السرِّ من هيبة الله ، وهو الذى يمنعُ صاحبَه من جميع المخالفات ، فالرهابنةُ ، والفلاسفةُ ، والملاحدةُ وأضرابُهم من أهل الكفرِ والبدعِ والضلالِ إنما يضربون حديدًا باردًا» ـ أى يُتعبون أنفسَهم بلا طائلٍ ولا جدوى ـ ذلك أن الأعمال بالنيات والمقاصدِ وأنَّ الإخلاصَ رُوحُها ، والإيمانَ أساسُ قَبولها.

وينتصرُ الشيخُ محمدُ عبده فى تفسيره جزءَ عَمَّ للرأى القائل بأن المرادَ

بالعمل والنصَب هو ماكان فى الدنيا فقال: (ولا حاجةَ للقول بأنها عاملةٌ ناصبة فى ذلك اليوم نفسه ،فإن: عاملةٌ ناصبةٌ بمنزلة قولهِ: حابطةٌ أعمالُها ، أو جُعلت أعمالُها هباءً منثورًا ، وهذا هو الذى يقعُ يومَ القيامة، وإنما يجبُ اختيارُ هذا المعنى لاتفاقه مع بقيةِ الآيات فى غير هذه السورة [1] ، ولأن هذه الآيةَ تقابِلُ قولَه فى أهل الجنة ﴿لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ وذلك السعْىُ هو الذى كان فى الدنيا.

وفى هذا المعنى روى الضحاك عن ابن عباس قال: «هم الذين أنصبُوا أنفسَهم فى الدنيا على معصية اللهِ عز وجل وعلى الكُفر ، مثلُ عَبدَةَ الأوثانِ ، وكفارِ أهلِ الكتاب ، مثلِ : الرهبان وغيرِهم ، لا يقبل اللهُ جلَّ ثناؤه منهم إلا ماكان خالصًا له».

وروى الحسنُ قال: لمَّا قَدِم عمرُ بنُ الخطاب رضى الله عنه الشامَ ، أتاه راهبٌ شيخٌ كبيرٌ مَتَقهِّلٌ عليه سوادٌ ، فلمَّا رآه عمر بكى ، فقيل له: ياأميرَ المؤمنين ، مايُبكيك؟ قال: هذا المسكينُ طلَب أمرًا فلم يُصبه ورجا رجاءً فأخطأه ، وقرأ قولَ الله عز وجل: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۞ عاملةٌ ناصبَةٌ ﴾ [٢و٣]

قال الكسائىُّ: التقهُّلُ: رثاثةُ الهيئة ، ورجلٌ متقهِّلٌ: يابسُ الجلْدِ سيئُ الحال ، مثل: المتفحِّلِ ، وقال أبو عمرو: التقهُّلُ: شكوى الحاجة.

إن مايقدمُه أربابُ الأهواء ، وأهلُ البدع ، والمشركون والملحدون من أعمالٍ فى مجال البرِّ والمروءات ، أو مايُلزِمون به أنفسَهم من التقشُّف والتشديدِ على النفس ، وتحريمِ ماأحلَّ الله ، إن كلَّ هذا ونحوَهُ يضيعَ على أصحابه يومَ القيامة ، ولا يجدون إلا الحسرةَ والندامة ، ويظهرُ

(١) فى إبراهيم: ١٨ والنور: ٣٩و ٤٠ والفرقان ٢٣

لهؤلاء وأضرابهم يومئذ أنهم عملوا وتعبوا فى الدنيا من غير نفْع ، وأنهم كانوا يحسبون أنهم يُحسنون صُنعًا ، ويتمنَّون حينئذ أن يُرَدُّوا إلى الدنيا: ليوحِّدوا ربَّهم ، ويَتَّبعوا نبيَّه ، ويعملوا بوحْيه ، ولكنْ أنَّى لهم ذلك؟

وقد أُعدَّت لهم دارٌ لايُطاق حرُّها ، ولا يَهنأُ أهلُها بنومٍ ولا طعامٍ ولا شراب: ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ [٤] أى: متناهيةً فى الحرِّ ، من حَمِيَت النارُ إذا اشتدَّ حرُّها ، وفيها: ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾ [٥] أى : بلغت أَناها ، أى: غايةَ حرِّها من أَنَى الماءُ يَأنى إذا سَخُن وبلَغ فى الحرارة غايتها ، إنهم على عَطَشٍ دومًا: يطلبون الماء فيُجاء لهم بماء لايُطفِئُ لهبًا ولا ينقَعُ غُلَّةً ، بل يَزيدهم عطشًا وألـمًا ، فإذا خوَت بطونُهم، واشتدت لهفتُهم إلى الطعام فـ ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ [٦] وهو نبتٌ ذو شوكٍ لاصقٌ بالأرض تُسمِّيه العربُ الشِّبْرِقَ إذا كان رَطْبًا ، فإذا يَبس فهو الضَّريعُ لاتَقْربُه بهيمةٌ ولا دابةٌ ، وهو سُمٌّ قاتلٌ ، وأخبثُ الطعامِ وأشنعُه، وقد وَصَفَ السياقُ هذا الضريعَ بأنه: ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ [٧] وهذا نوعُ عذابٍ ، إذ لايَنتفِعُ الإنسانُ هناك بما يأكلُه ، لا فى دفْعِ جوعٍ ، ولا فى نماءِ جسَد ، فهو فى لهَفٍ شديدٍ دومًا للشراب وللطعام ، فإذا أُعطِىَ منهما زادت لهفتُه ،لازدياد عَطَشِه وجوعه لفظاعة الحرارةِ ، وشدةِ البشاعة ، والقرآنُ الكريمُ يقرِّبُ لنا ماغاب عنَّا بالحاضر عندنا ، أمَّا فى جهنمَ فهو أشدُّ خُبْثًا ونتنًا وقُبحًا وأعظمُ إيلامًا ، بل وأبشعُ مرأًى ، وإنَّ أهلَ النارِ لايَنتفعون بما يتناولونه من شراب أو طعامٍ بل يزدادون به عذابًا فوقَ العذاب. . نسأل الله تعالى العفوَ والعافية.

يقول الشيخُ محمد عبده ، وقد سَمَّى اللهُ ذلك الطعامَ بالضريع تشبيهًا له به وإلا فذلك العالَمُ ، عالمُ الآخرةِ ليس فيه نموُّ أبدانٍ ، ولا تَحَلُّلُ

موادَّ على نحوِ مايكونُ للأحياء فى هذه الحياة الدنيا ، بل ذلك عالَمُ خلودٍ وبقاء ، وإن مايقعُ فى ذلك العالَمِ فإنما بينْه وبيْن مايقعُ فى عالَمنا وجوهُ مُشابهَةٍ لا وحدةُ مجانسَة ، فطعامُ أهلِ النارِ ، يوافقُ النشأةَ الآخرةَ وقد عَبَّر عنه القرآنُ بما يُصوِّرُ بشاعتَه وخُبْثَه لتنفرَ منه نفوسُنا وتطلبَ كلَّ وسيلةٍ للفِرار من أسبابه بالابتعاد عن العقائد الفاسدة والأعمالِ الخاسرة.

وإنَّ عبارةَ ﴿لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِى مِن جُوعٍ﴾ بما فيها من إيجازٍ وإحكامِ نَسْجٍ وقوةِ دلالةٍ على المقصود ، صارت مثلاً ، يُضرَبُ فى كثير من الأحوال والمواقفِ التى يُعبَّرُ فيها عن عدَم جَدْوى الشئ ، وفقدانِه أهمَّ خصائصه ومنفعته.

ثم تدبَّرْ التوازُنَ فى الفواصل(١): «الغَاشية ، خَاشعَة ، نَاصبَة ، حَامية ، آنيَة» ثم اتفاقَ الفاصلتين فى الحرْف الأخير(٢) «مِن ضَرِيع ، مِن جُوع» وتأمَّل وَقْعَ ذلك على النفس ، وقوةَ تأثيره فيها ، وارتباطَ كلِّ فاصلةٍ بما قبلها من الكلمات لِيتمَّ المعنى بها ، وَيُدَلَّ على المقصود بمكانها مع أخواتِها: مع الإيجازِ والإعجازِ ، وقوةِ الإيحاء ، ثم إذا أنعمْتَ الفكْرَ وجدتَ صورةً رائعةً فى خطوط واضحةٍ ، فيها أبعادٌ مكانيةٌ وحركةٌ، ومناظرُ تَبْعثُ على النفور من الشركِ والإلحاد والبِدَعِ ، وتدعو إلى تصحيح العقائدِ والمسار ، حتى لايكونَ العاقلُ خَطًّا فى هذه الصورةِ التى

(١) المتوازى عند علماء البديع: أن تتفقَ الفاصلتان وزنًا وتقفيةً. أى تَوالِى الحركات والسكنات فى كلمات الفواصل على وتيرة واحدة مع الاتفاق فى الحرف الأخير «مثل» ﴿فيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾ أما إذا اتفقت فاصلتان فأكثر فى الوزن دونَ التقفية فيسمَّى «المتوازن» مثل: ﴿وَنَمارقُ مَصْفُوفَةٌ* وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ ، فإذا اتفقت كلمتان فأكثرَ فى الجملتين فى ذلك فهو المرصَّع مثل: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيابَهُم* ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهم﴾.
وقد تدخل هذه الأنواعُ تحت مُسمى الازدواج.

(٢) يسميه البديعيُّون «المطرّف» وهو اختلاف الفاصلتين فى الوزن، واتفاقُهما فى حرف السجع

تُغطيها المخاوفُ والأفزاعُ ، وتنحنى الوجوهُ نحو الأرضِ شاردةً ساهمةً ذليلةً منكسرةً مرعوبةً ، وقد كانت عاملةً ساعيةً تَعِبةً تندفعُ على غير هدايةٍ ولا رشادٍ ولا تسديد للخُطا على منهج الدين الحق ، ثم إن أصحابَ هذه الوجوه يُشْوَوْنَ فى نارٍ اشتدَّ لهيبُها ، وقستْ حرارتُها وأصواتُهم ترتفعُ فى ضراعة يطلبون الرِّىَّ والطعامَ فَيُسْقَون بما يَزِيدُ اللهبَ لهبًا ، والحرارةَ ألـمًا وشدةً ، ويُطْعَمُون بما يجعلُهم أشدَّ جوعًا وأكثرَ حاجةً ولهفًا.

تَمثَّل فى نفسك هذا وغيرَه بتأمُّلك فى الآيات ، ودلالاتِ الكلماتِ وما تُعطِيه من معانِىَ وما تدلُّك عليه من الأحوال ، وقُل: نعوذ بالله من أحوال وعذابِ أهلِ النار.

وَعِش بعد ذلك مع أحوالِ أهلِ السعادةِ لتخفِّفَ عن نفسك حرارةَ الخوف ، ويَعظُمَ فى قلبك الرجاءُ متشوقًا إلى أن تكونَ مع مَن قال اللهُ فيهم: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۞ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾

ولقاؤنا معهم إن شاء اللهُ تعالى.

❊❊❊

٢١٢ - ب - لِسَعْيِهَا رَاضِيَة

وَصَفَتْ سورةُ الغاشيةِ فريقَ السعداءِ وحالَهم يومَ القيامةِ بصفاتٍ جميلة ، وبيَّنت ما تكونُ عليه نفوسُهم من سكينة ، وشعورٍ بغايةِ الرضا والسرور ، وشوَّقت إلى منازلهم ببيانِ دارِ إضافتِهم وما فيها من صنوفِ النعيمِ الذى لا تَبلى جِدَّتُه ، ولا يَذْهبُ بهاؤُه ، وجاء ذلك بألفاظٍ عذبةٍ وعبارات أنيقةٍ رائقةٍ ، وجُمَلٍ قصيرةٍ مُونقَةٍ ، مُوشَّاةٍ بالازدواج والتوازِى مِمَّا يجعل لأواخرِ الآى وقعًا جميلًا على الآذان ، وتأثيرًا عظيمًا فى النفوس ، ولنتدبر:

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناعمةٌ*لسَعْيِها رَاضيَةٌ*فى جَنَّةٍ عاليةٍ*لَا تَسْمَعُ فيَها لاغيَةً*فيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ * فيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ * وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ * وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾. [٨:١٦]

إن هذا الوصفَ البديعَ الجميلَ تَقَرُّ به أعينُ أهلِ الإخلاصِ ، والصدقِ وتسعَدُ نفوسُهم بما سيلْقَون فى ذلك اليوم من فَضْله سبحانه وتعالى وقد جاء بعد أن وَفَّت السورةُ المكذِّبين بيوم الدينِ والغافلين عنه حَقَّهم من الوصْف ، بما يبعثُ على الخوف من مصيرٍ كمصير أولئك المخذولين المناكيدِ الذين سيصْلَون نارًا حاميةً ، ويُعذَّبون بالجوع والعطَش، ولا يزيدُهم طعامُ النارِ وشرابُها إلَّا عذابًا وآلامًا. وإذا ما انتقل السامعُ أو القارئُ المتدبرُ من جوٍّ الانفعالِ بالخوفِ والرهبةِ إلى رؤية الوجوهِ ذاتَ البهجةِ والحُسنِ والضياء كأنها القمرُ ليلة البدْر ، وقد بدتْ على قسَماتها أماراتُ الرِّضا بما قدَّمتْ من خيرٍ ، وما فطَمت نفسها عنه من معاصى اللهِ ، وقدَّمته من جهادِ النفسِ وعدوِّها الشيطانِ ، ثم نتطلَّعُ إلى أعلى

حيثُ نراها فى مَقاماتها العالية ، ومنازهِها الرفيعةِ ، ومنازلِها الشريفة مع الحبور والسرورِ الذى لا يكدِّره كذبٌ، ولا رياءٌ ولا شتيمةٌ ولا نقيصةٌ ولا لهوٌ باطلٌ ولا معازفُ شيطانٍ ، إذْ لا لغْوَ ولا تأثيمَ ، بل هناك الرَّوْح والرَّيحانُ ، فى ضيافةِ الربِّ الكريمِ الجوادِ الرحيمِ يبسطُ عليهم رِضوانَه ، فلا يسخَطُ عليهم أبدًا ، وهناك الماءُ يَجرى بِقدْر ما تحتاجُ إليه النفوسُ لراحتِها وبهجتِها وسكونِها ، أمَّا أدواتُ الرَّفاه والنعيمِ فلا نستطيعُ أن نَصِفَ إلا ما جاءت به الآياتُ بما يناسبُ حالَنا ، ويقرِّبُ إلينا ما غاب عنَّا ، مِمَّا لم يَخطِرْ على قلبِ بشرٍ ، ولكننا نسعدُ بأدوات الشرابِ والسُّررِ العاليةِ والبُسْط والوسائدِ ونحوِ ذلك مما تتعلقُ به نفوسُ الناسِ فى العادة ، بل قد يكِدُّ الكثيرُ منهم نفسَه ليحوزَ أجمل ما يستطيعُ منها فى بيته.

إنَّ هذا الوصفَ يبعثُ على الارتياح ، ويشوِّقُ القلوبَ إلى هذه المنازل ، ويملأُ النفوسَ رجاءً فى رحمة اللهِ ، بعد أن اشتدَّ خوفُها من غضَبِ اللهِ وعذابِه.

ولذا جاءت الألفاظُ فى الآيات رائقةً ، عذْبةً ، حروفُها متناغمةٌ تنسكِبُ فى الوعْى كالنسيم الذى يُنعِشُ النفوسَ ، وقد تفاعلت هذه الكلماتُ فرسَمت لنا صورةً رائعةً فيها إشراقةُ الرِّضا ، والرياضُ العاليةُ الرفيعةُ ، والأصواتُ الساكنةُ الهادئةُ التى لا تسمعُ منها إلا الصدقَ والجدَّ، وتأمَّل: العيونَ تتدفقُ منها المياهُ ، والسُّررَ بجمالها ، وبهائِها والبُسْطَ بألوانها المتناسقةِ ، والكيزانَ من أنْفَسِ المعادنِ ، وأصفَى الألوانِ وأجملِها ، والوسائدَ التى تَزِيدُ الجلوسَ راحة.

فريقان ومصيران:

إِنَّ التضادَّ بين الفريقين ، والمقابلةَ بين الحالين ، والمفارقةَ ذاتَ الهُوَّةِ التى لا تتقاربُ أبدًا بين المَصيرين ، لَيؤكِّدُ فى نفوسنا وَوِجداننا مزايا أهلِ التقوى ومحاسنَ طريقِهِم فى الدنيا وإنْ كان مكدَّرًا بالهموم ، أو مُعوَّقًا بالأشواك؛ إنه طريقُ آدمَ ونوحٍ وإبراهيمَ وإسحاقَ وإسماعيلَ ومُوسى وعِيسى ومحمدٍ وإخوانِهم المرسَلين والنبيِّين عليهم جميعًا أفضلُ الصلواتِ والتسليمِ ، إنه طريقُ النور ، والجمالِ ، والطمأنينةِ ، وسلامةِ النفسِ من نوازع الشرِّ والفساد ، وَيَكفِى مَن يختارُ هذا الطريقَ شرَفًا أنه على منهجِ مَن رَضِىَ اللهُ عنهم ، واصطفاهم ، إِنها النماذجُ العاليةُ فى عقيدتها وإخلاصِها وصِدْقِها وطاعتِها وفضائِلها وطهارتِها .. فطوبى لمن تدبَّر واختار لنفسه الخيرَ والهُدى.

والمرادُ بالوجوه الناعمةِ : النفوسُ أو أصحابُ هذه الوجوهِ ، وجوهِ المؤمنين وقد نَعِمتْ بما عاينتْ من عاقبةِ أمرِها وعملها الصالح ، كما قال سبحانه من سورة القيامة : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴾ [الآية : ٢٢]

ومن المطففين : ﴿ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾ [الآية : ٢٤]

إِنها مرآةُ الوجوهِ التى يَنعكسُ عليها وتَرى فيها أثرَ ما فى القلوب والنفوسِ من البهجة وإشراقةِ السرور ، وهى لا تكونُ كذلك إِلا إِذا كانت متنعمةً فرِحةً بما لاقت ورأتْ من جزاء سعيِها فى الدنيا ، فهى لعملها الذى عملته ولإيمانها بالغيب راضيةٌ ، ضدّ ما عليه تلك الوجوهُ الذليلةُ الخاشعةُ العاملةُ الناصبة.

وفى تلك الجُملة وَاوٌ مضمَرةٌ ، والمعنى : ووجوهٌ يومئذ ناعمةٌ ، ولكنَّ الكلامَ جاء على صيغة الاستئنافِ للفصْل بينها ، وبين الوجوهِ المتقدِّمةِ

وهذا يُشعِرُنا بأنَّ لفريق السعداء عالـمًا متباينًا كلَّ التبايُن.

وبعد وصْفِ حالِ السعداء ، وصَفَ ديارَهم ومقارَّ إقامتِهم بسبعة أوصافٍ ، فهم فى دار النعيمِ العاليةِ فى مكانها ومكانتِها ، وخيرُ الأماكنِ والمنازلِ ما كان عاليًا رفيعًا ، ثم إِنها رفيعةٌ فى أوصافها ومزاياها وفى قَدْرها وشرفِها لتكامُلِ ما فيها من النعيم ، وفيها ما تَشتهيه الأنفسُ وتلذُّ الأعين.

ومن مزاياها أنك: ﴿ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴾ أى: كلامًا ساقطًا غيرَ مَرضىٍّ، ذلك أن أهلَ الجنةِ لا يتكلمون إلا بالحِكمة ، وحَمْدِ اللهِ عزَّ وجل على ما رزقهم من النعيم الدائم ، ويدخلُ فى اللغْو: الكلامُ الساقطُ الذى لا يُعتدُّ به ، والباطلُ والشتْمُ ، وإِضاعةُ الوقت فى اللهْو والكذبُ والبُهتانُ والفحشُ ونحوُ ذلك. وهكذا شأنُ أهلِ العقلِ والحكمةِ فى الدنيا ينبغى لمجالسهم أن تكونَ منزَّهةً عن كل باطلٍ وما يَشْغلُ القلبَ والفكْرَ عن الله عزوجل ، يقول الشيخُ محمد عبده فى تفسيره جزءَ عمّ: «وفى ذلك تنبيهٌ للمؤمنين إِلى أنه لا يليقُ بهم أن يكونوا من أهل اللغْوِ مهما فاضَ عليهم النعيمُ ، واتسعت لهم النعمةُ بل ذلك ممَّا يُنزَّهون عنه ، حتى إِذا رُفِعت عنهم التكاليفُ ، ووصلُوا إِلى فضاء الرحمةِ الذى لا سُخْطَ فيه ، ولا نقمةَ ، فنعيمُهم ينبغِى أن يكونَ نعيمَ أهلِ الفضْلِ والجدِّ ، لا نعيمَ أهلِ الجهلِ والحُمقِ ، الذين يُمْضُونَ الوقتَ فى اللهو، والقول اللغْوِ ، وإِطلاقِ الألسُنِ عن قيْد الأدب جاعلين ذلك من مُتمِّمات النَّعيم».

وتأملِ الآيات وانظُر: كيف قدَّم السياقُ من أوصاف الجنةِ وضروبِ نعيمِها ما هو روحانىٌّ يَليقُ بأرباب النفوسِ العالية ، والنماذجِ الرفيعةِ فى

العرفان ، وسموِّ الوجدان ، وطهارةِ الجَنَانِ ، فقد ذَكَرَ الرِّضا بالعمل الطيِّبِ الصالحِ ، وإن غايةَ سرورِ النفوسِ العاملة أن ترى ثمرةَ جدِّها وإتقانها والعاقبةَ الحميدةَ لعملها ، ثم أَتْبَعَه بذِكْرِ التنزُّه عن اللغْو وما لا فائدةَ فيه ، وهو أسمَى ما يَطلبُ الإنسانُ الفاضلُ أن يَحيا به.

ثم جاء السياقُ بعد ذلك بأوصافٍ من النعيم المعهود لنا فى حياتنا الدنيوية لتقريب النعيم الأخروىِّ بما هو معهودٌ لدينا، ممَّا تُسَرُّ به نفوسُنا وتنعَمُ به قلوبُنا ، وإن كان نعيمُ الآخرة أجلَّ وأعظمَ وأرفع ، وهكذا يخاطبُنا القرآنُ على قدْر عقولِنا ، وبما يتناسبُ مع تصوراتنا ، وواقعِنا لنقيسَ الغائبَ بالحاضر مع إيماننا بأنَّ الجنةَ فيها من ألوانِ النعيمِ ما لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سَمعت ولا خطَرَ على قلْب بَشر.

والسُّررُ: جمْعُ سَرير وهو ما يُنام أو يُجلس عليه ، والأكوابُ: جمْعُ كُوب وهو الكُوزُ الذى لا عُرْوة له ، والنَّمارقُ: جمْعُ نُمرْقةٍ - بضم النون وكسرها - وهى الوِسادةُ ، والزرابِىُّ: البُسْطُ ، والمبثوثةُ أى : المبسوطةُ أو الكثيرةُ أو المتفرقةُ فى المجالسِ ، وهذا يناسبُ معنى مَبثوثة ، فهى كثيرةٌ متفرقة.

ومن لطائفِ الإشارات: أن هذا الوصفَ فيه إشارةٌ إلى انبساطِ أرواحِهم وانشراحِ صدورِهم ، وانفتاحِ قلوبهم فى بساط القُدسِ والأُنس.

وإن العيونَ فى الجنة تَجرى مياهُها على الدوام ، حيثُ شاء صاحبُها وهى أشدُّ بياضًا من اللَّبن ، وأحَلى من العسَل ، من شَربَ منها لا يَظمأُ أبدًا ، ويذهبُ من قلْبه الغِلُّ والغِشُّ ، والحسَدُ والعداوةُ والبغضاءُ.

كلُّ ذلك لتصوير النعمة والرفاهةِ وتقريبِ حالِ أهلِ الجنةِ وأوصافهم وأوصافِها إلى أفهامنا ، وبما تُطيقُه عقولُنا ، وإلَّا فنعيمُ تلك الدارِ الآخرةِ مِما لا يُشبِهُه فى هذه الدارِ نعيمٌ.

إِننا حين نُجيلُ الفكرَ فى حال فريقَى الأشقياءِ والسعداءِ لَنَجِدُ أنَّ الإِحسانَ فى العمل هو مناطُ النجاحِ والفلاحِ والفوز ، وأن العملَ الصالحَ الطيبَ لا يَضيعُ ، وأن ثمراتِه أجملُ وأوقعُ وأعظمُ وأفخمُ مِمَّا كان يَتصوَّرُه العاملون المخلصون ، أمَّا الإِساءةُ فى العمل أو صدورُه عن معتقَدٍ خَبيثٍ أو رياءٍ وسُمعةٍ فثمراتُهُ مُرَّةٌ ، وعواقبُه غايةٌ فى السوء، ومِمَّا يَلفُتنا من حَالِ النموذجين المتضادَّين مسلكًا واعتقادًا ، أن أهلَ العقلِ والحكمةِ يُنزِّهون أنفسَهم عن اللهو والباطل ، وأقوالَهم عن اللغْو وما لا خيرَ فيه ، ويلتزمون الجِدَّ فى حياتهم ، ويلبسون من الفضائل أفضلَ حُلَلِها ، ويستخدمون النعمةَ فيما خُلقت لأجله بلا إِسراف ولا تَقتير ويَقْنعون بالحلال الطيِّب ، وهُم على الجملة يتدبرون الكتابَ ويرجعون إلى سُنَّةِ نبيِّهم ﷺ مقتدين مقتبسين ساعين لطلَب ما أُعِدَّ لهم فى الحياة الآخرةِ من رحمةٍ ورضوان ، معتبرين بأحوال الأممِ التى عاندت وتعنَّتتْ وأُشْربوا فى قلوبهم الشركَ والإلحاد.

لـمَّا ذكَر اللهُ أَمْرَ أهلِ الدارين ، ومآلَ وحالَ كلٍّ فَريق منهما، ذكَّرَهم السياقُ صَنْعةَ اللهِ وقُدرتَه ، وأنه قادرٌ على كل شىءٍ ، لأن أكثرَ المخاطَبين منكِرون للبعث ، أو غافلون لا ينظرون فى عملِهم إلى ما هم عليه هاجمون ، فنبَّه اللهُ هؤلاء بتوجيه نظرِهم إلى ما يَقَعُ تحت بصَرِهم من الخَلْق ليتدبروا ، وليعلَمُوا أن خالقَ الإِبلِ وعجائبِها ، والسماءِ وغرائبِها ، والأرضِ المبسوطة ، والجبال المنصوبة ، لقادرٌ على إحياء الموتى ومجازاتِهم: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ والهمزةُ للإنكار والتوبيخِ أى: أينكرون ماذُكِرَ من البَعْث وأحكامه ، ويَستبعدون وقوعَه عن قدرة الله ، فلا ينظرون نظرَ اعتبارٍ إلى الإبل التى هى نُصْبَ أعينِهم ، وكيف خُلقت خلقًا بديعًا ، وما فى تركيبها وطباعِها من

العجائب ﴿وَإِلَى السَّمَاء كَيْفَ رُفِعَت﴾ وهم يشاهدونها فى كل لحظةٍ ليلًا ونهارًا ﴿وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ أى: كيف نُصبت على الأرض أوتادًا ﴿وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ فهى أمامهم وتحتَ أقدامِهم مبسوطةٌ ممدودةٌ سهلةٌ حسبما يَقتضيه صلاحُ أمورِ ما عليها من الخلائق أفلا ينظرون نظرَ التدبر والاعتبار إلى كيفية خلْق هذه المخلوقاتِ الشاهدةِ بحقِّيَةِ البعثِ والنشور ، أفلا يتدبرون ليرَوا أن خالق هذه الآيات التكوينية متصفٌ بصفات الكمال ، من: القُدرة ، والقوةِ ، والحكمةِ ، مُنزَّهٌ عن صفات النقصانِ: من العجْز ، والضعفِ ، والجهلِ ، وحتى يرجعوا عمَّا هم عليه من الإنكار والنفور ، ويسمعوا إنذارَكَ يا محمدُ ، ويستعدُّوا للقاء اللهِ بالإيمان والطاعة.

إن على الرسول البلاغَ ، وعليه أن يسوقَ الأدلةَ ، ويلفتَ إلى آيات اللهِ فى الكون ، ويدعوَ العقلَ إلى التفكُّر والتدبرِ ، ويعظَ الناس ، وما عليه من حسابهم شىءٌ وكلٌّ واحدٍ مسؤولٌ عن نفسه ، وقد قامت عليه الحجةُ ، وقد حدَّد اللهُ لنبيِّه الأمرَ الذى بُعثَ لأجله فقال: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾ أى: لستَ بمسلَّطٍ عليهم تجبرُهم على ما تُريد ، فأمَّا مَن أعرض عن الحق ، ولم يلتفتْ إلى البرهان والدليل ولم تنفعْه العظةُ ، وثبتَ على ضلاله وكفره ، فالعذابُ الأكبرُ فى جهنمَ يَنتظره: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ اللهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ﴾.

ثم أكَّد السياق قَضيةَ البعث للحساب والجزاء بعد أن أقام البراهينَ: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ فهو وحده سبحانه الذى يحاسِبُ عبادَه فى المحشر ، فمَن زرع خيرًا وجَد خيرًا ، ومن زرع شوكًا وجَد شوكًا.

من سورة النحل:

٢١٣ - أ - حِجاجٌ عقليٌّ وضربُ أمثالٍ

إنَّ القلوبَ تحيا وتموتُ ، أمَّا القلبُ الحَيُّ فهو قلبُ المؤمنِ الـمُهتدى الذى رَضِى بالله ربًّا ، وأَيْقنَ بأنه إلهٌ واحدٌ ، لا شريكَ له ، ولا ندَّ ولا ولدَ ، وأنه سبحانه مُنزَّهٌ عن صفات النقص ، متصفٌ بكل كمال مُتعالٍ بعظمته عن أن يُشبِهَهُ أحدٌ من خَلْقه ، أو أن يُشارِكَه أحدٌ من خلْقه فى كبريائه ، فهو سبحانه المنفردُ بالإلهية ، المنفردُ بالوحدة فى الذات والصفاتِ ، والأفعالِ ، المعبودُ بحقٍّ ، فلا إلهَ غيرُه ، ولا ربَّ سِواه ولا معبودَ بحقٍّ إلا هو.

أمَّا القلبُ الميِّتُ: فهو قلبُ الضالِّ عن التوحيد ، إذْ لم يتدبرْ براهينَه القائمةَ فى الكون الناطقةَ بوجود الله وبوحدانيته وبكمال قدرته وحكمته وإرادتِه وبعظمة سلطانِه ، فيموتُ قلبُه بجحوده وعدمِ تفكُّرِه فى آلاء اللهِ ومصنوعاته.

وفى مَطْلع سورةِ النحلِ تَبَّرأ سبحانه عن أن تكونَ آلهتُهم له شركاءَ:

﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الآية: ١]

أى: تنزَّه وتعاظمَ بذاته وصفاته عن إشراكهم ، أو عن أن يكونَ له شريكٌ.

ثم بَيَّن أن القلوبَ الميتةَ لا حياة لها إلا بالتوحيد: ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلَآئكَةَ بِالرُّوحِ مِن أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَآءُ مِنْ عِبادِهِ ﴾ [الآية: ٢]

والرُّوح: المرادُ بها الوحْىُ ، أى المُوحَى به الذى مِن جُملته التوحيدُ كقوله تعالى من سورة غافر: ﴿ يُلْقِى الرُّوحَ مِن أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَآءُ مِن عِبَادِهِ ﴾ [الآية: ١٥]

وإطلاقُ الروحِ على الوحى مَجَازٌ ، أى: على سبيل الاستعارةِ ، بجامعِ أنَّه بالوحْى تَحيا القلوبُ الميتةُ بداء الجهل والضلالِ ، كما أنَّ بالروح حياةَ الأبدان.

وإن أولَ العِلْم هو العلمُ بالله ، وبأنه المتفرِّدُ بالإلهية والربوبيةِ ، وإِنَّ قوامَ بناءِ النفس الصالحةِ ، وحياةَ القلْبِ إنما بسلامة الدينِ ، وصحةِ اليقين ، وهذا هو أولُ عمَلِ المُرسَلِين ، كما أمرهم ربُّ العالمين: ﴿أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢]

أى: إن أولَ واجباتِ المُكلَّفين معرفةُ اللهِ عزَّ وجل والإِيمانُ بأنه الواحدُ الأحدُ الذى لم يَلِدْ ولم يولَد ولم يكن له كفُوًا أحد ، مع تَخْلِيةِ القلبِ من كل شوائب الشكِّ والشرك ، فالتحليةِ بالأعمال الصالحةِ التى جعلها اللهُ لعبده وقايةً من غضَبه وعذابه.

إن كلمةَ الإخلاصِ أساسُ الطاعاتِ ، ونبراسُ العبادات ، وتُوصِّلُ قائلَها الموقنَ بها إِلى المَقام الأقصى ، والدرجات العُلا ، وقد أجمع المسلمون على وجوب معرفة اللهِ عزَّ وجل ، وما له من صفات الكمالِ ونعوتِ الجلال ، ووجوبِ اتباع أمرِه ، واجتنابِ ما نَهى عنه.

جاء فى رُوح المعانى: «إنَّ أشرفَ كمالاتِ القوة النظريةِ معرفةُ أن لا إلهَ إلا اللهُ ، وأشرفَ كمالاتِ القوة العمليةِ الإِتيانُ بالأعمال الصالحةِ الواقيةِ من خزْى يومِ القيامةِ ، وقد قَدَّم سبحانه قولَه: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ على قوله ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ للإشارة إلى أن ما يَستندُ إِلى القوة النظريةِ أعلى كمالًا ممَّا يَستندُ إلى القوة العمليةِ ، وأنَّ الكمالَ الإنسانىَّ باعتبار هاتين القوَّتين يُسمَّى كمالًا نفسيًا، وللإِنسان كمالاتٌ أُخرى هى كمالاتُه البدنيةُ وقوتُه الحيويةُ».

ثم شَرَعت الآياتُ فى بيان أدلةِ التوحيد ، واتصافِ ذاته العلية بصفات الجلالِ والإكرام ، والتنبيهِ على أنَّ كلَّ واحدٍ منها كافٍ فى صَرْف المشركين عما هم فيه من الشرك ، إذا هم أنعموا النظرَ ، وجالُوا بالفكْر متدبرين فى آيات القدرةِ وبراهينِ العظمةِ والوحدانية ، إنها ظاهرةٌ جليةٌ فى خلْق السموات والأرضِ على هذا النحوِ البديعِ وما فيهما من الغرائب والعجائبِ ، وفى خلْق النوعِ الإنسانى من ماءٍ مهين ، ومن هذا الماءِ يَتِمُّ بناءُ هذا الإنسانِ المفكِّرِ المتحدِّثِ المخاصِمِ المُجادلِ ، فكيف يتمُّ ذلك؟ ومَن الذى أودعَ فى هذا الماء تلك الخاصيةَ؟ وكيف يَنبُتُ منه اللحم والعصَبُ والعظمُ والجوارح؟ ، تأمل وقل: سبحان الخالقِ العظيمِ الذى أعطى كلَّ شىءٍ خلْقَه ثم هدَى ، وما أقبح الإنسانَ حين يجادلُ فى أمر البعثِ شاكًّا أو منكرًا، ودلائلهُ قائمةٌ فى نفسه وفيما يُحيط به.

وقد خلقَ اللهُ لهذا الإنسانِ ما ينتفعُ به من الأنعام ، وسائرِ الدواب وقد تفضَّل سبحانه على عباده بأن أرسل الرسلَ ، وأنزل الكتبَ لدعوة الناسِ إلى طريق الهُدى ، وإرشادهم إلى ما فيه صلاحُهم وخيرُهم ﴿وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩]

أى بيان طريق الهُدى. ثم مَن الذى جعَل للكون سُننًا ، وخلَق أسبابًا ، بها يتحققُ التسخير ، ويتمُّ التكاملُ الذى تعودُ منافعُه على الإنسان؟ مَن الذى يُنزّل المطرَ من السماء وبه حياةُ الأرض ، ومنها أرزاقُ الخلْق من الزروع والثمارِ والفواكهِ والحبوب؟ ، وفى نطاق هذه السُّنن تَمَّ تسخيرُ الليل والنهار ، والشمس والقمرِ والنجوم ، وبَثَّ سبحانه فى الأرض ما اقتضته الحكمةُ والإرادةُ من: الحيوان ، والنباتِ ، والمعادنِ مع تعددِ الأشكال ، وتنوُّعِ الخواصِّ ، واختلافِ المنافع ، وبهذا التسخيرِ

تَمَّت للإنسان مصالحُه ، واكتملت له منافعُه وبه تَرقَى معيشتهُ ، ويُؤدِّى دورَه ، وعليه أن يعبُدَ ربَّه ، ويشكرَه ، ويحمدَ له فضلَه وإنعامَه ، وإنَّ كلَّ ما فى الكون يهتفُ به أن قل: سبحان الخالقِ العظيمِ الذى سَخَّر لنا هذا كلَّه ، وجعَل للإنسان البحرَ مطيةً على قوته وعنفه ومخاوفه، وجعله من مصادر أمنه الغذائى ، ورافدًا من روافد تجارته ، فمنه اللحمُ الطرىُّ، ومنه اللؤلؤُ والمَرجان ، وعلى ظهْره تُنقَلُ الخيراتُ والبركاتُ بين البلدان ، وقل ما شئْتَ من البراهين الدالةَ على القدرة والرحمة فى هذا الخَلْقِ العظيم! فهلَّا قُمنا بحقِّ نِعَمِ اللهِ تعالى بالطاعة والتوحيد.

كما لفت سياقُ السورة إلى الجبال الرواسى ، والأنهارِ الجارية والسبُلِ المسلوكة ، والطرقِ الممهَّدةِ والمعالمِ التى تَستدِلُّ بها السابلةُ من جبَل ومنهلٍ ونحوِهما ، والنجومِ التى يُهتدى بها فى الليل فى البَرِّ والبحر ، لفتت السورةُ إلى هذا وغيرِه ليكونَ الإيمانُ عن دليل، وبرهان فتلك آياتٌ تكوينيةٌ فى كل منها من العِبر والبراهينِ ما ينطقُ بكمال قدرةِ الخالق ، وكمالِ سلطانه وتدبيرِه ، وفيها من دلائل الرحمةِ بالعباد ما يَجلُّ عن الحصرَ ، فكيفَ يُنكَرُ فضلُ الربِّ؟ وكيف يُعْبَدُ غيرُه؟ وكيف يُتَوَهَّمُ فى حقِّه الشريكُ والحاجةُ إلى الولد والصاحبة! تعالى اللهُ عن ذلك علوًّا كبيرًا.

ولله درُّ القائل متأملًا روضةً بألوانِ زهورها وورودها:

تأمَّـــل فى رياض الوردِ وانظُـــر إلى آثار ما صنَع المليكُ
عيــونٌ من لُجَينٍ شَاخصاتٌ على أهـــدابها ذَهَبٌ سبيكُ
على قضيب الزبرجدِ[1] شاهداتٌ بأنَّ اللهَ ليس لـه شريكُ

(١) اللُّجين: الفضة، والزبرجد: حجرٌ كريٌم يشبه الزمرُّدَ له ألوانٌ كثيرة منها الأخضر والأصفر، وفى الأبيات تشبيهات بديعة.

إن التأملَ من صفات ذوى العقولِ والأفهام ، وقد حَرَص سياقُ السورة عليه ، ودعا إليه بِمثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَلِك لآيَةً لِّقَوم يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿ إِنَّ فِى ذَلِك لآيَاتٍ لِّقَومٍ يَعْقِلُونَ﴾ ﴿ إِنَّ فِى ذَلِك لآيَةً لِّقَومٍ يَذَّكَّرُونَ﴾.

فهل من العقل والحكمة أن يُشَبَّهَ المخلوق بالخالق فيُعبدَ من دون الله: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾ أى: أفمن يخلُق هذه الأشياءَ البديعةَ أو يَخلُقُ كلَّ شىءٍ يُريده مِثْلُ مَن لا يخلق شيئًا مَّا ، جليلاً أو حقيرًا ، وفى هذا تبكيتٌ للكفَرة ، وإبطالٌ لإشراكهم وعبادتهم غَيرَهُ تعالى شأنُه من الأشخاص أو الأصنام ، وفى الاستفهام إنكارٌ وتوبيخٌ. والمرادُ بمن لا يخلُق: كلُّ ما هذا شأنُه مِن ذوى العِلْم كالملائكة وعُزيرٍ وعيسى عليهم السلام ، وغيرهم كالأصنام ، وجاءت ﴿مَن﴾ وهى اسم موصولٍ للعقلاء تغليبا لذوى العِلْم على غيرهم.

وكان حقُّ الكلامِ بحسب الظاهرِ فى بادئ النظر: أفمن لا يخلقُ كمن يخلق؟ أى: أَتُشبِّهون العاجزَ المحتاجَ ، بمَن له كمالُ القدرة ، وكمالُ العظمة الذى يقول للشىء كن فيكون ، وجميع الخلْقِ تحت قهرِه وسلطانِه ، لكنَّ التشبيهَ فى الآية جاء على العكس تنبيهًا على أنهم بالإشراك بالله سبحانه جعلوه من جِنس المخلوقاتِ شبيهًا بها ، وهذا من فَرْط الجهلِ وَعَمى البصيرة ، يقول صاحبُ الكشاف: «حين جعلوا غيرَ الله مثل الله فى: تسميته باسمه والعبادةِ له ، وسَوَّوْا بينه وبينه ، فقد جعلوا اللهَ تعالى من جنس المخلوقات وشبيهًا بها ، فأنكَر عليهم ذلك بقوله: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾. [النحل: ١٧]

﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أى: فتعرفوا فسادَ ذلك ، فإنه لجلائه كالحاصل

للعقل الذى يحضرُ عنده بأدنى تذكُّر والتفات[1].

وبعد تفصيل ما فَصَّل من آيات قدرتِه التى هى أدلةُ التوحيد وتوبيخ المشركين على جعلهم لله ندًا نَبَّه إلى كثرة نِعَمِه فقال: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحصُوهَا إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَّحِيم ﴾ [النحل: ١٨] فله الحمدُ سبحانه علَى فضله، فهو يُعطى الجزيل، ويقبل من عبده اليسيرَ، ويتجاوز عن التقصير فى أداء شكر النعم، ولا يقطعُها عَنَّا لتفريطنا، ولا يعاجل بالعقوبة على كفرانها، وقد جاء بيانُ سعة رحمته، وستره عيوبَ عبادِه مؤكَّدًا باسمية الجملةِ، وبإنَّ الناسخة، ولامِ الابتداءِ الداخلةِ على خبر إن، وهذه بُشرى للتائبين.

وفى مقام التحذير من التمادى فى الغفلة والإعراض نبَّه سبحانه على عظيم قدرتِهِ وإحاطة علْمِه بعقائد عبادِه وأعمالِهم ﴿ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُون ﴾ [النحل: ١٩] ثم شَرَع السياقُ فى تحقيق أنَّ آلهتهم بمعزِلٍ عن استحقاق العبادة، وتوضيحِ ذلك بحيث لا يَبقَى فيه شائبةُ ريب بتعداد أحوال هذه الآلهة المنافية لذلك منافاةً ظاهرةً ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لا يَخلُقُونَ شَيْئًا وَهُم يُخْلَقُون ۞ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُون ﴾ [النحل: ٢٠و٢١]

فكيف تُرجَى أو تُخافُ وهى مخلوقاتٌ لا تَملِكُ لنفسها نفعًا ولا ضُرًّا؟

والكلام متصل:

❊ ❊ ❊

(١) العبارة للبيضاوى

٢١٤- ب- نطقت الآياتُ بالوحدانية فَلِمَ التكبُّرُ والغرور ؟

إِن توحيد الألوهيةِ سطَعت براهينُه ، وفى السماء والأرضِ قامت دلائلُه.

وقد لفتَت سورةُ النحْلِ إِلى المصنوعات وتناسقِها وتسخيرِها للاستدلال على وجود الصانع ، كما نبَّهت على تفرُّده سبحانه بالخلْق ، والإِيجاد وعلى توالى نعَمه ، وحثَّت على التأمل والتدبُّر ، وإِجالة الفكْرِ فى الآيات وما تَشْهَدُ به من كمال القدرةِ ، وكمال الحكمة ، وكمالِ التدبير وما تدلُّ عليه من استحالة الشركِ وبطلانِه ، واستحالةِ أن يكونَ لله وَلَدٌ أوْ صاحبهٌ أو ندٌّ.

وقد أثارت الآياتُ فى مطلع السورةِ الكريمةِ كوامنَ الفكرِ والإِحساسِ بروعة الأساليب ، وقوةِ التراكيب ، وتنوُّعِ التعبير بين الخبرِ ، والإِنشاء والإِطنابِ والإِيجاز ، مما يُوقظُ القلبَ ، ويُنبِّهُ العقلَ ، ويَبعثُ على النظر والتدبر ، ولنتدبر: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾؟ وما يحملِه الاستفهامُ من إِنكارٍ وتقريعٍ ، أى: أبعد سُطوعِ البرهان ، وظهور دلائل التوحيدِ تُتَصَوَّرُ المشاركةُ والمشابَهةُ بين كاملِ القدرةِ والعاجز ، بين مَن خلَق هذه المصنوعات العظيمةَ ، ومَن لا يقدُر على شىء أصلًا ، ثم ذُيِّلَت الآيةُ باستفهامٍ يحثُّ على التذكر واسترجاعِ صُوَرِ المصنوعاتِ: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧]

لأن فى ذلك ما يَقتضى إِبطالَ الشرك ، ويُقِيمُ البرهانَ القاطعَ على التوحيد ، وهذا أمرٌ واضحٌ يحتاجُ إِلى مُجرَّد التذكرِ والتنبُّه ، وفيه كفايةٌ لكل مَن فَهِمَ وَعقَلَ واعْتَبَر ، ولا يحتاج إِلى دقيقِ الفكْرِ والنظرِ.

وفى الاستفهام - أيضًا - توبيخٌ لمن يُقيم على فسادٍ فى العقيدة، ويُعطى مَن لا يستحقُّ ما لا يَستحقُّ من الدعاء أو النذرِ أو الخوفِ والرجاءِ ونحوِ ذلك من حقوق الإله الواحد الفردِ الصمد ، كما قال تعالى من سورة الأعراف: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُم صَادِقِينَ﴾ [الآيه: ١٩٤]

ومن سورة الأحقاف: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ اللهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَومِ الْقِيامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ [الآية: ٥]

ثم لفَت السياقُ إلى نِعَمِ اللهِ عزَّ وجل ، وما تفضل به على العباد مما يستحيلُ عليهم عَدُّه وإحصاؤُه ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوهَا﴾ وهذا يؤكِّدُ حقَّه وحده فى العبادة ، ويؤكدُ نَفْىَ الشركةِ ، وكم فى بَدَنِ الإنسانِ من النعم؟ بل كم فى البصَرِ والسمْعِ والشَّمِّ والذوق من النِّعم! وقُل ما شئتَ عن العظام ، والمفاصلِ ، والأوردةِ والأعصابِ والمخِّ والعقلِ والتذكُّرِ والشعورِ والإدراكِ والفهْمِ والمشْى والبطشِ ، وما تؤديه الأمعاءُ والمعدةُ والكُلى والشُّعيراتُ والحنجرةُ من منافعَ للإنسان؟

وقد أَلَّف أطباءُ التشريحِ وما زالوا ، وفى كل يوم يُكشَفُ جديدٌ فى بدَن الإنسانِ وعينيه وسائرِ أجهزتِه وغير ذلك ممَّا أنعم اللهُ به على عبده وجعله برهانًا قائمًا ينطقُ بلسان قوىٍّ فصيحٍ ثابتٍ بأن لى خالقًا خلَقنى على مقتضى حكمته ، وصانعًا صنعنى بإرادته وحده ، وبكمالِ قدرته وهو خالقٌ واحدٌ يجبُ علينا شكرهُ ، وطاعتُه ، والانقيادُ لأمره ، واتباعُ نبيِّه ، فمَن فعل غيرَ ذلك فقد أهان عقلَه ، وسفَّه فِكْرَ نفسِه وضيَّع مستقبلَه ، وهيَّأ لرُوحه حياةً فيها شقاءُ الأبَد بسوء اختيارِه ، وفسادِ تدبيره.

(١٣٩٩)

وإذا انتقل العبدُ من تأمُّل ما أنعَم اللهُ به عليه فى نفسه وذاته من القُوى المادية والمعنوية إلى ما أنعم اللهُ به عليه خارجَ ذاته ، ممَّا لا قِوامَ له إلَّا به وقد سُخِّرت له السماءُ وما فيها ، والأرضُ وبركاتُها ، وبالتناسق بينهما يكونُ الهواءُ والنسيمُ واختلافُ الفصولِ ونزولُ المطر ، وإحياءُ الأرضِ وغيرُ ذلك مما تتوقفُ عليه الحياةُ على الأرض ، ومنه يَجدُ الإنسانُ ما يحتاجُ إليه ، ويَترقَّى به حياتُه ، إن ذا العقلِ والبصيرة إذا تأمَّل ذلك وتدبَّرَ جريانَه على سَنَنٍ لا يتخلَّف ، لخرَّ شاكرًا للهِ أَنْعُمَه مُقِراً بالعجز عن الوفاء بحقِّها من الشكر.

ومن فضل اللهِ عزوجل أنه لم يترك الإنسانَ سُدًى بلا ضوابط تحددُ له مسالكَه ، وبلا هادٍ يرشدُه ، فأرسل سبحانه الرسلَ ، وأنزل الكتبَ ، وفيها مصالحُ الدينِ والدنيا ، والهدايةُ إلى ما ينفعُه فى الحياتين وهذا من أَجلِّ النعم.

ثم إن العبدَ مهما بذَل من جُهد فى الشكر والطاعة فلن يستطيعَ الوفاءَ بأداء ما يقابِلُ هذه النعمَ الجليلةَ من الشكر ، فرحِمَ اللهُ عبادهُ ، وقَبِلَ منهم اليسيرَ مع الإخلاص ، وأخبر عبادهُ أنه ستورٌ يتجاوزُ عن تقصيرهم فى الشكر ، رحيمٌ لا يقطعُ النعمةَ عنهم بسبب عصيانِهم ، ولايعاجلُ بالعقوبة على كفرانها ، ومن تاب تابَ اللهُ عليه ، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ومن خصائص الألوهيةِ العلمُ بما يَجرى فى نفس العبد ، وبما يدورُ فى قلبه ، ويستوى فى علْمِه سبحانه بواطنُ الناسِ وعلانيتُهم ، أمَّا الأصنامُ والأندادُ فليس لها إلى ذلك سبيلٌ ، فكيف تُرْهَبُ ، وتُرْجَى؟ : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ فهو وحده الذى يُتَّقَى ، ويُخْشَى

وهو وحده المستحقُّ للعبادة ، لأنه سبحانه الخالقُ ، المنعمُ ، العالمُ بكل المعلومات سرِّها وعلانيتِها.

أمَّا آلهةُ الكفارِ فليس من شأنها ذلك ، وليس لها أدْنَى شركةٍ فى الخلق والتدبير: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُم يُخْلَقُونَ﴾

ومعنى دون: أدنى مكانٍ من الشىء ، ثم استُعير فى كل ما تَجاوز حدًّا إلى حدٍّ ، وتخطَّى حُكمًا إلى حُكم ، أى : وآلهتُكم التى تعبدونها متجاوزين الله لا يخلُقون شيئًا ألبتةَ مهما دقَّ وصَغُر ، وليس من شأنهم ذلك لأنهم عجزةٌ : ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ ومن شأن المخلوقِ الحدوثُ والفناءُ إذِ الموتُ مكتوبٌ على كلِّ ذى رُوحٍ ، والأصنامُ جماداتٌ فلا حياةَ فيها ، فكيف يُعبَدُ مَن هذا شأنُه؟ إذْ إن الذى يَستحقُّ أن يُعبَدَ هو الحَىُّ الذى لا يموتُ.

الأولُ بلا بداية ، والآخرُ بلا نهاية ، الباقى بعد فَناء الخلْق.

عالمُ الغيبِ والشهادةِ ، ولا يعلمُ متى تقومُ الساعةُ إلا هو ، أمَّا آلهةُ المشركين فهى: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحياءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ فهى لاتعلمُ متى يُبعث عَبَدَتُها للحساب.

والشعورُ: هو العلمُ أو مَباديه ، والمشاعرُ هى الحواسُّ ، ومعنى: لا تشعرون: لا تُدركون بالحواسِّ.

قال الراغب: يقال: شعَرْتُ أى: أصبْتُ الشِّعرَ ، ومنه استُعير شعَرْتُ بكذا ، أى: علمتُ علمًا فى الدقة كإصابة الشِّعْر.

و﴿أيَّان﴾ عبارةٌ عن وقْت الشىء ، ويقارب معنى متَى.

وبعد سَوْقِ البراهينِ ، والحِجَاجِ العقلىِّ لإبطال الشركِ وإقامةِ الدلائلِ على الوحدانية قال سبحانه: ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ واحِدٌ فَالذِينَ لا يُؤمِنُونَ

بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون﴾ [النحل: ٢٢] يَعنى: أنه قد ثبَت بما تقدَّم من إبطال أنْ تكونَ الإلهيَّةُ لغيره سبحانه ـ ثبَت ـ أنها له وحْده لا شريكَ له، فكان من نتيجة ثباتِ الوحدانيةِ ووضوحِ دليلِها استمرارُ المعاندين على شركهم، وعلى أنَّ قلوبَهم منكرةٌ للوحدانية، وهم مستكبرون عنها وعن الإقرار بها.

إن هؤلاء المستكبرين أهلُ مكرٍ وخبثٍ، يُضمِرون الكيدَ للحق، وأهله وما درَوا أن الله يعلمُ ما فى نفوسهم، وأنه معاقبُهم: ﴿لا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [النحل: ٢٣]

لا جَرم: أى: حقًّا أنَّ اللهَ يعلمُ سرَّهم وعلانيتَهم فيُجازيهم، وهو وعيدٌ ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ يجوز أن يريدَ المستكبرين عن التوحيد يَعنى المشركين، ويجوزُ أن يَعُمَّ كلَّ مستكبر، ويَدخُلَ هؤلاء تحت عمومه.

والاستكبارُ: رفْعُ النفسِ فوق قَدْرها، وجحودُ الحقِّ، وإن الحقَّ إذا تبيَّن كان تركهُ تكبُّرًا.

وإن الكِبرَ رأسُ الشرِّ كلِّه، قال العلماء: إن كلَّ ذنبٍ يُمكن التسترُ منه وإخفاؤه إلا الكبرَ، فإنه فِسقٌ يلزمُه الإعلانُ، وهو أصلُ العصيانِ كلِّه، وفى الحديث: «يُحْشَرُ المتكبِّرون أمثالَ الذرِّ يومَ القيامة، يَغْشاهم الذُّلُّ من كلِّ مكان» وفيه: «يُسقَون من عُصَارةِ أهل النار: طينةِ الخَبال»

[رواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدِّه وأخرجه الترمذى]

وفى الحديث الذى رواه ابنُ مسعود: «لا يدخلُ النارَ مَن كان فى قلبه مثقالُ حَبَّة خردلٍ من إيمانٍ، ولا يدخلُ الجنةَ مَن كان فى قلبه مثقالُ حبَّةِ خردلٍ من كِبْر» [أخرجه مسلم وأبو داود والترمذى]

والمراد بالكِبْر هنا: كِبْرُ الكُفر والفسوقِ لمقابلته إياه بالإيمان.

وقد أحسن مَن قال:

ولا تمْشِ فوق الأرضِ إلا تواضعًا وكم تحتها قومٌ همو منك أرفعُ
فإن كنتَ فــى عِــزٍّ وحِـرْزٍ ورِفعَةٍ فكم مات أقوامٌ همو منك أمنعُ

إن التواضعَ بابٌ من أبواب الجنة ، والفخرَ بابٌ من أبواب النار والعاقل يختار لنفسه الخيرَ.

وقد اختلف اللغويون فى معنى لا جَرَمَ: فمِن قائل: إنها اسمٌ بمعنى حقًّا ومن قائل : إنها فعلٌ بمعنى حَقَّ وثَبَتَ.

قال الفراء: إن «لا» نافية للجنس و«جَرَم» اسمُها مبنىٌّ على الفتح فى محلٍّ نصْب ، والمعنى عنده: لابُدَّ من كذا ، أو لا محالةَ فى كذا فحُذِفت مِن أَوْ فِى.

وهى عند الخليل بمعنى حقًّا ، لأنها كلمةُ تحقيق ، ولا تكون إلا جوابًا، يقال: فعلوا كذا ، فيقال لا جَرَم سيندمون.

وقال الكسائى: معنى لا جَرَم: لا مَنْعَ ولا صَدَّ عن كذا ، وقيل: إنها مركَّبةٌ من: لا وجَرم تركيبَ خمسةَعشرَ: ومعناها بعْد التركيبِ فِعْلٌ ، وهو: حَقَّ وثَبَتَ ، وما بعده فى تأويل مصْدَرٍ (من أنَّ ومعموليها) فاعلُه ـ هذا بعضُ معانى «لا جَرَمَ» ـ.

وإن المستكبرين من أهل مكةَ ، كانوا يسعَون للصدِّ عن سبيل الله وكانوا إذا سُئلوا عن القرآن ، عدلَوا عن الجواب وقالوا هو: «أَسَاطِيرُ الأَوَّلين» أى أباطيلُهم وتُرَّهاتهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ۞ لِيَحْمِلُوٓا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: ٢٤و٢٥] أى قالوا: لم

يُنزِل اللهُ شيئًا عليهﷺ ، وإنما هو من أحاديثِ الأممِ السابقة ، قالوا ذلك إضلالًا للناس وصدًّا عن الحق ، فحملُوا آثام أنفسِهم ، وأوزارَ ضلالِهم كاملةً ، كما حملَوا وِزْرَ الإضلالِ لأن الضالَّ والمُضِلَّ شريكان ، هذا يُضِلُّه ، وهذا يُطاوِعُه على إضلاله فيتحاملان الوِزْر ، يعنى أنهم يَحملون إثْم أنفسِهم وإثمَ إضلالِ مَن أَضلُّوهم من غير أن يَنقُصَ من إثم هؤلاء شيءٌ.

والوِزْرُ: الحِمْلُ الثقيل ، وقد استُعير للذنب والإثمِ من جَعْلِ المعنوىِّ فى صورة الحسىِّ.

وقوله: ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أى: إنهم يُقْدِمُون على إضلال غيرهم بغير علْمٍ بما يَستحقونه من العقاب على ذلك الإضلال.

﴿ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ أسلوبٌ للذمِّ بمعنى: بِئْس أى: ألا بِئْس ما يحملون.

لقد فعل المتعنتون من أهل مكةَ مثلَ ما فعل المكابرون من الأمم قبلهم مع رسلِهم ، سعَوا إلى الصدِّ عن الحق بالمكْر والخديعة ، وتدبير المكايدِ للمؤمنين ، يريدون ليطفئوا نورَ الإسلام بأفواههم ، فجعلهم الله عِبْرةً لَمن يعتبر ، وأبطل كيْدَهم ، ونصر أولياءَه ، وأعلى دينَه ، وقد صورَ السياقُ ذلك تصويرًا بديعًا ، وضرَب له مثلًا رائعًا ، ولنتدبر: ﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النحل: ٢٦]

ولك أن تتمثلَ بُنيانًا بَذَل فى بنائه أصحابُه جهدًا كبيرًا ، ووقتًا عظيمًا ، ومالًا وفيرًا ، وأرسَوْا قواعِدَه ، وأحكموا جُدرَه وأساطينَه ، ثم انشقت به الأرض ، وضربتْه الأعاصيرُ فتصدَّع فجأةً وانهار على أصحابه.

وهذا مثلُ الباطِل يتمادى ثم ينهار. . . .

ونلتقى مع هذا المَثَل إن شاء الله.

٢١٥ - ج - فأتى الله بنيانهم من القواعد

المكرُ معناه: الاحتيالُ والخديعةُ ، يقال: مكَر به يمكُر مكرًا فهو ماكرٌ والمبالغةُ مكّار.

لقد احتال عتاةُ المشركين فى مكةَ على صرف الناسِ عن الاستماع من رسول اللهِ ﷺ ، وسعَوا بكل ما فى طاقتهم من الخديعة ، لصَدِّهم عنه وتنفيرِهم من الإِسلام ، قاصدين أن يُطفئوا نورَ اللهِ بأفواهٍ مريضةٍ بالحسد، وبعقولٍ عليلةٍ بالمكْر والحِقد ، ولكنَّ اللهَ يأبى إِلا أن يُتِمَّ نورَه ولو كَرِه المشركون.

إِن الحقَّ سلاحُه البرهانُ ، وبناءُ صرحِه يقومُ على الدليل والبيان ، أما الباطلُ فلا قواعدَ له ولا أركان ، ويقوم بنيانُه على الباطل والزور ، وفى المثل: «الحقُّ أبلجُ والباطلُ لـجْلَج» ، فالحقُّ واضحٌ على استقامةٍ ، وله نورٌ إِلى القلب كنور النهارِ وضوء الشمس ، والباطلُ غامضٌ ملتوٍ مُتحيِّرٌ متردِّدٌ على عِوَجٍ وانحرافٍ كظُلُماتٍ بعضُها فوقَ بعض.

وإِن عُتاةَ المشركين المتعنِّتين فى كل عصرٍ عاندوا الحقَّ ، وآذَوا الرسل،
﴿ومَكَرُوا مكرًا كُبَّارًا﴾ [الآية: ٢٢ من سورة نوح عليه السلام]

أى: عظيمًا بالغَ الغايةِ فى العِظَم: وتضافرت جهودُهم على إِحكامه وإِتقانه وحبْكِ أطرافه ليكيدوا للرسل عليهم السلام ، وكان اللهُ عزَّ وجل لهم بالمرصاد ، يُملى لهم ويَستدرجُهم من حيث لا يعلمون ، وقد نصَر عبادَه المرسلين ، وأعزَّ جندَه ، وأتمَّ نورَه ، وما حدث لقومِ نوحٍ، ولعادٍ وثمودَ ، وأصحابِ مدين ، وقومِ إِبراهيمَ ، وقومِ لوط ، ولفرعونَ وجندِه ، ثم ما حدث لزعماء المشركين فى بدْرٍ الكبرى ولرءوسهم قبل

الهجرة ، وللمنافقين وأعوانِهم فى المدينة فيه عظةٌ وعبرةٌ.

وقد صوَّر السياقُ من سورة النحلِ ما حَلَّ بهؤلاء من العقوبة ، وما آل إليه مكرُهم وكيدُهم من الضَّياع والبطلان تصويرًا بديعًا مُجَسَّمًا تسليةً للنبى ﷺ ، ووعيدًا للمشركين ، ولنتدبر قوله تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أى سَبَق مشركى مكةَ بالكفر أقوامٌ مع الرسل المتقدمين فكانت العاقبة الجميلةُ للرسل ، يَعنى قد مكَر أهلُ مكةَ كما مكَر الذين من قبلهم ، وصار المكرُ سببًا لهلاكهم لا لهلاك غيرِهم ، وقد جاء تصويرُ ضياعِ المكر هباءً وسوءِ العاقبة رائعًا ، دالاًّ أعظمَ دلالةٍ على الفشل التامِّ ، والهلاكِ المُحقَّق ، ولنتدبر: ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ﴾ جمعُ قاعدة ، وقواعدُ البنيان: أساسُه أو أساطينُه ، أى قصَد اللهُ تخريبَ بنيانهم من جهة أصوله وأساسه؛ لأنه إذا اختلَّت القواعدُ سقَط البناءُ ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ يعنى سقط عليهم سقفُ بنائِهم فأهلكهم وقوله: ﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾ إطنابٌ يفيدُ التأكيدَ ليُعْلَمَ أنهم كانوا حَالِّين تحته ، والعربُ تقول: خَرَّ علينا سقفٌ ، ووقَع علينا حائطٌ، إذا كان يَملِكُه وإن لم يكن وقَع عليه ، فجاء بقوله: ﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾ ليُخرِج هذا الشكَّ الذى فى كلام العرب ، وليُفيدَ أنه وقَع عليهم وكانوا تحتَه فهلكوا ، وما أَفلتوا.

﴿وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ﴾ أى من حيث ظنُّوا أنهم فى أمان ، ومن حيث لايتوقَّعون إلا إتيانَ ما يُقابل العذابَ مما يريدون ويشتهون ، وتنعمُ به نفوسُهم فى هذا الصرحِ المشِيد.

هذه الصورةُ الحيةُ المجسَّمَةُ بما فيها من حركةٍ قويةٍ مثَّلت حالَ المشركين فى مساعيهم لإبطال الحقِّ والكيدِ له ، وما آلتْ إليه هذه المساعى من

الفشل والضياع ، وقد جاء عند ابن كثير: هذا من باب المَثَل لإبطال ما صنعه هؤلاء الذين كفروا بالله ،وأشركوا فى عبادته غيرَه ، كما قال نوحٌ عليه السلام: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾ أى: احتالوا فى إضلال الناسِ بكل حيلةٍ ، وأمالوهم إلى شركهم بكلِّ وسيلة.

وقال صاحب الكشاف: وهذا تمثيل ، يعنى: أنهم سَوَّوا منصوباتٍ ليمكروا بها اللهَ ورسولَه ، فجعل اللهُ هلاكَهم فى تلك المنصوباتِ كحال قومٍ بنَوا بنيانًا وَعَمَدُوه بالأساطين ، فأُتِىَ البنيانُ من الأساطين بأن ضُعضِعَت ، فسقط عليهم السقفُ ، وهلكوا. كما جاء فى المثل: «مَن حفَر لأخيه جُبًّا وقَع فيه مُنكبًّا».

وقال الخازن: فهو مثَلٌ ضربه الله سبحانه وتعالى لمن مكَر بآخرَ فأهلكه الله بمكره ، ومنه المَثَلُ السائرُ على ألسنة الناس: «من حفر بِئرًا لأخيه أوقعه اللهُ فيه».

وهذا المثلُ يصور لنا الإهلاكَ المادىَّ الذى لَحِقَ ذواتِ الماكرين ، كما يصور بطلانَ مكايدِهم ، وضياعَ جهودِهم هباءً ، أى ما هو معنوىٌّ وما هو حسىٌّ ، وإعلاءَ دينِه سبحانه.

قال القرطبى: وقيل إن قوله: ﴿فَأَتَى اللهُ بُنْيَانَهم مِّن الْقَوَاعِدِ﴾ تمثيلٌ والمعنى: أَهْلَكهم فكانوا بمنزلة مَن سقَط عليه بنيانُه ، وقيل: المعنى أحبط اللهُ أعمالَهم ، فكانوا بمنزلةِ مَن سَقَط بنيانه ، وقيل: المعنى أبطل مكرَهم وتدبيرَهم فهلكوا كما هلك مَن نزل عليه السقف من فوقه (*).

(*) ينبغى لنا أن نلتفتَ هنا للعبرة إلى الانهيار المفاجئ الذى قوَّض أركانَ بنيان الكتلة الشيوعية، بعد ما مكر أساطينُها ودهاتُها مكرًا كبارًا، وبطشوا، وروعوا، وأحاطوا دول هذه الكتلة بستار حديدى ، وحكموا الناس بقبضات فولاذية غايةٍ فى العنف والقسوة لنحو سبعين عامًا حين كتابة هذه السطور فى عام ١٤١٢ من الهجرة (١٩٩١ من الميلاد) =

فتأملِ الحركةَ والقوةَ فى زلزلة الأرضِ وانشقاقِها تحت البنيان ، والريحُ تضرِبُ وتُخرِّب ، وتأمل انهيارَ ما ظنوه غايةً فى الإِحكام ، سواءٌ فى المعانى والمساعى والأفكار أو فى الأشخاص والبنيانِ الاجتماعىِّ الفاسدَ القائمِ على عقائدَ باطلةٍ، وسخافاتٍ فى الفِكْر، وضلالٍ فى الاتجاه وبُعدٍ عن الله عزوجل، ومعاداةٍ للحق وأهلِه، وسبحان مَن يقول للشيء كن فيكون.

هذا جزاءُ ومآل أهلِ الباطل ومكرهم فى الدنيا ، أمَّا فى الآخرة فالأمرُ أعظم ، والخطبُ أجلُّ وأكبرُ: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِىَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ﴾ [النحل: ٢٧]

وإخزاؤُهم يومَ القيامة يكون: بإظهار فضائحِهم ، وما كانت تُجِنُّه ضمائرُهم ، فيجعلُه علانيةً ، ويُظهِرُ للناس ما كانوا يُسرُّونه من المكر ويُخزِيهم على رءوس الخلائق ، ويقول لهم الربُّ مُقرِّعًا وموبخًا: أين شركائى الذين كنتم تحاربون وتعادون فى سبيلهم ، أين هم عن نَصركم وخَلاصكم ها هنا؟ كما قال تعالى من سورة الشعراء: ﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾؟ [الآية: ٩٣] لقد زعمتم أن لله شركاءَ وعبدتموهم من دونه وعاديتُم الأنبياءَ بسببهم ، وها أنتم أُولاء اليوم تُذَلُّون وتُهانون ، فأين هم: ليدفعوا عنكم شيئًا من العذاب والمهانة.

والإِضافةُ فى قوله سبحانه ﴿شُرَكَائِى﴾ حكايةٌ لإِضافتهم ليوبِّخَهم بها على طريق الاستهزاءِ بهم، ﴿تُشَاقُّونَ﴾ أى تُعادون وتُخاصمون المؤمنين فى شأنهم.

فإذا توجَّهت على المشركين الحُجةُ ، وقامت عليهم الدلالةُ وحَقَّت عليهم الكلمةُ وأُسكِتُوا عن الاعتذار إِذ لا فِرَار: ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ

= وفوجىء الناسُ برءوس الجبابرة تتطاير، والبنيانُ الشيوعى يَخِرّ سقفُه عليهم من فوقهم، وتتداعى أركانه، ويظهرُ زيفُه، وتكشَّفت للناس بصورة أعظمَ عيوبُه ومساوئه مما يطول شرحُه، وفى كل يوم لربنا آية تدل على أنه الواحد الأحد يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد فهل من معتبر؟

﴿إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوٓءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [النحل: ٢٧]

وهذا تشريفٌ لأُولى العِلم الذين علِموا وعمِلوا ، وأعطَوا اللهَ حقَّه من التقديس والتنزيهِ والطاعةِ والإذعانِ ومنهم الملائكةُ ، والأنبياءُ والعلماء من جميع أممِ الأنبياءِ الذين كانوا يَدْعُون إلى الإيمان ، ويَعظُون ويَنصحون ، فلا يلتفتُ المكابرون إليهم ، ويتكبَّرون عليهم ، بل ويسخَرون منهم ، ويشاقُّونهم ، ويخاصمُونهم. يقول العلماءُ ذلك شماتةً بهم ، وزيادةً فى تحسيرهم وتأنيبهم. وقد حكى اللهُ ذلك من قولهم ليكونَ لُطفًا لـمَن سَمِعه ، وإن المتدبرَ فى هذا المشهدِ الأخروىِّ تدبرًا صحيحًا ليَجِدُ فيه عبرةً قويةً تهزُّ القلبَ ، وتؤثر تأثيرًا عظيمًا فى النفس.

كان المتكبرون فى الدنيا أصحابَ القوة والصولة يطاردون أهلَ الإيمان فى كل مكان ، ثم فى الآخرة يَغْشَاهم الذُّلُّ ،وتُتَاحُ الفرصةُ لأهل العلمِ والدعاة إلى الحق ليقولوا للملحدين المتعنتين: ﴿إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أى الهوانَ والذلَّ والعذابَ مُحيطٌ اليوم بمن كفر بالله وأشرك به ما لا يضره وما لا ينفعه ، وفى الجانب الآخر ترى الوجوهَ الناضرةَ المستبشرةَ فى مواكبَ من نورِ أعمالهم ، ويناديهم المنادى:

﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۞ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۞ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠]

ثم أخبر اللهُ عن حال المشركين الظالمى أنفسهم عند احتضارهم ومجىء الملائكة إليهم لقبْضِ أرواحهم فقال: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ﴾ [الآية: ٢٨]

﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ﴾ نَعْت للكافرين أى: الكافرين المستمرين على الكفر إلى أن تتوفَّاهم الملائكة ، أى يَقبض أرواحَهم ملَكُ الموت

وأعوانُه ، و﴿ظَالِمِى أَنفُسِهِم﴾ نصبٌ على الحال ، أى: وهم ظالمون أنفسَهم إذ أوردوها مواردَ الهلاك ، أو حالَ كونِهم مستمرين على الكفر والاستكبار ، ﴿فَأَلْقَوا السَّلَم﴾ أى الاستسلام ، وأظهروا السمع والطاعةَ والانقيادَ وأقروا لله بالربوبية قائلين: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوء﴾ أى من شركٍ ، وجَحَدوا ما وُجِدَ منهم من الكفر والعدوان ، فقالت لهم الملائكة أو رَدَّ عليهم أُولو العِلْم ﴿بَلَى﴾ قد كنتُم تعملون الأَسْواءَ ﴿إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُون﴾ [النحل:٢٨] فهو يجازيكم عليه وهذا أيضًا من الشماتة فيهم ، ويقال لهم: ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوى الْمُتَكَبِّرِين﴾ [النحل:٢٩] وتلك نهايةُ التكبرِ وبشاعتُه وسوءُ عاقبتِه ، أى بئس المَقِيلُ والـمُقامُ والمكانُ من دارِ هوانٍ ، لِمَن كان متكبرًا عن آيات الله واتباعِ رسله.

لقد جاءهم النذيرُ للتبصير ولكنهم: ﴿ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُم لآ إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَسْتَكْبِرون ﴾ [الصافات: ٣٥]

أمَّا أهلُ التواضعِ والرحمةِ ورقةِ القلب فالصورةُ تختلف تمامًا فى الدنيا والآخرة لأنهم أهلُ صِدق ، عاشوا فى نُور ، وعلى نور من اليقين الصادق ، ومعرفةِ حقوقِ الله والقيامِ بها ، وإن صورةَ حالِهم المشوقة للإيمان والطاعة تُبيِّنها الآياتُ من سورة النحل: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِى هَذِه الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِين۞ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُم فِيهَا مَا يَشَآءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِى اللهُ الْمُتَّقِين۞ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُون﴾ [٣٠: ٣٢]

من سورة القيامة :

٢١٦ - "والتفَّت السَّاقُ بالسَّاق"

هذه الآيةُ الكريمةُ من سورة القيامة ، وهى لإيجازها ، وعِظَم إيحائِها وقوةِ تأثيرِها ، اكتسبت صفةَ المثَلِ السائرِ بعد نزولها وشيوعها يُضْرَب فى الأمر الشديد الهول ، وفى المحنة العظيمة الكرب ، وقد جاءت فى مساق تصويرِ كرباتِ الموت ، وشدائد نزْعِ الروح ، وعند وَداعِ الدنيا واستقبالِ الآخرة ، ولنتدبر: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِىَ۝ وَقِيلَ مَنْ رَّاقٍ۝ وَظَنَّ أَنَّهُ الفِرَاقُ۝ والْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ۝ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ [الآيات: ٢٦-٣٠]

إِن الموتَ بابُ الدارِ الآخرة ، وهو مِن أُولى مقدماتها ، وإِن التنبيهَ للموت وشدائدِه يوقظُ من الغفلة ، ويبعثُ أهلَ الحكمة على التشمير فى طاعة الرب ، والازدجارِ عن تَعلُّق القلبِ بالدنيا ، وعلى إيثار عملِ الآخرةِ لأنه الباقى ، والدنيا وما فيها لها نهايةٌ ، وهى إلى نفاد.

ولـمَّا كانت نفوسُ الغافلين تتعلقُ بالعاجلة ، وتحبُّ المتاعَ الفانى ناسيةً الموتَ وسكراتِه ، وما بعد الموت وأهوالِه وشدائده قال سبحانه: ﴿كَلَّا﴾ وهى للردع والزجْر ، أى: ارتدعوا عن إِيثار الدنيا على الآخرة وتنبهوا لِمَا بين أيديكم من الموت المحقَّق ، واذكروا ما ينزل بكم من فادح الهول.

ثم وَصَفَ الحالَ التى تُفارِقُ فيها الروحُ البدن فقال: ﴿إِذَا بَلَغَتِ التَّراقِىَ﴾.

والضميرَ فى «بلَغَتْ» يَرجِعُ إِلى الرُّوح ، وإن لم يَجْرِ لها ذِكْرٌ لدلالة السياقِ عليها ، أى: إِذا بلغت الروحُ أعالِىَ الصدر ، وأشرفت على

الموت ، وَمِثْلُ هذا الإِضمارِ معهودٌ فى كلام العرب ، لدلالة السياقِ عليه ، ومن ذلك قولُ حاتم الطائى يخاطِب زوجه:

أمَا وِيُّ مَا يُغْنِى الثَّرَاءُ عن الفتىٰ   إذَا حَشْرَجَتْ يومًا وَضَاقَ بهَا الصَّدر

ومن الإعجاز قولُه تعالى: ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ۝ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴾ [الواقعة: ٨٣-٨٤]

والتراقى: جمعُ تَرقُوة ، والترقُوتان: عظمتان تمتدَّان يمينًا وشمالًا من ثُغْرَة النحر إلى العاتق ، وبلوغُ الروح التراقى: كنايةٌ عن مُشارفَة الموت وظهور أماراته ، وإن أهل الـمُحْتَضَرِ فى هذه الحالة ، يتجلَّدون عادةً ويتذرَّعون إلى الصبر على أمل البحثِ عن دواء ، فيقول بعضُهم لبعض حول فراشِ مريضِهم: مَنْ طَبيبٌ حاذقٌ تَروْنه ، لعله يَهتدى إلى دائه ويوفَّقُ إلى وصْف دوائِه؟ أو يَرْقيه بما يكون سببًا فى شفائه؟ وهذا المعنى نجده فى قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴾ أى: وقال مَن حَضر صاحِبَها: مَن يَرقِيه لعلَّه ينجو مما هو فيه؟.

والراقى: اسمُ فاعلٍ مِن رَقاه يَرقيه ، والرُّقْيَةُ وهى ما يَستشفِى به الملسوعُ والمريضُ من الكلام المعَدِّ لذلك ، ومنه آياتُ الشفاء ، ولعله أُريد به مُطلَقُ الطبيبِ أعمُّ مَن أن يَطِبَّ بالقول أو بالفعل بما يكونُ سببًا فى الشفاء ، والمقصودُ: هل من طبيبٍ يداوى بالقول أو بالفعل ووصْفِ الدواء.

والاستفهامُ بمعنى الطلَب كأنهم طلبوا له طبيبًا يعالجه ، أو راقيًا يَرقِيه ويَحتملُ أن يكونَ استفهامًا بمعنى الإنكار للاستبعاد كما يقال عند اليأس: مَن الذى يَقدرُ أن يَرقِيَ هذا الإنسانَ المُشرِفَ على الموت؟ قال الراغب: مَن راقٍ؟ أى مَن يرقيه؟ تنبيهًا على أنه لا راقى يرقيه فيجيبه ، وذلك على نحو ما جاء فى قولهم:

وَإذا المَنيَّةُ أنشبَتْ أظْفارَها ... أَلفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لا تَنفَعُ

والتميمةُ: خرزاتٌ كان العربُ يُعلِّقونها على أولادهم خوفًا من العَين وهو باطلٌ منهىٌّ عنه أشدَّ النهْى كما جاء فى الحديث: «مَن علَّق تَميمةً فقد أَشْركَ» [أخرجه أحمد والحاكم ورواه عقبة بن عامر]

وإياها أراد صاحبُ هذا البيتِ ، وقال قتادة: التمَسُوا له الأطباءَ فلم يُغْنوا عنه من قضاء الله شيئًا.

وحين يشعرُ الـمُحتَضَرُ بإدبار دنياه وإقبالِ آخرته وهو يعالجُ شدائدَ خروج الروحِ ويُعاينُ ملَكَ الموت يُوقِنُ ـ عندئذٍ ـ أنَّ مانزل به هو الفراقُ ـ فراق الأهلِ والمال والولدِ ـ من الدنيا المحبوبةِ ونعيمِها ، وقد ضيَّع العمرَ النفيسَ فى كسْب متاعِها الخسيس.

وسُمِّى هذا اليقينُ ظنًّا : لأن المرءَ ما دامت روحُه متعلقةً ببدنه يطمعُ فى الحياة لشدةِ حُبِّه لهذه الحياة العاجلة ، ولا ينقطعُ رجاؤُه عنها ، فلا يحصُل له يقينُ الموت ، بل الظنُّ الغالبُ مع رجاءِ الحياة: ﴿وَظَنَّ أَنَّه الْفِراق﴾ ، والظنُّ هنا عند أبى حيان على بابه وعند أكثرِ المفسرين على معنى اليقين ، وقيل سمى بالظن هنا على سبيل التهكُّم.

قال المزنى: دخلتُ على الشافعى فى مرض موتِه ، فقلتُ: كيف أصبحتَ؟ قال: أصبحتُ من الدنيا راحلاً ، وللإخوان مفارقًا ، ولسوء عملى ملاقيًا ، ولكأس المنية شاربًا ، وعلى الله واردًا ، فلا أدرى: أَرُوحى تصيرُ إلى الجنة فأُهنِّيهَا أم إلى النار فأعزِّيهَا ، ثم أَنشد يقول:

ولـمَّا قَسا قَلبى وضاقت مذاهبى ... جعلتُ رجائى نحوَ عَفْوك سُلَّما
تَعَاظَمَنى ذَنبِى فَلَمَّا قرنتُه ... بعفْوك ربِّى كان عَفْوُك أعظَمَا

ثم وَصَفَ نهايةَ الشدةِ التى نزلت بالـمُحتضَر بعد أن بلَغت روحُه

تراقيَه فقال سبحانه: ﴿ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاق ﴾.

وإِن العربَ تذكرُ الساقَ فى أمثالٍ مختلفة، وتُريد بها كلِّها اشتدادَ الأمر، والتحزُّمَ له، من ذلك قولُهم: قامت الدنيا على ساق، وذلك فى اشتداد المخاوفِ والمفازع، وإِذا حَمِىَ الوطيسُ قالوا: قامت الحربُ على ساق، وإذا اشتد الأمرُ وتعاظَم قالوا: شَمَّر عن ساقه، وكشَف الأمْرُ عن ساقه، ومن أمثالهم أيضا: قام فلانٌ على ساق، وقرَع فلاٌن للأمر ساقَه.

قال النابغة الجعدى:

أخو الحربِ إِن عضَّت به الحرب عضَّها وإن شمَّرتْ عن ساقها الحربُ شَمَّرا

وأصلُ هذا المثلِ: أنَّ مَن وقع فى شىء يحتاجُ فيه إِلى الجِدِّ، أو دهمتْه شدةٌ كشَف عن ساقه، فاسْتُعير الساقُ والكشفُ عنها فى موضعِ الشدة، من حيث إِن ظهورَها لازمٌ لظهور ذلك الأمر.

وفى قوله تعالى: ﴿ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاق ﴾ كنايةٌ عن اشتداد الأمرِ على الـميِّت وآلِه، فالتفَّت فى ساحتهم آخِرُ خُطوبِ الدنيا بأول خطوبِ الآخرة، فكأنه جعَل للدنيا والآخرةِ أو خطوبَهما سيقانًا تلتفُّ وتزدحمُ، قال ابنُ عباس: المرادُ التفَّت شدةُ فراقِ الدنيا بشدة لقاءِ الآخرةِ واختلطتَا، أى: قد جاء التعبيرُ بالتفاف الساقين عن التقاء الشدةِ بالشدة.

قال عطاء: اجتمع عليه شدةُ مفارقة المألوفِ من الوطن والأهلِ والولدِ والصديقِ، وشدةُ القدومِ على ربِّه جلَّ شأنُه، لا يَدرى بماذا يَقْدمُ عليه فالساقُ عبارةٌ عن الشدة وهو مثَلٌ فى ذلك، والتعريف للعهد، فهو التفافُ بلاءٍ ببلاء، وهو من تصوير الأمْرِ المعنوىِّ بالحسِّىِّ، ولا يمنعُ ذلك من حصول اللازم «أى وجوده على الحقيقة»، فقد قال بعض المفسرين: المرادُ بالساقين فى الآية ساقا الـمُحتضَر، وأنه عند نزْعِ الروح

يضمُّهما، ويَلوِى إِحداهما على الأخرى، وهذا هو التفافُهما، أو المعنى أنهما تلتفَّان فى الكفَن مشدودتين فلا تَفترقان، وقيل التفافُهما، يَعنى يُبْسَهما بالموت وعدَم تحرُّكِ إحداهما عن الأخرى حتى كأنهما ملتفَّتان فهما أولُ ما يخرجُ الروحُ منه، فتبرُدان قبل سائرِ الأعضاء وتَيبسان فالساق بمعناها الحقيقى، وعلى أى حال فهو التفافٌ مقرونٌ بكرْبٍ عظيمٍ وشدة مُفجعة، فصارت الآيةُ مثلًا يُضرَب فى الشدائد العظام، والكُرَب المداهمة.

وتأمَّلْ هذه الآيةَ الكريمةَ وما لها من وقْعٍ قوىٍّ على النفس، وما فيها من إيحاء عظيم بدلالاتها، وما تدعو إليه من التأمل فى هذه الحال، مع ما فيها من إيجار، وقوةِ ألفاظٍ، وأصواتٍ مُنبِّهة تنبعثُ من الحروف المشدَّدة، ومن التاء وتكرارِها، والقاف وتكرارِها، وقد تفاعلت الكلماتُ والتأمَتْ حتى كأنَّ بعضَها يَنعَطفُ على بعضٍ ويَلتفُّ به لتؤدِّى معنى الشدةِ، وترسُمَ صورةً واضحةً مؤثِّرةً معبِّرةً عنها.

وإن هذه الصورةَ لتستدعِى إلى الذهن، وتُبرِزُ إلى الإحساس صورةَ تزاحُمِ أهلِ المحتضَرِ وإكبابِهمْ عليه، وقد التفت سُوقُهم بعضُها ببعض حواليْه، وقد رسَم أبو العلاء المعرِّى هذه الصورة بإحساسِ الحكيم ثاقبِ الذهن فقال:

تَجَمَّع أهلُه زُمرًا عليه وصاحتْ عِرسُه[1]: أودَى، فصاحُوا
تُكلِّمُنا بـأفواهِ المنايـا مـن الأيـامِ السنةٌ[1] فِصَـاحُ

أودى: أى هلَك والمنايا: الموت

فإذا نَزل بك الموتُ أيها الإنسانُ، وانتزعك من بين الأهلِ والصحب

(١) العرس بكسر أوله: الزوج يقال: هو عرسها وهى عرسه وهما عِرسان، والجمع أعراس، أما العُرس بضم أوله فهو الزواج والتزويج ووليمتهما والجمع اعراس، السنة فاعل تكلمنا، وفصاح صفته.

والخلَّان ، فهل تَدرى إلى أين تُقادُ وتساقُ؟ ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴾ أى: سَوْقُك وَجرُّك يكونُ بعد موتك إلى ربِّك ، فهو الحكَمُ العدْلُ ، وله وحده فى أمرك القولُ الفصلُ ، فكيف لا تَرتدِعُ أيها الإِنسانُ عن حُبِّ العاجلة ، وعن نسيانِ الآخرةِ ، وأنت تعلمُ أن الأمورَ إلى الله صائرةٌ. وأنك صائرٌ إلى جنة أو نار، وستحاسَبُ على كل صغيرةٍ وكبيرة ، وتأمَّل الحركةَ وقوتَها فى: ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴾ وَزُمَرَ المجرمين تُساقُ لِمَا أنكروه واستبعدوه ، تأمل، وتدبَّر وجوهًا عابسة ثم تصوَّر وجوهَ المؤمنين الذين حسُن ظنُّهم بالله وعظُم رجاؤُهم فى عفْوه ورضاه وقد علاها الإشراقُ والضياء.

وجوابُ: «إذَا» فى قوله: ﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴾ محذوفٌ دلَّ عليه ما ذُكر أى: كان ما كان ، أو: انكشفت للمرء حقيقةُ الأمر ، أو: وَجَد الإنسانُ ما عَمِله من خير أو شرٍّ حاضراً بين يديه.

وبعد تصوير لحظةِ فراقِ الدنيا والإقبال على الآخرة ، وما فيها من شدائدَ وكربٍ بهذه العباراتِ الموجَزةِ الرائعةِ الأخَّاذة ، الثريةِ بالصور والمعانى ، والمعبرةِ عن حال الـمُحْتضَر وأهلهِ أروعَ تعبير وأدقَّه ، مع قوةِ وقْع القافِ فى الفواصل على النفس ، وكأنها تقرعُ القلب قرعًا، لتوقظَه وتنبهَه « **التراقى / راق/ الفراق/ بالساق/ المساق**».

بعد هذا صوَّر السياقُ حالَ المجرمين الذين غرَّتهم الحياةُ الدنيا وغرُّوا بها وبما أُوتوا فلا ينفعهم ندمُهم فى ذلك اليوم: ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ ۝ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴾. [القيامة: ٣١: ٣٥]

وهذه الآياتُ نزلت فى أبى جهل وأمثالِه من المستهزئين الساخرين

الذين جرت على ألسنتهم كلماتُ السخرية بالحق بمثل: ﴿ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴾ [القيامة:٦] استبعادًا للبعث وإنكارًا له ، وقيل لهم على سبيل الردع والزجرِ والتنبيه: ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة:٣٦]

والمعنى : أى فلا صَدَّق ذلك الإِنسانُ الذى حَسِب أن لن نجمعَ عظامَه بما يجب التصديقُ به ، ولا صلَّى ما فُرِض عليه ، والجملةُ معطوفةٌ على قوله: ﴿ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴾ أى يَسألُ عنه ، وما استعدَّ له بما يجب عليه ، بل فَعل ما يُوجب هلاكَ نفسه وشقاءَها ، وكان المغرورُ يكذِّبُ بالبعث ، ويُعرِضُ عن الحق ، ويعودُ إلى أهله مزهوَّ النفسِ يَتبخترُ افتخارًا بما هو فيه من الضلال والعناد.

وفى الآخرة يَرى ما يسوءه ولا يسرُّه ، ويقال له: ﴿ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى * ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ﴾ وهى كلمةُ دعاء وتهديد ، أى قاربَك ما يُهلِكُك ، أى: نزَل بك وحَلَّ ، وكرَّر للتأكيد ، و﴿ أَوْلَى ﴾ من الوَلْى بمعنى القُربِ فهو للتفضيل فى الأصل غَلَبَ فى قُربِ الهلاك ، ودُعاء السّوء ، كأنه قيل: هلاكًا أولى لَكَ، بمعنى: أهلكك اللهُ تعالى هلاكًا أقربَ لك من كلِّ شرٍّ وهلاك ، ويقال: قاربه ما يُهلكه أى نزل به كما فى الصحاح عن الأصمعى ، وعلى هذا تكون ﴿ أَوْلَى ﴾ فعلًا مستترًا فيه ضميرُ الهلاكِ بقرينة السياق ، واللامُ فى «لك» مزيدةً، أى أولاك هلاكٌ ، وقيل الفاعل ضميرُه تعالى واللامُ مزيدة: أى: أولاك اللهُ تعالى ما تكرهُه ، أو غيرُ مزيدةٍ ، على معنى: أدنى اللهُ تعالى الهلاكَ لك وقيل «أولَى لَكَ» عَلَمٌ للويل ، وهو مبتدأٌ ولك خبره.

إن الآية الكريمةَ فيها تخويفٌ وتحذيرٌ من التمادى فى الباطل ، والضلال وهى جملةٌ قويةٌ فيها تهديد ودعاءٌ بالهلاك الذى أوشكت نذُره ، وهو حالٌّ بأصحابه فى القيامة لا محالة ، فهل من مُعتبِر فلا يعاند الحقَّ وأهلَه؟

سؤال وجواب :

٢١٧ - أ - فى التحدِّى والمعُجِزة

والسؤالُ فى المعجزة: ما معناها؟ وما دلالتُها؟ ثم فيما يتصلُ بإعجاز القرآنِ العظيم؟

والجواب: أن المعجزةَ: أمرٌ خارقٌ للعادة ، مقرونٌ بالتحدِّى ، سالمٌ عن المعارَضة ، وهى إمَّا حِسيَّةٌ كقلْب العصا حيةً لموسى عليه السلام وإمَّا عقليةٌ كالقرآن العظيم ، وأكثرُ معجزاتِ الرسلِ السابقين كانت حسية وأكثرُ معجزاتِ أمةِ محمدٍ عقليةٌ ، لأن شريعتَه باقيةٌ على صفحات الدهرِ إلى يوم القيامة ، ولذا خُصَّت هذه الأمة بالمعجزة العقليةِ الباقيةِ الدائمة تتحدَّى ذوى البصائرِ والنُّهى حتى تقومَ الساعة.

ومعجزاتُ الأنبياء دالةٌ على صِدْقهم صلوات اللهِ عليهم ، وسُمِّيت معجزاتٍ: لأن البشرَ يَعْجَزُون عن الإتيان بمثلها.

وهل للمعجزة شروطٌ تُوضِّح ملامحَها وسماتِها؟ والجوابُ نعم: إذْ لابدَّ للمعجزة من شرائطَ خمسة ، إنِ اختلَّ منها شرطٌ فإنها لا تكون معجزةً ، وهذه الشرائطُ يمكن إيجازُها على النحو التالى:

* أن تكونَ المعجزةُ مما لا يقدِرُ عليها إلا اللهُ سبحانه وتعالى ، مثل: فلْقِ البحرِ لموسى ، وجعْلِ النارِ بردًا وسلامًا لإبراهيم ، وإلانةِ الحديدِ لداودَ عليهم جميعًا أفضل الصلاة والسلام ، وغيرِها مما لا يقدِرُ عليه البشر.

* أن تَخرِقَ العادةَ، من ذلك: أن يقولَ الرسولُ مثلًا الدليلُ على صِدقى أن يَخرِقَ اللهُ العادةَ من أجل دعْوایَ الرسالة ، فيقلِبَ هذه العصا

ثعبانًا ، أو يشقَّ الحجرَ ويُخرِجَ من وسَطه ناقةً ، أو ما سِوى ذلك من الآيات الخارقة للعادات التى ينفرِدُ بها جبارُ الأرضِ والسموات ، وإذا عَمِل اللهُ عملاً لتأييد رسولِه لا يقدرُ عليه إلا هو ، وخَرَق به العادةَ على يَدَى الرسول ، قام ذلك الفعلُ مقامَ كلامِه تعالى ، فكأنه سبحانه قال: صَدَق عبدى فى دعوى الرسالة ، وأنا أرسلتُه إليكم فاسمعوا له وأَطيعوه.

* والشرطُ الثالثُ هو أن يستشهدَ بها مُدَّعِى الرسالةِ على أنه رسولٌ من عند الله.

* والرابعُ: هو أن يقعَ الأمرُ الخارقُ للعادة على وَفْق دعْوى المتحدِّى بها المستشهِد بكونها معجزةً له - من ذلك ما تحدى به عيسى عليه السلام قومَه كإبراءِ الأكمهِ والأبرصِ وغيرِ ذلك - فقد يقعُ خلافُ ذلك للكذَّابين من مُدَّعِى النبوة أمثالِ مسيلمةَ الكذابِ من بَنى حنيفةَ ، فقد تَفَلَ فى بئرٍ ليكثُرَ ماؤُها فغارت البئرُ ، وذهَب ما كان فيها من الماء فما فعل اللهُ سبحانه من هذا كان من الآيات المكذِّبة لـمَن ظهرت على يديه ، لأنها وقعتْ على خلافِ ما أراده مسليمةُ وكذلك أمثالُه من الكذَّابين.

* والخامسُ من شروط المعجزةِ أَلَّا يأتِىَ أحدٌ بمثل ما أَتَى به المتحدِّى على وجْه المعارضة.

فإن تَمَّ الأمرُ المتحدَّى به المستشهَدُ به على النبوة مستوفيًا هذه الشرائط الخمسة ، فهى معجزةٌ دالةٌ على نبوة مَن ظهرت على يده.

وقد أخبر اللهُ عز وجل عن بعض فصحاء قريشٍ أنهم زعموا القدرةَ على أن يقولوا مِثْلَ القرآن وكذَبوا ، ولنتدبر: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا

(١٤١٩)

﴿قَالُواْ قَد سَمِعنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَآ إِنْ هَذا إِلَّآ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِين ﴾
[الأنفال: ٣١]

وهذا كان غايةَ مُكابرتِهم وفَرطَ عِنادهم ، إذ لو استطاعوا ذلك ، فما منعَهم أن يشاءوا؟ وقد تحدَّاهم وقرَّعهم بالمعجزة سنين ثم قارعهم بالسيف ، فلم يُعارضوا سُورةً ، مع أنَفتِهم ، وفَرْطِ استنكافِهم أن يُغْلبُوا خصوصًا فى باب البيان.

فقولهم ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا ﴾ عبارة تؤكِّد إفلاسَهم ، وقد استقرَّ فى نفوسهم أنهم عاجزون عن معارضة القرآنِ أو سورةٍ منه ، وقد تحدَّاهم بمثل قوله ﴿ فَليَأْتُوا بِحديثٍ مِّثْلِهِ إن كَانُوا صادِقِين ﴾
[الطور: ٣٤]

وقوله: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورةٍ مِّثْلِه وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِين ﴾ [يونس: ٣٨]

كأنه يقول: إن ادَّعيتم أن هذا القرآن من نظْم محمدﷺ ، وعملِه فاعملوا سورةً من جنس نظمِه ، فإذا عجزتُم بأسْرِكم عن ذلك فاعلموا أنه ليس من نظْمه ولا من عمله.

وجاء فى فتح البارى ـ كما نقل السيوطى فى الإتقان ـ ولـمَّا جاء به النبىُّﷺ ، وكانوا أفصح الفصحاء ، ومصاقعَ الخطباء ، وتحدَّاهم على أن يأتوا بمثله ، وأمهلهم طَوال السنين فلم يَقدِروا ، فلمَّا عجزوا عن معارضته والإتيانِ بسورةٍ تُشبِهُه على كثرة الخطباءِ فيهم والبلغاء ، نادى عليهم بإظهار العجْز، وبإعجاز القرآن فقال سبحانه: ﴿قُل لَّئِنِ آجْتَمَعَتِ آلإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٓ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِه وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ [الإسراء: ٨٨]

هذا وهم الفصحاءُ اللُّدُّ[1] ، وقد كانوا أحرصَ شيء على إطفاء نوره وإخفاء أمره ، فلو كان فى مقدرتهم معارضتُه لعدلوا إليها، قطعًا للحُجَّة ولم يُنقَل عن أحدٍ منهم أنه حدَّث نفسَه بشىء من ذلك ولا رامَهُ ، بل عدَلوا إلى العناد تارة وإلى الاستهزاء أخرى، فتارة قالوا «سِحْرٌ» وتارة قالوا «شِعْرٌ» وتارةً قالوا: ﴿أَسَاطِيرُ الأَوَّلِين﴾ «كل ذلك من التحيُّر والانقطاع»[2].

ثم بَيَّن أنَّ المشركين رَضُوا بالحرب وتحكيمِ السيف ، وسُبِيَت ذراريهم واستُبيحت أموالُهم ، وقد كانوا أهلَ أنَفةٍ وكبرياء مع شدةِ الحَمِيَّة ، فلو كان فى قدرتهم أن يعارضوا القرآن بمثله ، والإتيانُ ولو بمثل أقصرِ سورةٍ منه لبادروا إلى ذلك ، لأن هذا الميدانَ أهونُ عليهم مِمَّا جرى لهم من القتل والأسرِ فى الغزوات والحروب.

ولقد كان الوليدُ بنُ المغيرة مطاعًا فى قريش ، ذا مكانةٍ خاصةٍ فيهم وقد جاء إلى النبى ﷺ فقرأ عليه القرآن ، فكأنه رقَّ له ، وخَشى أبو جهل أن يدخلَ الوليدُ فى الإِسلام فجاء إليه وقال: قل فيه قولًا يُبيِّنُ لقومك أنك كارهٌ له ، فقال الوليد: وماذا أقول؟ فواللهِ ما فيكم رجلٌ أعلمُ بالشعر منى ، ولا برَجَزه ولا بقصيدهِ ، ولا بأشعارِ الجنِّ ، والله ما يُشبهُ الذى يقول شيئًا من هذا ، ووالله إن لقوله الذى يقول حلاوةً وإن عليه لطَلاوةً ، وإنه لمثمرٌ أعلاه ، مُغدِقٌ أسفلُه ، وإنه لَيعْلُو ولا يُعلَى عليه ، وإنه لَيحطِم ما تحته[3].

---

(١) اللد: بضم أوله حمع ألد: وهو الشديد الخصومة وفعله لدَّ.

(٢) من الجزء الرابع من الإتقان فى علوم القرآن للإمام السيوطى باختصار.

(٣) هذا النص فى الإتقان نقلًا عن فتح البارى رواه الحاكم عن ابن عباس، وجاء بألفاظ متفاوتة قليلًا.

قال أبو جهل لعمِّه: لا يَرضى عنك قومُك حتى تقولَ فيه ، قال: دعْنى حتى أفكرَ ، فلمَّا فكر قال: هذا سحرٌ يؤثَر ، يأثِره عن غيره.

ولـمَّا تحيَّر القومُ فى مجلس الوليد بنِ المغيرةِ فيما يَصِفُون به القرآنَ كى يتحدثوا بذلك إلى العرب الذين يَفِدون إلى مكةَ فى الموسم ، قال لهم الوليدُ: قولوا أنتم وأنا أسمع ، قالوا: نقول: كاهنٌ ، قال: واللهِ ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكُهانَ فما هو بزمزمة[1] الكاهن ، ولا سَجْعه قالوا: نقول: مجنونٌ ، قال: ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنونَ، وعرفناه فما هو بخنْقه ولا تَخالُجِه ولا وَسوسته ، قالوا: فنقول: شاعرٌ ، قال: فما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعرَ كلَّه رجَزَه وهزَجَه وقَرِيضه ومقبوضَه ومبسوطَه ، فما هو بالشعر ، قالوا: فنقول: ساحرٌ ، قال: ما هو بساحر ، لقد رأينا السُّحَّارَ وسِحرَهم ، فما هو بِنَفْثهم ولا عَقْدهم.

قالوا: فما تقول يا أبا عبدِ شمس؟ قال: إِن لقوله لحلاوةً ، وإِن أصلَه لَعَذْقٌ[2] ، وإِن فرعَه لجَناةٌ ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئًا إِلا عُرِف أنه باطلٌ ، وإِن أقربَ القولِ فيه لأَن تقولوا: ساحرٌ ، جاء بقول هو سحرٌ يُفرِّق به بين المرء وأبيه، وبين المرِء وأخيه، وبين المرِء وزوجتِه ، وبين المرءِ وعشيرتِه. فتفرقوا عنه بذلك ، فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قَدِموا الموسم ، لا يمرُّ بهم أحدٌ إِلا حذَّروه إياه ، وذكروا لهم أمره[3].

---

(١) الزمزمة: الكلام الخفى الذى لا يُسمع.

(٢) العذق: بسكون وسطه وفتح أوله ـ النخلة: يُشبِّهه بالنخلة التى ثبت أصلها، وقوى وطاب فرعها إذا جنى.

(٣) سيرة ابن هشام، الجزء الأول. ولهذا يطلق عليهم لقب «المقتسمين» لأنهم تقسَّموا وتوزعوا على منافذ مكة وطرقها لاستقبال الوافدين للموسم وصدهم عن الاستماع للرسول ﷺ، فَشُبِّهوا بأهل الكتاب الذين اقتسموا أى: آمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض تبعًا لأهوائهم، وكما فعل قوم صالح الذين تقاسموا أى: حلفوا مؤكدين العزم على الكيد له وقتله ومن معه من المؤمنين غيلة ليلًا.

فتأملْ حَيْرةَ الوليدِ وَمن شايَعه ، ثم افتئاتَه وكَذبَه ومخالفةَ قولِه ما يعتقدُه فى محمدﷺ ويَعلَمُه عنه ، فهو يَعْلَمُ عن يقينٍ أن محمدًا صادقٌ وأن ما جاء به ليس من كلام الإِنسِ ولامن كلام الجنِّ ، وهو مع ذلك يركُض فى ساحة الضلال ،تدفعُه إلى ذلك كبرياءُ عمياءُ ، لقد كان خصيمًا معاندًا مصرًّا على الصدِّ والإعراض ، وفيه أنزل الله عزوجل:

﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا* وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدودًا* وَبَنِينَ شُهُودًا* وَمَهَّدْتُّ لَهُ تَمْهِيدًا* ثُمَّ يَطْمَعُ أَن أَزِيد* كَلَّآ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتنا عَنِيدًا* سَأُرهقُهُ صَعُودًا* إِنَّهُ فَكَّرَ وقَدَّر* فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّر* ثُمَّ قُتلَ كَيْفَ قَدَّر* ثُمَّ نَظَر* ثُمَّ عَبَسَ وبَسَر* ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَر* فَقَالَ إِنْ هَذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَر* إِنْ هذا إِلَّا قَوْلُ البَشَر* سَأُصْلِيهِ سَقَر* وَمَآ أَدْرَاكَ مَا سَقَر* لا تُبْقِى وَلا تَذَر﴾ [المدثر: ١١-٢٨]

لقد عجَز القرشيون عن الإِتيان بمثل القرآنِ العظيمِ فَلجَّ عتاتُهم فى العناد كِبرًا وصدًّا ، وفى إدراكهم لمواقع الإعجاز ، وبيان سبب صدودهِم يقول ابنُ اسحاق: فلمَّا جاءهم رسولُ اللهِﷺ بما عَرفوا من الحق وعرفوا صِدْقَه فيما حَدَّثَ ، وموقعَ نبوتِه فيما جاءهم به من عِلْم الغيوب حين سألوه عَمَّا سألوا عنه ، حَالَ الحسدُ منهم له بينهم وبين اتباعِه وتصديقِه ، فعتوا على الله ، وتركوا أمرَه عِيانًا ، ولَجُّوا فيما هم عليه من الكفر ، فقال قائلُهم: لا تسمعوا لهذا القرآن ، والغَوا فيه لعلكم تَغلبون، أى: اجعلوه لغوًا وباطلًا ، واتَّخذُوه هُزوًا، لعلكم تغلبونه بذلك فإنكم إن ناظرتموه أو خاصمتموه يومًا غلبكم [سيرة ابن هشام]

لقد كان عتبةُ بنُ ربيعَة الملقَّبُ بأبى الوليد سيدًا فى قومه ، وقام

بسفارةٍ بين قريش ورسولِ الله ﷺ ، ولما فَرغ من كلامه معه ، قال له الرسول ﷺ: فاسمع منى ، قال: أَفعلُ ، فقال: بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحيم ﴿حمٓ ❁ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ❁ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ❁ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ ❁ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ ثم مضى رسولُ الله ﷺ يقرأ عليه صدرَ سورة فُصلت ، فلمَّا سمعها عتبةُ ، أنصت لها ، وألقى يديه خلْف ظهره معتمدًا عليهما يسمعُ منه ، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجَد، ثم قال: قد سمعتَ يا أبا الوليد ما سمعتَ ، فأنت وذاك!

فقام عتبةُ إلى أصحابه ومرآةُ وجْهِه تعكسُ أمورًا ، لم يألفوها من قبل فقال بعضُهم لبعض: نحلفُ بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجهِ الذى ذهب به ، فلمَّا جلس إليهم ، قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال ـ وقد هزَّ القرآنُ عقلَه ووجدانه: ورائِى أنى قد سمعتُ قولًا واللهِ ما سمعتُ مثلَه قط ، واللهِ ما هو بالشعر ولا بالسحر ، ولا بالكهانة ، يا معشرَ قريش: أطيعونى ، واجعلوها بى وخَلُّوا بين هذا الرجلِ وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فواللهِ ليكونَنَّ لقوله الذى سمعتُ منه نبأٌ عظيم ، فإن تُصبْه العربُ فقد كُفِيتُموه بغيركم ، وإن يظهرْ على العربِ ، فَمُلكُه مُلْككُم وعِزُّه عِزُّكم ، وكنتم أسعدَ الناس به ، قالوا: سحَرَك والله يا أبا الوليد بلسانه.

قال: هذا رأيى فاصنعوا ما بدا لكم.

إنهم لحمقى ، عرفوا الحقَّ ولم يتَّبعوه ، وكانت عقولُهم فى آذانهم وقد أخذ القرآنُ بمجامع قلوبِهم ، وأيقنوا أنه كلامُ ربِّ العالمين ، ولكن

قلوبَ عتاتهم وأذنابِهم انصرفت عن الإيمان وسبحان القائل: ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَهٌ واحِدٌ فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ [النحل: ٢٢]

وسببُ إنكار الحقِّ هو الاستكبارُ ، إنه إنكارٌ ليس عن اقتناع ، ولكنه عن جمودٍ وغباء.

وهذا أبو طالب يقول من أبيات وكان التحدِّى قائمًا وقتَها على قدمٍ وساق، وكان عجزُ قريش واضحًا بيِّنًا ، ولكنهم يَفِرون من الحق كالحُمر المستنفِرَة ، قال:

لقد عَلِموا أنَّ ابنَنا لا مُكَذَّبٌ لدينا ولا يُعْنَى بقولٍ باطلِ
فأصبحَ فينا أحمدٌ فى أرومة تُقَصِّر عنه سَورةُ المتطاولِ[1]
حَدبتُ بنفسى دونَه وحَميتُه ودافعتُ عنه بالذُّرا والكَلاكلِ[2]
فأيَّده ربُّ العباد بنصْرِه وأظهر دِينًا حقُّه غيرُ باطل

ومع المعجزة الكبرى يُواصَل الكلام : بإذن الله تعالى

❊ ❊ ❊

(١) الأرومة: أصل الشجرة واستعملت للحسب، والسَّورة: بفتح السين الشدة والبطش.
(٢) حدبتُ: عطفتُ عليه، والمعنى وقفت بنفسى بينه وبين أعدائه، والذرا: أعلى ظهر البعير، والكلاكل: عظام الصدر جمع كلكل يعنى بكل طاقتى وجهدى.

٢١٨- ب- ما وجوهُ إعجازِ القرآنِ العظيم ؟

إِن القرآنَ العظيمَ هو المعجزةُ الكبرى لنبينا ﷺ الباقيةُ ما بَقِيتْ السمواتُ والأرضُ تَدلُّ على صِدْقه ، وتؤكدُ أنه خاتمُ أنبياء اللهِ ورسلِه صلواتُ الله وسلامُه عليهم أجمعين.

وهذا السؤالُ اجتهد أهلُ العِلْم وأربابُ البلاغةِ والبيانِ فى الإجابة عنه والقصدُ من هذه الكلمة: زيادةُ الفائدةِ والتنبيهُ ، والتذكيرُ ، والدعوةُ إلى التأمل والتدبر ، ولفْتُ أبناءِ العصرِ إِلى أَمْرٍ هو من صميم أسلوبِ الدعوةِ إِلى الله ، وإِلى إخراج النفوس من ظلماتِ الجهلِ والضلالِ إلى نورِ الحقِّ وهدايةِ الإِسلام.

وقد أجاب محمدُ بنُ سراقةَ(١) عن هذا السؤال فقال: اختلَف أهلُ العلم فى وجْهِ إعجازِ القرآنِ ، فذكَروا فى ذلك وجوهًا كثيرةً كلُّها حكمةٌ وصواب ، وما بلَغوا فى وجوه إِعجازِه جُزءًا واحدًا من عُشرِ مِعْشَارِه ، فمنهم مَن قال: هو الإِيجازُ مع البلاغة.

وقال آخرون: هو البيانُ والفصاحة .

وقال آخرون: هو الرَّصْفُ والنظْم .

وقال آخرون: هو كونُه خارجًا عن جِنس كلامِ العربِ من النظم والنثرِ ، والـخُطبِ ، والشِّعرِ ، مع كون حروفِ القرآنِ فى كلامهم ومعانيه فى خطابهم ، وألفاظِه من جِنس كلماتِهم ، وهو بذاته قَبِيلٌ غيرُ

---

(١) ابن سراقة محمد بن أحمد ، الأنصارى الشاطبى أندلسى الأصل وشيخ دار الحديث بحلب ثم دار الحديث الكاملية بالقاهرة توفى عام ٦٢٢ من الهجرة ، وممن اشتهر بهذا اللقب محمد بن يحيى العامرى الفقيه الشافعى البصرى المتوفى فى حدود ٤١٠ من الهجرة.

قَبيلِ كلامِهم ، وجنسٌ آخرُ متميزٌ عن أجناس خطابِهم ، حتى أنَّ مَن اقتصر على معانيه ، وغيَّر حروفَه ، أذْهب رونقَه ، ومن اقتصر على حروفه وغيَّر معانِيَه أَبْطل فائدتَه ، فكان فى ذلك أبلغُ دلالةٍ على إعجازه.

وقال آخرون فى وجْهِ الإعجاز: هوكونُ قارئِ القرآنِ لا يَكِلُّ وسامعُه لا يَملُّ ، وإن تكررتْ عليه تِلاوتُه.

وقال آخرون: هو ما فيه من الإخبار عن الأمور الماضية.

وقال آخرون: هو ما فيه من عِلْم الغيبِ والـحُكْمِ على الأمور بالقَطْع.

وقال آخرون: هو كونُه جامعًا لعلومٍ يطولُ شرحُها ،ويَشُقُّ حَصْرُها.

((انتهى))

قال الزركشىُّ(١) فى البُرهان: أهلُ التحقيق على أنَّ الإعجاز وقَع بجميع ما سبَق من الأقوال ـ أى الأقوالِ السابقةِ وغيرِها ـ لا بِكُل واحدٍ على انفراده ، فإنه جَمَع ذلك كله، فلا معنى لنسبته إلى واحد منها بمفرده مع اشتماله على الجميع ، بل وغيرِ ذلك ممَّا لم يَسْبِق.

ثم قال: ومن وجوه إعجازه: الروعةُ التى له فى قلوب السامعين وأَسْمَاعِهم ، سواءٌ الـمُقِرُّ والجاحدُ ، ومنها أنه لا يزالُ غَضًّا طريًّا فى أسماع السامعين وعلى ألسنة القارئين ، ومنها جَمْعُه بين صِفَتى الجزالةِ والعذوبة ، وهما كالمتضادَّين لا يجتمعان غالبًا فى كلام البشَر ، ومنها جعْلُه آخرَ الكتبِ غَنيًّا عن غيره ، وجعْلُ غيرِه من الكتب المتقدِّمة قد يَحتاج إلى بيانٍ يُرْجَعُ فيه إليه ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَآءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل: ٧٦]

---

(١) الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى ، صاحب «البرهان فى علوم القرآن» المتوفى بالقاهرة سنة ٧٩٤ من الهجرة.

وقال الإمامُ فخرُ الدين[1]: وجْهُ الإِعجاز الفصاحةُ ، وغرابةُ الأسلوب، والسلامةُ من جميع العيوب.

وقال ابنُ عطية[2]: إنَّ وجْهَ إعجازِه إنما هو بنظْمه ، وصحةِ معانيه ، وتوالِى فصاحةِ ألفاظه ، ثم قال: وأنت ترى البليغَ يُنقِّح القصيدةَ أو الخطبةَ حَوْلًا ، ثم ينظرُ فيها فيغيرُ فيها وهلُمَّ جرًّا ، وكتابُ اللهِ لو نُزِعَتْ منه لفظةٌ ، ثم أُدِيرَ على لسانِ العربِ على لَفْظة أحسنَ منها لم يُوجد.

ثم قال: ولقد قامت الحجةُ على العالَم بالعرب ، إذْ كانوا أربابَ الفصاحة ، ومَظِنَّةَ المعارضةِ ، كما قامتْ الحجةُ فى مُعجزة موسى بالسحرة ، وفى معجزة عيسى بالأطباء ، فإن الله عز وجل إنما جَعل معجزاتِ الأنبياء بالوجْه الشهيرِ أبرعَ ما تكون فى زمن النبىِّ الذى أراد إظهارَه ، فكان السحرُ فى زمن موسى قد انتهى إلى غايته ، وكذلك الطبُّ فى زمن عيسى ، والفصاحةُ فى زمن محمدٍ صلى الله عليهم أجمعين.

وقال المَرَّاكشى فى شرح المِصْباح[3] بعد مقدمةٍ طويلةٍ: فعلى إعجازه دليلٌ إجمالىٌّ وهو: أنَّ العربَ عجَزت عنه ، وهو بلسانها فغيرُها أحرى ، ودليلٌ تفصيلىٌّ: مقدمتُه التفكُّرُ فى خواصِّ تركيبِه ، ونتيجتُه العِلْمُ بأنه تنزيلٌ من المحيط بكل شىءٍ علمًا.

ومما قاله الأصبهانى[4] فى تفسيره: والقرآنُ جامعٌ لمحاسنِ أنواعِ الكلام[5] ـ المعهودةِ ـ على نظمٍ غيرِ نظمِ شىءٍ منها ، ويدلُّ على ذلك

(١) فخر الدين محمد الرازى ، المتوفى ٦٠٦ من الهجرة.

(٢) فى مقدمة تفسيره المطبوع فى القاهرة ، ونقله صاحب الإتقان عن البرهان للزركشى.

(٣) الإتقان: الجزء الرابع ، لعله عبد الواحد بن على التميمى المَراكشى ولد بمراكش وله رحلات عديدة ، وحج فى عام ٦٢٠ من الهجرة.

(٤) الأصبهانى: حكيم ، مفسر أديب لغوى ، توفى عام ٥٠٢ من الهجرة.

(٥) يقصد بأنواعه: الشعر ، والخطابة ، والمكاتبة كالرسالة ونحوها مما هو معهود.

أنه لا يصحُّ أن يقالَ له: رسالةٌ ، أو خطابةٌ ، أو شعرٌ ، أو سجْعٌ ، كما يصحُّ أن يقالَ: هو كلامٌ ، وإن البليغَ إذا قرَع سَمْعَه - القرآنُ - فَصَلَ بينه وبين ما عداه من النظْم ، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ۝ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾

[فصلت: ٤١، ٤٢]

تنبيهًا على أن تأليفَ القرآنِ ليس على هيئة نظْمٍ يتعاطاه البشرُ، فيمكن أن يُغَيَّرَ بالزيادة والنقصِ كالكُتب الأخرى.

وفى كلام الرمَّانى(١) ما يزيدُ هذا الجانبَ وضوحًا يقول: وجوهُ إعجاز القرآنِ تظهرُ من جهاتِ تركِ المعارضة ، مع توفُّرِ الدواعى ، وشدةِ الحاجة ، والتحدِّى للكافَّة ، والصَّرفة (٢) ، والبلاغة ، والإخبارِ عن الأمور المستقبلَةِ ، ونقضِ العادة ، ومع قياسِه بكل مُعجزَةَ ، قال: ونَقْضُ العادة هو أن العادةَ كانت جاريةً بضروبٍ من أنواع الكلامِ معروفة منها: الشعرُ ، ومنها السجعُ ، ومنها الـخُطَبُ ، ومنها الرسائلُ ، ومنها المنثورُ الذى يدور بين الناسِ فى الحديث ، فأتى القرآنُ بطريقةٍ مُفْرَدَةٍ خارجةٍ عن العادة ، لها منزلةٌ فى الـحُسْن تفوقُ به كلَّ طريقة ، وتفوقُ الموزونَ الذى هو أحسنُ الكلام. «انتهى كلامه»

والقولُ بالصَّرفة معناه: أن إعجازه بالصَّرفة ، أى أن الله صرف العرب عن معارضته ، وكان مقدورًا لهم ، لكن عاقهم أمرٌ خارجيٌّ ، فصار كسائر المعجزات ، وهذا قول فاسد بدليل ورود التحدى فى القرآن مثل:

(١) أبو الحسن على المتوفى فى بغداد عام ٩٩٤ من الهجرة «نحوى، فقيه، مفسر، لغوى، معتزلي»

(٢) الصَّرفة : المقصود بها صَرف الله بلغاءَ العرب عن معارضته ، وهو - أى القول بالصرفة - قول فاسد أبطله العلماء بالأدلة والبراهين القاطعة .

﴿قُل لَّئِن اجتَمَعَتِ الإنسُ وَالجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأتُواْ بِمِثلِ هَذَا القُرآنِ لا يَأْتُونَ بِمثلِه ولَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ [الإسراء: ٨٨]

فإنه يدل على عجز العرب مع بقاء قدرتهم ، هذا مع أن الإجماع منعقد على إضافة الإعجاز إلى القرآن ، فكيف يكون معجزا وليس فيه صفة إعجاز ، بل المعجز هو الله تعالى حيث سلبهم القدرة على الإتيان بمثله ، وفى القول بالصرفة خرْق لإجماع الأمة: أن معجزة الرسول العظمى باقية، ولا معجزة له باقية سوى القرآن ، أى أن القرآن معجز بنفسه ، وليس خاليا من الإعجاز كما يدّعى النظّام وغيره من المعتزلة فالصحيح أنه لم يكن فى قدرة أحدٍ من فصحاء العربِ قط الإتيان بمثله وقد جاء نظمُ القرآن فى الغاية القصوىٰ من الفصاحة.

ونظَر القاضى عِياض[١] (فى كتابه الشِّفا بتعريف حقوقِ المصطفى) إلى أربعةِ وجوهٍ للإعجاز وجعلَها أصلًا يتفرعُ عليه ما سِواها وهى:

* الإيجازُ والبلاغةُ الخارقةُ عادةَ العربِ.[*]
* الأسلوبُ الغريبُ والنظمُ العجيبُ المخالفُ لأساليب نظمِ العربِ ونثرِها.
* الإخبارُ عن الـمُغيَّبات ، وما لم يكن فَوُجِدَ كما وَرَدَ.
* ما أنبأَ به من أخبار القرونِ السالفة ، والأممِ البائدةِ ، والشرائعِ الداثرة ، على لسان نبىٍّ أُمِّى لا يقرأُ ولا يكتب.

ثم تأمَّل الروعةَ التى تلحَقُ قلوبَ سامعيه عند سماعِهم ، والهيبةَ التى تعتريهم عند تلاوته ، وقد أسلم جماعةٌ منهم عند سماعِ آياتٍ منه كما وقع لـجُبير بنِ مُطعم: أنه سمع النبىَّ ﷺ يقرأ فى المغرب بالطور، قال:

---

(١) إمام أندلسى ، توفى سنة ٥٤٤ من الهجرة .

(*) أى: الخارقةُ ـ هى ـ عادةَ العرب ، فاعل الخارقة ضمير مستتر فيه تقديره: هى يرجع إلى البلاغة وعادةَ: مفعول به منصوب .

فلمَّا بلَغ هذه الآيةَ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِن غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ إلى قوله: ﴿الْمُسَيْطِرُونَ﴾ [الآيات: ٣٥-٣٧] كاد قلْبى أن يطيرَ ، قال : وذلك أولُ ما وقَر الإسلامُ فى قلْبى.

ثم إِنه آيةٌ باقية ، لا يعدمُ ما بَقِيتْ الدنيا ، مع تكفُّلِ الله بحفْظه وتلك ظاهرةٌ بينةٌ يستظهُره العجميُّ، وربما فاق أقرانَه من العرب فى جودة التلاوة ،وحُسْنِ الأداء.

وإِن قارئَه لا يملُّه ، وسامعَه لا يَمجُّه ، بل الإِكبابُ على تلاوته يزيدُه حلاوة ، وترديدُه يُوجِبُ له زيادةَ محبة ، أمَّا غيرُه من الكلام فإنه يُعادَى إِذا أُعيد ، ويُمَلُّ مع الترديدِ ، ولهذا وُصِفَ فى الحديث بأنه «لا يَخْلَقُ على كثرةِ التَّرداد».

أَضِف إلى هذا جمْعَه لعلومٍ ومعارفَ ، لم يجمعها كتابٌ من الكتب ولا أحاط بعلمها أحدٌ فى كلمات قليلةٍ ، وأَحرُفٍ معدودة.

وإِن ما يكشِفُه العلمُ من خبايا الكونِ وأسرارِه ، وما يصلُ إليه من معرفةٍ بالنفس البشريةِ وأحوالِها وطبائعِها لتُسَاقُ منه البراهينُ سوقًا على أن القرآنَ العظيمَ ليس من كلام البشر ، وليس لنبى أمىٍّ نشأ فى بيئة أميةٍ أن يأتِىَ من عند نفسِه بشىء منه ، بل: كيف جرى على لسانه ﷺ الكلامُ عن ظلمات الرحِمِ ، وظلماتِ البحار ، وعن هزيمةِ الرومِ قبل أن تقعَ لهم ، وغيرِ ذلك من الآيات والمعجزات ، وإِن قصةَ يوسفَ وإِخوتهِ وأطرافَ حياتِه على النحو الذى جاءت به سورةُ يوسفَ لأشْبَهُ بإِحياء الموتى لعيسى بنِ مريم عليه السلام بإِذن الله ، من حيث الإعجازُ والدلالةُ على صدقِ كلٍّ منهما فيما ادَّعاه أَنه نبىٌّ مرسَلٌ من عند ربِّه بشيرًا ونذيرًا ، وقُلْ مثلَ ذلك عن: قصةِ موسى ، وعُزير ، والذين

خرجوا من ديارهم وهم أُلوفٌ حذَر الموت ، وطالوتَ وجالوتَ وغيرِها من القَصصِ القرآنىِّ الواردِ على هذا النمطِ البديعِ المعجزِ على لسان نبىٍّ لا يكتب ولا يقرأُ المكتوب من أمة أمية.

وأنَقُل هنا كلمةً لأبى حيانَ التوحيدىِّ مما نقله عنه صاحبُ الإتقان يقول مُلخِّصًا مقدماتِه فى وجوه الإعجاز: فخَرج من هذا: أن القرآنَ إنما صار معجزًا لأنه جاء بأفصحِ الألفاظ، فى أحسنِ نظومِ التأليف، مُضمِّنًا أصحَّ المعانى:-

من توحيدِ لله تعالى وتنزيهِه له فى صفاته ، ودعاءٍ إلى طاعته ، وبيانٍ لطريق عبادتِه ، من تحليلٍ وتحريم ، وحظْرٍ وإِباحة ، ومِن وعظٍ، وتقويم وأمرٍ بمعروف ونهْىٍ عن مُنكر ، وإِرشادٍ إلى محاسنِ الأخلاق ، وزجْرٍ عن مساويها ، واضعًا كلَّ شىءٍ منها موضعَه الذى لا يُرَى شىءٌ أولى منه ، ولا يُتَوَهَّمُ فى صورةِ العقلِ أمرٌ أليقُ به منه ، مُودَعًا أخبارَ القرونِ الماضية ، وما نزل من مَثُلاتِ اللهِ بمَن مضى ، مُنْبِئًا عن الكوائن المستقبلة فى الأعصار الآتيةِ من الزمان ، جامعًا فى ذلك بين الحجةِ ، والمحتَجِّ له والدليلِ والمدلولِ عليه ، ليكونَ ذلك آكدَ لِلزُومِ ما دعا إليه ، وإِنباءً عن وجوب ما أَمَرَ به ، ونَهَى عنه.

ومعلومٌ أن الإتيانَ بمثل هذه الأمور ، والجمْعَ بين أشتاتِها حتى تنتظمَ وتتسقَ أمرٌ تعجزُ عنه قُوى البشر ، ولا تبلغُه قدرتُهم ، فانقطع الخلقُ دونه ، وعجزوا عن معارضته بمثْله ، أو مناقضتِه فى شكْله ، ثم صار المعاندون له يقولون مرةً إنه شعرٌ لـمَّا رأَوه منظومًا ، ومرةً إنه سحرٌ لـمَّا رأَوه معجوزًا عنه غيرَ مقدورٍ عليه ، وقد كان العربُ يَجدون له وقعًا فى القلوب ، وقرعًا فى النفوس يُريبهم ، ويُحيرهم ، فلم يتمالكوا أن

يَعترفوا به نوعًا من الاعتراف ، ولذلك قالوا: إن له لحلاوةً ، وإن عليه لطلاوةً ، وكانوا مرةً بجهلهم يقولون: ﴿أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥]

مع علمِهم أنَّ صاحبَهم أُمِّىٌّ ، وليس بحضرته مَن يُملى ، أو يكتبُ ونحوِ ذلك من الأمور التى أوجبها العنادُ والجهلُ والعجْزُ.

ثم قال: وقد قلتُ فى إعجاز القرآن وجهًا ذهَب عنه الناس ، وهو صَنيعُه فى القلوب ، وتأثيرُه فى النفوس ، فإنك لا تسمعُ كلامًا غيرَ القرآن منظومًا ولا منثورًا إذا قَرَع السمعَ خلَص له إلى القلب من الحلاوة واللذةِ فى حال ، ومن الروعة والمهابة فى حالٍ آخرَ ، ما يخلُص منه إليه قال تعالى : ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْءَانَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾ [الحشر: ٢١]

عشرةُ وجوه للإعجاز:

وجمَع القرطبىُّ رحمه الله فى مقدمة تفسيرِه المباركِ وجوهَ الإعجازِ فى عشرة أمور تتلخصُ فى:

* النظمِ البديعِ المخالفِ لكل نظمٍ معهودٍ فى لسان العربِ وفى غيرها.
* الأسلوبِ المخالفِ لجميع أساليبِ العرب.
* الجزالةِ التى لا تَصح من مخلوق بحالٍ.

وهذه الثلاثةُ لازمةُ كلِّ سُورة ، بل هى لازمةُ كلِّ آية ، وبمجموع هذه الثلاثةِ يتميزُ مسموعُ كلِّ آية ، وكلِّ سورةٍ عن سائر كلامِ البشر ، وبها وقَعَ التحدى والتعجيز.

* أمَّا الرابعُ فهو: التصرفُ فى لسانِ العربِ على وجهٍ لا يَسْتَقِلُّ به عربىٌّ حتى يقَع منهم الاتفاقُ من جميعهم على إصابته فى وضْع كلِّ

كلمة وحَرْفٍ موضعَه.

* ومنها: الإِخبارُ عن الأمور التى تقدَّمت فى أول الدنيا إِلى وقت نزولِه من أُمِّىٍّ لا يقرأُ ولا يكتب.

* ومنها: الوفاءُ بالوعد المدرَكِ بالحِسِّ فى العِيانِ فى كل ما وَعَدَ اللهُ به، كوعده بنصر رسولِه عليهِ السلام وغيرِ وذلك.

* والإخبارُ عن المغيَّبات فى المستقبل التى لا يُطَّلعُ عليها إلا بالوحى.

* ومنها: ما تضمنه القرآنُ من العِلم الذى هو قِوامُ جميعِ الأنامِ فى الحلال والحرام وسائرِ الأحكام.

* والحِكَمُ البالغةُ التى لم تَجْرِ العادةُ بأن تصدُرَ فى كثرتها وشرفِها من آدمىٍّ.

* ومنها: التناسبُ فى جميع ما تضمنه ظاهرًا وباطنًا من غير اختلاف قال الله تعالى من سورة النساء: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتَلافًا كَثِيرًا﴾ [الآية: ٨٢]

هذه عشرةُ أوجه جمعَها القرطبىُّ مشروحةً من أقوال العلماء.

وإِن القرآنَ نورٌ، وبرهانٌ، وضياءٌ، ورحمةٌ، وشفاءٌ له جمالُه وجلالُه ورونقُه وبهاؤه وسلطانُه على النفوس والعقولِ، فطوبى لذوى البصائر والنُّهى.

هذه لفتةٌ فى الإعجاز ووجوهِه قُصِد بها لفتُ النفوسِ إلى المزيد من التأمل والتدبرِ والرجوعِ إلى كتب العلماء والبلغاءِ وأولى النُّهى.

❊ ❊ ❊

٢١٩ - دراسةٌ فى الأمثال
«مِن أعظم عِلْمِ القرآن»

قال الله تعالى من سورة الزمر: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَذَا الْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [٢٧]

وقال سبحانه من سورة العنكبوت: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [٤٣]

وقد أخرج البيهقىُّ عن أبى هريرةَ أن رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ القرآنَ نَزل على خمسة أوجُهٍ: حلالٌ[1]، وحرام، ومُحكَمٌ، ومُتشابه، وأمثال فاعملُوا بالحلال، واجتنبِوا الحرام، واتَّبعوا الـمُحكَم، وآمنِوا بالمتشابه واعتبروا بالأمثال» [أورده الزركشى فى البرهان، ونقله عنه السيوطى فى الإتقان]

قال صاحب البرهان: وقد عَدَّ الشافعىُّ معرفةَ الأمثالِ مما يجبُ على المجتهد معرفتُه من علومِ القرآن، فقال: ثُم مَعرِفة ما ضُرِب فيه من الأمثال الدوالِّ على طاعته، الـمُثبِتَة لاجتناب معصيته.

ونقل السيوطىُّ عن الماوردى قولَه: مِن أعظمِ عِلْمِ القرآنِ عِلمُ أمثاله والناسُ فى غفلةٍ عنه لاشتغالهم بالأمثال، وإغفالِهم الـمُمَثَّلاتِ، المثَلُ بلا مُمَثَّلٍ كالفَرَس بلا لِجام، والناقةِ بلا زِمَام.

إنه يدعو إلى تدبر الأمثال، وما اشتملت عليه من الـحِكَم، وما تضمَّنته من الأحكام، وتقصِّى ما دلَّت عليه الأمثالُ من العِبر والعظات وما أرشدتْ إليه من الفضائل والقِيَم، ووجوبِ البحث عما سِيق المثَلُ من أجله، وما دعا إلى التحلِّى به، وما حثَّ على التخلِّى عنه.

---

(١) حلالٌ: بالرفع خبر لمبتدأ محذوف أى هى .. وبالجر بدل بعض من خمسة وبقية الخمسةً معطوف عليها

وفى هذا السياق يقول الشيخُ عز الدين بنُ عبد السلام: إنما ضَرَبَ اللهُ الأمثالَ فى القرآن: تذكيرًا ووعظًا ، فما اشتمل منها على تفاوتٍ فى ثواب أو على إحباطِ عمل ، أو مدحٍ أو ذمٍّ أو نحوه ، فإنه يدلُّ على الأحكام.

وقد نَبَّه الزركشى على فوائدِ الأمثال ، وأشار إلى ما ينبغى أن تُوجَّه الجهودُ لاستنباطه ومعرفتِه فقال: وضَرْبُ الأمثالِ فى القرآن يُستفاد منه أمورٌ كثيرة: التذكيرُ ، والوعظُ ، والحثُّ ، والزجرُ ، والاعتبارُ والتقرير.

ثم قال: وتأتى أمثالُ القرآنِ مشتملةً على بيان تفاوتِ الأجر ، وعلى المدح والذمِّ ، وعلى الثواب والعقاب ، وعلى تفخيم الأمرِ ، أو تحقيرِه وعلى تحقيق أمرٍ أو إبطالِ أمر ، قال تعالى من سورة إبراهيمَ: ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ﴾ [الآية: ٤٥] فامتنَّ علينا بذلك لِمَا تضمنَّته من الفوائد.

وفى كلام الزركشى حَثٌّ على توجيه العنايةِ نحو ما تضمنَّته الأمثالُ: بتوضيحها ، والعملِ بمقتضاها ، وإبرازِ مكنوناتها للناس.

ومن فوائد الأمثال :

ومن فضْل الأمثالِ تصويرُها للمعانى بما يُقَرِّبُها للأفهام ، ويؤثِّرُ بها فى الوِجدان ، وأمثالُ القرآنِ فى الذِّروة من البلاغة ، وقد خُوطب الناسُ فيها على قَدْرِ عقولهم ، وبما يُقرِّبُ لهم البَعيد ، ويُجلِى الغامضَ ويَجعلُ ما يُدرَكُ بالعقل كأنه ماثلٌ أمام الحِسِّ ، وما غاب عنهم كأنه مُشاهَدٌ أمامهم.

قال الزركشى: إن الأمثالَ تقرِّبُ المرادَ للعقل ، وتصوِّرُه بصورةِ المحسوس ، فإنها تصوِّرُ المعانِىَ بصورةِ الأشخاصِ ، لأنها أَثْبَتُ فى الأذهان لاستعانة الذِّهنِ فيها بالحواس ، ومِن ثَمَّ كان الغرضُ من المَثَل:

تشبيهَ الخفىِّ بالـجَلىِّ ، والغائبِ بالشاهد.

وعن الأمثال ودقتها قال: والأمثالُ مقاديرُ الأفعال ، والـمُتمثِّلُ كالصانع الذى يُقَدِّرُ صناعتَه ، كالخياط يُقدِّرُ الثوبَ على قامة الـمَخيط ثم يَفْرِيه: ثم يُقَطِّعُ ، وكلُّ شىءٍ له قالَبٌ ومقدار ، وقَالَبُ الكلامِ ومقدارُه الأمثالُ.

وقَسَّم بعضُهم المثَلَ إلى أربعة أوجُه[1]: أحدُها: إخراجُ ما لا يقعُ عليه الـحِسُّ إلى ما يقعُ عليه ، وثانيها: إخراجُ ما لا يُعْلَمُ ببديهة العقلِ إلى ما يُعلم بالبديهة ، وثالثُها: إخراجُ ما لم تَجْرِ به العادةُ إلى ما جرَت به العادة ، ورابعُها: إخراجُ ما لا قُوَّةَ له من الصِّفَة إلى ما له قُوة.

وفى قُوة المثَل وتأثيرِه وكونِه من أَجلِّ ضروبِ التعبير عن المعانى وأكثرِها وضوحًا وجلاءً ، قال الخفاجىُّ: سُمِّى مثَلًا ، لأنه ماثلٌ بخاطرِ الإنسانِ أبدًا ، أى شاخصٌ[2] ، فيتأسَّى به ويَتَّعِظُ ، ويَخْشَى ويَرْجُو.

بمعنى الصفة :

وقد جاء المثَلُ بمعنى الصِّفَةِ كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى﴾ [النحل: ٦٠]

أى الصفةُ العُليا ، وهو قولُ: لا إلهَ إلَّا اللهُ ، وقولهِ: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ [الرعد: ٣٥] أى صِفتُها.

وقال الزمخشرىُّ عن فائدة التمثيل - أيضا - : التمثيلُ إنما يُصار إليه لكشْف المعانى ، وإدناء الـمُتوَهَّم من الشاهد ، فإن كان الـمُتَمثَّلُ له عظيمًا ، كان الـمُتَمثَّلُ به مِثْلَه ، وإن كان حقيرًا كان المتمثَّل به كذلك

---

(١) أبو بكر البكْر أباذى (عن البرهان: الجزء الأول)

(٢) الشاخص: المنتصب القائم.

فليس العِظَمُ والحقارةُ فى المضروبِ به المَثَلُ إلَّا بأمْرٍ استدعتْه حالُ الـمُمَثَّلِ له ، ألا ترى أن الحقَّ لـمَّا كان واضحًا جليًّا تُمثِّلَ له بالضياء والنور ، وأنَّ الباطلَ لـمَّا كان بِضدِّه تُمثِّلَ له بالظُّلمة ، وكذلك جعْلُ بيتِ العنكبوت مثَلًا فى الوهَن والضعف.

وقال الأَصبهانىُّ: لضرْبِ العربِ الأمثالَ ، واستحضارِ العلماءِ النظائرَ شأنٌ ليس بالخفىِّ: فى إِبراز خفيَّات الدقائقِ ، ورَفْع الأستارِ عن الحقائق تُريك الـمُتخيَّلَ فى صورة الـمُتَحقَّق ، والمتوهَّمَ فى مَعرِض المتيقَّنِ والغائبَ كأنه مُشَاهدٌ.

وفى ضَرْب الأمثال: تبكيتٌ للخصْم الشديد الخصومة ، وقمْعٌ لسَورة الجامحِ الأبىِّ ، فإِنه يُؤثِّرُ فى القلوب ما لا يُؤثِّرُ وصْفُ الشىءِ فى نفْسه ولذلك أَكْثَرَ اللهُ فى كتابه العزيزِ وفى سائر كتبِه من ضرْب الأمثال ، ومن سُوَرِ الإنجيلِ سورةٌ تُسمَّى سورةَ الأمثَال ، وفشَت فى كلام النبىِّ ﷺ وكلامِ الأنبياءِ والحكماء.

ومن حكمةِ المَثَل: تعليمُ البيان ، وهو من خصائصِ هذه الشريعة والمَثَلُ أعونُ شىءٍ على البيان.

قال صاحبُ البرهان: فإِن قلتَ: لماذا كان المَثَلُ عونًا على البيان وحاصلُه قياسُ معنًى بشىءٍ ، مَن عَرَف ذلك الـمَقيسَ فَحقُّه الاستغناءُ عن شبيهه ، ومَن لم يعرفْه لم يُحْدِث التشبيهُ عنده معرفةً؟.

والجواب: أن الحِكَم والأمثالَ تُصَوِّرُ المعانِىَ تَصورُّ الأشخاص، فإِنَّ الأشخاصَ والأعيانَ أَثْبَتُ فى الأذهان، لاستعانة الذهْنِ فيها بالحواسِّ بخلاف المعانى المعقولةِ، فإِنها مجرَّدةٌ عن الحسِّ، ولذلك دَقَّت، ولا ينتظمُ مقصودُ التشبيه والتمثيلِ إِلا بأن يكونَ المَثَلُ المضروبُ مجربًا مُسلَّمًا عند السامع.

ثم قال: وفى ضرْب الأمثالِ من تقريرِ المقصودِ ما لا يخفَى ، إذ الغرضُ من المثَل تشبيهُ الـخفىِّ بالـجلىِّ ، والغائب بالشاهد ، فالمرَغَّبُ فى الإيمان - مثلًا - إذا مُثِّلَ له بالنور تأكَّد فى قَلبهِ المقْصودُ، والمزهَّدُ فى الكُفرِ إذا مُثِّلَ له بالظلْمةِ تأكَّدَ قُبْحُه فى نفْسه.

وفى معنى المثل :

وفى تفسيرٍ لمعنى المثَل واستعمالاتِه ، قال الزمخشرىُّ: المَثَلُ فى الأصل بمعنى المِثْلِ ، أى النظيرِ ، يقال: مَثَلٌ وَمِثْلٌ ومَثِيلٌ ، كشَبَه وشِبْه وشَبِيه ، ثم قال: ويُستعار المثَلُ للحالِ ، أو الصفةِ أو القصةِ إذا كان لها شأنٌ وفيها غرابةٌ.

وظاهرُ كلامِ أهلِ اللغة - كما يقول الزركشىُّ - أن المثَل: بمعنى الصفةِ كقوله تعالى: ﴿مَثَلُهُم كَمَثَلِ الَّذى اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ .

وقال ابنُ العربى: إن المِثْلَ - بكسر أوله وسكون ثانيه - عبارةٌ عن شِبه المحسوسِ ، وبفتحهما عبارةٌ عن شبه المعانى المعقولةِ: فالإنسانُ مخالفٌ للأسد فى صُورته مُشْبِهٌ له فى جَراءته وحِدَّته ، فيقال للشجاع: أسدٌ: أى يُشبهُ الأسدَ فى الـجَراءة ، وكذلك يخالفُ الإنسانُ الغيثَ فى صورته والكريمُ من الإنسانِ يُشابِهُه فى عُموم منفعته.

وفرَّق الإمامُ فخرُ الدين بينهما: بأن المثَلَ هو الذى يكون مساويًا للشىء فى تمام الماهيَّةِ ، والمِثْلَ هو الذى يكون مساويًا له فى بعض الصفات الخارجةِ عن الماهيَّة.

وتقسيم للمثل :

ويذكرُ السيوطىُّ فى الإتقان[1]: أن أمثالَ القرآنِ قسمان: ظاهرٌ مصرَّحٌ

(١) الجزء الرابع

به ، وكامنٌ لا ذِكْر للمثَل فيه : فمن أمثلة الظاهر المصرَّحِ به قولُه تعالى: ﴿مَثَلُهُم كَمَثَلِ الّذى اسْتَوْقَدَ نارًا...﴾ الآيات . .[البقرة:١٧-٢٠] ضَرَبَ فيها مثلَين للمنافقين: مثلًابالنار ومثَلًا بالمطَر.

وأمَّا الكامنةُ فتكونُ فى مِثْل ما أورده الماوردىُّ عن الحسين بنِ الفضل أنه سُئل: هل تجدُ فى كتابِ الله «خيرُ الأمورِ أوساطُها» قال: نعم فى أربعة مواضعَ: قوله تعالى من سورة البقرة: ﴿لا فَارِضٌ وَلا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلكَ﴾ [الآية:٦٨] وفى سورة الفرقان: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلكَ قَوَامًا﴾ [الآية:٦٧] وفى الإسراء: ﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ [الآية:٢٩] وفيها أيضًا : ﴿وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلكَ سَبِيلًا ﴾ [الآية: ١١٠] وأورد غيرَ ذلك من الأمثلة كقوله: فهل تجدُ : «كَمَا تَدِينُ تُدان» قال: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣]

ويَرى الدكتور محمد بكر إسماعيل صاحب: «الأمثال القرآنية ـ دراسة تحليلية» أنَّ هذا النوعَ ـ الكامنَ ـ ليس داخلًا فى الأمثال على أىِّ صورةٍ من الصُّور لخُلوِّه من وجه الـمُشابَهَةِ بين المثَل والـمُمثَّل له ، ويرى: أنه نوعٌ من تدريب القَريحة على استخراج النظائرِ القرآنيةِ لبعض ما تَمَثَّلَ به العربُ فى عصورهم المختلفةِ من الأقوال الحكيمةِ التى أوجزتْ حادثةً من الحوادث ، أو دلَّت على معنًى من المعانى المعقولة.

ويَقصِد بالأخير الأمثالَ الـمُرسَلَة أى: ممّا كثُر التمثيلُ بها لمَا فيها من العِظة والعِبرة والإقناع ، وهو النوعُ البديعىُّ الـمُسمَّى «بإرسال المثَل» وقد عقَد له جعفرُ بنُ شمس الخلافة فى كتاب الآدابِ بابًا «فى ألفاظٍ من القرآن جاريةٍ مَجْرَى المثَل» وأورد له أمثلةً كثيرةً نقَل منها السيوطىُّ فى

الإتقان ثلاثين من ذلك قولُه تعالى:

﴿لَيْسَ لَهَا من دُون الله كَاشِفَةٌ﴾ [النجم:٥٨]

﴿الآنَ حَصْحَصَ الحَقُّ﴾ [يوسف:٥١]

﴿ذَلكَ بِمَا قَدَّمتْ يَدَاكَ﴾ [الحج:١٠]

﴿هَلْ جَزَاءُ الإحْسَانِ إلَّا الإحسانُ﴾ [الرحمن:٦٠]

﴿لِمِثْلِ هَذا فَليعْمَلِ العَامِلُونَ﴾ [الصافات:٦١]

يقول محمد بكر صاحبُ الأمثالِ القرآنية: وهذا النوعُ من قَبيل التشبيهاتِ الضمنيَّةِ التى تؤكِّدُ المعَانىَ، وتبرزُها إبرازًا يجعلُها متميِّزةً فى النفس أكملَ تمييز، أو هو من قَبيل الكناياتِ التى تأتى بالمعنى مصحوبًا بدليله فَتَجرى مَجْرَى الحِكَم، وهو كثيرٌ فى القرآن لا يكاد يَنحصِر ممَّا اكتسب صفةَ المثليَّةِ بعد نزول القرآنِ وشيوعِها فى المسلمين ولم تكن أمثالًا وقْت نزولهِ وهى فى جملتها مبادئُ خلُقيَّةٌ ودينيَّةٌ مركَّزة.

وتقسيم آخر:

وفسَّرَ مقاتلُ بنُ سليمان معنى المثل فى القرآن على أربعة وجوه فى كتابه الأشباه والنظائر (الجزء الأول) (*)

قال: فوجْهٌ منها: مَثَل يعنى شَبَه، مِثل ﴿وتلكَ الأمثَالُ﴾[1] يعنى الأشباه ﴿نضْرِبُها للنَّاس﴾[1] يعنى نصفها لهم و﴿ضَرَبَ اللهُ مثلًا﴾[2] يعنى وصف الله شبها، وفسر ضرب هنا بمعنى وصف.

والوجه الثانى: مَثَل بمعنى السِّيَرِ مثل: ﴿أَمْ حَسِبتم أن تدخلُوا الجنةَ

---

(١) العنكبوت: ٤٣ (٢) النحل: ٧٥، والزمر: ٢٩، التحريم: ١٠

(*) حققه الأخ الشيخ عبد الله شحاته، المدرس بدار العلوم بالقاهرة.

﴿وَلـمَّا يأتِكُم مَّثل الذين﴾[1] أى: سِيَرُ الذين ﴿خلَوا من قَبلكم﴾[1] من الملأ يعنى مؤمنى الأمم الخالية، وقال فى الزخرف ﴿ومضىٰ مَثَلُ الأولين﴾[2].

والوجه الثالث: مثل يعنى: عِبرة ، فذلك قوله فى الزخرف: ﴿فجعلَناهم سَلفًا ومثلًا للآخرين﴾[3] يعنى وعبرة لمن بعدهم ، وقوله فى الزخرف ﴿وجَعلْناه مثلًا لبنى إسرائيل﴾[4] يعنى جعلنا عيسى عبرة لبنى إسرائيل.

والوجه الرابع: مَثَل بمعنى عذاب ، فذلك قـوله فى الفرقان: ﴿وكُلًّا ضَربنا له الأمثال﴾[5] يعنى وصفنا له العذاب ، أنه نازل بهم فى الدنيا يعنى الأمم الخالية ، نظيره فى إبراهيم: ﴿وضَرَبنا لكُم الأمثال﴾[6] يعنى وصفنا لكم العذاب يعنى عذاب الأمم الخالية ، يُخوف كفار مكة.

كما فسر مقاتل الفعل «ضرب» المقترن بالمَثَلِ «فى الجزء الثانى من كتابه» بمعنى الوصف تارة ، وبمعنى «وَصَفَ وَذَكَرَ» وبمعنى «وصف وهو البيان» أى: وَصف وبيَّنَ ومما مَثَّل به للأول: ﴿وضرب الله مثلًا قريةً﴾[7] أى وصف الله شبهًا ، وللثانى بقوله فى البقرة: ﴿إنَّ الله لا يَستحْيى أن يضربَ مَثَلًا مَّا بَعُوضةً﴾[8] يعنى أن يَصِفَ فيذكُرَ ، وبقوله فى الزخرف ﴿ولما ضُرِبَ ابنُ مريمَ مثلًا﴾[9] يقول: ولـمَّا ذُكِرَ ابنُ ، وَمَثَّلَ لضَرَبَ بمعنى وَصَفَ وبَيَّن بقوله تعالى فى إبراهيم ﴿وضربْنا لكم الأمثالَ﴾[10] يعنى وصَفْنا لكم وبَيَّنَّا ، وفى العنكبوت: ﴿وتلك الأمثالُ نَضربُها للناس﴾[11] يعنى نَصِفُها فَنبينها.

❊ ❊ ❊

---

(١) البقرة : ٢١٤ (٢) الآية : ٨ (٣) الآية : ٥٦ (٤) الآية : ٥٩
(٥) الآية : ٣٩ (٦) الآية : ٤٥ (٧) النحل : ١١٢ (٨) الآية : ٢٦
(٩) الآية : ٥٧ (١٠) الآية : ٤٥ (١١) الآية : ٤٣

٢٢٠ - أ - نموذجٌ من صالحي الجنِّ وحكمائهم

الجنُّ

لفظُ : الجِنِّ خلافُ الإنسِ ، واحدُه جِنِّيٌّ مثل رومٍ ورُوميٍّ ، وهذا اللفظُ من مادة تدلُّ على الاستتار، تقول : جَنَّ الشئُ جَنًّا أى : استتر. وجنَّه وعليه ستَره فاجتنَّ ، وجَنَّ الليلُ جَنًّا وجنَانًا أى: أظلم.

والجِنُّ: أجسامٌ رِقاقٌ فى صورةٍ تخالفُ المَلَكَ والإِنسَ ، عاقلةٌ كالإِنس: خفيَّةٌ عن أبصارنا ، يَغلب عليهم النارِيةُ ، كما يدلُّ عليه قولُه سبحانه من سورة الرحمن: ﴿وَخَلَقَ الْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الآية: ١٥]

أى: خلَق جنسَ الجِنِّ من لهَبٍ خالصٍ لا دُخانَ فيه ، أو مما اختلط بعضُه ببعض من اللهب الأحمرِ والأصفرِ والأخضرِ الذى يعلو النارَ إذا أُوقدَتْ.

والجِنُّ يَرَى الأناسيَّ وهم لا يرونه أى بصورته الجِبِلِّيَّة ، وإِن كان يُرَى حين يتشكَّلُ بأشكالٍ أُخرى «كالحيَّات» ، وقد أخبر اللهُ عز وجل بأن من الجن مؤمنين ، وأن منهم شياطينَ متمرِّدين ، كما هو الحالُ فى عالَم الإنس ، قال تعالى من سورة الأنعام: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ﴾ [الآية: ١١٢]

أى مَرَدَةً من النوعين، والشيطان: كلُّ عاتٍ متمرِّدٍ من الإِنس والجن.

ولم يختلف أهلُ المِللِ فى وُجود الجنِّ ، بل اعترفوا به كالمسلمين وإن اختلفوا فى حقيقتهم ، ولا تَلازُمَ بينَ الوجودِ والعِلْمِ بالحقائق ، ولا بينه وبين الرؤيةِ بالحواس ، فكثيرٌ من الأشياء الموجودةِ لا تزالُ حقائقُها

مجهولةً ، وأسرارُها مُحجَّبَةٌ ، وكثيرٌ منها لا يُرى بالحواس ، ألا تَرَى الروحَ مع وجودها فى الإنسان وسائر الحيوانِ لم يُدرِك كُنهَها أحدٌ ، ولم يرها أحدٌ ، وغايةُ ما عُلِم من أمرها بعضُ صِفاتِها وآثارِها، وكم فى العوالم من أسرار ، وفى الكون من حُجُب وأستار تشهدُ بأن وراء عِلْمِ الإنسانِ علومًا أحاط بها خالقُ الكون ومبدعُه ، ومنها ما استأثر سبحانه بعلْمه ، ولم يُطْلِع عليه أحدًا من خَلْقه.

رسول إلى الإنس والجِن:

وقد بُعث النبىُّ محمدٌ ﷺ إلى الجنِّ كما بُعث إلى الإنس ، فدعاهم إلى التوحيد ، وأنذرهم وبلَّغهم القرآنَ ، وسيُحاسبون على الأعمال يومَ الحساب كما يُحاسَب الناس ، فمؤمنُهم كمؤمنهم ، وكافرُهم ككافرهم وكلُّ ذلك جاء صريحًا فى الكتاب والسنة ، وإنَّ مُؤمنى الجِنِّ وصالحيهم يُصرَفون عن جهنمَ ، والظاهرُ الراجحُ أنهم يَدخلون الجنةَ إذا آمنُوا بالله سبحانه ، وعَمِلوا بفرائضه ، وانتهَوْا عن مناهيه.

سورةُ الجن:

وفى القرآن الكريمِ سورةُ الجن ، وهى مكيةٌ ، وآياتُها ثمانٍ وعشرون نزلت بعد الأعراف ، وترتيبُها فى المصحف بعد سورةِ نوح.

وإِن أسماءَ سورِ القرآنِ العظيمِ تبعثُ على النظر والاعتبار ، وتُوجب التفكير ، فقد سمَّى اللهُ فى كتابه العظيم: بالأنعام وبالحشرات مِثل: البقرةِ والأنعامِ ، والنحْلِ ، والعنكبوتِ ، والنملِ ، وسمَّى بما هو ألطفُ من ذلك كالنور ، وسمَّى ببعض الأنبياء: كيونسَ ، وهودٍ ويوسفَ ، ومحمدٍ ، وإبراهيمَ ، ونوحٍ ، وببعضِ الحوادث: كالإسراء والفتحِ ، والأماكنِ والبلدانِ: كالكهف ، والبلدِ ، والطورِ ، وببعض

الكواكبِ العلوية: كالشمسِ ، والقمرِ ، والنجومِ ، وببعض الأوقات: كالليلِ ، والفجرِ ، والضُّحَى ، وببعض النبات: كالتين ، وببعض الأخلاق: كالتوبة ، وببعض المعادن: كالحديد.

وفى سورة الجنِّ جاءت التسميةُ بعالَمٍ لا نراه وهو عالمُ الجنِّ الذى لم يُعرف فى الإسلام إلا من طريق الوحْى ، وهو موجودٌ لا يجوز إنكارُه: ومَن أنكر وجودَ الـجِنِّ فهو مُفتَرٍ على الله ، ويردُّ عليه القرآنُ والسنةُ الصحيحة ، يقول الشيخ عبدُ القادر المغربى[1] «وإذا كنا لا نصدقُ إلا بما نَشعر به بحواسنا ، فهذه أرواحُنا التى فى أبداننا ، لا نراها ولا نشمُّها ، ولا نسمعُها ، ولا نذوقُها ، ولا نلمسُها ، ولكننا نؤمنُ بوجود الروحِ ونعترفُ بعالمها».

إن العقلَ فى أشد الحاجةِ إلى الدين الحقِّ يَهديه ، ويُرْشِدُه ، ويسددُه ، ويصححُ نظرتَه إلى نفسه ، وإلى الكون والحياة ، وإذا صحَّ الإيمانُ أيقن المرءُ بأن الله عز وجل يخلقُ ما يشاء ، ويخلق ما لا نعلم ، كما يؤمن بكل ما أخبر اللهُ به عن عالم الغيب.

وفدُ الجن فى مجلس الرسول ﷺ:

وقد أَوحى اللهُ إلى نبيه محمدٍ ﷺ أن جماعةً من الجن ، استمعوا إليه وهو يقرأُ القرآنَ فى صلاة الفجر ، فى بطْن نخلةَ ـ التى تقعُ فى طريق الطائفِ على مسيرةِ ليلةٍ من مكةَ ـ فعادوا إلى قومهم مبشِّرين ومنذرين وأخبروهم بما سَمِعوه ، وقد ذاقوا طعمَ الإيمان وحلاوتَه ، وأدركُوا إعجازَ القرآن ، وأنه ليس من كلام الإنسِ ولا من كلام الجِن ، وأنه مباينٌ لأمثاله ونظائرِه من الكتب: فى حُسن نظمِه ، وصحةِ معانيه وبلاغةِ

(١) فى تفسيره جزء تبارك.

أسلوبه، وقوةِ تأثيره، وما حواه من بديع الحِكم، وبالغِ العظات والعبر.

وفى مطلع سورةِ الجنِّ أمر اللهُ نبيَّه أن يبلِّغَ أمتَه هذا النبأَ، وأن يتحدثَ بهذا الخبرِ ليلفتَ الإنسَ إلى ما فيه من دواعى التدبر والتفكرِ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوٓا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا۝يَهْدِىٓ إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن: ١، ٢]

فى هاتين الآيتين قصةُ هذا النفرِ الذين لم يكن الرسولُ ﷺ يعلمُ بمكانهم، ولا رآهم فى هذه المرة، وقد صرَفهم اللهُ عز وجل ووجَّههم إليه لتقومَ عليهم الحجةُ كما قامت على الإنس، وليحمِلُوا رسالةَ التبليغ بعد إيمانهم عن طواعيةٍ إلى مَن وراءَهم من إخوانهم الجنِّ على اختلاف مذاهبهم، وتناقضِ أديانِهم، ونِحلِهم.

وقد جاء خبرُ هؤلاء وقصتُهم مع النبى فى سورة الأحقاف، قال سبحانه لنبيه: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الآية: ٢٩]

أى: فلما حضروا القرآنَ وكان بمسمعٍ منهم، أو فلما حضروا رسولَ الله ﷺ وهو يقرأ، قال بعضُهم لبعض اسكتُوا مستمعين ﴿فَلَمَّا قُضِىَ﴾ بالبناء للمفعول أى لـمَّا فُرِغَ من القراءة أو ﴿فَلَمَّا قَضَى﴾ بالبناء للفاعل أى: لما أتمَّ الرسولُ ﷺ قراءتَه وفرَغ منها، بادروا بالعودة إلى قومهم يخوِّفونهم عذابَ الله، ويدعونهم إلى الإيمان وصالحِ الأعمال: ﴿قَالُوا يَاقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ۝يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِىَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ

﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الآيات: ٣٠-٣٢]

لقد عَادُوا من مجلس رسولِ الله ﷺ رسلًا أوفياءَ للحق ، وأحبُّوا لقومهم ما أحبُّوه لأنفسهم من الخير ، فبادروا بدعوتهم إلى الإيمان بخاتَم الأنبياء ، وتحبَّبوا إلى قومهم فى الدعوة بالإلحاح عليهم لقبول الحقِّ الذى ارتضَوْه لأنفسهم ، وتأمَّل قولَهم عن ذواتهم: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا﴾ وفيه تأكيدُ أنَّ الأمرَ جِدٌّ لا لبْسَ فيه ، ولا ريْبَ ، وانظُر النداءَ بعد النداء: «يا قَوْمَنا. . .يَا قَوْمَنَا» وما فيه من التحبُّب وإظهارِ الحِرْص على ما ينفعهم ، ثم تدبر إلحاحَهم فى الحث على قبول الإيمان عن طريق الأمرِ بعد الأمر: ﴿أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ .... وَآمِنُوا بِهِ﴾ وبيانَهم ما يترتبُ على ذلك من الفوائد الدائمةِ كسترِ الذنوب ، والوقايةِ من عذاب جهنمَ ثم تحذيرَهم إياهم من الإصرار على الباطل إذ إن اللهَ لا يَعْجَزُ عن أخذهم بأشدِّ العذاب ، ولا يجدُ الضالُّ وليًّا ينصرُه أو يُجيره من عذاب اللهِ إذا حلَّ به.

لقد كانوا حكماءَ فى إبلاغ الدعوة ، وفى تصوير المواقفِ ، وفى بيان المقاصد ، والمقارنةِ بين ظلامِ الكفرِ ونورِ الإيمان ، وقد جاء الخبرُ بقصة هؤلاء فى سورة الجِنِّ مع مزيدِ بيانٍ لِمَا كانت عليه أحوالُ الجِنِّ فى جاهليتهم: ولِمَا صار إليه حالُ المؤمنين منهم ، من وضوح المنهج وسلامَة الاعتقاد ، وقوةِ البرهان الذى يكشفُ زيْفَ أدعياءِ العلمِ والمعرفةِ من الملبِّسين والـمُضلِّين.

وقد أمر اللهُ نبيَّه ﷺ أن يُبلِّغ هذا النبأ ، ويتحدثَ بهذا الخبرِ للعظة

والاعتبار. ومن فوائد إظهارِ هذا الخبرِ والتحدثِ به:

* أن يعلمَ الناسُ أنهﷺ مبعوثٌ إلى الجِن كما هو مبعوثٌ إلى الإنس.

* وليظهرَ لنا أن الجِنَّ مُكلَّفون ومحاسَبون كالإنس.

* وليعلمَ الناسُ أن الجنَّ يستمعون كلامَنا، ويفهمون لغاتنا.

* وأن تعلمَ قريشٌ وسواها أن الجنَّ على تمرُّدها لـمَّا استمعتْ القرآنَ عرفتْ إِعجازَه، وآمنَتْ، والإِنسُ أولى بذلك للتجانس بينهم وبين المبعوث رحمةً للعالمين.

شرْحٌ وبيان:

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ أى: قُل يا محمدُ لأمتك أَوحَى اللهُ إليَّ على لسان جبريلَ ﴿أَنَّهُ اسْتَمَعَ﴾ أى: إلىّ وأصغى إلى قراءتى ﴿نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ والنفرُ الجماعةُ ما بين الثلاثةِ إلى العشرة، وقيل: كانوا من الشيصبان وهم أكثرُ الجِنِّ عددًا.

يقال: أُوحى إليه، ووُحِيَ إليه، فقُلبت الواوُ همزةً، كما قُلبت فى «أُقِّتَتْ» والأصلُ: وُقِّتَتْ، وهو من القلْب المطلَقِ جوازُه فى كل واوٍ مضمومة، وقد أطلقه المازنىُّ فى المكسورة أيضًا كإِشاح وإِسادة وإِعاء أخيه، والأصلُ: وِشاح، ووِسادة، ووِعاء.

﴿أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ﴾ والهاءُ اسمُ أنَّ المفتوحةِ الهمزةِ، فى محلٍّ نصْب وجملةُ استمع نفرٌ الخبرُ فى محلٍّ رفع، والمصدرُ الـمُؤَوَّلُ من أنَّ ومعموليْها نائبُ فاعلٍ مرفوع و ﴿مِنَ الْجِنِّ﴾ شِبْهُ جملة متعلقٌ بمحذوف: صفةٌ ـ هى «كائن ونحوه» لنفَرٍ مرفوعةٌ.

﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ معناه: أنهم بعد أن استمعوا القرآن

وتدبروه رجعوا إلى قومهم ، فنقلوا إليهم بأمانة وصدقٍ ما وقَر فى نفوسهم ، من أنهم سَمِعوا قرآنًا عزيزًا لا يُوجد مثلُه ، فى فصاحة كلامه وبلاغةِ مواعظِه ، وعِظَمِ بركتِه ، وصحةِ معانيه ، وحُسنِ نظْمِه ، وما حواه من بديع الحِكم ، وروائعِ العبرِ ، وقد قامت فيه دلائلُ الإعجاز.

ولفْظ «عجبًا» مصدرٌ يوضَع موضِع العجيب ، وفيه مبالغَةٌ ، وهو ما خَرَج عن حدِّ أشكاله ، وبايَنَ نظائرَه وأمثالَه.

ومن فِقْه هذا النفرِ من الجنِّ أنهم وصفُوا لقومهم ما سَمِعوه بأنه عجَبٌ أى موضِعٌ للغرابة والدهشةِ ، من جهةِ مُباينته لأمثاله من الكتب وهم كانوا على علم بالتوراة وبالإنجيل لأنهم كانوا - فيما يَظهر - نصارى لنفْيهم الولدَ والصاحبةَ عن الله ، ثم وصفُوه بأنه ﴿يَهْدِى إِلَى الرُّشْدِ﴾ وهى كلمةٌ لها دلالاتٌ ترتبط كلُّها بالحق والصوابِ والاستقامةِ والسدادِ والدلالةِ عليها ، فهم يقولون لقومهم إنه يَهدى إلى: التوحيد والإيمانِ وإلى الصواب وإلى معرفة الله عز وجل ، وإلى مراشدِ الأمور والمقاصدِ الصحيحة ، والمناهجِ القويمة التى لا عِوَجَ فيها ولا انحراف.

ولـمَّا كان القرآنُ معجزًا ، وفيه الهدايةُ والرشادُ فمَن آمن به فهو راشدٌ مستقيمٌ على طريق الحق ، وقد اختار هذا النفرُ ذلك الطريقَ فقالوا لقومهم ﴿فَآمَنَّا بِهِ﴾ والضميرُ فى «به» للقرآن، ولما كانَ الإيمانُ به إيمانًا باللهِ ووحْدانيتهِ، وبراءةً مِن الشرك ، قالوا: ﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾

[الآيتان: ١، ٢]

أى: إننا آمنَّا بالقرآن ، وعَمِلْنا بأمره وتعليمه ، فلن نجعلَ من بعد اليوم شريكًا لله من خَلْقه ، لأنه سبحانه المتفردُ بالربوبية.

وفى هذا تَعجيبُ المؤمنين بذهَاب مشركى قريشٍ عمَّا أدركتْهُ الجنُّ

بتدبرها القرآن.

إن القرآنَ العظيمَ هو الحجةُ الباقيةُ والمعجزةُ الدائمةُ ، وإن كلَّ مكلَّفٍ من الإنس والجنِّ مأمورٌ بالإيمان به ، مطالَبٌ بالدخول فى دين اللهِ حتى يرثَ اللهُ الأرضَ ومَن عليها ، لهذا قال هذا النفرُ الحيكمُ ﴿آمنَّا بِه﴾ ثم نَزَّهوا اللهَ عن الولد والصاحبة ، وعابُوا على أدعياء العلمِ تضليلَهم غيرَهم ،ووازنوا بين ماضيهم وحاضرِهم لبيان الفرْقِ بين الضلال والهدى.

فماذا قالوا؟ وبم نَصَحُوا؟ وما القضايا التى تحدَّثوا عنها؟

❄ ❄ ❄

الدين النصيحة:

قال رسول اللهﷺ: «الدِّينُ النصيحةُ (ثلاثًا) قالوا: لمن يا رسولَ اللهِ؟ قال: لله ، ولكتابه ولرسولِه ، ولأئمَّةِ المسلمين وعامَّتِهم»

(رواه تميم الدارى وأخرجه مسلم)

٢٢١ - ب - القضايا الكبرى التى تحدّث بها حكماء الجنّ

إنَّ القضايا الرئيسةَ الكُبرى التى شغَلت الناسَ قد تناولها وفدُ الجنِّ فى أحاديثهم مع قومِهم بعد أن رجعوا إليهم مؤمنين مبشِّرين بظهور النبى الأمين ﷺ.

وهى قضيةُ التوحيد ، توحيدِ الألوهيةِ والربوبية ، وتنزيهِ الخالقِ عن الولد والزوجةِ والشريك ، وقضيةُ النبوةِ والرسالةِ ، وقضيةُ البعثِ والحساب ، ومسألةُ الغيب ، وتطهيرِ الاعتقادِ من الوهْم والباطل ، وكلِّ ما يُنافى إخلاصَ التوحيد ، مع بطلانِ اللجوءِ والاستعاذةِ بغير اللهِ سبحانه ، وتأكيدِ أن أحدًا من الخَلْق لا يَدرى ماذا يكون غدًا ، وما المُقدَّرُ للعبد فيه.

لقد كان هذا النفرُ من الجِن من أهل الكتاب ، وكانوا على علْمٍ بأن نبيًّا عربيًّا قرُب زمانُ مَبعثِه ، فلمَّا سَمِعوا قراءتَه ، علِموا أنه خاتَمُ المرسَلين ، وأنه المبعوثُ آخرَ الزمان ، وأن معجزتَه الكُبرى القرآنُ فآمَنوا وصَدَّقوا ، ووحَّدوا وأكَّدوا العزْمَ على تطهير الاعتقاد من كل شائبةٍ من شوائبِ الشرك ، وهذا فى قوله تعالى: ﴿**إنَّا سَمعْنَا قُرْآنًا عَجبًا۝يَهْدى إلَى الرُّشْد فآمَنَّا بهِ ولَن نُّشْرِكَ بربِّنَا أَحَدًا**﴾ وعادُوا يدعُون قومَهم إلى التوحيد النقىِّ الخالص.

ثم نَبَّهوا قومَهم إلى بطلان التثليثِ ، وإلى تنزيه الربِّ عن الولد والصاحبة: ﴿**وأَنَّه تَعالَى جَدُّ ربِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحبَةً ولا وَلَدًا**﴾ أى: أنه تعالى جَلالُ ربِّنا وعَظَمتُه أن يتخذَ صاحبةً وولدًا للاستئناس بهما والحاجةِ

إليهما ، والربُّ يتعالى عن ذلك علواً كبيرًا كما يتعالَى عن الأنداد والنظراءِ والأشباه.

تقول العرب: جَدَّ فلانٌ فى عَينى ، أى: عظُم أمرُه ، وكان الرجل إذا حَفِظ سورتَى البقرةِ وآلِ عمرانَ جَدَّ فى أَعْيُن المسلمين ـ كما رَوى أنس ـ أى: عظُم وأصبح له مقامٌ لِمَا وُفِّق إليه من الخير.

ومعنى: ﴿جَدُّ رَبِّنَا﴾ عظمتُه وسلطانُه ، أى: إن العظمةَ والجلالَ الإلهىَّ يأَبى ويتنزَّهُ عن أن يَتخِذَ لنفسه صاحبةً وولدًا ، إِذ إِن مَقامَ الألوهيةِ يُنافى هذا الاتخاذَ الذى هو أثرٌ من آثار العجْز أو الانقسامِ والتجزؤ.

أخذ هؤلاء الحكماءُ يَصفون لقومهم ما كان من تأثير الكلامِ الإلهىِّ فى نفوسهم ، وكيف صحَّح من عقائدهم ، وغيَّر من أوهامهم وذكَروا ما دَخل على عقائدِ أهلِ الكتابِ وغيرِهم فأفسدها ، فعَميت البصائر وضلَّ الناسُ فى متاهات الشركِ والتثليث ، وبَيَّنوا أنهم أقرُّوا بالتوحيد والتنزيهِ ، ثم حَذَّروا من أدعياء العلمِ وقادةِ الضلال الذين افترَوا على الله الكذبَ ، ونَسبُوا إِليه سبحانه ما هو مُنزَّهٌ عنه: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللهِ شَطَطًا﴾ والشطَط: الخروجُ عن حدِّ الاعتدال، والسفَهُ: الخفَّةُ والطيشُ فى المرء تنشأُ عن الحُمق والجهل: والسفيهُ هنا هو المبتدعُ فى دين اللهِ ما ليس منه ، الذى أَضل غَيْرَه عن حقيقة توحيدِ الألوهية ، ونَسب إلى الله سبحانه ما لا يَليق بجناب قُدسيته.

وهذا من أنفعِ الدروسِ وأعظمِها شأنًا: ألَّا نقلدَ زعماءَ الضلال ، وألَّا ينقادَ العقلاءُ للمبتدعة والملحدين ، وألا يجمُدوا على الموروث من العقائد الباطلةِ ، والقِيَمِ الفاسدة ، بلْ عليهم أن يستخدموا العقلَ فى

(١٤٥٢)

النظر فى آيات الكون ، وتدبرِ آياتِ الكتابِ الحكيم ، ليُرْشَدَ العقلُ ويُسَدَّدَ ، ويهتدِىَ ، ويسيرَ على نور ، وإِن البراهينَ الناطقةَ بتوحيد الألوهيةِ قائمةٌ فى النفس وفى السماء والأرض وفى كل ما يقعُ عليه الحس.

ولنتدبر أسفَ مؤمنى الجِن على غفلتهم عن تمويهات المضلِّلين وحُزنهم على سذاجتهم فى قَبول ما كان يقولُه زعماءُ الضلال وأدعياءُ العلم: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ الإنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾ ليكونَ لنا فى ذلك عبرة: ولنزنَ كلَّ كلمة بميزانِ الوحى ، ويكونَ مُرشدُنا دومًا هو كتابُ الله وسنةُ رسولِ اللهِ ﷺ.

ومن الحِكَم المستفادة: أنه لا ينبغى أن يكونَ أولئك النفرُ من إخواننا الجنِّ أهدى منا - نحن البشر - إلى صحيح الإيمان ، ولا أشدَّ تمسكًا بآداب القرآن ، ولا أدقَّ فهمًا لمراميه ومقاصدِه ، ولا أعظمَ حِرصًا على الدعوة إلى الله بالبرهان والحكمة ، وفى المثل العربى:

قُم فقد قامتْ الطيورُ تُغنِّى ... لا يكونُ الحمامُ أَطربَ مِنَّا

قضيةُ العرَّافين والمشعبذين:

وبعد الدعوة إلى التوحيد والحثِّ على تنزيه الربِّ ، وعلى نبذِ الشركِ أَخَذ خطباءُ الجِن فى مسائلَ ذاتِ أهمية بالغة فى تطهير الاعتقاد فقالُوا كما حكى الله عنهم: ﴿وَأَنَّه كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾.

قال مقاتل: كان أولَ مَن تعوَّذ بالجن قومٌ من أهل اليمن ، ثم من بَنى حَنيفةَ ، ثم فشا ذلك فى العرب ، فلمَّا جاء الإِسلام عاذوا بالله وتركوهم.

وقال الحسن وغيرُه: كان الرجلُ إذا نَزل بوادٍ يقول: أعوذُ بسيد هذا الوادى من شرِّ سفهاءِ قومه الجنِّ ، فيَبيتُ فى جِوَارِه حتى يُصبِحَ.

ولا شكَّ أن هذا نوعُ خَللٍ فى الاعتقاد ، وسبيلٌ لإضعاف النفسِ وزعْزعةِ الطمأنينة ، وهذا مما يدفعُ الجهالَ إلى الاستجارة بالكهان والمنجِّمين والعرافين وسائرِ مُستطلعى الغيب مُدَّعى العلاقةِ بالجانِّ ، وقد صَوَّرت الآيةُ الكريمةُ الأثرَ النفسىَّ والعقلىَّ الناجمَ عن هذا الوهمِ بقوله سبحانه: ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ وهى عبارةٌ قويةُ الإيحاء ، عظيمةُ الدلالة شديدةُ الوقْع على النفس ، والتنبيهِ للفكر.

والرهَق يُطلق على معانىَ منها: الخطيئةُ ، والإثمُ ، والخوفُ ، وشدةُ الجبنِ ، والعنتُ ، ومن لازم ذلك الكفرُ وظلمُ النفس ، والطغيانُ ومجاوزةُ الحدِّ ، والواو فاعلُ زَاد ، والضميرُ «هم» مفعولٌ به ، ويمكن أن تعودَ الواو على الجِن و«هم» على الإنس: أى: فزاد الجنُّ الإنسَ خوفًا وفرَقًا منهم ، أو زادوهم خطيئةً وإثمًا ، وأُضيفت الزيادةُ إلى الجنِّ إذ كانوا سببًا لها ، أو زادوهم كفرًا كما قال سعيدُ بن جبير ، ولا خفاءَ أن الاستعاذةَ بالجن كُفرٌ وشِركٌ إذ الاستعاذةُ تكون باللهِ وحده.

ويمكن أن تعودَ الواوُ إلى الإنس و «**هم**» إلى الجن: أى: إن الإنسَ زادوا الجنَّ طغيانًا وغُرورًا بهذا التعوُّذ ، حتى قالت الجنُّ سُدنا الإنسَ والجنَّ.

وأضاف بعضُ المفسرين: أن الإنسَ المستعيذَ بالكهنة ونحوِهم ، ازداد خوفًا ورعبًا من الإنس المُستعانِ بهم على الجنِّ فى وَهْمهم ، وقد نبَّه حكماءُ الجنِّ إلى هذا الوهمِ الباطلِ الذى يُدخِل على القلوب لوثاتِ الكُفر والخوفِ من غيرِ اللهِ تعالى ، والتعلقِ بغيره سبحانه مما يُحيِّر

الإنسانَ ، ويُبلبِلُ فِكرَه ، ويَشْغلُ بالَه بما لا جَدْوى منه ، ويجعلُه نهبةً للغشَّاشين ، والمشعبذين ، والعرافين والسحرة ونحوِهم ، ممن يستثمرون البلهاءَ والجهالَ كما تُسْتثمرُ البقرةُ الحلوب.

وهذا درسٌ من إخوانٍ لنا مؤمنين ، وكانوا قد عاشوا فى التجربة وعَرَفُوا حقيقةَ ما يَجرى ، ونبَّهوا إلى خيْطِ الوهمِ الذى يُحيِّر الناس وينبغى لنا أن نَعيَه جيِّدًا ، لأنه صدَر منهم عن إخلاص بَعد إيمانهم وحُبِّهم للمؤمنين من الإنس والجن.

قضيةُ النبوّة والبعْث:

ثُم نبَّه حكماءُ الجنِّ إلى قضيَّة النبوةِ ، وقضيةِ البعث للحساب ، كما حكى سياقُ السورة على لسانهم ولنتدبر: ﴿**وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا**﴾ أى: أن الغفلةَ أدَّت بالجن كما أدَّت بالإنس إلى حُسبان أنَّ اللهَ لن يُرسِلَ إلى خلْقه رسولًا، يُقيم به الحُجةَ عليهم إلى يوم القيامة وهو الرسولُ الذى بَشَّرت به التوراةُ والإنجيلُ وسائرُ الأنبياءِ والمرسلين قبله ، ووَفْدُ الجنِّ يُعبِّرُ بهذا عن فرحته بظهور النبىِّ محمدٍ ﷺ وتأييدِه بهذه المعجزةِ الكبرى ، وبأنهم كانوا أولَ رسلٍ له ﷺ إلى الجنِّ ، ولذا رَمَوْا إخوانهم بالغفلة عن هذا الأمرِ كما غَفل الإنسُ عنها ، وهاهو ذا قد ظهر ، ووجب على الجميع اتِّباعُه ، وفى هذا توكيدٌ للحجَّة على قريشٍ وعلى البشر عامة ، لأنه إذا كان هؤلاء الجنُّ قد آمنُوا وأدركُوا الحجةَ والبرهانَ فأنتم يا معشرَ قريش ، ويابَنى آدمَ أحقُّ بذلك للتجانُس بينكم وبين محمدِ بنِ عبدِ الله ﷺ.

هذا من ناحية قضيةِ النبوة ، أمَّا من ناحية قضيةِ البعث فإن سياقَ الآيةِ يَحتمِلُ أن يكونَ المعنى: أن الجنَّ ظنوا أن لن يبعثَ اللهُ الخلْقَ للحساب

والجزاءِ كما ظَنَّ الإنسُ ممن نَسُوا اللهَ أو حرَّفوا ما جاءت به الرسلُ قبله ﷺ ، وقد أفاد وفدُ الجنِّ: أن كِلا الفريقين أخطأَ فى هذا الوهْم الفظيعِ ، ولذا أَعْلَموا باعتقادهم فى إِثبات البعثِ والحسابِ والجزاءِ بعد إِيمانهم بالإسلام وسماعِهم القرآنَ.

من الإرهاصات بظهوره ﷺ :

ثم أشار وفدُ الجنِّ إلى آيةٍ من آيات نبوتِه ﷺ ظهرت لهم عِيانًا وعاشُوا بأنفسهم فى تجربتها ، وهى ازديادُ الحِراسَة على السماء لمنْع الجنِّ ومنهم هؤلاء من استراق السمعِ وزيادةِ تضليلِ بُلهاءِ الناسِ ومُغفَّليهم وهى تجربةٌ حيَّةٌ وواقعيةٌ نقلها إلينا الوحْىُ على لسان إخواننا من الجنِّ فى صورةٍ فيها حركةٌ ، ولها أَبعادٌ مكانيةٌ ومَشاهدُ وأضواءٌ وكأنها ـ إنْ صَحَّ هذا التعبيرُ ـ مَسرحٌ قائمٌ بين السماء والأرضِ وفيه يُطَارَدُ سِفْلَةُ الجِنِّ بالشُّهُبِ يَرميهم بها الحرسُ من الملائكة فيتهاوَوْنَ ويتساقَطُون ، وينبغى لنا أن نتدبر فى تأمُّلِ قولَهم: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ﴾ أى طلبنا أَخبارَها وسعَيْنا ـ كما كنا نفعلُ قبل مَبعثِه ﷺ ـ نتعرَّفُ من أسرارها ما يُتاح لنا استراقُه ، واللَّمْسُ: هو المسُّ ، وقد استُعير لطلب الشىءِ لأن الماسَّ طالبٌ متعرِّفٌ ، أى: طلبنا بلوغَ السماء واستماعَ كلام أهلِها.

﴿فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا﴾ أى: حفظةً وحُراسًا شِدادًا من الملائكة ، «وَشُهُبًا» أى: شُعَلًا سَاطعةً من النار ، يُرْجَمُون بها من كل جانبٍ من جوانب السماء ، إذا حاولوا الاقترابَ لاستراق السمع.

وتأمل: ﴿لَمَسْنَا السَّمَاءَ﴾ وما تدلُّ عليه: من الحركة ، والبحْثِ وكثرةِ الطالبين من الجنِّ للخبر من السماء ، وتدبَّر: ﴿فَوَجَدْنَاهَا﴾ وما فيه من المفاجأة إِذْ رأَوا ما لم يكن على هذا النحْوِ من قبل ، وهو

ماعبَّروا عنه بقولهم: ﴿مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ وهى ظاهرةٌ شديدةُ الغرابة ، مثيرةٌ للحيرة ، باعثةٌ على الخوف الشديدِ من سلْبهم بعضَ ما كان لهم من هذا القبيل.

إن هذه الظاهرةَ التى حيَّرتهم ، أثارت علاماتٍ كثيرةً فى نفوسهم ودارت بينهم استفهاماتٌ دفعتْهم إِلى التفرق والانتشارِ فى الأرض ليَجِدوا الإِجابة.

قال عبدُ الله بنُ عمر: لـمَّا كان اليومُ الذى نُبِّئَ رسولُ اللهِ ﷺ مُنعت الشياطينُ ورُموا بالشهب. [ذكره البيهقىّ]

وقد قُدِّر لهذا النفرِ من الجنِّ أن يصلَ فى بحْثه إلى بطن نخلةَ فى تلك الليلةِ المباركة ، ورأَوا النبىَّ ﷺ يُصلِّى الفجرَ ، وأخذت بنفوسهم طاعةُ الصحابةِ ، وصلاتُهم بصلاته ، فى خشوعٍ وانقياد ، واستمعوا القرآنَ وأسلَموا وجوهَهم لله ، وعرَفوا أسبابَ مطاردتِهم بالملائكة ، والشهب فتحدثوا عن الماضى ، ووازنوه بالحاضر ، فقالوا على سبيل العبرة والتنبيه وتقديمِ البرهانِ على صحةِ النبوةِ وصدْقِ النبى الخاتَم ﷺ ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ أى كانت هناك مواضعُ نَجلِسُ فيها لاستماع الأخبارِ من السماء ، ثم تنقلُها مَرَدَةُ الجنِّ إِلى الكهنة والعرَّافين بعد أن يَخلِطوا الحقيقةَ الواحدةَ بتسعة أمثالِها من الأكاذيب والأباطيلِ لاستخدام الكهنةِ وأمثالِهم فى إضلال بُلهاءِ الإنسِ ومغفليهم وإعاشتِهم فى حَيرة وبلْبلة خاطر: ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ أى: كوكبًا مُحرِقًا مُهيأً ومُعَدًّا للانقضاض عليه ، وغَرضُ النفرِ المؤمنِ من الجن: أن تلك آيةٌ من آيات مبعثِ خاتمِ النبيين ، وبرهانٌ من براهينِ صدقِه ووجوبِ الإيمانِ به ﷺ ، وفى تفسير هذه الظاهرةِ للجنِّ من

إخوانهم دليلٌ ساطع ، وشاهدٌ قاطعٌ بظهور النبىِّ المنتظَر ، لأنهم عاشوا التجربةَ بأنفسهم وحيَّرتهم زمنًا ، حتى عرفوا سببَ زيادةِ الحرسِ والشُّهبِ وأنَّ عهدًا جديدًا بدأ بظهور خاتَمِ الأنبياء والمرسَلين ، وفيه عِبرةٌ للإنس يتلقَّونها من إخوانهم الجنِّ ، لأنهم أَوْلَى بالبحث عن الحقيقة وتأملِ الآياتِ والبراهين.

وإن الجنَّ لِحَيْرَتِهم حين مُنعوا من استراق السمعِ ، كانوا يقولون ما حدَث هذا إلا لأمرٍ أراده اللهُ لعباده: أَشَرٌّ هو وضُرٌّ أم خيرٌ وصلاحٌ ونفْعٌ؟ .

﴿وَأَنَّا لا نَدْرِى أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدا﴾

[الآيات من سورة الجن: ١ : ١٠]

قال ابنُ زيد: قال: إبليس: لا نَدرى: هل أراد اللهُ بهذا المنْعِ أن يُنزِلَ على أهل الأرضِ عذابًا أو يُرسِلَ لهم رسولًا؟

والكلام متصل فى ظلال سورة الجنِّ :

❊ ❊ ❊

٢٢٢-ج- الإيمانُ الصحيحُ يُطهِّرُ القلْب ويُصحِّحُ الفِكْرَ والاتجاه

كانت الجِنُّ قبلَ ظهورِ النبيِّ محمدٍ ﷺ يصعدون ، لاستراق السمعِ وكانوا يَجِدون لهم منافذَ فى الفضاء وأماكنَ صالحةً للبقاء حتى يتمكنَ الجِنِّىُّ من استراق ما يستطيع ، ثم يُضِيفُ أكاذيبَ من عند نفسه على الكلمة أو الخبرِ حتى تتلاشى الحقيقةُ بغرض تضليلِ الناس ، وزعزعةِ أَمْنِ نفوسِهم ، جاء عند الترمذى عن ابن عباس: «كان الجنُّ يَصعدون إلى السماء يستمعُون إلى الوحْى فإذا سَمِعوا الكلمةَ زادوا فيها تِسعًا» ثم حِيلَ بينهم وبين خبرِ السماء ، وأُرسِلت الشهبُ تِباعًا وبكثرةٍ على مَن يحاولون ذلك ، فَعجِبَت الجِنُّ للأمر ، وقالوا ـ كما جاء فى صحيح مسلم والترمذى عن ابن عباس: ما ذاك إلّا من شىء حدَث ، والظاهرُ أنَّ أهلَ الكتاب منهم كانوا على علمٍ بأن نبيًّا عربيًّا قد قَرُب زمانُ مبعثِه ولعل تلك تكونُ آيةً من آياته ، فقال لهم كبيرُهم: اضْرِبُوا مشارقَ الأرضِ ومغاربَها ، فانظُروا: ما هذا الذى حال بيننا وبين خبرِ السماء؟.

قال ابن عباس: «فانطلقوا يَضرِبون مشارقَ الأرض ومغاربَها ، فمرَّ النفرُ الذين أَخذوا نحْو تِهامةَ ، والنبىُّ بنخْلٍ ، عامدين إلى سوقِ عُكاظ وهو يصلِّى بأصحابه صلاةَ الفجْر ، فلمَّا سَمعوا القرآنَ ، استمعوا له وقالوا: هذا الذى حال بيننا وبين خبرِ السماء ، فرجعُوا إلى قومهم فقالوا: ﴿**إِنَّا سَمِعْنا قُرْءَانًا عَجَبًا*يهْدِى إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا**﴾.

ثم قال الجنُّ إن حراسةَ السماءِ ، ومنْعَ الجنِّ من الاستراق ، وإرسالَ خاتَمِ الأنبياء ، كلٌّ هذا يَتِمُّ بمقتضى إرادة الله عز وجل ، ولا يعلمُ أحدٌ من الخلْق ما قُدِّر للعباد فى الأرض من خيْر ، أو شرٍّ ، إذ الرسالةُ اختبارٌ وامتحان ، فمَن آمَن فله الحسنى ، ومَن كفر ساءت عاقبتُه ، وهذا من الجن المؤمنِ من بابِ الإشفاقِ على مَن فى الأرض من المكلَّفين خشيةَ أن يُعرِضَ أكثرُهم عن الحق والهدى: ﴿وَأَنَّا لا نَدْرِى أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُم رَشَدًا﴾ وفيه نفىُ عِلْمِ الغيب عن المخلوق ، وأن الابتلاءَ بالخير يَقتضى إشفاقَ الناصحِ على المنصوح خشيةَ الإعراض والخِذلان ، ولفظُ الرَّشَد له دلالاتٌ طيبةٌ حَسَنَةُ الوقْعِ فى النفوس: كالهداية والتوفيقِ ، والإيمانِ والخيرِ ، ولفظُ الشرِّ ضِدُّه وبضدِّها تتميزُ الأشياءُ ، فتُقبِلُ النفوسُ الطيبةُ على أسباب الخير ، وتَنفِرُ من دواعى الشرِّ والسُّوء.

ولقد أَحسنَ الجنُّ فى ذِكْر إرادةِ الشرِّ محذوفةَ الفاعل «أَشَرٌّ أُرِيدَ» والمرادُ بالمُريد هو اللهُ تعالى ، وفى إبرازِهم لاسمه سبحانه عند إرادةِ الخيرِ والرَّشَد فَجَمَعوا بين العقيدةِ الصحيحةِ والآدابِ المَليحةِ ، على نحوِ الأدب الذى جاء على لسان إبراهيمَ الخليلِ عليه السلامُ فى قوله من سورة الشعراء: ﴿وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ۝وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [٧٩و٨٠] فأسند المرضَ إلى نفسِه لأنه قائمٌ به والفاعلُ هو اللهُ تعالى.

وفى نفْى الجنِّ عن أنفسهم عِلمَ شىءٍ من الغيب تنبيهٌ للناس وتحذيرٌ كى تصحَّ نظرتُهم إلى الأمور ، إذ الجنُّ لا يَملكون لأنفسهم ولا لغيرهم نفعًا ولا ضرًّا ، ولا الكهانُ والسحرةُ بيدهم شىء ، وكلُّ ما يَرْوُونه عن

(١٤٦٠)

الجنِّ ضربٌ من الحَدْس والتَّخمين والتمويه ، يُوهمون به السُّذَّجَ ويكذِبُون على الناس ليُضِلُّوهم ، وإِن الأمرَ كلَّه لله وحده.

ثم صورَّ الجانُّ حالَهم قبل الإِيمان ، وقد فرَّقتهم الأهواء ، ومزَّقتهم المذاهبُ والنِّحَلُ بحالِ أمةٍ اختار كلٌّ جماعةٍ منها طريقًا تسيرُ فيه ، مما جعل الجماعةَ الواحدةَ جماعات ، والأمةَ كأنها أُممٌ ، وهذا ممَّا يُضعفُ الشوكة ، ويُشمتُ العدو: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾ [الجن:١١] أى فمنهم الصالحُ ، ومنهم المقتصدُ ، ومنهم الكافرُ ، والطرائقُ جمع طَريقةٍ مؤنث طريقٍ وهو الشارع ، وقد غلَب استعمالُ الطريقة فى الطريق المعنوىِّ وهو مَذْهَبُ الإنسانِ وأفكارُه والقِدَدُ: جمع قِدَّة وهى القطعة: والقِدُّ بالكسر: سَيْر يُقَدُّ من جِلْدٍ غيرِ مَدبوغ و «قِدَدًا» صِفةٌ مؤكِّدةٌ لطرائقَ أو خبرٌ بعد خبرٍ لكان للدلالة على معنى التمزقِ والتفرقِ ، بتمثيل الأمورِ المعنويةِ التى تدورُ فى النفس وتتصلُ بالفِكر والاعتقادِ بالطرق المحسوسةِ المتفرقة هنا وهناك.

وهذا النفرُ من الجن إذْ يصوِّرون هذا الحالَ إنما يأملون فى دخول قومِهم فى دين اللهِ ليكونوا أمةً واحدةً متساندةً تجمعُها العقيدةُ الصحيحة ومقتضياتُ الإِيمانِ التى تُوجب حقوقًا للأُخوة فى الله والتعاونَ على الخير ودفْعِ الشرِّ والضُّر ، وفى هذا ما فيه من العِبرِ للإنسان.

وإِن من ثمراتِ الإيمانِ الصحيحِ الاعتقادَ بكمال قدرة الله عز وجل وأنَّ العبدَ لا يفلت أبدًا ممَّا قُدِّر عليه ، ولا منجَى له ولا مَهْربَ إذا أُريدَ به ضُر: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللهَ فِى الأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا﴾[الجن:١٢] والظنُّ هنا بمعنى اليقين والاعتقادِ الجازم ، و«هَرَبًا» مصدرٌ فى موضع الحالِ بمعنى «هاربين» أى: أن اللهَ عزَّ وجل غالبٌ لا يفوتُه مطلَب ، ولا

يُنجِى عنه مَهرب.

وجاء هذا من مؤمنى الجنِّ فى مجال الحثِّ على تطهير الاعتقاد وتصحيحِ اليقين، وبيانِ ما أكرمهم اللهُ به وتفضلَ به عليهم من نعمة الإيمانِ والتفكُّرِ الصحيحِ فى الدلائل والآياتِ، ومن هذا القَبيلِ أن المؤمنَ الصحيحَ الاعتقادِ السليمَ المقاصد: لا يَبْخَس أحدًا حقَّه، ولا يَدَّعِى على أحدٍ غيرَ حقِّه فيُرهِقَه ويُحَمِّلَه هُمومًا فوقَ طاقته، وأنه أيضًا يُؤمن بالعَدل الإلهىِّ ويرجو رحمةَ الله ما دام مستقيمًا على طاعةٍ، وانقياد فهو فى هذه الحالةِ لا يخافُ أنْ يَنقُصَ من ثوابِ عملِه شىءٌ، ولا أن يُحَمَّلَ شيئًا من ذنوب غيره، وهذا ما نَجِدُه بالتأمل فى قول الله على لسانهم: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ﴾ أى بالقرآن وتعاليمه ﴿فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾. [الجن: ١٣]

والبَخْسُ: النقصانُ، والرهَقُ: العدوانُ وغشيانُ المحارم، قال ابن عباس: ومن يؤمن بالله لا يخافُ أن يُنقَصَ من حسناته ولا أن يُزادَ فى سيئاته.

أو المعنى: لا يخافُ جزاءَ بخسٍ لأنه لم يبخسْ أحدًا حقًّا، ولا جزاءَ رَهَقٍ لأنه لم يُرهق ظُلْمًا، إذ من حقِّ المؤمن بالقرآن أن يَجتنِبَ المظالم، ومنه قولُ النبىِّ ﷺ: «المؤمنُ مَن أَمِنه الناسُ على أنفسهم وأموالِهم»، والكلامُ على تقدير مبتدأ، أى: فهو لا يخافُ، يعنى: فهو غيرُ خائفٍ، والجملةُ الاسميةُ جوابُ الشرطِ فى مَحلِّ جزمْ.

ثم بيَّنَ هذا النفَر من الجنِّ أن جماعتَهم بعد ظهورِ الحقِّ ودلائله مازال الكثيرُ منهم على ضلالٍ وذَهابٍ عن الخير وبرهانه، فقالوا: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾ أى مع دخولِ جماعةٍ فى الإسلام، فما زال مِن الجنِّ الجائرونَ عن طريق الحقِّ، وهو الإيمانُ والطاعة، والقاسطُ

اسمُ فاعلٍ من قَسَط وهو بمعنى الجائرِ المائلِ عن الحق والعدلِ ضِدّ المُقسِط اسمُ فاعلٍ من أقسط بمعنى عَدل وأنصف ، لأنه عادلٌ إلى الحق والمقصودُ بالقاسطين فى الآية الكفارُ بمذاهبهم المتعددة ، ثم شوَّق النفرُ للإيمان ورغَّبوا فيه بقولهم ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ [١٤] أى تَوخَّوا وقَصدوا رشدًا عظيمًا وهدايةً تُوصِّلُهم إلى جنات النعيم، وفيه ثناءٌ على أهل الإيمانِ لحُسن تدبرِهم ، وسلامةِ اختيارِهم ومقاصدهم أى: فهم أهدى سبيلًا، وأسلمُ عاقبة ، وأكثرُ تبصرًا وسدادًا ، ثم حذَّروا من الكفر وعاقبته ، وخوَّفوا من طُرقه الرديئة المظلمة: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١٥] أى تُوقَدُ بهم النارُ كما تُوقدُ بالإنس المخذولين ، وهذا المصيرُ مُقدماتُه سوءُ التفكُّر ، وضلالُ الاتجاه ، وفسادُ الاعتقاد ، واختيارُ الأدنى وتركُ الأعلى ، والانكبابُ على العاجلة دون تحرِّى أسبابِ النجاة.

وفى المقابلة والتضادِّ بين الفريقين ومصيرِ كلٍّ منهما ما يَلفِتُ إلى الموازنة بينهما ، وإدراكِ مزايا التبصُّرِ والنظرِ فى البراهين ، وقُبحِ الضلالِ والعدولِ عن طريق الحق ، وما فى ذلك من ظلمِ النفسِ وجعلِها مَوضعًا لسُخْط الربِّ سبحانه وتعالى.

ثم بيَّن السياقُ أن الاستقامةَ على طريق الإسلام اعتقادًا وعملًا سببٌ فى إغداق الخيراتِ والبركاتِ على أهل الإيمانِ الذين صفَت حياتُهم من الباطل وخلَت من الفواحش ، وخلَصت نياتُهم لله ، وأقرُّوا المعروفَ وأنكروا المنكرَ ونبذوه: ﴿وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦] أى: لو استقام الخلقُ على طريقة الحقِّ والهدى والإيمان ، وكانوا مؤمنين مطيعين لوسَّع اللهُ عليهم فى الدنيا ، وليسَّر

لهم من غيث السماءِ وبركاتِ الأرض ما يجعلُهم أرغد عيشًا ، وأهنأ بالًا، وأحسنَ حالًا ، ولفُتحت لهم أبوابُ الرزق من حيث لا يحتسبون.

والماءُ الغدق هو الماء الكثير ، يقال ، غَدِقَت العين تَغدَق فهى غَدِقةٌ إذا كثُر ماؤُها ، وقد ضُرب الماءُ الغدَقُ الكثيرُ مثلًا لوفُور المالِ وكثرةِ الخيرِ والسعةِ فى المعاش ، لأن الخيرَ والرزقَ كلَّه بالمطر يكون ، فأقيم مُقامَه.

والله عز وجل يقول من سورة الطلاق: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۞ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [٢و٣] ويقول من سورة الأعراف: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [٩٦] ومن سورة المائدة: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾. [٦٦]

﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أى: هذا من قَبيل الاختبارِ بالخير ، أيشكرون أم يكفرون؟ وبالشكر وتقديرِ النعمةِ ووضْعِها فى موضعها الملائمِ دون بطَرٍ ولا أشَرٍ تَثبُتُ النعمُ وتزداد ، ومَن كفَر وجحَد ، وبَطِرَ ،واستَخْدم النعمَ فى معاصِى الله قلَبها عليهم جحيمًا ، وتجارِبُ الأمم فى تاريخها الطويل تؤكِّد ذلك وتُثبِتُه ، وفى الآخرة عذابُ جهنمَ وبئس المصير ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾. [الجن: ١٧]

والصَّعَد: المشقةُ ، تقول: تَصعَّدنى الأمرُ: أى: شَقَّ علىَّ وعذابٌ صعَد: أى شديدٌ شاقٌّ ، والصَّعد مصدرُ صَعد صعدًا وصُعودًا فوُصف به العذابُ ، لأنه يتصعَّدُ المعذَّبَ أى يَعلُوه ويَغلِبُه فلا يُطيقه ، أوعلى

معنى: عذابًا ذا صعَدٍ.

قال عمرُ بنُ الخطاب رضى الله عنه: أينما كان الماءُ كان المالُ ، وأينما كان المالُ كانت الفتنة ، وكان الرسول ﷺ يقول: «أخوفُ ما أخافُ عليكم ما يُخرِجُ الله لكم من زهرةِ الدنيا» قالوا: وما زهرةُ الدنيا؟ قال: «بركاتُ الأرض» [من حديث أخرجه مسلم ورواه أبو سعيد الخدرى]

وهذا السياقُ جاء على لسان وفْدِ الجنِّ ، وفيه دعوةٌ عامةٌ لإيقاظ النفوسِ من غفلتها ، وإقالتها من عثرتِها فى انكبابها على الدنيا وذهولِها عن عملِ الآخرة ، وفيه تشويقٌ للدخول فى الإيمان والعملِ بالطاعة إذ فى ذلك ما يرجوه الإنسانُ لنفسه من خيْرى الدنيا والآخرة ، ثم تحذيرٌ من فتنة الدنيا ، لأن من يُعرض عن شكر النعمة ، وينسى المنعمَ الوهابَ ويُعرِضُ عن العمل بالقرآن سَخِطَ اللهُ عليه ، وكان له شقاءُ الأبد.

وهذا شأنُ الدعاةِ المخلصين لدينهم يُبشِّرون ، ويُحذِّرون ، ويُحبون الخيرَ لإخوانهم ، ويصبِرون ، ويُصابرون فى التلطُّف بالدعوة والمخاطبةِ على قدْرِ الطاقة والوُسْع وضَرْبِ الأمثال ، ويسلكون إلى النفوس السبلَ التى تُحبب ولا تنفِّرُ ، مع بيان الحقيقةِ ، وإقامة البرهانِ ، والإلحاح على الأسس والأركان ، والتنبيهِ للنعمة والحفاظِ عليها.

والكلام متصل فخيرُ هذه السورةِ الكريمة عميم...

❄ ❄ ❄

٢٢٣- د- "قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي"

كلمةُ «المساجد» جمعُ مَسجِدٍ ـ بكسر الجيم ـ وهو اسمُ مكانِ السجودِ مُشتَقٌّ من مصْدر الفعلِ الثلاثى سجَد ، بفتح وسطه ـ ومضارعه يسجُد ـ بضم وسطه ـ : وقياسُ اسمِ المكانِ والزمانِ من الثلاثى المضمومِ العين فى المضارع مَفْعَل ـ بفتح عينه ـ فيقال: مَسْجَد ، مثل كتب يكتُب مكتَب بزنة مَفْعَل كالمصدر الميمىِّ منه ، وقيل: إن ما جاء فى الفصيح «مسجِد» بكسر الجيم فهو للمكانِ الذى تقام فيه الجماعةُ ، وليس المقصودُ المشتقَّ الذى هو اسم المكان الذى يدل بلفظه على معنيين ، هما: الحَدَثُ ومكانُ وقوعِه ، وقياسُه مَفْعَل بفتح عينه فيقال: مَسْجَد ، وهذا تفسيرٌ لسيبويه ، وحكَى القرطبى عن الفرَّاء وُرودَ مَسْجَد فى هذا السياق.

ولفظُ مَسْجَد ـ بفتح وسطه ـ يُطلق أيضًا على العضو من أعضاء السجود السبْعة ، فالمساجدُ يُقْصَد بها على هذا المعنى هذه الأعضاءُ التى بيَّنها رسول الله ﷺ فى قوله: «أُمِرتُ أن أسجدَ على سبعة أعظُمٍ: الجبهةِ ـ وأشار بيده إِلى أنفه ـ واليدين ، والركْبتين ، وأطرافِ القدَمين»

[رواية ابن عباس فى الصحيح]

وفى رواية العباس: «أُمِرتُ أن أسجدَ على سبعة آراب» جمع إِرب وهو العضو.

وقيل: ـ المساجدُ جمع مَسْجَد ـ بفتح الجيم أيضًا ـ مصدرٌ ميمى بمعنى السجود وهو الحدَث من سَجد ، تقول سجدتُ سجودًا ومَسْجَدًا ، كما تقول: قعدتُ قعودًا ومقْعَدًا ، وقد أَطْلَق بعضُهم لفظَ المساجد على الصلوات.

وقد بيَّنت سورةُ الجنِّ أن المساجدَ ينبغى أن تكونَ خالصةً لله وحده وأنه

لا يجوز أن يُدْعَى مع الله أحدٌ:

﴿وأَنَّ الْمَسَاجِدَ للَّه فَلا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا﴾ . [الآية:١٨]

وهذا توجيهٌ لحقيقة الدِّين ، وأنه لله خالصًا ، إذ العملُ بلا إخلاصٍ كالبدَن بلا رُوح ، وإنَّ اللهَ عزَّ وجل لا يَقْبَلُ من العمل إلا ما كان خالصًا لوجهه الكريم.

وإنّ المواضعَ المعدَّةَ للصلاة والعبادة مختصةٌ بالله وحده ، فوجب على المؤمنين أن يُفرِدوه بالعبادة ، ولا يدعُوا فى المساجد أحدًا دونه سبحانه.

قال الحسنُ: أراد بها كلَّ البقاع لأن الأرضَ كلَّها مَسجِدٌ للنبى ﷺ.

وقد جاء فى الصحيح عن ابن عباس أن النبىﷺ قال: «وجُعِلت لى الأرضُ مسجدًا وطَهُورا» فالمسلمُ أينما أدركتْه الصلاةُ صلَّى.

وقال سعيد بنُ المسيب وطلْقُ بنُ حبيب: أراد بالمساجد الأعضاءَ التى يَسجُد عليها العبدُ ، وهذه الأعضاءُ أَنْعَم اللهُ بها عليك ، فلا تسجُد لغيره بها فتجحدَ نعمةَ الله ، قال عطاء: مساجدُك أعضاؤُك التى أُمِرت أن تسجدَ عليها ، لا لتُذلِّلَها لغير خالقها.

وعلى معنى أن «المَسَاجِد» جمْعُ مسجَد المصدر الميمىِّ بمعنى السجود فيكون المقصودُ الصلاةَ ، ففيه مجازٌ مُرْسَلٌ من إطلاق الجزءِ على الكل ويكون المعنى: وأنَّ سجودَكم لله أو لأنَّ سجودَكم لله فلا تدعُوا معه سبحانه أحدًا من خلقه. واجعلوا عبادَتكم خالصةً لوجهه الكريم رجاءَ تَقَبُّلِها.

وهذه المعانى كلُّها مَردُّها إلى الإخلاص ، وإفرادِه سبحانه بالعبادة ونَفْيِ الشريك ، وإبطالِ الشركِ إبطالًا جازمًا قاطعًا ، وفى قوله: ﴿فَلا تَدعُوا مَع اللهِ أحدًا﴾ توبيخٌ للمشركين ولمن نصبُوا التماثيلَ والصورَ فى

دور العبادةِ ودعَوا مع الله غيره ، وجعلوا له سبحانه ندًّا.

إن الإسلام يطِّهرُ النفوس ، وينقِّى القلوب من كل شوائب الشرك وينير للعقل الطريقَ بالدلائل والبراهينِ على تفرُّده سبحانه بالإلهية والربوبية ، ولمَّا قام محمدٌ ﷺ يدعو إلى التوحيد ، ويبصِّرُ من العمى ويَهدى من الضلالة ، تألَّب عليه المشركون وعتاةُ الملحدين ، وأجمعوا على الكيد له ، وقد صوّر لنا سياقُ السورة هذا الحالَ تصويرًا بديعًا يقرِّب المعنى ويوضِّحه ويؤكده: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾. [الآية:١٩]

و «لِبَدًا» جمعُ لِبْدة - ككِسْرة وكِسَر - وهى الجماعةُ شبُّهت بالشىء الملبَّدِ بعضُه على بعض ، والضميرُ فى «كادوا» لكفَّار قريش والعرب.

قال مجاهد: قولُه «لِبَدًا» جماعاتٍ ، وهو من تلبَّدَ الشىءُ على الشىء أى تَجمَّع ، ومنه اللبدُ الذى يُفرش لتراكُم صُوفه ، وكلَّ شىءٍ ألصقتَه إلصاقًا شديدًا فقد لبَّدْتَه ، ويقال للجراد الكثير: لِبَد.

وفى بيان هذا التمثيلِ قيل: كاد المشركون يركَبُ بعضُهم حَرَدًا على النبى ﷺ «أى غيظًا وحنقًا».

و «حَرَدًا» هنا: من حَرِد عليه: أى غَضِب واغتاظ فتحرَّش بالذى غاظه.

وفى تفسيره قال الحسنُ وغيرُه: يعنى ﴿لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ﴾ محمدٌ بالدعوة تلبَّدت الإنسُ والجنُّ على هذا الأمرِ ليُطفئوه ، وأبَى اللهُ إلا أن ينصرَه ويتمَّ نورَه ، واختار الطبرىُّ أن يكون المعنى: كادت العربُ يجتمعون على النبى ﷺ ، ويتظَاهَرُون على إطفاء النورِ الذى جاء به.

إِن هؤلاء الحمقى حين رأَوا أن النبىَّ ﷺ ينادى بتوحيد الألوهيةِ ونبْذِ

الأهواءِ والمعبوداتِ من دون الله ثارت ثائرتُهم ، وتألَّبُوا عليه من كل جانبَ بحيث ﴿كَادُوا يَكُونُونَ﴾ من فَرْط كثرتهم وتَجمُّعِهم وتعاونُهم «عَلَيْهِ» لصدِّه عن دعوته وإِسكاته عن تبليغ رسالةِ ربِّه «لِبَدًا» يَعنى كاللِّبَد، أى: كخيوط الشَّعرِ أو الصوفِ التى تلبَّدت ولَزَّ بعضُها إِلى بعض.

وإِزاء هذا التجمعِ الوثنيِّ الإلحادى الفظيعِ أمره ربُّه أن يبلغَ بإخلاصِ العبادةِ لله ، وإبطالِ الشركِ ، ونَفْيِ الشركاءِ نَفْـيًا قاطعًا: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّى وَلا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ [الآية: ٢٠] فهو الربُّ الخالقُ المنعمُ الوهابُ الرزاقُ: فكيف يُجحَد فضلُه؟ وكيف يُعْبَد غيرُه؟ ثم أمره أن يؤكِّدَ للناس أنه مبلِّغُ رسالة ، وأنه لا يملكُ لنفسه ولا لغيره نفعًا ولا ضُرًّا فهو عبدٌ يعرفُ لربه حقَّه: ﴿قُلْ إِنِّى لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا﴾[٢١] أى: قل لهؤلاء المتألِّبين إِنى لا أملك لكم نفعًا ولا غَيًّا ، ولا كُفرًا ولا إيمانًا ،ولا إضلالًا ولا هدايةً ، أى: إنه بشر مكلَّف بتبليغ رسالة عن ربه وإرشادِ العبادِ إلى الطريقة التى ينبغى لهم أن يستقيموا عليها إذا أرادوا عزَّ الدنيا ونعيمَ الآخرة ، والأمرُ كلُّه بيد الله وحده ، ولا يستطيع أحدٌ أن يدفعَ عن نفسه قضاءً أراده اللهُ به ، والعبيدُ كلهم تحت قهرِه وسلطانه ومنهم الأنبياءُ والمرسَلون: ﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ اللهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ [الآية:٢٢] أى: لن يَمنعَنى منه أَحدٌ من خلْقه إِن أرادنى سبحانه بسوء ، ولن أجدَ لنفسى مَهربًا أو ملجأً أركنُ إليه وأحتمى به.

والـمُلتحَد: الـمُلتجأُ الذى يَحتمى به الإِنسانُ كالسِّرب فى الأرض أو الأنصارِ والأعوانِ أو غيرِ ذلك ، قال الشاعر:

يالهْفَ نفسِى ولَهفى غيرُ مُجدية   عنِّى ، وما من قضاءِ اللهِ مُلْتَحَدُ

وفى هذا تنبيهٌ للعصاة ، وزجرٌ للمقصِّرين فى طاعة الله ، وإذا كان

الأنبياءُ يستديمون الخوفَ من الله ، فكيف يكون الحالُ بالمارقين والغافلين؟.

إن الرسول لا يملك إلا البلاغَ ، أما الهدايةُ والإضلال فالأمرُ فيها راجعٌ إلى الله وحده لا شريكَ له: ﴿إلا بَلاغًا مِّنَ اللهِ وَرِسَالاتِه﴾ أى: إن الذى كُلِّفتُ به وأَملِكُه بتوفيقِ اللهِ تعالى ، هو أن أُبَلِّغَ رِسالةَ ربِّى وقيل المعنى: لن أجدَ من دونه مُلتحدًا ولا ملجأً إن لم أبلِّغ رسالاتِ ربى بلاغًا ، ومَن أطاع الرسولَ فقد أطاع اللهَ ومَن عصاه فقد عَصَى الله ويلقَى جزاءَه فى يوم لا ينفعُ فيه مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم: ﴿ومَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّم خَالدينَ فيها أَبدًا﴾ [الآية:٢٣]

وفى هذه الآية وجوبُ طاعة الرسولِ ومَن نَبَذَ عهده وخالفَه لا ينفعُه شىء ، وإن هؤلاء الذين اغترُّوا بالدنيا واعتزُّوا بكثرة المشركين وشوكتِهم سيندمون ويتحسَّرون ، وتعودُ إلى ذاكرتهم تحذيراتُ الرسلِ والكتبِ السماويةِ من الغرور والغفلةِ يومَ يُعاينون ما أُنذروا به ، ويَروْنَ من عظمة الـمُلكِ وكمالِ السلطان ما يَرون: ﴿حَتَّى إذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ إذ الـمُلكُ لله الواحدِ القهار: ﴿وبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ للْغَاوِين۝وَقيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ من دُون الله هَلْ يَنصرُونَكُمْ أَوْ ينتَصرُونَ۝فَكُبْكبُوا فيهَا هُمْ وَالْغَاوُون۝وَجُنُودُ إبْليسَ أَجْمَعُون ۝ قَالُوا وَهُم فيهَا يَخْتَصمُونَ ۝ تَاللّه إن كُنَّا لَفى ضَلالٍ مبينٍ ۝ إِذْ نُسَوِّيكُم بِربِّ الْعَالَمين۝وَمَآ أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُون﴾ [الشعراء: ٩١:٩٩]

إنها مشاهدُ حَيَّةٌ آتيةٌ لا ريبَ فيها ، والعاقلُ مَن اتَّعظ ، وانزجر والغافلُ عندما يُعاين بروزَ الجحيم للضالين عن طريق الحقِّ تَدعوهم

لِيُلْقَوْا فيها مُكَبْكَبين مُنكَّسين على رؤوسهم ليستقروا فى قعْرها ، فإن قلبه يذوبُ حسرةً وندمًا ، وهناك لا تنفعُ الحسرةُ ، ولا يُجدى الندمُ ، وهنا يوقن الضالُّون أنهم كانوا فى غرور ، خدعهم زعماءُ الضلال ، وعصبةُ الإلحاد ، وكثرةُ الأعوان والأنصار ، أو الجاهُ والسلطان ، وكلٌّ ذلك زائلٌ لا محالةَ ولا وزنَ له فى مُلْكِ صاحبِ الـمُلك جلَّ شأنُه.

إن العذاب الـمُعَد للضالين والمشركين آتٍ حتمًا لا محالةَ ، وإن كلَّ ما هو آتٍ قريبٌ. وإنَّ عِلْمَ وقْته عند الله وحده. «قُل» يا محمدُ ﴿إِنْ أَدْرِى أَقَرِيبٌ مَّا توعدُون أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّى أَمَدًا﴾ [الجن: ٢٥] أى: لا أدرى: أعذابُكم قريبٌ موعدُه أم مؤجَّلٌ إلى أمد؟ وهو خطابٌ على قدْرِ عقول الناس ، والمقصودُ به نَفْىُ عِلْمِ الرسلِ بموعد البعثِ ووقتِ حلولِ الجزاء ، وإنه لآتٍ لا مفرَّ من ذلك ، لأن الله عز وجل يُظهِرُ من غَيبه ما شاء ولِمَن شاء ممن اصطفاهم واختارهم لرسالته فهو وحده ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِه أَحَدًا۝إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْه وَمِن خَلْفه رَصَدًا﴾. [الجن: ٢٦و٢٧]

أى: إنه سبحانه يُطلِعُ من اصطفاه من رسله على ما شاء من غيبه ليكون إخبارُه عنه معجزةً له دالةً على صدقه ، وإنه سبحانه يجعلُ لرسوله حفظةً وحرسًا من الملائكة يحفظونه من الشيطان أن يسترقَ السمعَ من الملائكة ، ويحفظونه من الجن أن يسمعوا الوحْىَ فَيُلْقُوه إلى الكهنة ليُخبِروا به قبل الرسولِ ﷺ.

وقد بيَّن اللهُ عز وجل ذلك لنبيِّه ليعلمَ أن الرسلَ قبله قد أَبْلَغوا رسالاتِ ربِّهم كما بلَّغ هو الرسالة ، وقد كانوا على مِثْل حالته من التبليغ بالحق والصدق ، وقد أَدَّوا ما كُلِّفوا به على خير وجْه وأتـمِّه

محفوظين ومعصومين من كل ما يُخِلُّ بقيامهم بهذا الواجبِ لتقومَ الحجةُ على العباد: ﴿لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِم﴾ أى إنه حُفظ كما حُفِظوا من الجِن وعُصِم كما عُصِموا ، وقد حَفِظ اللهُ وحْيَه وبلّغَتْه الرسلُ كما أُمِروا وكُلِّفوا على أتمِّ الوجوه ، وسبحان مَن يعلم السرَّ وأخفى. الذى أحاط علمُه بكل شىء. وقد أحاط بما عند الرسلِ والملائكة ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِم﴾.

وقال ابن جبير: المعنى: ليعلمَ الرسلُ أن ربَّهم قد أحاط علمُه بما لديهم فَيُبلِّغوا رسالاتِه ﴿وَأَحْصَى كُلَّ شَىْء عَدَدًا﴾ [الآية:٢٨] أى: أحاط بعدد كلِّ شىء ، وعرَفه ، وعَلِمَه فلم يَخْفَ عليه منه شىء

«والله أعلم» فسبحان المُحصى المُحيطِ العالمِ الحافظِ لكلِّ شىء.. وطُوبى لمَن تدبَّر واتَّعظ.

❋ ❋ ❋

لمحة بلاغية :

٢٢٤- أ- والظُّلمُ مردودٌ على مَن ظَلم

قال تعالى من سورة فاطر ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ هذه الآيةُ الكريمةُ من سورة الملائكةِ ، وقد صارت بعد نزولِها وشيوعِها فى المسلمينَ مَثَلًا سائرًا لِمَا فيها من إِحكامٍ ، وقوةٍ ، وعِظَمِ دلالةٍ على المراد وتصويرٍ رائعٍ ، وما فيها من قَصْرٍ يُؤَكِّدُ المعنى ويُقَرِّره ، ويُومِئُ إِلى أن المكْرَ الخبيثَ نازلٌ بأهله لامحالةَ ، وعائدةٌ إليهم عواقبُه ، وعقابيلُه لامفرَّ ومع اشتمالِ الآيةِ على ألفاظٍ قليلةٍ إلا أنَّ لها دلالاتٍ كثيرةً ، وتضمَّنتْ توجيهاتٍ قيمةً وتحذيراتٍ من عواقبِ الخديعةِ وخُبثِ النيةِ، وفسادِ الطَّوِيَّةِ وإِنَّ التحذيرَ من الشئِ يَقْتضِي التحريضَ على ضِدِّه ، وهو حُبُّ الناس وإرادةُ الخيرِ لهم ، وقصدُ السعْى فيما يُصلِحُهم ، وكفُّ الأَذَى عنهم.

وقد فُسِّرت هذه الحكمةُ القُرآنيةُ تفسيرًا خاصًّا مرتبطًا بالمناسبة كما فُسِّرت تفسيرًا عامًّا لردع النفوسِ عن الشرِّ والعُدوانِ وإلحاقِ الأذى بالناس.

أمَّا السببُ الخاصُّ: فإن هذه الحكمةَ الغاليةَ قد جاءت فى سياق تحذيرِ مُشركِى قريشٍ من التعنُّت والاستكبارِ والصدِّ عن الحق ، إذْ كانوا قَبل مَبعثه ﷺ يؤكِّدون العزْمَ لئن بَعَثَ اللهُ إليهم رسولًا ، لَيُؤمِنُنَّ به ولَيَنصُرُنَّه، ولَيَكونُنَّ أَهْدى من جميع الأممِ الذين أُرسِلَ إليهم الرسلُ وأكثرَ انقيادًا وطاعةً له ،ولا يتعنَّتون كما تعنَّتت الأممُ التى كَذَّبتْ أنبياءَها فَلُعنوا ، وحَقَّتْ عليهم كلمةُ العذاب.

لَقد كانت العربُ تتمنَّى أن يكونَ منهم رسولٌ كما كانت من بنى إسرائيل الرسل ، فلمَّا جاءهم ماتمنَّوْهُ ، وهو النذيرُ من أنفسهم نَفَرُوا

عنه، ولم يُؤمنوا به ﴿اسْتِكْبَارًا فِي الأَرْضِ﴾ أي: عُتُوًّا عن الإيمان واستعلاءً عن اتباع آياتِ الله ، ومع استكبارِهم ، أَخذوا في خَدْعِ الضعفاءِ وصَدِّهم عن الإيمان لِيكثُرَ أَتْباعُهم ، فحذَّرهم القرآنُ العظيمُ من الاستكبار ومن السعْي بالمكر والخديعةِ وإرادةِ الشرِّ لصدِّ الناسِ عن اتباع النبيِّ محمد ﷺ ، ولإيذائه والوقوفِ في وجْهِ دعوته ،ولَفَتَهُم إلى ماحلَّ بالأمم الغابرةِ مِمَّن عاندوا الرسلَ واستكبروا ، وبَيَّن لهم سُنَّةَ الله في خَلْقه أَنَّ مَن سعى في الشر والفسادِ وإيذاءِ الآخرين فإن وبَالَ سَعْيه يعودُ عليه ، ولنتدبر قصةَ هؤلاء ، وما فيها من تأكيدِ للعزم باليمين ، ثم نُكوصِهم على الأعقاب بعد أن مَنَّ اللهُ عليهم باصطفاء خاتمِ رسلِه منهم وما جاء من الإنذار بعقوبة الدنيا ، وعقوبةِ الآخرةِ ، قال سبحانه : ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا * اسْتِكْبَارًا فِي الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾

[فاطر: ٤٢و٤٣]

والسُّنَّةُ : الطريقةُ ، والجمعُ سُنَن ، أي أجرى اللهُ العذابَ على الكفار والملحدين ، ويجعلُ ذلك سُنَّةً فيهم ، فهو يُعذِّبُ بمثله من استحقَّه لايَقدِرُ أحدٌ أن يُبدِّلَ ذلك ، ولا أن يُحوِّلَ العذابَ عن نفسه إلى غيره.

ثم لفَتَهم إلى مَثَلٍ يُبين أحوالَ ، وسيرَ الذين كذَّبوا الرسل ، وتعنَّتوا واستكبروا عن الحق ، ومكَروا للصدِّ عن سبيل الله تأكيدًا لبيان السُّنَّة التي ذكَرها سبحانه فقال: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي

السَّمٰوات وَلا فِى الأَرْضِ إِنَّه كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤]

لفتهم إلى الأمم المُكَابرةِ ، وكَيف دمَّر اللهُ عليهم ، وللكافرين أمثالُها من أمثال: عادٍ وثمودَ وأصحابِ مدينَ وغيرِهم ، لقد أُخْلِيَتْ منهم منازلُهم ، وسُلِبُوا ماكانوا فيه من النِّعم بعد كمالِ القوة ، وكثرةِ العَددِ والعُدد ، وكثرةِ الأموالِ والأولاد ، فما أَغْنَى ذلكَ شيئًا ، ولا دفَع عنهم من عذابِ اللهِ من شئ لـمَّا جاء أمرُ الله ، لأنه تعالى لايُعجِزُه شئٌ إذا أراد كونَه فى السموات والأرض ، وهو سبحانه عليمٌ بجميع الكائنات قديرٌ على مجموعها.

وقد جعل اللهُ مصيرَ أولئك مثَلًا لأمة محمدٍ ﷺ للزجْر عن الغَىِّ والتحريضِ على اتباع الهُدَى فى قوله سبحانه من سورة النحل: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذينَ من قَبْلهِمْ فَأَتى اللهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَواعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُون﴾ [الآية: ٢٦]

ولو يؤاخذ اللهُ الناسَ بظُلمهم وبما كسبَت أيديهم لعاجَلهم بالعقوبة فى الدنيا ، ولدمَّرهم تدميرًا ، ولكنَّ إرَادتَه اقتضتْ أن يُنظِرَهم إلى يوم القيامة ، فيُحاسِبَهم يومئذ ، ويوفِّىَ كلَّ عاملٍ بعمله ، فيُجازِىَ بالثواب أهلَ الإيمانِ والطاعة ، وبالعقاب أهلَ المعصية ، فلا ينبغى لعاقل أن يَغترَّ بالإمهال ، ولا أن يُسوِّفَ فى التوبة.

ولنتدبر: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ [فاطر: ٤٥]

تأملات فى المثل القرآنى:

ومع هذا السببِ الخاصِّ الذى جاء فى سياقه: ﴿وَلا يَحيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِه﴾ ، فإن العبرةَ عامةٌ ، إذ إن فى هذا المَثل حثًا على كفِّ الأذى عن جميع الناس ، وتحذيرًا عن جميع مايؤدى إليه ،إذ الأذى وإرادةُ الأذى بالناس ، والسعْىُ إلى ذلك بالخديعة يَضرُّ بصاحبه مضرَّةً بَليغة ، وقد جاء فى القرطبى أن كعبًا قال لابن عباس: إنى أجدُ فى التوراة: «مَن حفر لأخيه حُفرةً وقَع فيها» ، فقال ابن عباس: فإنى أوجِدُكَ فى القرآن ذلك. قال: فاقرأ: ﴿وَلا يَحيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِه﴾ وفى أمثال العرب: «مَن حفَر لأخيه جُبًّا وقَع فيه مُنكبًّا» وأورد القرطبىُّ عن الزهرى أن النبى ﷺ قال: لاتمكر ، ولا تُعِن ماكِرًا ، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَلا يَحيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِه﴾ ولا تَبْغِ ،ولا تُعن باغيًا فإن اللهَ تعالى يقول: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِه﴾ [الفتح: ١٠] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىَ أَنفُسِكُم﴾ [يونس: ٢٣](*)

وقال محمد بنُ كعب القرظى: ثلاثٌ مَن فَعَلَهنَّ لم يَنجُ حتَّى يَنزِلَ به من مكرٍ أو بغْى أو نكْث ، وتصديقُها فى كتاب الله: ﴿وَلا يَحيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِه﴾ ، ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم﴾ ، ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِه﴾ .

وفى المَثَل الحَكيم:

يا أَيُّها الظالمُ فى فِعْلِه ... والظلْمُ مردودٌ علـى مَن ظَلَم
إلى متَى وحتَّى متَـى ... تُحصِى المصائبَ وتَنْسى النِّعَم

(*) وجاء عند ابن كثير عن ابن أبى حاتم عن أبى زكريا الكوفى أن رجلًا حدَّثه أن رسول الله ﷺ قال: «إياكَ ومكرَ السيئ، فإنه لايَحيق المكرُ السيئُ إلا بأهله، ولهم من الله طالِبٌ»

وفى الحديث: «المكرُ والخديعةُ فى النار» وقوله « فى النار» يَعنى فى الآخرة تُدْخِلُ أصحابَها فى النار ،لأَنها من أخلاق الكفَّارِ لا مِن أخلاقِ المؤمنين الأخيار ، ولهذا قال ﷺ فى سياق هذا الحديث:« وليس من أخلاقِ المؤمنِ: المكرُ والخديعةُ والخيانةُ» وفى هذا أبلغُ تحذيرٍ عن التخلُّق بهذه الأخلاقِ الذميمة ، والخروجِ عن أخلاق أهلِ الإِيمان الكريمة.

نظرة بلاغية:

وفى كتاب تهذيب السعدِ فى علْم المعانى «الجزء الثالث» (١) أورد قولَه تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِه﴾ فى أمثلةِ المساواةِ ، ومعناها: أن يكونَ اللفظُ بمقدارِ أصلِ المُراد ، أمَّا إذا جاء التَعبيرُ عن المُراد بلفْظٍ ناقصٍ عنه وافٍ فهو الإِيجازُ ، وإِذا جاء بلفْظٍ زائدٍ عليه لفائدةٍ فهو الإِطنابُ، وتلكَ طرقٌ ثلاثٌ للتعبير عن المعنى الوَاحد: المساواةُ والإِيجازُ والإِطنابُ.

وقد نقل صاحبُ سرِّ الفصاحةِ (٢) عن بعضهم أنه قال: البلاغةُ هى الإِيجازُ والإِطنابُ ـ أى لم يذكر المساواة ـ

واختلف أصحابُ هذه الصناعة : هل بين الإِيجاز والإِطنابِ واسطةٌ وهى المساواةُ أَوْلا ، أَو هى داخلةٌ فى قِسم الإيجاز؟

فالسكاكىُّ(٣) وجماعةٌ ـ كما يقول صاحبُ الإتقان ـ على الأوَّل، لكنهم جعلُوا المساواةَ غيرَ محمودةٍ ولا مذمومةٍ ، وابنُ الأثيرِ وجماعةٌ على الثانى

---

(١) العلامة مسعود بن عمر بن عبد الله المشهور بسعد الدين التفتازانى المتوفى بسمرقند عام ٧٩١ من الهجرة هو صاحب كتاب «مختصر المعانى» والتهذيب للعلامة الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد من علماء القرن الرابع عشر من الهجرة

(٢) هو أبو محمد عبد الله بن محمد الخفاجى المتوفى سنة ٤٦٦ من الهجرة

(٣) السكاكىُّ هو أبو يعقوب يوسف بن أبى بكر بن على الخوارزمى صاحب كتاب مفتاح العلوم توفى عام ٦٢٦ من الهجرة.

فقالوا: الإِيجازُ التعبيرُ عن المراد بلفْظٍ غيرِ زائد ، والإِطنابُ بلفظ أَزْيَدَ.

أَمَّا الخطيبُ القزوينى (١) فقد سبق السعْدَ فى القول بالمساواة والإِيجازِ والإِطناب وعنده ثبوتُ المساواة واسطة ، وأنها من قِسم المقبول.

والسيوطىُّ فى الإتقان (٢) يرى القولَ بالإِيجاز والإِطنابِ ، وقال: وإِن المساواةَ لاتكادُ توجَدُ خصوصًا فى القرآن ، وقد مَثَّل لها فى التلخيص بقوله تعالى: ﴿وَلا يَحيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِه﴾ وتَعقَّبه بعضُهم بأَنّ فى الآية إطنابًا بلفظ السيئ لأن المكرَ لايكون إِلا سَيئًا ، وفيها إيجازٌ بالحذْف إن كان الاستثناءُ غيرَ مُفَرَّغٍ أى على معنى: ولا يَحيق المكرُ السيِّئُ بأَحد إِلَّا بأهله ، وبأَنَّ فيها ـ أيضًا ـ إيجازُ قِصَرٍ لِمَا فيها من قَصْرٍ بالنَّفْى والاستثناء ، وبكونِها حاثَّةً على كفٍّ الأذى عن جميع الناسِ ، مُحذِّرةً من جميع مايؤَدى إليه ، وبأن تقديرها: يَضُرُّ بصاحبه مَضرةً بليغةً فأُخرِجَ الكلامُ مُخْرَجَ الاستعارة التبعيَّة الواقعة على سبيلِ التمثيلية ، لأن «يَحيقُ» بمعنى: يُحيط ، فلا يُستعْمَل إِلَّا فى الأجسام. «انتهى كلامه».

أى: تَمَّ إبرازُ المكرِ وهو معنوىٌّ يُدرَكُ بالعقل فى صورةِ شئٍ مُجسَّم يُدْرَكُ بالحِسِّ الظاهر ، وأُسندَ إليه لازمةٌ من لوازم الحسِّ وهو «يحيق» بمعنى يُحيط (*) ، ممَّا جَعَلَ المعنى أكثرَ وضوحًا وأشدَّ تأثيرًا.

أمَّا إيجازُ القِصَرِ الذى أشار السيوطىُ أنه واضحٌ فى الآية فهو: الكلامُ الذى ليس فى نَفس تركيبِه حذْفٌ ، ولكنَّ فيه معانِىَ كثيرةً اقتضاها بدلالة

(١) هو صاحب تلخيص المفتاح جلال الدين محمد بن عمر القزوينى المعروف بخطيب دمشق، توفى عام ٧٣٩ من الهجرة.

(٢) الجزء الثالث.

(*) أى: استُعيرَ: حَيَقَان وهو مصدرُ حاقَ به بمعنى أصابه وأحاط به، ثم اشتُق منه «يَحيقُ» بمعنى يُحيط على سبيل الاستعارةِ التبعية فى الفعل، ونقل من الحسِّى كاللحاف ونحوه مما يحيط بالأجسام إلى المعنوى وهو المكر: وفى هذا تمثيل للمعنوىِّ بصورة الحسِّىِّ وتجسيمه.

الالتزام أو التَّضمُّن ، وذلك نحو قوله تعالى من سورة البقرة: ﴿وَلَكُمْ فِى الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ [١٧٩] فإنَّ معناه كثيرٌ ، ولفظُه يسير.

وعرَّفه صاحبُ كتابِ عَروسِ الأفراحِ فى شرْحِ تلخيصِ المِفْتاح بقوله: الكلامُ القليلُ إنْ كان بعضًا من كلامٍ أطولَ منه فهو إيجازُ حَذْفٍ ، وإن كان كلامًا يُعطِى معنًى أطولَ منه ، فهو إيجازُ قِصَرٍ.

وقال بعضُهم: إيجازُ القِصَرِ: هو تكثيرُ المعنى بتقليلِ اللفظ.

وقال آخر: هو أن يكونَ اللفظُ بالنسبة إلى المعنى أقلَّ من القدْر المعهودِ عادةً.

وسببُ حُسْنِ إيجازِ القِصَر: أنه يدلُّ على التمكُّن فى الفصاحة، ولهذا قال ﷺ: «أُوتيتُ جوَامعَ الكَلم» [أخرجه الشيخان]

قال ابنُ شهاب: بلَغَنى أنَّ جوامعَ الكَلم أنَّ اللهَ يَجْمَعُ له الأمورَ الكثيرةَ التى كانت تُكتَبُ فى الكتبِ قبله فى الأمر الواحدِ والأمرين ونحوِ ذلك ، وضرَب لذلكَ أمثلةً كثيرة (*).

(*)وقد جُمعَت معانى الخيرِ وضروبُه، مع التنبيه لرؤوس الشرور وأبوابها فى قوله تعالى من سورة النحل: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ والإِحْسَانِ وإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ والْبَغْى﴾ [٩٠]

يقول صاحب التبيان فى البيان شرف الدين الطيبى: هذا من الإيجاز الجامعِ، وهو أن يحتوِىَ اللفظُ على معان متعددة، فإن العدلَ هو الصراط المستقيمُ المتوسط بين طرفى الإفراط والتفريط، والمُومَى به إلى جميع الواجبات: فى الاعتقاد والأخلاق والعبودية والإحسانُ: هو الإخلاص فى واجبات العبودية لتفسيره فى الحديث بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه» أى تعبدهُ مخلصًا فى نيتك وواقفًا فى الخضوع، آخذًا أُهبةَ الحذر إلى مالايُحصَى ﴿وَإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَى﴾ هو الزيادةُ على الواجب من النوافل، هذا فى الأوامر.

وأمَّا النواهى: فبالفحشاء الإشارة إلى القوة الشهوانيَّة، وبالـمُنكر إلى الإفراط الحاصل من آثار القوة الغضبيَّة أو كل مُحرَّم شرعًا، وبالبغى: الاستعلاء الفائض عن الوهمية =

ونعيش مع أمثلة أخرى من جوامع الكلم إن شاء الله :

= ثم قال: ولهذا قال ابن مسعود: مافى القرآن آيةٌ أجمعُ للخير والشرِّ من هذه الآية (أخرجه فى المستدرك)، وروى البيهقى فى شعب الإيمان عن الحسن أنه قرأها يومًا ثم وقف وقال: إن الله جمع لكم الخير كله والشرَّ كله فى آية واحدة، فوالله ماترك العدلُ والإحسانُ من طاعة الله شيئًا إلا جمعه، ولا ترك الفحشاء والمنكرُ والبغىُ من معصية الله شيئًا إلا جمعه.

وعن جوامع الكلم التى خُصَّ بها ﷺ يقول ابنُ أبى شهاب كما جاء فى الإتقان: بلغنى أن جوامع الكلم أن الله يجمع له الأمورَ الكثيرة التى كانت تُكتب فى الكتب قبله فى الأمر الواحد والأمرين، وضرب ابن شهاب أمثلة متنوعة لإيجاز القصَر من القرآن الكريم.

ومن جوامع الكلم مما يعجز عن الإتيان بمثله البشر قولهَ تعالى فى سياق قصة نوح عليه السلام من سورة هود: ﴿وَقِيلَ يَاأَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَاسَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ، وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ، وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾. [٤٤]

إنها قصةٌ كونيةٌ ذاتُ أبعاد مكانية شملت مابين السماء والأرض، وقد سيقت فى جُمَل قصيرة، وألفاظ قليلة، وخطوط واضحة، ومشاهدَ حيَّة، ويخرج المتأمل بمعانى كثيرة، وعِبر متعددة، ويرى فى قوله: ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ قصة الهلاك العام الذى لحق كل شئ ولم ينج من الناس أحد سوى من قدر له أن يكون من بين ركاب السفينة،وجاء قوله سبحانه : ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ معيدًا إلى النفس صورة الحياة التى بقى يمثلها هؤلاء الأحياء على ظهرها، وقد استقر المقام على الجودى، لتبدأ رحلة الإنسان من جديد فى عمارة الحياة، هذا إلى ما فى الآية الكريمة من البلاغة، وقوة التراكيب، وتنوع الأساليب، وغرائب الصورِ الحية، وتتابعِ الحوادث، ودلالاتها على قدرة الخالق، وكمال حكمته وسلطانه، وعاقبة نكرانَ النعمة وجحود فضل المنعم: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ والمقابلة بين حال هؤلاء وما لحقهم من الهلاك، وبين سكان السفينة وما قدر لُهم من الحياة، وهذا التضادُ يدعو إلى التأمل فى المصيرين، والخروج بالعبر من الحالين، والتفكر فى أمر الفريقين: فريق السعداء، وفريق الأشقياء، والنظر فى اختيار أحسن الطريقين، وأجمل العاقبتين، فبضدها تتبين الأشياء، هذا إلى ما تضمنته الآية من الحكم البديعة، التى صارت كأنها أمثال سائرة مثل: ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ و ﴿بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ دعاء على من تمادى فى الشر والسوء، وخُتمت له بخاتمة الشقاء والعياذ بالله.

وفى تعليق ابن أبى شهاب على هذه الآية الكريمة يقول: أمر الله فيها ونهى، وأخبر ونادى، ونعت، وسمى، وأهلكَ، وأبقى، وأسعد، وأشقى، وقصَّ من الأنباء ما لو شرح ما اندرج فى هذه الجملة من بديع اللفظ والبلاغة والإيجازِ والبيانِ لجفت الأقلام، وقد أفردت بلاغة هذه الآية بالتأليف.

وفى العجائب للكرمانى عن الإعجاز فى هذه الآية: أجمع المعاندون على أن طوق البشر قاصرٌ عن الإتيان بمثل هذه الآية، بعد أن فتشوا جميع كلام العرب والعجم، فلم يجدوا مثلها فى فخامة ألفاظها، وحُسن نظمها، وجودةِ معانيها فى تصوير الحالِ مع الإيجازِ من غير إخلال.

لمحة بلاغية:

٢٢٥ - ب - من خواصه ﷺ

«أُوتِيتُ جَوامِعَ الكَلِم»

قولُ النبى ﷺ: «أُوتيتُ جَوَامِعَ الكَلِم» جاء من حديث رواه أبو هريرة وأخرجه البخارىُّ فى كتاب الجهاد، وفيه: «ونُصِرْتُ بالرُّعْبِ، فَبَيْنَا أنا نائمٌ أُوتِيتُ بمفاتيحِ خزائنِ الأرْضِ فَوُضِعَت فى يدى» (الحديث).

وَرُوِى بلفظ: «بُعِثْتُ بجوامعِ الكَلِمِ» و «أُتِيْتُ بجوامعِ الكلم».

والكَلِم: اسمُ جنسٍ واحِدهُ كَلِمة.

والجوامِعُ: جمْعُ جامعةٍ، والكلمةُ الجامعةُ هى التى قَلَّ لفظُها وكثُر معناها، وإِضافَةُ الجوامِعِ إلى الكلم من إضافة الصفةِ للموصوف، أى: الكلمُ الجوامعُ.

اختار اللهُ نبيَّه محمدًا ﷺ للقيام بالشريعة الخالدة، فبعثه مبشرًا ونذيرًا للناس كافَّة، واختصَّه بمزايا تؤيدُ تلك الرسالةَ العامةَ، فى مرحلةٍ كانت عقولُ البشر استعدَّت لِتلقِّى هذه الشريعة، وكان كلُّ رسولٍ قبله يُبْعَثُ بشريعةٍ تُناسِبُ الزمانَ الذى أُرسل فيه، والقومَ الذين بُعث إليهم، وقد اتحدت جميعُ الرسالاتِ السماويةِ فى العقائد، والكلامِ على البعثِ والنشور، والحقِّ والفضيلة.

ومن خواصِّ رسالةِ النبى محمد ﷺ ماذكَره فى هذا الحديث بقوله: «أوتِيتُ جَوَامِعَ الكَلِم» وهذا شاملٌ للقرآن والسنة، وقد مكَّنه الله تعالى من الكلمات الجامعة، وأيَّدهُ بها، وإننا حين نقرأُ الآياتِ القرآنيةَ أو الأحاديثَ النبويةَ نراها وَجِيزةَ الألفاظِ، حافلةً بالمعانى السامية، متضمنةً

للمقاصد الدقيقة ، والمنافعِ الجمَّة ، مع مناسبة اللفظِ للمعنى ، وإحكامِ العبارةِ ، وتَنَوُّعِ الأساليب ، وجمالِ الصُّوَرِ ، وقوةِ التأثير.

وما زال القرآنُ العظيمُ بِحِكَمِهِ ، وأَحْكامه ، وبمواعظه وأمثاله وبقَصصه وأخبارِه ، وبعباراته وصورِه مازال حجةَ الله على خَلْقه حتى يَرِثَ الأرضَ ومَن عليها ، فهو المعجزةُ الكبرى الباقيةُ الدائمةُ وبها يقعُ التحدِّى ، فمَن آمن فلنفسه ، ومَن أساء وانصرف فعليها.

ومن أمثلة إِيجار القِصَر فى القرآن وما فيه من روعة ودقة وشمول وثراءٍ ، ماجاء فى قوله تعالى من سورة الأعراف : ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الآية: ١٩٩]

فإنها جامعةٌ لمكارم الأخلَاق ، لأن فى أخْذ العفو: التساهلَ والتسامحَ فى الحقوقِ ، واللينَ والرفقَ فى الدعاء إلى الدِّين ، ولأن فى الأمرِ بالمعروف: كفَّ الأذى ، وغض البصَر ، وما شاكلَهما من المُحَرَّمات وفى الإعراض: الصبرَ والحِلْمَ والتؤدةَ ، فهى متضمِّنَةٌ مكارم الأخلاقِ ومحاسنَ الآداب.

وهذا مثالٌ آخرُ وهو قوله سبحانه لنبيه: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرْ﴾ [الحجر: ٩٤]

قال ابن أبى الإِصبع ، المعنى: صَرِّح بجميعِ ماأُوحى إليك ، وبَلِّغ كلَّ ماأُمِرتَ ببيانه ، وإِنْ شَقَّ بعضُ ذلك على بعض القلوب ، فانصدعتْ والمشابهةُ بينهما فيما يؤثِّرُه التصريحُ فى القلوب ، فيظهرُ أَثَرُ ذلكَ على ظاهرِ الوجوهِ من التقبُّض والانبساطِ ، وما يلوح عليها من علاماتِ الإِنكارِ والاستبشارِ ، كما يَظهر على ظاهر الزجاجةِ المصدوعة.

فانظُر إلى جليل هذه الاستعارة ، وعِظَمِ إِيجازِها ، وما انطوت عليه

من المعانى الكثيرة ، وقد حُكِى أنَّ بعضَ الأعرابِ لَمَّا سَمِعَ هذهِ الآيةَ سجَد ، وقال: سجدتُ لفصاحة هذا الكلام.

والصدْعُ معناه: الشَّقُّ والفَرْقُ والفصْلُ ، نُقِلَ من معناه الحسِّىِّ إلى معنى إظهارِ الدعوةِ وتبليغِ الرسالة ، والإعلامِ بما أُمر به أن يُعْلِمَهُ للناس، قال ابن عباس معناه: أَظهِرْهُ ، ويُروى عنه: أَمْضِه ، ومن معانيه: افرُق بالقرآن بين الحقِّ والباطل ، وقد كان النبىُّ ﷺ قبل نزولها مستخفيًا يدعو إلى الله سرًّا حتى نزلت هذه الآيةُ بالأمْرِ بالجهر بالدعوةِ وإظهارِها ، وتبليغِها إلى الناس فخَرج هو وأصحابُه.

ومن جوامع الكلم قولُه سبحانه وتعالى من سورة البقرة فى سياق آية القصاص: ﴿**وَلَكُمْ فِى الْقِصَاصِ حَيَاةٌ**﴾ وفيها من الإيجاز والروعة والدقةِ والإِحكام والدلالاتِ مايَعْجَزُ عن الإتيان بمثلِه البشر ، ففى ألفاظٍ قليلة نَجد المعنى الكثير ، ونرى التنبيهَ لعاقبة العدوانِ على الأنفس بغير حقٍّ والتحذيرَ من ذلك ، والزَّجْرَ عنه بأوجزِ عبارة ، وأقواها إِيحاءً ودلالةً.

لأن المعنى: أن الإِنسانَ إِذا عَلِم أنه متى قَتَلَ قُتِلَ كان ذلك داعيًا إلى أَلَّا يقدِمَ على القتلِ ، فارتفع بالقتْل الذى هو القصاصُ كثيرٌ من قتْل الناسِ بعضِهم لبعض ، فكان بارتفاع القتْل حياةٌ لهم.

وقد فُضِّلت هذه الجملةُ على أوجز ماكان عند العرب فى هذا المعنى وهو قولهم: «القتْلُ أنفَى للقَتْل» وقد جاء رُجحانُ العبارةِ القرآنية بعشرين وجْهًا أو أكثرَ استنبطها العلماءُ وأربابُ البلاغةِ بعد تأَمُّلٍ وقَدْحِ ذِهنٍ لإِظهار فضيلةِ القرآنِ وإِعجازِه فى عبارةٍ من أوجزِ عباراتِه ، وما فيها من إِحكامٍ وأَحكام.

وقدجاء فى تهذيب السعد الجزءِ الثالث ستةٌ منها ، وقد جَمَع ابن أبى

شهاب عشرين وجهًا نقلَها صاحبُ الإتقان:

أوَّلُ الوُجُوه: قلةُ اللفظ الذى يناظرُ قولَهم «القتْل أنفَى للقتْل» من قوله تعالى: ﴿ولَكُمْ فِى القصَاصِ حياةٌ﴾ وما يُناظرُه منه هو قولُه سبحانه: ﴿فِى القِصَاصِ حَياةٌ﴾ لأنَ قوله ﴿ولَكُم﴾ زائدٌ على معنى قولِهم: «القَتْلُ أنفَى للقتْل» فحروفُ ﴿ فِى القِصَاصِ حياةٌ﴾ مع التنوين أحدَ عشرَ ، وحروفُ المَثَل العربىِّ أربعةَ عشرَ ، أى الحروفُ الملفوظةُ ، إِذ بالعبارة يتعلَّقُ الإيجازُ لا بالكتابة.

الثانى: النصُّ على المطلوب ـ يعنى الحياة: لأن نفْى القتْل لا يَستلزِمُ الحياةَ ، والآيةُ ناصةٌ على ثبوتها التى هى الغرضُ المطلوبُ منه.

الثالث: أنَّ تنكيرَ «حيَاة» يُفيد التعظيمَ لمنْع القصاصِ إيَّاهم عمَّا كانوا عليه من قتْل جماعةٍ بواحد ، فحصَلَ لهم فى هذا الجِنس من الحُكْم أى القصاصِ ، حياةٌ عَظيمةٌ ، أو مِن النوعية ، أى لكُم فى القصاص نوعٌ من الحياة ، وهى الحياةُ الحاصلةُ للمقتول وهو الذى يُقْصَدُ قتلُه ، والقاتلُ وهو الذى يَقْصِدُ القتْلَ بالارتداع عن القتْل ، لمكانِ العلمِ بالاقتصاص.

فإِفادةُ التعظيمِ من تنكير «حيَاة» كما أشار ابنُ أبى شهاب يدلُّ على أن فى القصاص حياةً متطاوِلةً ولا كذلك المَثَلُ فإِن اللامَ فيه للجنس ، ولذا فسَّروا الحياةَ فيها بالبقاء.

الرابع: أنَّ الآيَةَ فيه مُطَّرِدَةٌ بخلاف المَثَل ، فإِنه ليس كلُّ قتْلٍ أنْفَى للقتْل ، بل قد يكون أدْعى له ، وهو القتْل ظُلمًا ، وإِنما يَنفِيه قَتْلٌ خاصٌّ وهو القِصاصُ ، ففيه حياةٌ أبدًا.

الخامس: خُلوُّ الآية عن التكرار ، بخلاف المَثَل العربىِّ فإِنه يَشْتَمِلُ على تكرارِ لفظِ القتْل ، والخَالى من التكرارأفضلُ من المُشتمِلِ عليه وإِن

لم يكن مُخلًّا بالفَصاحة.

والوجهُ السادس: استغناءُ الآيةِ عن تقدير محذوفٍ بخلاف قولِهم فإنَّ فيه حذفَ «مِنْ» التى بعد أَفْعَلِ التفضيل وما بعدها، وكذلك حَذْف «قصاصًا» مع لفْظ القتْلِ الأول، و«ظُلْمًا» مع لفظ القتْلِ الثانى والتقديرُ: القَتْلُ قِصاصًا أنفَى للقتْل ظُلْمًا مِنْ تَرْكِه.

والوجْهُ السابع: أنَّ فى الآيةِ طِباقًا ناشئًا من الجمْع بين معنيين متضادَّين فى الجُمْلة ممَّا يَلْفتُ الانتباه، ويَزِيدُ المقصودَ وضوحًا، ذلك لأنَّ القصاصَ مُشْعِرٌ بضدِّ الحياة، بخلاف المَثَل العربى.

والوجهُ الثامن: أنَّ الآيةَ الكريمةَ جَعلت القصاصَ كالمَنبع للحياة والمَعْدِنِ لها بإدخال «فِى» عليه أى ﴿وَلَكُمْ فِى القِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ فبالتأمل نجدُ أَحدَ الضدَّين الذى هو الفناءُ والموتُ مَحلًّا ومكانًا لضِدِّه الذى هو الحياةُ، واستقرارُ الحياة فى الموت مبالغةٌ عظيمة.

والوجهُ التاسع: أنَّ فى المَثَلِ العربىِّ تَوالى أسبابٍ كثيرةٍ خفيفة، وهو السكونُ بعد الحَركة، وذلك مُسْتَكْرَهٌ، فإن اللفظَ المنطوقَ به إذا توالَت حركاتُه تمكَّن اللسانُ من النُّطق به، وظهَرت فصاحتُه، بخلاف ما إذا يَعْقُبُ حركةً سكونٌ فالحركاتُ تنقطعُ بالسكَنات[1].

العاشر: هذا إلى جانب سلامة الآيةِ من تكريرِ قَلْقلةِ القافِ الموجبِ للضغْط والشدة، وبُعدها عن غُنَّة النُّون.

الحادىَ عشرَ: اشتمالُ الآيةِ على حروفٍ متلائمة، لمَا فيها من الخُروج من القاف إلى الصاد، إذ القافُ من حروف الاستعلاء، والصادُ من

(١) ففى قولنا: القتل أنفى للقتل، نجد توالىَ الحركات والسكنات، أشبهَ بالدابَّة إذا تحرَّكت أدنى حركة فحُبست، ثم تحركت فحُبست، لايُتبيَّن إطلاقها، ولا تتمكن من حركتها على ماتختاره، فهى كالمقيَّدة، وكذلك اللسان فى هذا المثل.

حروف الاستعلاء والإطباق ، بخلاف الخروجِ من القاف إلى التاء التى هى حرفٌ منخفضٌ فهو غيرُ ملائم للقاف ، وكذا الخروجُ من الصاد إلى الحاء أحسنُ من الخروج من اللام إلى الهمْزة لبُعْدِ مادون طرَفِ اللسان وأقصَى الحلْق.

الثانىَ عشرَ: سلامةُ الآيةِ من لفْظِ القتل المُشعِرِ بالوَحْشَة بخلاف لفظِ الحياةِ فإن الطباعَ أقبلُ له من لفْظ القتْل.

الثالثَ عشرَ: أَنَّ لفْظَ القِصاص مُشْعِرٌ بالمساواة ، فهو منبئٌ عن العدْل بخلاف مُطْلَقِ القتْل.

الرابعَ عشرَ: أنَّ المَثَل لايكادُ يُفْهَمُ إلّا بعْد فَهْمِ أَنَّ القصاصَ هو الحياةُ وقوله سبحانه: ﴿ **فى القصَاصِ حَياةٌ** ﴾ مفهومٌ من أول وهْلَة.

الخامسَ عشرَ: أنَّ الآيَةَ رادعةٌ عن القتل والجَرْح معًا لشمول القصاصِ لهما ، والحياةُ أيضًا فى قِصاص الأَعضاء ، لأَن قطْعَ العُضْوِ يُنقِصُ مصلحةَ الحياة ، وقد يَسرِى إلى النفس فيُزِيلُها ، ولا كذلك المَثَل.

هذا بعضُ مااستنبطوه فى بيانِ مافى الآية من مزايا فى المعنى ، وفى النُّطق ، وفى الفصَاحة ، وفى تبادُر المعنى إلى الذهن ، وفى ثراء المعانِى مع قلةِ الألفاظ.

قال أبو السعود: فى قوله: ﴿**وَلَكُمْ فِى القصَاصِ حَياةٌ**﴾ وهو خطابٌ لمريدى القتْل ظلمًا ،قال: وفيها بيانٌ لمحاسنِ الحُكْمِ المذكورِ فى الآية: ﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِى الْقَتْلَى....**﴾ (الآية)[البقرة: ١٧٨] على وجه بديع لاتُنالُ غايتُه حيث جعَل الشئَ وهو القصاصُ مَحلًّا لضدِّه وهو الحياةُ ، ونكَّر الحياةَ ليَدُلَّ على أن فى هذا الجنسِ نوعًا من الحياة عظيمًا لايبلغُه الوصْف ، وذلك لأنهم كانوا يقتُلون الجماعةَ بالواحدِ

فتنتشرُ الفتنةُ بينهم ففى شرْع القصاصِ سلامةٌ من هذا كلِّه.

والمعنى: ولكم فى الحُكم الذى شرَعه اللهُ بقاءٌ وحياةٌ ، لأن الرجلَ إِذا علِمَ أنه يُقْتَلُ قِصاصًا إِذا قَتَلَ آخرَ كفَّ عن القتْل وانزجَر عن التسرُّعِ إِليه والوقوعِ فيه ، فيكونُ ذلك بمنزلة الحياة للنفوس الإنسانية.

ولقد كانت العربُ إِذا قَتَلَ الرجلُ الآخرَ حَمِىَ قبيلاهما ، وتقاتلوا وكان ذلك داعيًا إلى قتل العَدد الكثير ، فلمَّا شرَعَ اللهُ القصاصَ قَنِعَ الكلُّ به وتركوا الاقتتال ، فلهم فى ذلك حياةٌ ، وهذا نوعٌ من البلاغة بليغ ، وجنسٌ من الفصاحة رفيع ، فإِنه جعَل القصاصَ الذى هو موتٌ حياةً باعتبار مايئولُ إِليه من ارتداع الناس عن قتْل بعضِهم بعضًا إِبقاءً على أنفسهم ، واستدامةً لحياتهم ، فكأن الآيةَ تقول لهم : لايَقتُلْ بعضُكم بعضًا ، فالقصاصُ قائمٌ وإِقامتُه مُحَقَّقَةٌ ، وبذلك ينزجِرُ مَن يريد قتْلَ آخرَ مخافةَ أَن يُقْتَصَّ منه فَحَيِيَا بذلك معًا ، عِلْمًا بأنه ليس للناس أن يَقْتَصَّ بعضُهم من بعض ، وإِنما ذلك للسلطان ، أو مَن نَصَبه السلطانُ لذلك وهذا اتفقَ عليه أئمَّةُ الفتوى.

وقد جعل اللهُ عز وجل هذا الحُكمَ موجَّهًا لذوى العقولِ الكاملة وناداهم للتأمل فى حكمةِ القصاصِ من استبقاء الأرواح ، وحفْظ النفوسِ لأنهم هم الذين ينظرون فى العواقب : ﴿**يَاأُولِى الأَلْبابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون**﴾ أى تعملون عمَلَ أهلِ التقوى ، وتَتحامَوْن القَتْلَ بالمحافظة على القصاص والحُكمِ به ، والإِذعانِ له ، فيكونُ ذلك سببًا للتقوى.

والله أعلم..

❋❋❋

من سورة البقرة :

٢٢٦ - لكلِّ أمرٍ بابٌ

قال الله تعالى ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا واتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [١٨٩]

الأهلةُ: جمعُ الهلال ، والهلالُ أولُ مايظهرُ لنا من نور القمرِ إلى ثلاثِ ليالٍ ، وقيل: هو هلالٌ حتى يُبهِرَ بضوئه السماءَ، وذلك ليلةَ سبعٍ وإنما جُمِعَ وهو واحدٌ باعتبار تَعدُّدِ ظهورِه إذْ هو يظهرُ ، فى كل شهر ويُعَبَّرُ بالأهلَّة عن الشهور ، وبها تَرتبِطُ مصالحُ الناس.

والمواقيتُ: جمْعُ الميقات ، وهى معالمُ ، يُوقِّتُ بها الناسُ مَزارِعَهم ومَتاجِرَهم ، ومَحَالَّ دُيونِهم ، وصومَهم ، وفِطْرَهم ، وَعدَدَ نسائِهم وأيامَ حَيْضِهِنَّ ، ومُدَدَ حَمْلِهِنَّ وغيرَ ذلك ، ومعالمُ للحجِّ يُعرَفُ بها وقتُه ، وكلُّ ذلكَ مرتبِطٌ بالشهور القمرية ، وبظهوره فى أولِ الشهرِ هلالًا كالخيْطِ الرفيع ، ومَحاقِه واختفائِه آخرَ يومين فيه.

وسؤالُهم عن الأهِلَّة: إنما كان عن أحوالِ الهلالِ ، فهو يبدو دقيقًا فى أول الشهر ثم يَزِيدُ حتى يَستوِىَ ويستديرَ ، ثم ينتقصُ حتى يعودَ كما كان ، وكذلك كان السؤال عن محاقِه ، وكمالِه، ومخالفتِه للشمس من حيث ظهورُها على حالةٍ واحدةٍ بخلافه.

وقد جاء الجوابُ فى الآية على غيرِ مايَتوقَّعُ أصحابُ السؤال: إذْ كان السؤالُ عن أحوال الهلالِ، وجاء الجوابُ عن الحكمةِ فى هذه الأحوالِ وما فى ذلك من المنافع لهم والرحمةِ بالناس.

﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ والحج﴾ فبيَّنت وجْهَ الحكمةِ فى زيادة القمرِ ونُقصانه ، وهو زوالُ الإشكال ، فى الآجال ، والمعاملاتِ ، والأيمانِ والحجِّ ، والعِدَدِ ، والصومِ والفطرِ ، ومُدةِ الحَمْلِ ، والإجاراتِ والأكريةِ إلى غير ذلك مِن مصالحِ العباد ، وقد خُصَّ الحجُّ بالذكر فى الآية للتنبيه على مزيَّته من حيث أنه يُراعَى فى أَدائه وقضائه الوقتُ المعلوم، وأنه لايجوزُ فيه التأخيرُ عن وقْته ، بخلاف سائرِ العباداتِ التى لايُعتَبرُ فى قضائها وقتٌ مُعَيَّنٌ.

والحاصل: أن الهلالَ يبدو دائمًا ويَظهرُ على حسب مصالحِ الناسِ لقُربه وبُعده من الشمس ، كما هو مبيَّنٌ فى فَنِّ الهيئة ، ثم إِن الشمسَ على حالة واحدةِ ، لأنها ضياءٌ للعالم ، وقِوامٌ لمصالح الناس ، والقمرَ يتغيرُ لأن الله عَلَّق به ما يتصلُ بالمواقيت ، وذلك يُعرَف بهذه الاختلافات، وهذا ما اقتضتْه الحِكمةُ فى نطاق النظامِ الكونىِّ البديع المتَّسقِ غايةَ الاتِّساق ، الذى يَسير بقدرةِ مُدبِّرِه على سَنَنٍ لا يَتخلَّف وفيه من آيات الرحمةِ بالخلْق ما فيه.

ذَكَر ابنُ كثير عن العَوفىِّ عن ابن عباسٍ قال: سأل الناسُ رسولَ الله ﷺ عن الأهلَّة: فنزلت هذه الآيةُ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّة ، قُل هِىَ مَواقيتُ للنَّاس والحَجِّ﴾ يعلمون بها حِلَّ دَيْنِهم ، وَعِدَّةَ نسائِهم ، ووقتَ حَجِّهم ، كما جعلها مواقيتَ لصوم المسلمين وإفطارِهم.

تلك هى المسألةُ الأولى فى هذه الآية ، أمَّا المسألةُ الأُخرى فهى ما يتعلَّقُ بإتيان البيوتِ من ظهورها ، وقد كانوا يظنُّون ذلك من أعمال البرِّ والخير للمُحرِمِ ، وقد اتصل ذِكْرُ هذه المسألةِ بِذِكْرِ مواقيتِ الحجِّ لاتفاق وقوعِ المسألتين فى وقتِ السؤالِ عن الأهلَّةِ وعن دخول البيوتِ من

ظهورها ، وهذا وَجْهٌ من وجوه الربْطِ بين القضيتين وتواليهما فى آيةٍ واحدة ، وكما وَجَّهَت الآيةُ العبادَ إلى إحسان السؤالِ عن الأمور وقَصْدِ التقصِّى عن الحِكمة ، وعمَّا فيه مصلحتُهم ، وما يعودُ عليهم من المنافع فإنها بيَّنت لهم أنَّه ليس من الحِكمة فى شىء إتيانُ المُحرِمِ أو غيرِه البيوتَ من ظهورها ، وقَصْدُ المَشقَّة والتشديدِ على النفس بما لم يَشرَعْه الله

﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾

جاء عند البخارى عن البراء قال: كانوا إذا أحرموا فى الجاهلية أتَوا البيتَ من ظهره فأنزل الله الآية.

والبِرُّ: اسمٌ جامعٌ للخير ، والمقصودُ ما فيه قُرْبَةٌ إلى الله.

ومن أسباب نزولِها أيضًا ما رواه أبو داود عن البراء: كانت الأنصارُ إذا قَدِموا من سفَرَ لم يدخل الرجلُ مِن قِبَل بابِه.

وقال محمد بنُ كعب: كان الرجل إذا اعتكف لم يدخل منزلَه من باب البيت ، وقال عطاء بنُ رباح: كان أهلُ يثربَ إذا رجعوا من عيدهم دخلُوا منازلَهم من ظهورها ، ويَرَون أن ذلك أدنى إلى البرِّ.

ولقد كان الناسُ فى الجاهلية وفى أول الإسلامِ يظنُّون أنه لابدَّ فى الإحرامِ من تغييرِ جميعِ العادات ، فيغيِّرون عاداتِهم فى الدخول إلى المنازل كما غيَّروها فى اللباس والتطيُّب ، وقالوا: لا ندخلُ بيوتًا من الأبواب حتى ندخلَ بيتَ الله تعالى ، وكان منهم مَن لا يَستظلُّ بسقْفٍ بعد إحرامه ، وهذه أشياءُ وضعوها من عند أنفسهم ، من غير شرْعٍ فَعرَّفهم اللهُ تعالى أن هذا التشديدَ ليس برًّا ولا قُرْبَةً ، وقيل لهم: ليس البِرُّ بتحرُّجِكم من دخول البابِ ، لكنَّ البِرَّ هو بِرُّ مَن اتَّقى ما حَرَّمَ الله، ولم يَبتدِعْ فى دينه ما ليس منه.

ثم أكَّدت الآيةُ بُطلانَ هذه العادةِ ، وعدمَ اتساقها مع مقاصدِ الشرع فأمر سبحانه بدخول البيوتِ من أبوابها ، فقال: ﴿وَأْتُوا البُيُوتَ مِن أَبْوابِهَا﴾ وبيَّنت الآيةُ أن الإخلاص هو روحُ العمل ، وأن مَناطَ البرِّ فى تقوى اللهِ ومراقبتِه والقيامِ بما أمر اللهُ به ، واجتنابِ ما نَهى عنه ، ففى ذلك الفلاحُ والفوز: ﴿وَٱتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُم تُفْلِحُونَ﴾.

من المقاصد:

وفى الآية الكريمةِ تربيةٌ عظيمةٌ للنفوس ، وتدريبٌ للعقل ، وإرشادٌ إلى توخِّى المقاصدِ الصحيحة ، والقصْدِ إلى الأمور من وجوهها التى لا تُبَاشَرُ إلَّا منها ، وتَحَرِّى الأسبابِ المُعِينةِ على الوصول إلى الغاية من أَقرب طريقٍ ، وبأيسرِ جُهْدٍ ممكن.

وفى سياق هذا التوجيهِ لإتيان الأمورِ من مظانِّها وأبوابِها يقول أبوعبيدة: الآيةُ ضَرْبُ مثَلٍ ، والمعنى: ليس البرُّ أن تَسْأَلوا الجُهالَ ولكنِ اتقوا اللهَ واسألوا العلماء ، فهذا كما تقول: أتيتُ الأمرَ من بابه.

وقال بعضُهم: ذَكَرَ اللهُ إتيان البيوتِ من أبوابها مثَلًا ليُشِيرَ به إلى أنْ يأتِيَ العبدُ الأمورَ من مَأْتاها الذى نَدبنا اللهُ تعالى إليه.

فالآيةُ خرَجَتْ مَخْرَجَ التنبيهِ من الله تعالى على أن يأتِيَ العبادُ البرَّ من وَجْهه ، وهو الوجْهُ الذى أَمر اللهُ تعالى به.

وفى هذا ذَمٌّ للتعطيل ، وتركِ القُرباتِ والفرائضِ ، وتقبيحٌ للابتداع ولعدم تحرِّى مقاصدِ الشريعةِ وأوامرِها ، وتبشيعٌ للفكر المُلتوى المعكوسِ الذى يأتى بما يُخالِفُ الدينَ الحقَّ ، أو يحاولُ إبطالَ الحقِّ وإحقاقَ الباطلِ قَصْدَ التشويشِ والصدِّ عن سبيل الله ، وردِّ الناسِ عن الاستقامة فى العقائدِ أو الأعمالِ أو المسالكِ والتَّوجُّهاتِ.

فهو مَثَلٌ يُضربُ فى كل حالةٍ نحتاجُ فيها إِلى التذكير والتوجيهِ والتنبيهِ إِلى مباشَرةِ الأمور من وجهها المناسبِ ، ووضعِها فى مواضعِها الصحيحة ، وإِلى الإِتيانِ بالأعمال على النحو المناسبِ بلا خَلَلٍ ولا نُقصانٍ ولا عكسِ المُرادِ سواءٌ فيما يتعلق بالعبادات ، أو المَصالحِ ، وحلِّ المُشكِلِ من الأمور ونحوِ ذلك.

إِنه مثَلٌ يجعلُ الأمرَ المذمومَ ، أو القصدَ الخَبيثَ كأنه قصةٌ ماثلةٌ للعِيان نَرى صاحبَها يتركُ بابَ الدار ويتسلقُ الجِدار ، أو يَنْقُبُ نَقْبًا فى ظَهْر بيتِه ويدخلُ منه ، فهو فى سفاهةٍ ، وتعَبٍ ، ومَشقةٍ ، يحتارُ أهلُ الحِكمةِ فى أمره ويتعجَّبون منه ، وهو يَزيدُهم تحيُّرًا بسوء تدبيرِه وفسادِ تفكيره.

سؤال:

قال صاحب البرهانِ فى علوم القرآن: قد يقال: أىُّ رابطٍ بين أَحكامِ الأهلَّةِ وحُكمِ إِتيان البيوت؟ والجوابُ من وجوه:

أحدها: كأنه قيل لهم عند سؤالهم عن الحكمة فى تمام الأهلَّة ونقصانِها: معلومٌ أن كلَّ ما يفعَلُه اللهُ فيه حِكمةٌ ظاهرة ، ومصلحةٌ لعباده، فَدعُوا السؤال عنه ، وانظُروا فى واحدة تفعلُونها أنتم ، مما ليس من البِرِّ فى شىء وأنتم تحسبونها بِرًّا ، أى إِن إِتيانكم البيوتَ من ظُهورها يَخلُو من أى وجْهٍ للحكمة.

والثانى: تنبيهُهم إِلى ما كان ينبغى لهم من السؤال عن حالهم هذا وهو الإِتيانُ من ظُهور البيوت والأَخبِية ، وتَركُهم السؤالَ عن الأهلَّة وأحوالِها ، ونظيرُ هذا الاستطرادِ فى الزيادة على الجواب قولُه ﷺ لَمَّا سُئل عن المتوضِّئ بماءِ البحرِ فقال: «هو الطَّهُورُ ماؤُه الحِلُّ مَيْتتُه» وهو استطرادٌ لفائدة[1] . [والحديث رواه أبو هريرة وأخرجه ابن ماجة]

---

(١) بتلخيص وتَصرُّف قليل.

ثم قال: أو أنه من قَبيل التمثيلِ لِمَا هم عليه: مِن تعكيسهم فى سؤالهم ، وأنَّ مثَلَهُم كمثَل من يَتركُ بابًا ، ويدخلُ من ظَهْر البيت فقيل لهم: ليس البِرُّ ما أنتم عليه من تعكيس الأسئلةِ ، ولكنَّ البِرَّ من اتقى ذلك ، ثم قال: ﴿وَأْتُوا البُيُوتَ مِن أَبْوَابِها﴾ أى: باشِروا الأمورَ من وجوهها التى يجبُ أن تُباشَرَ عليها ، ولا تعكِسوا.

والمراد: أن يُصمِّمَ القلبُ على أنَّ جميعَ أفعالِ اللهِ حِكمةٌ منه ، وأنَّه: ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٣]

فإن فى السؤال اتهامًا[1].

ومِثْلُ هذا الجوابِ سبَقه به صاحبُ الكشَّاف قائلاً فى تفسير المثَل: والمعنى: ليس البرُّ وما ينبغى أن تكونوا عليه بأن تَعكسوا فى مسائلكم ولكنَّ البِرَّ برُّ مَن اتقى ذلك وتجنَّبه ، ولم يَجْسر على مثْله ، ثم قال: ﴿وَأْتُوا البُيُوتَ مِن أَبْوابها﴾ أى: وباشِروا الأمورَ من وجوهها - الصحيحة - التى يَجِبُ أن تُباشَرَ عليها ، ولا تَعكسوا.

والمرادُ: وجوبُ توطينِ النفوس ، وربْطِ القلوب على أنَّ جميعَ أفعالِ اللهِ حكمةٌ وصوابٌ من غير اختلاجِ شُبهةٍ ، ولا اعتراضِ شكٍّ فى ذلك حتى لا يُسألَ عنه ، لما فى السؤال من الاتهام بمقارفة الشكِّ: ﴿لا يُسْأَلُ عمَّا يَفْعَلُ وَهُم يُسْأَلون﴾.

ومن الحكم المستفادة:

أَلَا تَرى: أننا فى كثير من الأحيان ، وإزاءَ كثيرٍ من تصرفاتنا وأفعالنا نحتاجُ فى مجالِ الإرشادِ ، والتوجيهِ لتسديد الخُطا ، والحثِّ على تصحيح المسلكِ والعملِ إلى التمثيل بقولنا: ﴿وَلَيْسَ البِرُّ بِأَن تَأْتُوا

---

[1] أى: قد يُتَهَمُ السائلُ بمقارفة الشكِّ.

ٱلبيُوتَ مِن ظُهورِها﴾ أو بقولنا: ﴿وَأْتُوا البيُوتَ مِن أَبْوابِها﴾ هذا وللمتدبر فى الآية الكريمةِ كثيرٌ من الحِكَم والعبَرِ منها: أنَّ ما لم يشرعْه اللهُ قُربة ، ولا نَدَبَ إليه لا يَصيرُ قُربة بأنْ يَتَقَرَّبَ له به مُتقرِّبٌ، إِذْ كلُّ ما له نظيرٌ فى الفرائض والسُّنَنِ يجوزُ أن يكونَ قُربة ، وإِن لم يكن فليس ببِرٍّ ولا قُربة.

وتوضيحُ ذلك نعلمُه من قول النبىﷺ لأنصارىٍّ شدَّد على نفسه بأن نذَر أن يقومَ ولا يقعدَ ، ولا يستظلَّ ، ولا يتكلمَ ، ويصومَ فقال: «مُروه فَلْيتكلمْ ، ولْيَستظِلَّ ، ولْيقعُدْ ، ولْيتمَّ صومَه» فأبطلﷺ ما كان غيرَ قُربةٍ ممَّا لا أَصْل له فى الشرع ، أى ليس من جنس فريضةٍ ، وصَحَّح ما كان قُربةً مِمَّا له نظيرٌ فى الفرائض والسُّنَنِ ، وهو الصومُ فأمره بإتمامه. (*) «والله أعلم»

❊ ❊ ❊

(*) التقرُّب إلى الله بالنوافل بعد أداء الفرائض يَزيدُ العبدَ المخلصَ من الله قُربًا ، ويرفعُه فى سُلَّم الولاية لله عز وجل ، والنافلةُ تكون من جنس الفريضة: كالصدقة ، وصوم التطوع وحجِّ التطوع وعمرةِ التطوع بعد أداء الفرائض وعمرة الاسلام كما أن شَغْلَ القَلْبِ واللسانِ بذكر الله عزوجل مأمورٌ به فى الكتاب والسنة والذكر من أعمال الصلاة والحج.
أمَّا التشديدُ على النفس على غير مقتضىٰ الكتابِ والسنَّة فليس بشىء مُعْتَبَر وليس لصاحبه إلا حملُ أوزاره ، مثل: قصد الجلوس فى الشمس ساعة الظهيرة ، وصوم الدهر أو وصال الصوم ، وقصد الحجِّ ماشيًا صائمًا لمسافات فيها مشقة أو تحريم ما أحلَّ الله للمشقة على النفس كهجر الزوجات فى المضاجع لقصد الانقطاع للعبادة أو الامتناع عن الزواج بقصد الرهبنة ، ونحو ذلك من البدع التى ليست على هداية من كتاب ولا سنة. والله أعلم

(١٤٩٤)

٢٢٧ - وَجَازَةٌ(*) إِعْرَابِيَّةٌ وتَمْثِيلُ الحقِّ بالصِّراط

الاستعاذةُ:

أَمَرَنا اللهُ عزَّ وجلَّ عند إِرادةِ قراءةِ القرآنِ العظيمِ بالاستعاذة من الشيطان فقال من سورة النحل: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [الآية: ٩٨]

أى: فاسأل اللهَ أن يُعيذَكَ من وساوسه، لِئَلَّا يُوَسْوِسَكَ فى القراءة والصيغةُ التى علَّمها الرسولُ ﷺ لابن مسعود هى: «أعوذُ بالله من الشيطان الرجيم» والعَوْذُ هو الالتجاءُ والاعتصامُ والاستجارةُ، وأعوذ: فعلٌ مضارعٌ مرفوعٌ بالضمة الظاهرة على آخره لخُلوِّه من الناصب والجازم، وفاعلُه ضميرٌ مستترٌ فيه وجوبًا تقديرُه: أنا، و «بالله» جارٌّ ومجرورٌ متعلق به، و: «من الشيطان» جارٌّ ومجرور بالكسرة[1] والرجيمِ: نعْتٌ للشيطان مجرورٌ بالكسرة الظاهرة، وهو فَعِيلٌ بمعنى مفعول أى المرجُوم بالطرْد واللعْنِ، أو بمعنى فاعل: أى يَرْجُمُ غيرَه بالإِغواء.

التبرك بالبسملة :

وكما يلجأُ المؤمنُ إِلى الله مستعيذًا به من وساوس الشيطان، فإِنه

(*) الوجازة بفتح أوله من وجُزَ بضم وسطه يوجُز من باب كرُم يكرُم بضم وسطه فيهما تقول: وجز وجازة فهو وجيز ووجز، أى اختصر كلامه وقصر فى بلاغه.

(١) متعلق بمحذوف حال من الفاعل «أى حال كون استعاذتى كائنةً من الشيطان»

يتبركُ بالبسملة عند بدايةِ العملِ أو القراءةِ ، ففيها نورٌ وهدايةٌ وفيها حُسنُ توكُّلٍ عليه: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

والجارُّ والمجرورُ «بِسْمِ» متعلقٌ بالكون والاستقرار ، وهو خبرٌ لمبتدأ محذوف ، والتقديرُ: كائنٌ أو مستقرٌّ باسم اللهِ ابتدائى ، أو المحذوف فِعْلٌ والجارُّ والمجرور متعلِّق به ، والتقدير: بسم الله أَقرأُ أو ابتدأتُ أو أَبدأُ ، ولفظُ الجلالة مضافٌ إلى «اسم» مجرورٌ بالكسرة الظاهرة و«الرَّحمنِ» صفتُة مجرورةٌ بالكسرة ، و«الرَّحِيمِ» صِفَتُة أيضًا مجرورة وهما من صِيغ المبالغة مُشتقَّتان من الرحمَة إلا أنَّ فَعْلان «الرحمن» أبلغُ من فَعِيل «الرحيم»[1].

سورة الحمْد:

وسورةُ الحمْد هى فاتحةُ الكتاب ، الشافيةُ ، الكافيةُ ، وهى أمُّ القرآن تضمَّنت مقاصدَه ، وهى : الإِقرارُ بالألوهية ، والنبوةِ ، والمعادِ وإثباتُ القضاءِ والقدَر لله تعالى ، ففى حمْده وحده دليلُ الألوهية ، لأنه ربُّ العالمين: مالكُهم ومربِّيهم بنعمه ، ومُمِدُّهم بسائر أسبابِ بقاءِ وجودهم والمتفضلُ على الإِنسان بنعمة العقل ، وإِرسالِ الرسل ، وإنزالِ الكُتبِ لتطهير باطنه ، وتربيةِ نفسِه ، وتزكيةِ قلبه ، والمتفضلُ بترتيب غذائه فى النبات بحبُوبه وثماره ، وفى الحيوان بلحُومه وشحومه، وفى الأراضى بأشجاره وأنهارِه ، وفى الأفلاك بكواكبه وأنواره ، فهو سبحانه المستحقُّ لجميع المحامد ، نحمدُه باللسان ، ونحمدُه بالجوارح عبادةً للحق

---

(١) ومن صيَغ المبالغة: فَعُول مثل شكُور ، وفَعَّال مثل غفَّار ، وفاعُول: فاروق ، ومَفعَال: مضرَاب ، وفَعِلٌ: سَمِعٌ ، وأفعالها ثلاثية ، وقد يأتي فعَّال ومفعَال وفَعُول للمبالغَة من مُفْعِل وفعْله أَفعل الثلاثى المزيد بحرف مثل: مِعْوان من أعانَ ، ومثله مِعطاء ودرَّاك وحسَّاس، وزهُوق.

سبحانه وانقيادًا لأمره: ونحمدُه على كل حال، فهو الرحمن الرحيم.

وفى ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ دليلُ المعاد، وفى ذلك اليوم لا يُنازِعُه سبحانه أحدٌ فى مُلكه، ولا يكون مالكٌ ولا قاضٍ ولا مجازٍ غيرَه سبحانه لا إلهَ إلّا هو، والدِّينُ: هو الجزاءُ على الأعمال والحسابُ بها.

وفى تخصيصه سبحانه بالعبادة وإفراده بها، وقَصْرِ الاستعانةِ والتوكُّلِ عليه وحده إثباتُ أنَّ الكُلَّ بقضاء اللهِ تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ * وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وفى طلَب الهدايةِ منه والمعونةِ على الثبات على دينِ الإسلامِ إقرارٌ بالعبودية له وحده، وألَّا مشاركَ له فى مُلكه، وبيانٌ للنبوة وأنها الصراطُ المستقيم الذى لا يَضِلُّ سالكُه، ولا يَهتدى تاركُه، وهو صراطُ وطريقُ الأنبياءِ والمقرَّبين والأبرارِ المُنْعَمِ عليهم: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ وضدُّه طريقُ المطرودين من رحمة اللهِ والشاردين عن هداية الدين من المشركين والمُثلِّثين والمُلحدين والجاهلين بالله، وإنهُ لَيَتَبَرَّأُ من طريقهم أهلُ العقلِ والحكمة ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

الإعراب:

وفى قوله سبحانه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ تعليمٌ للعباد، فهو سبحانه أهلٌ للحمد، وكما قال نبيُّناﷺ مُظهِرًا العجْزَ عن الوفاء بحقِّ المُنعِمِ سبحانه: «لا أُحصِى ثناءً عليك، أنتَ كما أثنيتَ على نفسك».

و: الحمدُ: مبتدأٌ مرفوعٌ بالابتداء وعلامةُ رفعه الضمةُ الظاهرةُ على آخره، والجارُّ والمجرورُ «للَّه» متعلقٌ بمحذوف خَبر المبتدأ، أى: الحمدُ واجبٌ أو ثابتٌ لله، «ربِّ» : نعتٌ مجرورٌ بالكسرة، وهو مصدر : ربَّ يَرُبُّ فهو رَابٌّ، ثم جُعِل «رَبُّ» صفةً للفاعل مِثل عَدْل بمعنى:

عادِل ، و«العَالَمِين» مضافٌ إليه مجرورٌ بالياء نيابة عن الكسرة، لأنه جمع تصحيح ، «والرحمن» نعت مجرور بالكسرة و: «الرَّحِيم» : نعتٌ مجرور.

«مَالِك» : بدلٌ من لفظ الجلالة مجرورٌ بالكسرة ، وفى الكلام حذْفُ مفعولِ اسمِ الفاعلِ والتقدير: مالكِ أمرَ يومِ الدين ، أو مالكِ يومِ الدينِ الأمرَ ، وأعربَه بعضُهم[1] صفةً مجرورةً ، ومَن قرأ «مَلِكِ يَوْمِ الدِّين» فيكونُ جرُّه على الصفة أو البدلِ من «الله» ، ولا حذْفَ فيه على هذا.

«يَوْمِ» مُضاف إليه مجرور ، و «الدِّين» مضافٌ إلى يومِ مجرورٌ بالكسرة ـ أيضًا ـ.

«إِيَّاكَ نَعْبُدُ» : إِيَّا : مفعولٌ به مُقدَّمٌ فى محلٍّ نصْبٍ والكافُ حَرْفُ خطابٍ لا مَحلَّ له ، و «نَعْبُدُ» : فعلٌ مُضارعٌ مرفوعٌ ، وفاعلُه ضميرٌ مستترٌ فيه وجوبًا تقديرُه: نحن ، وَقِسْ **«إِيَّاكَ نَسْتَعِين»** عليه.

وتقديمُ المفعول هُنا يُفيد الاختصاص ، أى: نَخصُّك بالعبادة لا نعبدُ غيرَك ، والعبادةُ: غايةُ الخضوع والتذلُّل ، وفى قَصْر العبادةِ عليه وحده سبحانه إِقرارٌ بتوحيد الأُلوهيَّةِ ، وأنه لا يجوزُ جعْلُ شىءٍ من العبادة لغيره سبحانه بأىِّ حالٍ لأن العبادةَ نهايةُ التعظيم فلا تَليقُ إِلَّا بالمُنعِمِ بالخَلْقِ والإِيجادِ وأسبابِ الحياة سبحانه ، كما لا يجوزُ التوكُّلُ إِلا عليه

---

(١) وذلك ناشئٌ من الخلاف فى : هل الإضافةُ معنويةٌ أو لفظية ، والمعنويةُ هى المَحْضَة وتُكسِبُ اسمَ الفاعلِ (مالك) التعريفَ لإضافته إلى مَعرفة ، **إذا أريد به معنى الثبوت والدوام فى الماضى والحاضر والمستقبل ، أما إذا أريد باسم الفاعل الحالُ أو الاستقبالُ فلا يكتسب التعريف** ويَظل نكرة فلا يكون نعتًا للمعرفة قبْله (لأن المعرفة لا توصف بالنكرة) وإلى الإعراب الثانى يَميل العكبُرى (*)، والأول اختيارُ الزمخشرى.

(*) العكبرى صاحب كتاب «إعراب القرآن» وهو كتاب عظيم القيمة ، ويُنصَحُ طلابُ العِلْم بالعناية به.

والاستعانةُ إلا به. والمعنى : وما نَستعين إلَّا بك ، فقد قُصِرَ الفعْلُ فى الآية على المفعول المقدَّمِ ، وقد كُرِّرت «إيَّاكَ» للتنصيص على اختصاصه تعالى بالاستعانة أيضًا ، والاستعانةُ طلَبُ العوْنِ ، أى: نَطلُب العوْن على عبادتك ، أو على محاربة الشيطانِ المانعِ من عبادتِك ، أو فى أُمورنا بما يُصلحُنا فى دنيانا ، وديننا ، فالعاقلُ البصيرُ ، لا يعبدُ غيرَ اللهِ ولا يسألُ حاجةً إلَّا من الله ، ويتوكَّلُ عليه وحده ، فى جميع أمورِه ويستغيثُ به وحده فى شدائده.

ومن الاستعانة أن نطلبَ من الرب وحده الهدايةَ والتوفيقَ للدين الحقِّ والثباتَ عليه حتى نلقى اللهَ على اليقينِ الصادقِ والعملِ الصالح ، فَبَعْدَ إظهارِ التوحيد وطلبِ العونِ على أداءِ حقوقِه ، يأتى السؤالُ والدعاءُ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ و ﴿الصِّراط الْمستقيم﴾ استعارةٌ يعبَّر بها عن مِلَّةِ الإسلامِ والدِّينِ الحق ، تشبيهًا لوسيلةِ المقصودِ بوسيلةِ الـمَقْصِد.

والصراطُ معناه : الطريقُ وأصلُها: السِّراطُ بالسين من الاستراط بمعنى الابتلاع ، لأنه من سَرَطَ الشىءَ إذا بَلَعَه ، وسُمِّىَ الطريقُ سراطًا لجَرَيَان الناسِ فيه كجرَيَانِ الشىءِ الـمُبْتَلَعِ ، فكأنَّ الطريقَ يَسْتَرِطُ مَن يَسْلكُه ، أو كأنَّ السالكين يَسترِطُون الطريقَ أى يَقطعُونَها ، ثم نُقِل مِن هذا المعنى الحسىِّ إلى الأمرِ المعنوىِّ على سبيلِ تمثيلٍ: الدِّينِ الحقِّ ، أو القرآنِ ، أو الحقِّ ، أو الإسلام ، أو تمثيل الـمُتابَعةِ لرسول الله ، وكلُّها صحيحةٌ ولا منافاةَ بينها ـ تَمثيل ذلك ـ بالطريق، وَوُصِفَ بالمستقيم لبيانِ أنَّه لا اعوجاجَ فيه ولا انحرافَ ، فالدينُ الحقُّ وَسَطٌ بين طرفَى الإفراط والتفريط.

وقد علَّمتنا السورةُ الكريمةُ أنْ نطلُبَ من الله دومًا أن يَهدِيَنا ويُرشِدَنا إلى دينه ويُثبِّتَنا عليه ، وأن يحفظَنا من الاعوجاج والانحرافِ والتفريطِ ، والإفراطِ.

فمَن قرأ الصراطَ بالسين جاء به على الأصل ، ومن قرأه بالصاد فهو من قَلْب السينِ صَادًا لِتُجَانِسَ الطاءَ فى الإطباق ، والسينُ تشاركُ الصادَ فى الصَّفِير والهَمْس ، فلمَّا شاركت الصادَ فى ذلك قَرُبت منها ، لذا كانت مُقاربتُها لها مُجَوِّزةً قَلْبَها إليها لِتُجَانِسَ الطاءَ فى الإطباق.

قال الراغبُ: سُمِّىَ بالسراط بناءً على توهُّم أنّه يَبتلِعُ سَالكَه ، أو يَبتلِعُه سالكُه ، يقال: أكلتْه المفازةُ إذا أَضْمَرتْه أو أهْلَكتْه ، وأَكَلَ المَفازةَ إذا قطَعها ، وكذلك سُمِّى باللَّقمِ لأنه يَلتقِمُهم أو يَلتقِمُونه وهذا كلُّه على سبيل التمثيل.

نَقل ابنُ كثير عن ابن جَرير قولَه: أجمعت الأمةُ من أهل التأويلِ جميعًا على أن ﴿الصِّراطَ المسْتَقيمَ﴾ هو الطريقُ الواضحُ الذى لا اعوجاجَ فيه ، وهو كذلك فى لُغة جميعِ العرب.

قال: ثم تَستعير العربُ الصراطَ فتستعملُه فى كل قولٍ وعملٍ وُصِفَ باستقامةٍ أو اعوجاجٍ ، فَتصِفُ المستقيمَ باستقامته ، والمُعوجَّ باعوجاجه.

وقد جاء تمثيلُ الإسلام بالصراطِ المستقيمِ فى الحديث الذى رواه الإمامُ أحمدُ فى مُسنده عن النوَّاس بنِ سمعان أن رسولَ اللهﷺ قال: «ضَرَبَ اللهُ مثَلًا صراطًا مستقيمًا ، وعلى جَنَبَتى الصراطِ سُوران فيهما أبوابٌ مُفتَّحَةٌ ، وعلى الأبواب ستورٌ مُرخَاةٌ ، وعلى باب الصراطِ داعٍ يقول: ياأيُّها الناسُ ، ادخُلوا الصراطَ جميعًا ، ولا تَعُوجُوا ، وداعٍ يدعو مِن

فوق الصراطِ ، فإذا أراد الإنسانُ أن يَفْتحَ شيئًا من تلك الأبواب ، قال: وَيحْكَ لا تَفتحهْ ، فإنك إن فتحتَه تَلِجه ، فالصراطُ: الإسلامُ والسوران: حدودُ الله ، والأبوابُ المفتَّحةُ: مَحارِمُ الله ، وذلك الداعى على رأسِ الصراط: كتابُ الله ، والداعى فوقَ الصراط: واعظُ اللهِ فى قلْب كلٍّ مسلم».

رواه ابنُ أبى حاتم وابنُ جرير من حديث الليث ابن سعد ، ورواه الترمذى والنسائى عن النواس ابن سمعان قالوا: وهو إسناد حسَن صحيح.

فتأملْ تمثيلَ الإسلامِ بالصراط ، وحدودِ اللهِ بالسُّورين ، ومحارمِ اللهِ بالأبواب المفتَّحةِ ، وكتابِ اللهِ بالداعى على رأس الصراط ، وواعظ اللهِ فى قلْبِ المسلِم بالداعى فوقَ الصراط ، وما فيه من تصويرٍ حىٍّ مُجَسَّمٍ مُتكاملٍ جعَلَ الأمرَ أكثرَ وضوحًا ، والمقصودَ أعظمَ تأثيرًا فى النفس.

و«**اهدِنا الصراط**»: فِعْلُ أمرٍ مبنىٌّ على حَذف الياء وفاعلُه ضميرٌ مستترٌ فيه وجوبًا تقديرُه: أنت ، ونا: مفعولٌ أول فى محلِّ نصْب ، والصراطَ: مفعولُه الثانى منصوب ، و المستقيم: صفةُ الصراط منصوبٌ بالفتحة.

وصراطَ - الثانية - بدلُ كلٍّ من كلٍّ من الصراط منصوب و : الذين مضافٌ إليه فى محلِّ جرٍّ ، وجُمْلَةُ «أنعمتَ علَيْهم» لا موضعَ لها من الإعراب صلةُ الموصول ، والهاءُ الضمير فى «عَلَيْهم» فى محلِّ جرٍ عائدٌ على الذين ، والميمُ علامةُ الجمْعِ حرفٌ لا محلَّ له.

و «غَيْرِ» بدلٌ من الذين مجرور بالكسرة[١] ، «**والمغضوبِ**» مضافٌ

(١) ويجوز أن تكونَ بدلًا من الضمير «هم» فى عليهم أو صفة للذين مجرورة.

إليه مجرور و«عَلَيهِم» جارٌّ ومجرورٌ نائبُ فاعلٍ للمغضوب ، لأنه اسمُ مفعولٍ وفعلُه غُضِب المبنىُّ للمجهول ، وهو فعلٌ لازِمٌ ، والتقدير: غيرِ الفريقِ المغضوبِ عليهم.

«وَلَا الضَّآلِّين» الواو حرفُ عطفٍ لا محلَّ له ، ولا: زائدةٌ للتأكيد، والضالين: معطوفٌ على المغضوب ، مجرورٌ وعلامةُ جَرِّه الياء نيابة عن الكسرة لأنه جمع مذكَّر سالم .

والمنعَمُ عليهم هم المؤمنون ، وأُطلِقَ الإِنعامُ ليشملَ كلَّ إِنعامٍ ، لأن مَن أَنْعَمَ اللهُ عليه بنعمة الإسلامِ لم تَبْقَ نعمةٌ إلا أصابتْه ، واشتملتْ عليه ، وهم الأنبياءُ ، والصدِّيقون ، والشهداءُ ، والصالحون.

والمغضوبُ عليهم: هم العصاةُ ، والضالُّون: هم الجاهِلون بالله لأن المُنْعَمَ عليهم هم الجامِعُون بين العِلْم والعَمل ، فكان المقابِلُ لهم من اختلتْ إحدى قُوَّتيه: العاقلة أو العالمَةِ ، والمُخِلُّ بالعمل فاسقٌ مغضوبٌ عليه ، والمُخِلُّ بالعِلَم جاهلٌ ضالٌّ.

فاللهم ثَبِّتنا على صراطك المستقيم.

إِن سورةَ الفاتحة مكيةٌ مدنيةٌ نزلت مرتين ، وآياتُها سبعٌ ، وكلماتُها خمسٌ وعشرون ، وحروفُها مائةٌ وثلاثةٌ وعشرون.

آمين:

وكلمة: «آمين» ليست من القرآن ولا من الفاتحة ، وهى اسمُ فِعْلِ أَمْر مَبْنِيٌّ ، بمعنى: استَجِبْ ، وفاعلُه ضميرٌ مستترٌ فيه وجوبًا تقديرُه: أنت.

والله أعلم. والحمد لله رب العالمين .

❊ ❊ ❊

كلمة :

الحمد لله حمدا لا انقطاع له فليس إحسانُه عنّا بمقطوع.

قد منّ الله عزّ وجلّ بإتمام الكتاب الرابع من [أمثال ونماذجَ بشريّة من القرآن العظيم] فى شهر جمادى الآخرة من العام الثانى عشر بعد الأربعمائة والألف من الهجرة النبوية الشريفة (ديسمبر/كانون الأول سنة إحدى وتسعين بعد التسعمائة والألف) فى مدينة جدّة العامرة.

والمؤلف يحمد الله عز وجل أن منّ عليه بهذه النعمة ، وأكمل له هذه المنة ، وأحياه إلى أن يكتب هذه الكلمة شاكرا لأنعم ربه ، حامدًا فضله وإحسانه ، راجيًا عفوه ، ومغفرته ضارعًا إلى المولى العظيم جلّ جلاله ، وعزّ سلطانُه ، كما منّ بإتمام هذا الكتاب أن يُتمّ نعمتَه بقبوله ، وأن يميتنى على دينه الذى رضيه لعباده ، وأن يجعل اللسان لاهجًا دومًا بذكره وتسبيحه وحمده وتهليله وتلاوة كتابه حتى تفارق الروحُ الجسدَ ، وهو على اليقين الصادق ، والعمل الصالح.

وأسأله سبحانه أن يحشرنى فى زمرة أحبابه من أتباع رسوله وأصحابه ، وأن يسقينى من حوض نبيه الكريمﷺ ، وأن يجعل القرآن العظيم نورًا لى فى الدنيا ، ونورا لى على الصراط ، وقائدا إلى جنات النعيم ، وألا يخيب سبحانه أملنا ، فهو الجواد الكريم الذى لا يخيّب من أمّله ، ولا يخْذل مَن انقطع عَمّن سواه وأمّ له ، وقصده وحده فى كل حوائجه.

لقد تم الكتاب الرابع بحمد الله وعونه وحسن توفيقه ، وأسأله سبحانه أن ينفع به العبادَ وأن يكفِّر به من سيّئاتى ، ويرفعَ به الدرجات ، وأن يجعلَه فى ميزان الحسناتِ ، إِنه سميعٌ مجيبُ الدعوات وأسأل الله لسائر الموحِّدين العصمة من كل شر ، والزيادة من كل بِرٍّ وصلى الله وسلم على نبيه ، وأشرف خلقه وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه والحمد لله وحده.

(١٥٠٣)

كشّاف الكتاب الرابع

الرقم	البيان	الصفحة
	تمهيد	٥ (١٠٧٣)
١	سورة الزلزلة:	
	١٦٧ ـ يومئذ تحدث أخبارها	٩ (١٠٧٧)
٢	من سورة الأحزاب:	
	١٦٨ ـ ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه	١٦ (١٠٨٤)
٣	١٦٩ ـ الخالق العظيم يقسم بالبلد الأمين الآمن	٢٢ (١٠٩٠)
٤	سورة الفيل:	
	١٧٠ ـ وصارت قصتهم مثلًا وحفظ الله بيته	٢٨ (١٠٩٦)
٥	من سورة الأحزاب:	
	١٧١ ـ أ ـ قلوب واثقة مطمئنة ونماذج لنفوس شريفة	٣٥ (١١٠٣)
	١٧٢ ـ ب ـ قلوب مريضة	٤١ (١١٠٩)
	١٧٣ ـ ج ـ المعوقون	٤٨ (١١١٦)
٦	فى ظلال سورة البروج:	
	١٧٤ ـ أ ـ سورة البروج تدعونا إلى التفكر	٥٥ (١١٢٣)
	١٧٥ ـ ب ـ وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله	٦١ (١١٢٩)
٧	من سورة الأنعام:	
	١٧٦ ـ أ ـ آداب وتحذيرات	٦٨ (١١٣٦)
	١٧٧ ـ ب ـ قوتان تتنازعان الإنسان وطوبى لمن عصمه ربه	٧٥ (١١٤٣)
	١٧٨ ـ إتقاء الفتن والبدع	٨١ (١١٤٩)
٨	من سورة التوبة:	
	١٧٩ ـ الجود بالنفس أقصى غاية الجود	٨٨ (١١٥٦)

الرقم	البيان	الصفحة
٩	من سورة الأنعام:	
	١٨٠ ـ أ ـ الأحياء والأموات	٩٤ (١١٦٢)
	١٨١ ـ ب ـ صدر المؤمن وصدر الكافر	١٠١ (١١٦٩)
١٠	من سورة الملك:	
	١٨٢ ـ نعم.. لا يستويان	١٠٩ (١١٧٧)
١١	١٨٣ ـ حتى يرجع الدرُّ فى الضرع	١١٦ (١١٨٤)
١٢	من سورة النحل:	
	١٨٤ ـ أ ـ أَجْمَعُ آية في القرآن لخيرٍ يمتثل وشرٍّ يجتنب	١٢٣ (١١٩١)
	١٨٥ ـ ب ـ الوفاء والبِرُّ من خصال أهل الإيمان	١٣٠ (١١٩٨)
١٣	من سورة التوبة:	
	١٨٦ ـ أ ـ مسجد الضرار وأثر النوايا والمقاصد	١٣٧ (١٢٠٥)
	١٨٧ ـ ب ـ إنك لا تجنى من الشوك العنب	١٤٤ (١٢١٢)
١٤	من سورة الإسراء:	
	١٨٨ ـ أ ـ نعوذ بالله من انصراف القلوب عن الهدى	١٥٢ (١٢٢٠)
	١٨٩ ـ ب ـ حوار وإقناع	١٥٩ (١٢٢٧)
١٥	١٩٠ ـ الحزم وعدم الغفلة من خصال المؤمن	١٦٦ (١٢٣٤)
١٦	من سورة غافر:	
	١٩١ ـ أ ـ السعيد من وعظ بغيره	١٧٢ (١٢٤٠)
	١٩٢ ـ ب ـ أنموذج للمؤمن الغيور والداعية الحكيم	١٨٠ (١٢٤٨)
	١٩٣ ـ ج ـ شتان بين ناصح أمين وغاشٍّ لئيم	١٨٧ (١٢٥٥)
	١٩٤ ـ د ـ حجة على الملحدين وعبرة لذوى العقول والفطن	١٩٤ (١٢٦٢)
١٧	١٩٥ ـ أ ـ مثل فى الصبر	٢٠٢ (١٢٧٠)
	١٩٦ ـ ب ـ فاستجيب له	٢٠٨ (١٢٧٦)

الرقم	البيان	الصفحة
	١٩٧ ـ ج ـ من الأمثال النبوية والابتلاء بالخير والشر	٢١٥ (١٢٨٣)
١٨	١٩٨ ـ لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى	٢٢٢ (١٢٩٠)
١٩	من سورة الحج:	
	١٩٩ ـ أ ـ وما هم بسكارى	٢٢٩ (١٢٩٧)
	٢٠٠ ـ ب ـ تنبيه العباد لئلا يغفلوا عن المعاد	٢٣٦ (١٣٠٤)
٢٠	٢٠١ ـ فى ذكر الله عز وجل وآدابه	٢٤٣ (١٣١١)
٢١	٢٠٢ ـ وقولوا للناس حسنا	٢٥٠ (١٣١٨)
٢٢	من سورة «ق»:	
	٢٠٣ ـ أ ـ «قد علمنا ما تنقص الأرض منهم»	٢٥٧ (١٣٢٥)
	٢٠٤ ـ ب ـ «كذلك الخروج»	٢٦٤ (١٣٣٢)
	٢٠٥ ـ ج ـ «ذلك ما كنت منه تحيد»	٢٧١ (١٣٣٩)
٢٣	فى ظلال حديث حذيفة وعمر رضى الله عنهما:	
	٢٠٦ ـ أ ـ دعوها نائمة لا توقظوها	٢٧٩ (١٣٤٧)
	٢٠٧ ـ ب ـ الفتنة العامة كالموج العارم والظلام الدامس	٢٨٦ (١٣٥٤)
	٢٠٨ ـ ج ـ الناس إزاء الفتن فريقان	٢٩٢ (١٣٦٠)
٢٤	٢٠٩ ـ لفتة أدبية فى مواقع التمثيل وتأثيره النفسى	٢٩٧ (١٣٦٥)
٢٥	٢١٠ ـ من جوامع الكلم	٣٠٤ (١٣٧٢)
٢٦	فى ظلال سورة الغاشية:	
	٢١١ ـ أ ـ عاملة ناصبة	٣١٠ (١٣٧٨)
	٢١٢ ـ ب ـ لسعيها راضية	٣١٧ (١٣٨٥)
٢٧	من سورة النحل:	
	٢١٣ ـ أ ـ حِجَاجٌ عقلىٌّ وضرب أمثال	٣٢٤ (١٣٩٢)
	٢١٤ ـ ب ـ نطقت الآيات بالوحدانية فلم التكبر والغرور؟	٣٣٠ (١٣٩٨)
	٢١٥ ـ ج ـ فأتى الله بنيانهم من القواعد	٣٣٧ (١٤٠٥)

الرقم	البيان	الصفحة
٢٨	من سورة القيامة:	
	٢١٦ ـ أ ـ والتفَّت الساقُ بالساق»	٣٤٣ (١٤١١)
٢٩	سؤال وجواب:	
	٢١٧ ـ أ ـ فى التحدى والمعجزة	٣٥٠ (١٤١٨)
	٢١٨ ـ ب ـ ما وجوه إعجاز القرآن؟	٣٥٨ (١٤٢٦)
٣٠	٢١٩ ـ دراسة فى الأمثال «من أعظم علم القرآن»	٣٦٧ (١٤٣٥)
٣١	فى ظلال سورة الجن:	
	٢٢٠ ـ أ ـ نموذج من صالحى الجن وحكمائهم	٣٧٥ (١٤٤٣)
	٢٢١ ـ ب ـ القضايا الكبرى التى تحدّث بها حكماء الجن	٣٨٣ (١٤٥١)
	٢٢٢ ـ ج ـ الإيمان الصحيح يُطهِّر القلب ويصحح الفكر والاتجاه	٣٩١ (١٤٥٩)
	٢٢٣ ـ د ـ «قل إنما أدعو ربى»	٣٩٨ (١٤٦٦)
٣٢	لمحة بلاغية:	
	٢٢٤ ـ أ ـ والظلمُ مردودٌ على مَن ظلم	٤٠٥ (١٤٧٣)
	٢٢٥ ـ ب ـ مِن خواصِّه ﷺ: «أُوتِيتُ جَوامِعَ الكَلِم»	٤١٣ (١٤٨١)
٣٣	من سورة البقرة:	
	٢٢٦ ـ لكل أمر باب	٤٢٠ (١٤٨٨)
٣٤	فى ظلال فاتحة الكتاب:	
	٢٢٧ ـ وَجازة إعرابية وتمثيل الحق بالصراط	٤٢٧ (١٤٩٥)

إيداع رقم ٩٤/٣٤١٢ دولى رقم ٣ - ١٦٧ - ٢٦٠ - ٩٧٧

دار الجيل للطباعة ١٤ قصر اللؤلؤة - الفجالة
جمهورية مصر العربية - تليفون ٩٠٤٣٤٢

بسم الله الرحمن الرحيم

"وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ
وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ"

العنكبوت : ٤٣

* * *

"ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن
من كل مثل لعلهم يتذكرون"

الزمر : ٢٧

للمؤلف

* مرشد الدعاة إلى الله (دراسة وتطبيق).
* رياض الفالحين ومنار السالكين.
* أمثال ونماذج بشرية من القرآن العظيم.
«الكتاب الأول، والثانى، والثالث، والرابع والخامس»
* أخرج كتاب الشكر للإمام ابن أبى الدنيا من علماء القرن الثالث من الهجرة مع زيادات وتعليقات وتعريف بالمؤلف وعصره.
* الكوكب المنير فى أدب النفس وتهذيب الضمير.
* هداية المريد لتحصيل معانى كتاب: «تجريد التوحيد المفيد» للإمام المقريزى (طبعة منقحة ومزيدة).
* الفائق فى الأخلاق والتربية [تنقيح وتلخيص كتاب فضل الله الصمد شرح «الأدب المفرد» للإمام البخارى].
* أذكار ودعوات مباركات.
* إلى البرهان يا أولى الألباب.
* مع القرآن الكريم.
* سليمان الحكيم وبلقيس ملكة سبأ ودروس وعبر من النملة والهدهد.
* يوم الفرقان.
* فى فجر الإسلام «عرض قصصى».
* زاد الأتقياء من وصايا الأنبياء.

رسائل

* كيف نربى ناشئتنا؟
* طوبَىٰ للغرباء.
* المخدرات شرٌّ مستطير.
* من حِكَم التحريم بالرضاع وأحكامه.
* الرجل والمرأة «الحقوق والواجبات».
* أم القرآن «من أحكامها وبركاتها».

تحت الطبع

* الزهور النديّة فى «خصائص وأخلاق خير البرية»: . «تلخيص وتهذيب المقصد الثالث من كتاب المواهب اللَّدنـيَّة بالمنح المحمدية» للإمام القسطلانى.
* فى أنوار سورة الفرقان.